مملكة قطْنة

الأستاذ الدكتور عيد مرعي
قسم التاريخ
جامعة دمشق

قطْنة Qatna مملكة أمورية قامت في منطقة حمص الحالية، وازدهرت مابين ١٨٠٠- ١٦٠٠ ق.م. كان مركزها تل المشرفة الحالي الواقع على بعد نحو ثمانية عشر كيلومتراً شمال شرقي حمص، ومائة وثمانين كيلومتراً شمال شرقي العاصمة السورية دمشق، على حافة هضبة بادية الشام الصخرية الكلسية التي تنحدر نحو حوض نهر العاصي الخصب. من المؤكد أن الصفات الطبيعية للمنطقة كالتربة الخصبة وتوافر المياه، سواء مياه نهر العاصي أو مياه الينابيع والأمطار، قدمت الشروط المناسبة للاستيطان البشري منذ أقدم العصور. يضاف إلى ذلك الموقع الجغرافي بين شمالي سورية ووسطها، وبين ساحل البحر المتوسط ونهر الفرات، الذي جعل قطنة تؤدي دوراً مهماً في حركة التجارة والاتصال ليس فقط بين المناطق السورية المختلفة، بل أيضاً بين الدول والممالك المجاورة لسورية.

بدأ التنقيب في هذا التل الفرنسي روبير دو ميسنيل دو بويسون R.du Mesnil du Boisson في الأعوام ١٩٢٤ و ١٩٢٧ - ١٩٢٩، وذلك عندما كانت سورية خاضعة للانتداب الفرنسي. فكشف عن أجزاءٍ من القصر الملكي العائد للعصر

البرونزي الوسيط (٢٠٠٠-١٥٥٠ ق.م) وعن معبد للإلهة السومرية نينغال Ningal، وعن ثلاث بوابات، وعن قبور على المنحدر الواقع بين المدينة العليا والمدينة السفلى، وعن ثمانية رُقُم مسمارية تأكدت من خلالها المطابقة بين موقع تل المشرفة الحالي ومدينة قطنة القديمة.(١)

وفي العام ١٩٩٤ قامت المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية بالتنقيب في الموقع، لكن لم تكتشف آثاراً مهمة. وفي العام ١٩٩٩ استؤنفت الحفريات من قبل بعثة مشتركة من المديرية العامة للآثار والمتاحف السورية، ومن جامعة أوديني Udine الايطالية، ومن جامعة توبنغن Tübingen الألمانية. وقاد اكتشاف القبور الملكية والألواح المسمارية في العام ٢٠٠٢ إلى حربٍ باردة بين الفريقين الألماني والايطالي. وعثر الفريق الألماني في الثامن من آب من العام ٢٠٠٩ تحت القصر الملكي الذي يعود إلى العصر البرونزي الوسيط على مقبرة عمرها ٣٥٠٠ سنة لم تطلها أيدي لصوص القبور، مليئة بكنوزٍ قديمة مثل الأسلحة وقطع الأثاث ومصاغ ذهبي وأحجار ثمينة وأواني مصنوعة من مواد مختلفة مزينة بالأرجوان، وأختام اسطوانية، ومواد ثمينة أخرى، بلغ عددها أكثر من ألفي قطعة. قاد الفريق الألماني بيتر بفيلزنر P.Pfälzner، والفريق الايطالي دانييل موراندي بوناكوسّي D.Morandi Bonacossi، والفريق السوري ميشيل مقدسي.

يشغل تل المشرفة المربع الشكل مساحة قدرها نحو مائة وعشرة هكتارات، وهو بذلك أكبر التلال الأثرية في وسط سورية من العصر البرونزي الوسيط ، علماً أن الحفريات كشفت عن طبقات أثرية يعود أقدمها إلى نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، وتضم حياً سكنياً ومدفناً ومخزناً للحبوب.

أحيطت المدينة التي نشأت هنا في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، أي في العصر الأموري بسورٍ ضخم يبلغ ارتفاع بعض الأجزاء المتبقية منه نحو عشرين متراً،

ويتراوح عمقه عند قاعدته بين ٦٠- ٨٠ م. وقد بُني من الطين والحجارة غير المشذبة. وكان يوجد أمامه خندق دفاعي. كانت المدينة مربعة الشكل تخترقها أربع بوابات (وربما خمس) تتجه نحو الجهات الأربع، ويبدو أن البوابة الغربية كانت الأهم. وتم وضع منحوتات من الحجر الكلسي والبازلت الأسود أمام البوابات التي نُحتت أساساتها من الصخر. كان عرض المدخل نحو أربعة أمتار، ويقود إلى حجرة بوابة عمقها ثمانية أمتار. ويحرس كل بوابة عدد كبير من الرجال الذين يقيمون في مكان خاص بهم عند البوابة، هو أشبه مايكون بالحصن. يذكر أحد النصوص المكتشفة (K.701) التي تعود إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد كميات الجعة التي كانت توزع على نحو خمسمائة رجل مقسمين إلى مجموعات، أوكلت إليهم مهمة حراسة بوابات المدينة وبعض المباني القريبة منها.(٢)

١- قطْنة في الألف الثالث قبل الميلاد:

تعود أقدم آثار الاستيطان البشري التي تم العثور عليها في تل المشرفة إلى أواخر الألف الرابع قبل الميلاد، وتتألف كما ذكرنا من حي سكني ومدفن ومخزن للحبوب. تزايد الاستيطان البشري في الموقع بدءاً من منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، ونشأت في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد مستوطنة دائرية الشكل شغلت مساحة تتراوح بين ٢٠- ٢٥هكتاراً، وتألفت، بالإضافة إلى المساحة المخصصة لتخزين المنتجات الزراعية، من حي سكني كبير بني على الجزء الشمالي من الهضبة الكلسية الذي سيُبنى عليه في مطلع الألف الثاني القصر الملكي. وكان يوجد جنوب الحي السكني سرداب عُثر فيه على مدافن لنحو أربعين شخصاً ينتمون لأسرة واحدة، يبدو أنها كانت ذات مكانة اجتماعية متميزة.

والدليل على ذلك الأشياء التي عُثر عليها في المدافن والمؤلفة من ثلاثمائة إناء فخاري، وأكثر من مائة تقدمة جنائزية برونزية، كالأسلحة مثلاً. يُضاف إلى ذلك

ممتلكات شخصية مؤلفة من مواد غريبة مصدرها مناطق بعيدة جداً مثل عقودٍ من العقيق الأحمر.

وبناءً على ذلك يمكن القول إن سلطة قوية كانت توجد في قطنة في هذه الفترة تنظم مختلف نواحي الحياة، وتتاجر مع مناطق بعيدة.[٣] من الجدير بالذكر أن مصدر العقيق الأحمر في العصور القديمة كان بعض مناطق إيران وأفغانستان. اللافت للانتباه أن قطْنة لايرد ذكرها في نصوص محفوظات إبلا التي تعود إلى النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد. هناك احتمال أنها كانت تحمل اسماً آخر غير معروف لنا حتى الآن. أما اسم قطْنة فأطلق عليها منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، وهو على مايبدو مشتق من الجذر الثلاثي "قطن" المعروف في معظم لغات المشرق العربي القديم، الذي يعني:

" يكون صغيراً"، والصفة منه في اللغة الأكادية " قطْنو(م) " qatnu(m): رفيع، ضيق، صغير، وكانت تُطلق على الخيوط والمنسوجات وأعضاء الجسم والأشخاص والشوارع والطرق.[٤]

ربما كان لاطلاق اسم "قطْنة" (الصغيرة) على المدينة التي ازدهرت في موقع تل المشرفة في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد علاقة بالمشاريع المائية التي أقيمت في المنطقة والتي أدت إلى تشكل مضيق يبطئ جريان المياه، أدى بدوره إلى تشكل حوض مائي أسهم في تطور المدينة بسرعة، وإلى ازدهار الزراعة وتربية الحيوان.[٥]

٢ – قطْنة في الألف الثاني قبل الميلاد:

كانت قطْنة في القرن الثامن عشر قبل الميلاد عاصمة مملكة مزدهرة تحدثت عنها محفوظات ماري الملكية في الكثير من نصوصها، وذُكرت أيضاً في بعض نصوص ألالاخ. وعُرف من ملوكها اثنان هما إشخي أدد Ishchi-Adad وابنه أموت بيل Amut-piel الذي كان حاكماً لنزالا Nazala (القريتين حالياً) عندما كان ولياً للعهد. وقد أدت دوراً مهماً في المجال التجاري نتيجة وقوعها على طُرق المواصلات التي كانت تربط

منطقة الفرات الأوسط (مملكة ماري) مع مناطق سورية الساحلية (جُبيل) وقبرص وكريت، ومناطق شمالي سورية (حلب) وما بعدها مع مناطقها الجنوبية، بما في ذلك فلسطين، ومن بعدها مصر. وكانت أبرز المواد التجارية القصدير من ماري باتجاه الغرب عبر تدمر، والنحاس من قبرص والأخشاب من لبنان ومنطقة الجبال الساحلية باتجاه الشرق إلى ماري وبابل وآشور.

ونجد صدى لهذا الدور التجاري المهم في تأسيس مركز تجاري معروف فيها (كاروم قطْنة).[٦]

ربما كان إشخي أدد هو الذي أسس السلالة الأمورية التي حكمت قطْنة منذ أواخر القرن التاسع عشر قبل الميلاد. وقد عاصر شمشي أدد الأول ملك آشور (١٨١٥-١٧٨٢ ق.م) القوي،ودخل في تحالفٍ معه ضد سومو إيوخ Sumu-epuch وابنه ياريم ليم Yarim-Lim ملكي مملكة يمحاض (عاصمتها حلب). وتُوِّج ذلك التحالف بزواج "دَمخورازي " Damchurazi،ابنة إشخي أدد من يسماخ أدد Yasmach-Adad، ابن شمشي أدد، حاكم مدينة ماري. أُعطيت دَمخورازي لقب "بيلتوم" (بعلة، سيدة) في ماري، وجلبت معها مهراً مقداره خمس عشرة تالنت من الفضة (نحو ٤٣٠ كغ).[٧]

يخاطب شمشي أدد الأول ابنه في إحدى الرسائل قائلاً:

"أريد أن آخذ لك (أزوجك) ابنة إشخي أدد. السلالة (البيت) الحاكمة في ماري لها اسم كبير، والسلالة (البيت) الحاكمة في قطْنة لها اسم كبير(أيضاً).[٨]

ولكن يبدو أن هذا الزواج، الذي يمكن أن نسميه زواجاً سياسياً، لم يكن ناجحاً. وإدراكاً من شمشي أدد الأول أن الخلاف العائلي مع ملك قطْنة سيؤدي حتماً إلى سوء العلاقات والتحالفات القائمة بينهما، فإنه يخاطب يسماخ أدد في إحدى الرسائل قائلاً:

ألم يسمح الملوك السابقون لنسائهم بالعيش في القصور؟ أما أنت فترغب في أن تجعل ابنة إشخي أدد تقيم في البادية، وسيسمع والدها بالأمر، ولن يرتاح قلبه لذلك. وهذا غير مسموح به إطلاقاً وهناك حجرات كثيرة في قصر النخيل (قصر ماري). يجب أن تختار حجرة لها من بينها، وأن يُسمح لها بالسكن فيها ..... أما في البادية فلا تدعها تقيم مطلقاً".[٩]

كانت دوافع ذلك التحالف قوية لدى الطرفين. فشمشي أدد الأول يريد التوسع غرباً على حساب مملكة يمحاض المسيطرة على شمالي سورية، التي قاومت خططه بشدة، وحاولت التوسع في مناطق تقع شرق نهر الفرات. كما أن قطْنة كانت تشكل قوة مهمة تسيطر على الطريق التجارية الواصلة مابين نهر الفرات في الشرق، والبحر المتوسط في الغرب، وتتحكم في مساحات واسعة من المراعي التي كانت ضرورية لقطعان حاكم ماري من الأغنام. أما إشخي أدد فكان يرجو من وراء تحالفه مع شمشي أدد تأمين سند له ضد محاولات ملوك يمحاض للتوسع جنوباً على حساب مملكته. لاشيء معروف عن نهاية إشخي أدد، لكن من المؤكد أن موقفه ضعف بعد وفاة شمشي أدد، وساءت علاقته مع ابنه وولي عهده إشمي داجان. نعرف ذلك من خلال رسالة من محفوظات ماري الملكية يحتج فيها إشخي أدد على إشمي داجان لإرساله له كمية قليلة من القصدير مقابل حصانين أبيضين أرسلهما إلى إشمي داجان[١٠]. فقد كانت قطْنة مشهورة بتربية هذا النوع من الخيول، والحيوانات عامةً. واشتُهرت أيضاً بصنع عرباتٍ خشبية سريعة ذات دولابين، أرسل عدداً منها ملك قطْنة اللاحق أموت بيل إلى زمري ليم ملك ماري[١١]. اعتلى عرش قطْنة بعد إشخي أدد ابنه أموت بيل الذي تذكره إحدى رسائل أرشيف ماري التي أرسلها المدعو إتور أشدو إلى سيده زمري ليم ملك ماري، أنه أحد ملوك سورية وبلاد الرافدين الأقوياء في القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، ويتبعه خمسة عشر ملكاً. يقول إتور أشدو:

"لايوجد ملكٌ قويٌ وحده. عشرة أو خمسة عشر ملكاً يتبعون حمورابي ملك بابل. كذلك ريم سين ملك لارسا، وكذلك إبال بيل ملك إشنونا، وأيضاً أموت بيل ملك قطْنة، وعشرون ملكاً يتبعون ياريم ليم ملك يمحاض".[١٢]

ويظهر أموت بيل في رسالة ثانية من ماري، واحداً من أربعة ملوك عظام حكموا المنطقة نفسها. وهي رسالة بعثها موظف آخر إلى زمري ليم يقول فيها:"أنه بعد وفاة شمشي أدد لم يبق سوى أربعة ملوك عظام هم: حمورابي ملك بابل، وريم سين ملك لارسا، وأموت بيل ملك قطْنة، وياريم ليم ملك يمحاض".[١٣]

يبدو أن حالة العداوة التي سادت العلاقات بين قطنة ويمحاض في عهد إشخي أدد زالت في عهد أموت بيل. فحمورابي ملك بابل رأى في إحدى الرسائل أن زمري ليم ملك ماري هو الوحيد القادر على حل النزاع القائم بين ياريم ليم الأول ملك يمحاض وأموت بيل ملك قطنة.[١٤] وهناك كسرة لوح تورد الإجابة التي أعطاها ياريم ليم الأول إلى أحد رُسُل زمري ليم:

"أموت بيل ملك قطنة يجب أن يأتي إلى حلب، وسنضع أسس علاقات ممتازة بيني وبينه بعد أن نُقسم يمين الإله ونعقد معاهدة قوية".[١٥]

يتضح من ذلك ادعاء ياريم ليم الأول بالتفوق على ملك قطنة، لكن ذلك لايعني خضوع قطنة ليمحاض.[١٦]

يبدو أن زمري ليم نجح في وساطته بين يمحاض وقطنة، وأنهى حالة العداء التي كانت قائمة بينهما، إذ لاتوجد أدلة على استمرار الصراع بين الطرفين في الفترات اللاحقة. شكلت قطنة في عهد ملكيها القويين إشخي أدد وابنه أموت بيل (القرن ١٨ قبل الميلاد) مملكة قوية سيطرت على مناطق سورية الوسطى (مناطق حمص وحماة). لكن لاتوجد معلومات عن حدودها ومدى اتساعها. كانت قادش (حالياً تل النبي مند) إحدى مدنها المهمة، ويرد في بعض النصوص التي اكتشفت في قطنة ذكر

بحيرة قطينة، بالاضافة إلى قلعة أو مدينة باسم "دور إشخي ادد" (قلعـة إشـخي أدد) على اسم ملكها الأول المعروف من القرن الثامن عشر قبل الميلاد. وشـكّلت تـدمر الموقع الشرقي المتقدم للمملكة، ويرد ذكرها في العديد من نصوص ماري، كما تشير نصوص من مناطق أخرى إلى أهميتها كمحطة على طريـق القوافـل والمـسافرين العابرة لبادية الشام من منطقة الفرات الأوسط إلى قطنة وجُبيل وغيرها.[١٧]

كانت الرحلة من منطقة الفرات (تيرقا = تل عشارة الحالي) إلى قطْنة تستغرق عشرة أيام، كما تشير إلى ذلك إحدى رسائل شمشي أدد إلى ابنه في ماري يسماخ أدد التـي يطلب منه فيها تزويد "قافلة خمر" متجهة من تيرقا إلى قطْنة بالمؤن الكافية لمدة عشرة أيام حتى تستطيع الوصول بسلام إلى هدفها.[١٨] وهذا يعني أنه كان علـى القافلـة أن تجتاز المسافة الفاصلة بين تيرقا وقطْنة، البالغة نحو ٤٠٠ كم، بمعدل نحو ٤٠ كم فـي اليوم. علماً أن حيوان النقل الأساسي في هذه الفترة كان الحمار.

شكّل القصر الملكي مركز المدينة، وقد بُني في الزاوية الشمالية الغربية مـن المدينـة العليا (الأكروبول) على مصطبة نصفها طبيعي، والآخر صـناعي، وترتفـع عـن المنطقة المجاورة لها نحو عشرين متراً. يعدّ هذا القصر أحد أكبر الأبنية المعروفـة من نوعها من العصر البرونزي الوسيط في سورية وفلسطين. شبه في تصميمه قصر ماري المشهور. وكان مقر الحكم والسكن للملك وأسرته، ومركزاً إدارياً للمـوظفين، وتوجد تحت أرضيته قبور الملوك السابقين، وبالتالي فهو أيضاً مركز ممارسة طقوس عبادة الأجداد .وقد شغل مساحة تزيد عن ١٦٠٠ متر مربع (١٥٠× ١١٠م). وعُثـر فيه على العديد من قواعد بازلتية كانت على مايبدو لأعمدة خشبية تحمـل الـسقف.[١٩] وتتميز قاعة الاستقبال (القاعة C) فيه بالضخامة (٣٦×٣٦ م٢)، وكـان يوجـد فـي وسطها أربعة قواعد بازلتية لأعمدة دائرية كبيرة خشبية يصل ارتفاعها إلـى مـابين ١٠-١٢م، كانت تحمل بالتأكيد السقف، ويتم الحصول عليها من جبال لبنان القريبـة.

ونظراً لضخامتها فإنها تعدّ أكبر قاعة قصر معروفة في الشرق القديم من العصور البرونزية ٠فهي أكبر من قاعة القلعة الملكية الموجودة في العاصمة الحثية خاتوشا.

كان يوجد في زاويتها الشمالية الشرقية حجرة صغيرة (الحجرة P) المعروفة باسم معبد "سيدة القصر" Belet ekallim٠ هنا عثر الفرنسي دو ميسنيل دو بويسون على بعض الألواح المسمارية، وعلى تمثال لأبي الهول يحمل اسم الأميرة المصرية "إيتا" Ita، ابنة الفرعون المصري أمنمحات الثاني (١٩١٤- ١٨٧٩/١٨٧٦ ق٠م)٠ ربما كان هذا هدية من الفرعون المصري إلى ملك قطْنة (محفوظ حالياً في متحف اللوفر بباريس)٠

بناءً على هذه المكتشفات يمكن القول أن قاعة الاستقبال كانت المركز السياسي والديني لقصر قطْنة الملكي٠ كان يوجد في الجدار الشرقي من قاعة الاستقبال باب كبير عرضه ستة أمتار يؤدي إلى قاعة العرش (القاعة B) (طولها٤٥ م وعرضها ١٤م)، التي يبدو أن جدرانها كانت مزينة برسوم ملونة. وكان يوجد في طرفها الجنوبي، كما يظهر، العرش الملكي.[٢٠]

إن قاعة العرش هذه هي أكبر بكثير من قاعة عرش مدينة ماري (٢٦× ٧،٧ م)، وإن دل هذا على شيء فإنما على الغنى ووجود سلطة ملكية قوية تحب الظهور بمظهر القوة والعظمة٠

يؤرخ بناء القصر في بدايات الألف الثاني قبل الميلاد، وتم تدميره نحو ١٣٥٠ ق٠م على أيدي الحثيين. ويبدو أنه كان مقراً للملك إشخي أدد، وتم تشييده خلال فترة زمنية واحدة كما تدل على ذلك مواد البناء المستخدمة من آجرٍ ولبنٍ وطينٍ وأخشابٍ. وكان يتألف من طابقين ويضم نحو مائة حجرة مختلفة المساحة والمواصفات. ووصل ارتفاع جدرانه المبنية من اللبن حتى٢٠، ٥ م وتوجد تحتها أساسات ارتفاعها ١٠، ٣م. وعثر المنقبون الألمان الذين كشفوا عن الجناح الغربي من القصر في موسم

الحفريات العاشر في العام ٢٠٠٨ في البئر المجاورة للجناح البالغ عمقها ١٧ م على كميات كبيرة من الأخشاب التي سقطت عند تهدم القصر في العام ١٣٥٠ ق٠م، كان من بينها دعامات سقف طولها خمسة أمتار ووزنها ٨٠٠ كغ. يظهر أن هذه الأخشاب كانت من أرز لبنان.

ومن الاكتشافات المثيرة عظام فيلة كانت موضوعة في غرفتين من غرف القصر لأهداف غير معروفة، وتعود إلى نحو ١٤٠٠ ق م. يعدّ هذا أول اكتشاف لعظام فيلة في سورية، وهو مهم لدراسة تاريخ البيئة الطبيعية في سورية٠ تجري حالياً دراسة العظام من قبل عالمة الحيوان إيمانويلي ڤيلا E.Vila من جامعة ليون الفرنسية بهدف معرفة أصل الفيلة في سورية٠

تاريخياً يمكن ربط هذا الاكتشاف مع تقارير الفراعنة المصريين تحوتموس الأول (نحو ١٥٠٠ ق٠م) وتحوتموس الثالث (نحو ١٤٥٠ ق٠م) عن صيد الفيلة في غربي سورية خلال حملاتهم على شمالي سورية٠ يخبرنا تحوتموس الثالث أنه قتل ١٢٠ فيلاً في بلاد "نيا" الغربية، عندما عاد من نهارينا (منطقة منحنى الفرات)، وعبر النهر العظيم ذي المياه المعكوسة (نهر الفرات أو العاصي)٠ وتتكرر القصة ذاتها في سيرة الجندي المصري أمينيمحب الذاتية التي يذكر فيها أنه قتل الفيلة من أجل أنيابها "قاتل الجندي الشجاع ضد أكبرها، وقطع له يده حياً (خرطومه)٠٠٠ لما كان واقفاً في الماء"٠ ربما كان العدد المذكور مبالغاً فيه، إلا أنه يشير إلى وجود الفيلة في منطقة نيا التي يبدو أنها كانت تقع في منطقة العاصي الأوسط في المناطق القريبة من موقع مدينة أفاميا اللاحقة، حيث كانت توجد مستنقعات وادي الغاب التي جففت في خمسينيات القرن الماضي٠

إن مكتشفات قطْنة من عظام الفيلة تؤكد أن تقارير الفراعنة المصريين بأنهم اصطادوا فيلة في مناطق غربي سورية كانت تستند إلى معطيات واقعية. وربما تمت تربية هذه الحيوانات في منطقة قطْنة.

وتم العثور في العام ٢٠٠٢ في الممر المؤدي من قاعة العرش إلى المدفن الملكي على ثلاثة وسبعين لوحاً مسمارياً تعود إلى عهد الملك إدَندا Idanda (Idadda) غير المعروف سابقاً، والذي يبدو أنه حكم مابين ١٣٥٠/١٣٥٥ – ١٣٢٠ ق.م زمن تحركات الملك الحثي شوبيلوليوما الأول في سورية. يبدو أن هذه الألواح كانت موجودة أصلاً في حجرة عليا فوق الممر، كانت عبارة عن "حجرة للكتابة " أو "مستودع "، وشويت بالنيران التي شبت في المكان نتيجة هجمات الأعداء.

تحوي هذه الألواح معلومات عن الوضع السياسي في شمالي سورية، وعن التهديد الحثي، وعن أمورٍ إدارية في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وكُتبت بخليط من اللغتين الأكادية والحورية غير معروف سابقاً. وتخبرنا العديد من الرسائل الموجهة إلى الملك عن التطورات السياسية والأوضاع العسكرية في سورية في ذلك الوقت. وتذكر تدمير مدن وسقوط مملكة حوري ميتاني في أعالي بلاد الرافدين، كما ذُكر الملك الحثي مرات متعددة في إطار الحديث عن نشاطات سياسية ودبلوماسية.

يتضح من ذلك أنه كان لدى ملوك قطْنة جهاز استخبارات يمدهم بالمعلومات عن الأحداث السياسية والتطورات التي تحدث مباشرة وبسرعة.

وكما أكدّ اللغوي الألماني توماس ريختر Th. Richter، الذي كُلّف بقراءة الألواح المكتشفة، فإن هذه الألواح هي أرشيف ملكي يتألف ليس فقط من رسائل سياسية، بل من وثائق مملكة قطْنة الإدارية، ومن وثائق حقوقية تعالج على سبيل المثال إطلاق سراح العبيد، ومن قوائم بأسماء أشياء كانت تُحفظ في القصر الملكي.[٢١] وثمة وثيقة قانونية ذات أهمية خاصة تعود إلى عهد المدعو أدد نيراري الحاكم السابق لقطْنة قبل

إداندا. وهي تبين بوضوح أن منطقة حكم هذا الملك امتدت بعيـداً باتجـاه الجنـوب الغربي وشملت جزءاً من جبل لبنان. تقول الوثيقة: "أسكن أدد نيراري، الملك، هؤلاء الرجال في توكاد Tukad، كونهم رماة سهام على العربات الحربية.... في بلد آخر لايؤدون خدمة "الخورادو" Huradu (الحراسة). (ولكن) عندما يأتي الملك إلى جبل لبنان يؤدون (هذه) الخدمة".[٢٢]

ومما تجدر الإشارة إليه أن قائمة موجودات Inventar معبد الإلهة نينغال التـي عُثـر على عدة نسخ منها تعدّ أهم نصٍ عثر عليه الفرنسي دو بويـسون خـلال حفرياتـه الأولى. وهي عبارة عن قائمة مؤلفة من عدة مئات من الأسطر تذكر أسـماء أدواتٍ لها علاقة بالطقوس الدينية. وتكمن أهميتها في أنها تذكر أسـماء المتبـرعين بهـذه الأدوات من حكام قطْنة، الأمر الذي يمكّن من معرفة تواريخ حكمهم بشكل متسلـسل. وقد اكتُشفت نسخة جديدة منها في حفريات العام ٢٠٠٣[٢٣]

وهناك قصر ملكي آخر عُثر عليه في المدينـة الـسفلى كـان مبنيـاً علـى طـرف الأكروبول، كُشف منه حتى الآن ٦٥ غرفة، استُخدم خلال الفترة مابين القرن السادس عشر والرابع عشر قبل الميلاد. وكان فيه ثلاث باحات كبيرة على الأقـل، وظيفتهـا ربط أجزاء القصر المختلفة بعضها مع بعض.[٢٤]

واللافت للانتباه العثور في هذا القصر على حمامات ومنشآت صحية مما يـدل علـى تقدم حضاري كبير عرفته سورية في ذلك الزمن.

وثمة قصرٌ ثالث هو القصر الشرقي الذي بُني في أعلى نقطة من الأكروبول، ويعـود إلى العصر البرونزي الوسيط الثاني (١٨٠٠- ١٥٥٠ ق.م). وقـد بُنيـت جدرانـه الضخمة من اللبن، وبعضها بالطين المدكوك، ويصل عرضها حتى ٥، ٣ م ، وطولها حتى ١٨م. وبقيت سليمة حتى ارتفاع مترين، وبُنيت على أساساتٍ حجرية.[٢٥]

لانعرف إلا القليل عن قطنْة بعد توقف محفوظات ماري الملكية عن الحديث عنها بعد تدمير حمورابي لماري في العام ١٧٥٩ ق٠م. فأحد نصوص ألالاخ من الطبقة السابعة مؤرخ بالسنة التي حدث فيها صدامٌ مسلح بين يمحاض وقطنْة في عهد ملك يمحاض ياريم ليم الثالث، وقد انتهى بهزيمة قطنْة.[٢٦] ويتحدث نصٌ آخر عن وجود عمال زراعيين من قطنْة في ألالاخ[٢٧] خضعت قطنْة للإمبراطورية الحورية الميتانية في القرن الخامس عشر قبل الميلاد. لكن كونها موجودة في منطقة تنازعت عليها الإمبراطورية المذكورة مع الإمبراطورية المصرية الحديثة فإنها خضعت للمصريين أحياناً، ونجد لها ذكراً في بعض النقوش المصرية كمنطقة وصلتها جيوش الفراعنة. فهذا تحوتموس الأول (١٥٠٦- ١٤٩٤ق٠م) يذكرها في كتاباته. ويذكر تحوتموس الثالث (١٤٦٨- ١٤٣٦ق٠م) أنه أقام في أرض قطنْة في السنة الثالثة والثلاثين من حكمه. ويقول أمنحوتب الثاني (١٤٣٨- ١٤١٢ ق٠م) ابن تحوتموس الثالث وخليفته أنه "عند عبوره مياه نهر العاصي الهادرة، لاحظ جماعة أتوا من ناحية قطنة خلسة يحاولون الانقضاض عليه، فقصدهم وحيداً، وانقضّ عليهم انقضاض الباشق. فانطلقوا مذعورين ووقع كل منهم فوق رفيقه ومعهم قائدهم، ولكنه لاحقهم ولحقهم وهو وحيد، وفتك بهم أجمعين".[٢٨]ويرد آخر ذكر لقطنْة في نصوصٍ مصرية من عهد رعمسيس الثالث (نحو ١١٨٠ ق٠م).

٣- قطنْة في عصر العمارنة:

أصبحت قطنة في عصر العمارنة مملكة صغيرة تابعة لمصر عُرف من ملوكها المدعو أكيزي Akizzi الذي أرسل عدة رسائل (ضمن رسائل تل العمارنة EA 52-57) إلى الفرعون المصري أمنحوتب الرابع (أخناتون) يعبر فيها عن ولائه له، ويرجو أن يرسل إليه عساكر وعربات لمساعدته في الاستيلاء على منطقة نوخاشي القريبة، وإلقاء القبض على عزيرو حاكم أمورو الذي قام بتوسيع منطقة نفوذه في وسط سورية على حساب النفوذ المصري هناك٠ يقول في إحداها(EA 55):

"قلْ لنمخوريا (أمنحوتب الرابع)، ابن الشمس، سيدي: رسالة أكيزي، عبدك، أجثو عند قدمي سيدي سبعاً وسبعاً. سيدي أنا عبدك في هذا المكان. أبحث عن سبيلٍ إلى سيدي، أنا لن أهجر سيدي. منذ زمنٍ (بعيد) كان أسلافي عبيدك، وكانت هذه البلاد بلادك، وكانت قطنة مدينتك، وأنا أتبع سيدي.
سيدي، عندما تصل عساكر وعربات سيدي إلى هنا، فسيُقدم الطعام والشراب الجيد والثيران والأغنام والماعز والعسل والزيت إلى عساكر وعربات سيدي. انظر هناك وجهاء سيدي، على سيدي أن يسألهم. سيدي، إن كل البلدان في خوف من عساكرك وعرباتك. إذا ما كان سيدي سيحتل هذه البلدان ويضمها إلى بلاده، فليت سيدي يرسل عساكره وعرباته في هذه السنة، وليته يأتي إلى هنا كي تصبح كل بلاد نوخاشي لسيدي. سيدي! إذا خرج العساكر، وأقاموا ستة أيام (في أمورو)، فهم بالتأكيد سيأخذون عزيرو. وإذا لم تخرج عساكر وعربات سيدي في هذه السنة، ولم يقاتلوا عزيرو، فإن البلاد ستخاف منه... أرجو أن يعرف سيدي ذلك ..... لكن الآن ملك خاتي (بلاد الحثيين) أضرم فيها النيران. أخذ ملك خاتي آلهته ورجال قطْنة المقاتلين. سيدي، عزيرو أخذ رجال من قطنة، خدمي، وأبعدهم عن بلاد سيدي وهم يقيمون حالياً بعيدين عن بلاد سيدي. إذا كان ذلك يسر سيدي أرجوه أن يرسل لي المال كفدية لإطلاق سراح رجال قطنة".[٢٩] ويؤكد في رسالة ثانية إخلاصه للفرعون المصري قائلاً: (EA 56, 9-13)
"أنا خادمك، وأنت سيدي، عليك ألا تدعني أخرج من يدك. أنا، من جهتي لن أخرج عن (طاعة) سيدي. فأنا وضعت ثقتي في سيدي، وفي قواته وعرباته".[٣٠]
لكن على الرغم من هذا الولاء والتبعية لمصر فإن أخناتون لم يحرك ساكناً لمساعدة أتباعه في سورية، إذ كان منشغلاً بإصلاحه الديني الداعي إلى عبادة إله واحد هو آتون Atun إله الشمس. وهذا ماشجع الملك الحثي المشهور شوبيلوليوما الأول (١٣٥٥/١٣٥٠-١٣٢٠ق.م) على مهاجمة قطنة في إحدى حملاته المتعددة على

سورية، ونهبها، وإحراقها، وتهجير من بقي من سكانها على قيد الحياة إلى بلاد خاتي (آسيا الصغرى). وقد أدت الحفريات الحديثة التي جرت في موقع قطنة (تل المشرفة) إلى الكشف عن آثار دمار وحريق كبير يمكن أن يُنسب إلى شوبيلوليوما[٣١].

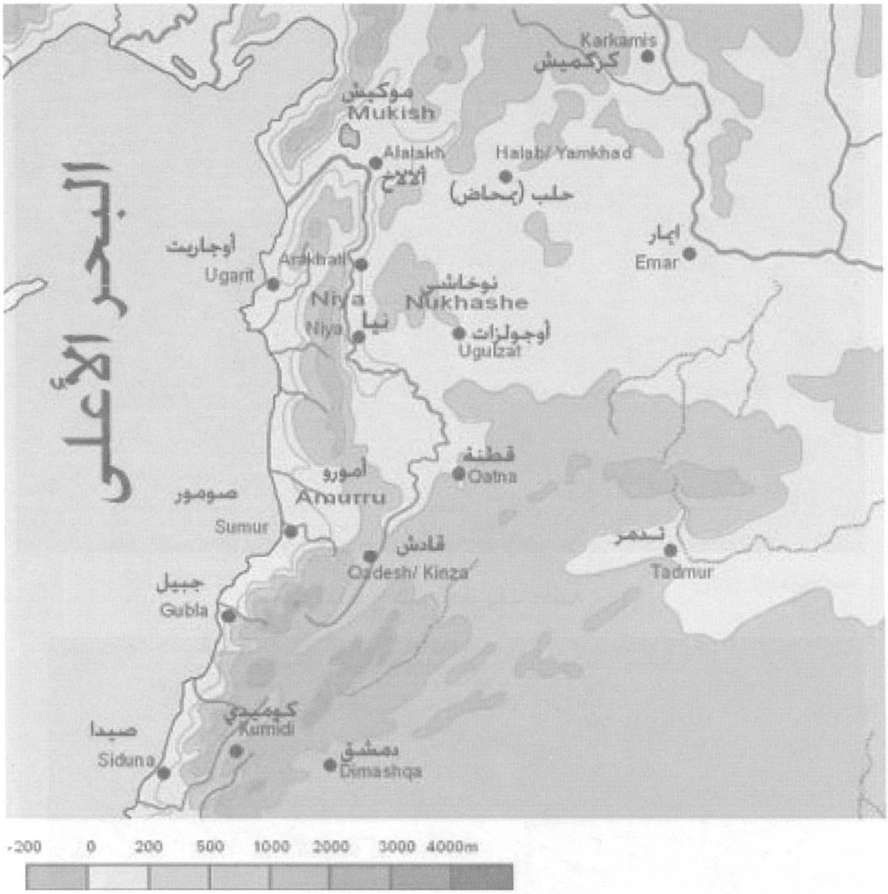
أعيد استيطان قطنة فيما بعد من قبل بعض القبائل الآرامية في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ثم في العصر البابلي الحديث (القرنين السابع والسادس قبل الميلاد)، لكنها فقدت أهميتها بسبب ظهور مراكز ممالك جديدة في المنطقة (مملكة حماة الآرامية على سبيل المثال).



صورة جوية لموقع تل المشرفة (قطْنـــــــــة)



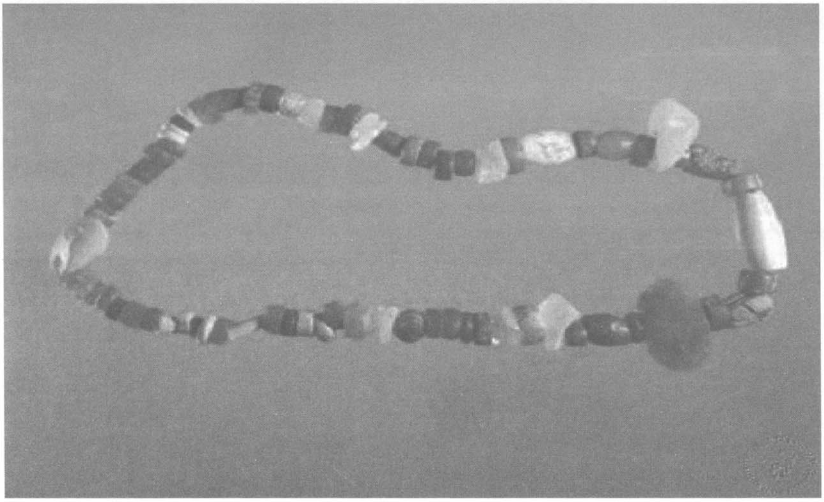
قطنْـــــة في وسط سوريـــة



مصور تاريخي لسورية وعليه أسماء المواقع الأثرية الرئيسة



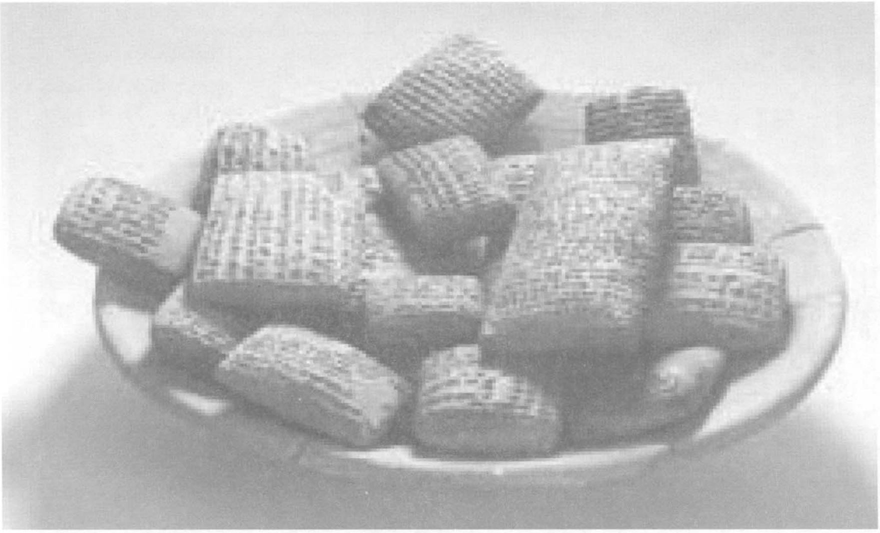
منظر عام لحفريات قطْنة



عقد من الحجارة الملونة (عقيق أحمر وكوارتز وحجر كلسي وحجر أسود وكلوريت وأصداف) من العصر البرونزي القديم (٢٤٠٠-٢٠٠٠ ق٠م) محفوظ حالياً في متحف حمص الوطني٠



توزع الفترات الأثرية زمنياً كما برهنت عليها الحفريات



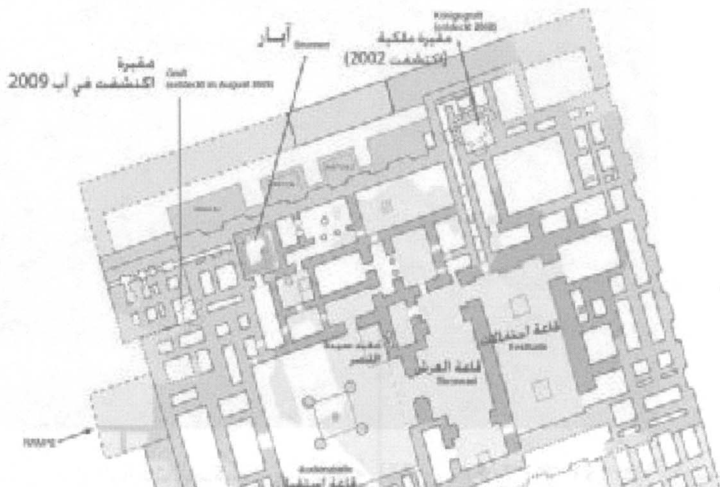
ألواح مسمارية من قطنْة



أخشاب متساقطة من سقف القصر الملكي



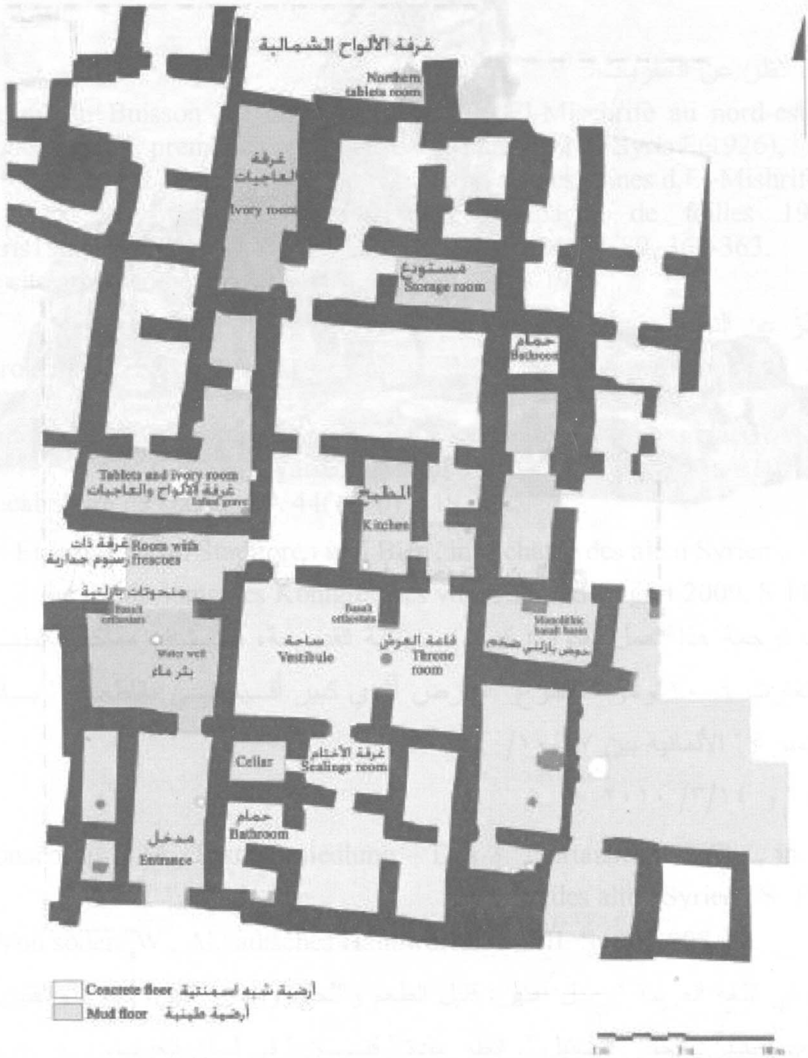
جانب من حفريات دو ميسنيل دو بويسون



مخطط القصر الملكي



تمثالان منحوتان من البازلت لحاكمين من قطنة (القرن ١٨/١٧ ق٠م) بقيا مقدسين حتى سقوط قطنة في العام ١٣٤٠ ق٠م٠ يبلغ ارتفاعهما ٨٥ سم٠



مخطط قصر المدينة السفلى (القرن ١٦– منتصف القرن ١٤ ق٠م)



تمثال أبو الهول منحوت من العاج

الهوامش

(1) انظر عن الحفريات:
Mesnil du Buisson, R. du, Les ruines de, El-Mischrifè au nord-est de Homs(Èmesè), première compagne 1924, Paris 1927= Syria 7(1926), 289-325; 8(1927), 13-33. L,ancienne Qatna au Les ruines d,El-Mishrifèau N.-E. de Homs (Èmesè): Deuxieme campagne de foilles 1927, Paris1928=Syria 8(1927), 277-301; 9(1928), 6-24, 81-89, 360-363.
Le site archèologique de Mishrife-Qatna Paris 1935.

وانظر عن النصوص:
Virolleaud, C., Les tablettes cunèiforms de Mishrifè-Qatna, Syria 9 (1928), 90-96; 11(1930),311-324.
Bottèro, J., Les inventaires de Qatna, Revue Assyriologique(RA) 43 (1949), 1-40; 137-215; Autres texts de Qatna, RA 44(1950), 105-122 Vocabulaire de Qatna, RA 44(1950), 119-122.

(2) Eidem, J., Von Stadttoren und Bier , in: Schätze des alten Syrien , die Entdeckung des Königreiches von Qatna, Sttutgart 2009, S 115.
تمت ترجمة هذا العمل بعنوان: كنوز سورية القديمة، اكتشاف مملكة قطنا، شتوتغارت ٢٠٠٩ وهو " كتالوغ " معرض أثري كبير أقيم في مقاطعة " بادن فورتمبرغ " الألمانية بين ١٧/١٠/ ٢٠٠٩ و ١٤/٣/ ٢٠١٠ .

(3) Bonacossi, D.M., Erste Besiedlung – Das 3. Jahrtausend v. Chr., in: Schätze des alten Syrien , S. 123.

(4) Von soden, W., Akkadisches Handwörterbuch II, S. 907-908.
نقول في اللغة العربية " رجلٌ قَتِين: قليل الطعم واللحم، وسنانٌ قتين: دقيق. والقتين: الرمح. والقتين: الحقير الضئيل ". انظر مادة " قتن " في لسان العرب.

(5) Bonacossi, Op.Cit., S. 125.

6 Archives Royales de Mari (ARM)I , Paris 1950, 26.

ARM I, 24, 46, 77. 7

انظر أيضاً:

Röllig, W., Heirat, in: Reallexikon der Assyriologie 4 (1972- 1975),S. 282 ff.

ARM I, 77 : 8-10. 8

ARM I , 47. 9

ARM V, 20. 10

ARM XXI, 255, XXIII, 2 75. 11

Dossin, G., Les Archives epistolaires du palais de Mari, in: Syria 19(1938), P. 117. 12

ARM XXVI, 303. 13

Dossin, G., Iamhad et Qatanum, in: Revue Assyriologique 36(1939), P. 50. 14

Ibid., P. 51. 15

Klengel, H., Geschichte Syriens im 2.Jahrtausend v.u.Z., Teil 1- Nordsyrien, Berlin 1965, S.121. 16

17 انظر مقالنا: تدمر محطة هامة على طريق القوافل خلال الألف الثاني قبل الميلاد، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، العدد ٤٢ (١٩٩٦)، ص ١٠٩- ١١٣ .

ARM I 66. 18

19 لمزيد من التفاصيل عن القصر الملكي، انظر:

Novak, M., Pfälzner, P., Ausgrabungen im bronzezeitlichen Palast von Tall Mishrife/ Qatna 2002, Vorbericht der deutschen Komponente des Internationalen Projekts, in: Mitteilungen der Deutschen Orient-Gesellschaft 135(2003), S. 135-165.

Pfälzner, P., Macht und Reichtum in der Königsresidenz, in: Schätze des alten Syrien, S. 168. 20

Richter, Th., Das " Archiv des Idanda" , Bericht über Inschriftenfunde der Grabungskampagne 2002 in Miŝrife/Qatna , Mitteilungen der Deutschen Orient- Gesellschaf 135(2003), S. 167-188. 21

Richter, Th., Aus den Schreibstuben der Könige – Textfunde aus Qatna, in: 22
Schätze des alten Syrien, S. 112-113.
Ibid. S. 110 ff. 23
Bonacossi, D.M., Der Unterstadtpalast, in: Schätze des alten Syrien, S. 157 ff. 24
Lamoni , M.,Kanhouch ,Y.,Der Ostpalast, in:Schätze des alten Syrien, S. 161 ff. 25
Wiseman, D. J., The Alalakh Tablets, Londen 1953, 6 26
Ibid. 259. 27
28 انظر كتابنا: موجز تاريخ مصر القديم وحضارتها، بيشة (السعودية) ٢٠٠٥، ص ١٨٩ .
Moran, W. L.,The Amarna Letters, Baltimore and London 1992, P. 127-128,(1-52). 29
Ibid. . P.128-129. 30
Richter, Th., Der große Brand- Ende einer Epoche, in: Schätze des alten Syrien, S. 273 ff. 31

مدرسة الإسكندرية وتاريخ التعليم الفلسفي

الدكتور عدنان ملحم

قسم الفلسفة

كلية الآداب

جامعة دمشق

ملخص الدراسة

يركز باحثو اليونانيات الساميات اهتمامهم على مسألة تحديد الفترة الزمنية التي انتقلت فيها العلوم وبخاصة الفلسفة إلى العرب والتي لا تزال غامضة ويجمعون على القول إنها فترة ممتعة في تاريخ البشرية ويقررون الدور الخطير الذي لعبه السريان والكتب الآرامية المترجمة في هذه العملية.

هذا وتؤكد المصادر أن مدرسة الإسكندرية التي وضع الإسكندر مخطط بنائها قد أسهمت في نقل العلوم إلى العرب وأن ما كتب حول ما تركه لنا بعض مؤرخينا وفلاسفتنا يشير إلى الكثير من الأخطاء التاريخية والتحريفات في أسماء الأشخاص والأماكن.

وكانت الترجمة محل اعتبار الناس جميعاً وقد أسهم فيها أطباء وفلكيون ورجال دين وقام أغنياء المسلمين وكبراؤهم إلى جانب الخلفاء بشراء المخطوطات وجراية الأرزاق على المترجمين وتكفلوا بمعاشهم ومعاش أسرهم.

وهكذا كان للعلوم اليونانية طريقان الأول هو الطريق المار من الإسكندرية إلى بغداد وهو طريق الفلسفة الأرسطية والطريق الآخر يمر عبر دمشق والكوفة والبصرة .

وتقف الروايات التي أوردها المؤرخون عن استمرار مدرسة الإسكندرية عند القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي لتنمو الفلسفة على يد الكندي والفارابي وابن سينا والرازي والغزالي في المشرق وعلى يد ابن باجة وابن طفيل لتبلغ الرشد في فلسفة ابن رشد وتموت بموته آملين أن تجد من أبنائها من يؤرخ لها كما فعل الأسلاف .....

مدرسة الإسكندرية وتاريخ التعليم الفلسفي:

يركز باحثو اليونانيات والساميات اهتمامهم على مسألة تحديد الفترة الزمنية التي انتقلت فيها العلوم وبخاصة الفلسفة إلى العرب والتي لاتزال غامضة ويجمعون على القول إنها فترة ممتعة في تاريخ البشرية، ويقدرون الدور الخطير الذي لعبه السريان والكتب الآرامية المترجمة في هذه العملية.

ويمكن أن نعالج الموضوع نفسه اليوم، انطلاقاً مما يبدو لنا أنه كان هدفاً رئيساً لسياسة الاسكندر التي أخضعت العالم في زمن قياسي لم يتجاوز كثيراً العقد الواحد (أي أقل من ١٢ سنة) فقد بسط سلطانه على بلاد اليونان ومصر وليبيا وسورية وفلسطين والعراق وفارس وأفغانستان وعلى قسم عظيم من بلاد الهند ونعني بالهدف الرئيس لسياسة الاسكندر إيجاد جنس بشري جديد ناتج عن مزج الجنس الإغريقي مع الأجناس الأخرى الأسيوية والإفريقية وتحقيق ثقافة جديدة أوراسية (أوربية ــ أسيوية)

فقد أكد المؤرخون أن الاسكندر قد باشر هذه العملية بالفعل منذ استقرار بابل فقد نفذ في يوم واحد عشرة آلاف عملية زواج بين مقدونيين ويونانيين من جهة وفرس وعرب من جهة أخرى، وأنه انفق على تشجيع هذه العملية أكثر من عشرين ألف وزنة ذهب، قدرها هؤلاء الباحثون بما يعادل اليوم مئة وعشرين مليون دولار أمريكي... وذلك مع إشارات تاريخية عديدة تؤكد أن الإسكندر جعل من نفسه ومن

قادته وزعماء جيشه قدوة في عملية المزج هذه، بل إن هذه الإشارات أو الأحداث التاريخية تشير إلى ما هو أبعد من ذلك حين تؤكد وجود عملية نقل لطبقات أو شرائح اجتماعية عريضة بين البلقان والبلدان الأخرى وعليه فإذا صحّ ذلك ولو جزئياً، فإننا نستطيع الجزم بأن هذه السياسة سوف تؤدي إلى تغلغل الآداب اليونانية والفلسفة اليونانية في أعمق أعماق الشرق القديم، وتتلون بلونه بصورة أو بأخرى، وتتيح بالتالي للنفوس والعقول البشرية أن تتفاعل بعمق وتنتج عقلاً جديداً ينتج بدوره نشوء حضارة جديدة مشتركة، وإن كان ذلك يستغرق زمناً لا تشكل فيه حياة الإسكندر وكل فتوحاته أكثر من نقطة البداية، فما إن مات الإسكندر حتى خرج اليونان عن طاعة مقدونيا، وباشروا اضطهاد أساتذة مدرسة أثينا التي أنشأها أرسطو أستاذ الإسكندر فقد حكم الأثينيون على أرسطو بالإعدام ولكنه غادر أثينا لكي لا يتيح لهم تكرار مافعلوه بسقراط فمات في خلقيديا بعد مغادرة أثينا بأشهر قليلة.

ومن الطبيعي في ظروف كهذه أن يبحث المضطهدون عن مستقر جديد يمارسون فيه فلسفتهم ونزوعهم الفكري الجديد، فكانت الإسكندرية التي وضع الإسكندر مخطط بنائها مستقرهم ،كانت أجمل مدينة على البحر الأبيض المتوسط تحتضن تراث مصر القديم كما تحتضن الأديان الشرقية العميقة، واشتهرت إلى جانب الفلسفة بالرياضيات والفلك ومنها كان إقليدس ومنها كان بطليموس، وفيها أسس أولئك المضطهدون مدرستهم الفلسفية التي استمرت في نشر الفلسفة المشائية حتى الفتح العربي للإسكندرية أي ما يزيد على ثمانية قرون أسسها الفيلسوف السوري أمينوس الحمّال (العتّال) ١٧٥ ــ ٢٥٠ م مجدد الفلسفة الأفلاطونية(الافلوطينية).

وتؤكد المصادر أن مدرسة الإسكندرية كانت قائمة عندما فتح العرب مصر وتجزم أن هذه المدرسة قد أسهمت في نقل العلوم إلى العرب، وإن كانت هذه المصادر بما فيها أوراق البردي المكتشفة أخيراً، التي كشفت عن الوضع السياسي والاقتصادي والقانوني لمصر في القرن الخامس الميلادي، قد أبقت على غموض التاريخ التعليمي

لهذه الفترة (نهاية العصر الهليني وبداية العصر الإسلامي) وكل ما قدمه الباحثون من معلومات في المجال الثقافي لا تقاس في مجموعها بالمعلومات الدقيقة والمعرفة الواسعة في المجالات الأخرى التي نالوا عليها الجوائز، فهي لا تتعدى وجود إشارات إلى وجود أكاديميات ومدارس في الإسكندرية .

ففي (القرن السادس ميلادية) لاسيما وأن ما كتب حول ما تركه لنا بعض مؤرخينا وفلاسفتنا الذين كانوا في الغالب أطباء وفلكيين أو رياضيين يشير إلى كثير من الأخطاء التاريخية والتحريفات في أسماء الأشخاص والأماكن اليونانية، لان مصادرهم كانت في الغالب عبارة عن تراجم لكتب يونانية نقلها مترجمون سريان إلى السريانية ومنها إلى العربية أو كتب ترجموها هم عن اليونانية مباشرة، من نمط ابن عبد الحكم (٢٥٧هجري ــ ٨٧١ ميلادي) الذي تحدث عن فتح العرب لمصر الذي لا توجد فيه أية إشارة إلى مكتبة الإسكندرية ولا إلى حريق مكتبة الإسكندرية رغم أنه اسبق من كتاب اليعقوبي (أحمد بن يعقوب ٢٧٩ هجرية ــ ٨٩٢ ميلادية) في الجغرافيا المليء بمقتبسات عربية مأخوذة عن اليونانيين وأقدم من //مروج الذهب// للمسعودي(٣٤٥ هجرية ــ ٩٥٦ ميلادية) وكتبه الأخرى القيمة في تاريخ العلوم، والكتب الأخرى التي يستخلص منها المؤرخون نتائج تدل على مصير المدرسة الإسكندرية ومكتبتها، ولاسيما إذا قرأنا بعض الأقوال التي تشير انه من الصعب أن نفترض وجود مثل هذه المكتبة الكبيرة في الإسكندرية بعد القرن الرابع الميلادي*. وأغلب الظن أن الحريق قد حصل (في القرن الثالث الميلادي).

وأن المكتبة المعروفة بالقيصرية قد نهبت سنة ٣٦٦م، بعد أن تحول المعبد التابعة له إلى كنيسة كما تم تدمير مكتبة السيرابيوم سنة ٣٩١م يوم ارتحل معلمو الفلسفة عن

* مقال بالعربية نشرته جريدة الأهرام سنة ١٩٢٤ م حول الحريق الأول لمكتبة الإسكندرية جمعه وكتبه جريفيني وفرلاني وأصبح فيما بعد (كما لاحظنا مصدر لكتابات ايطالية وألمانية وغيرها).

المدينة، ولم يعد من وجود لمكتبة فلسفية في العاصمة المصرية (الإسكندرية) كما يقول برتشيا وذلك لان التعصب الديني قد اشتدت وطأته منذ ذلك الحين وأصبحت الحياة صعبة بالنسبة إلى المعلمين والطلاب الوثنيين، رغم أن أوراق البردي تذكر أسماء متاحف وأكاديميات للدراسة في الإسكندرية وتتحدث عن حياة الطلاب في مدارس الإسكندرية، ولكن من المؤكد أن العرب في سنة ٥٠٠ م كانوا يعرفون امونيوس بن هرمياس رئيس إحدى المدارس المشهورة ويعرفون تلاميذه: سنبلقيوس ورمسقيوس ويحيى النحوي وغيرهم .. ففي النصف الأول من القرن السادس الميلادي كان يحيى النحوي أو يحيى فيلوبولونس الشخصية الكبيرة في المدرسة الإسكندرية على الأقل إن لم يكن رئيسها؟.

كما تذكر المصادر أن الفيلسوف النصراني يوحنا الأفامي قد تخرج من مدرسة الإسكندرية في القرن السادس الميلادي ومعه فلاسفة آخرون منهم الطبيب الفيلسوف سرجيوس الرأس عيني وايتيوس الآمدي كما تذكرأسماء فلاسفة وأطباء في القرن ٧ميلادي ..فضلاً عما تذكره كتب المؤرخين العرب عن الحكماء مثل (الفهرست لابن النديم وكتاب ابن القفطي ....وكتاب ابن أبي أصيبعة) وعن التضييق على دراسة الكتب الفلسفية في الإسكندرية النصرانية غير أن /رينان/ وأمثاله ينبهون إلى أن التراجم السريانية للاورغانون كانت تقف دائماً عند الفصل السابع من التحليلات الأولى، كذلك فعل اليعاقبة مثل جورجيوس أسقف العرب الذي لم يترجم ولم يشرح إلا هذا الجزء ويذكر ابن أبي أصيبعة (ج ٢ص ١٣٠ ومابعد) أن يوحنا بن حيلان كان قد امتنع أولاً عن قراءة كتاب التحليلات الثانية، مع تلميذه المسلم الشغوف بالعلم (يقصد الفارابي) ولكنه رضي بعد ذلك، وتشير المراجع أيضاً إلى أن الفيلسوف الطبيب المشهور محمد بن زكريا الرازي مناصر الفارابي، قد اقتصر تعليمه على ذلك الجزء فقط، بدليل ما يذكره ابن أبي أصيبعة (ج١ ص٣١٥) عن عنوان كتاب للرازي هو

كتاب جمل معاني أنا لوطيفا الأولى إلى تمام القياسات الحملية (وربما كان هذا اقتباساً من كتاب للرازي وليس عنواناً).

ولابد من الإشارة هنا إلى أنَّ الاهتمام كان ينصب في تلك الفترة على تعليم الطب فقد ذكر أبو الفرج بن هندو أستاذه أبو الخير ابن الخمار معلومات متصلة عن حركة تدريس الطب في الإسكندرية وأن جوامع جالينوس كانت تسير جنباً إلى جنب مع جوامع أبقراط في اثني عشر كتاباً، ويذكر ابن القفطي في //كتاب أخبار الحكماء// أن انقيلاؤس الإسكندراني حكيم فاضل، طبائعي، مصري الإقليم اسكندراني المنزل وهو أحد الاسكندرانيين الذين اهتموا بجمع كلام جالينوس وتأليفها على المسألة والجواب ويقول ابن القفطي: وذكر عبيد الله بن جبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع أن اسم يحيى ثامسطيوس: كان قوياً في علم النحو والمنطق والفلسفة (ويذكر ابن أبي أصيبعة روايات وقصصاً طريفة ولطيفة عن يحيى النحوي الاسكندراني وحبه للنظر (التفلسف) كحكاية الملاح وحكاية النملة مما لا مجال لذكرها الآن) .

وفي النصف الأول من(القرن السادس ميلادي) وضع يحيى النحوي شرحه للارسطوطالية وكان تأثيره في العالم المسيحي الذي يتكلم اليونانية والسريانية قوياً نتيجة استخدامه منطق أرسطو في الدفاع عن الدين المسيحي، ويقال: أن النشاط الفكري الذي كان في القرن السابع كان استمراراً للعصر السكندري الذهبي، وكانت الأماكن التي ازدهرت فيها العلوم هي الرها ونصيبين وإنطاكية وآمد (دياربكر) على مايذكر السمعاني وغيره، لقد كانت غالبية المدارس لاهوتية، ولكن كان يسمح في الكثير منها بدراسة: النحو والبيان والفلسفة والطب والموسيقى والرياضيات والفلك، وإن اقتصر التعليم الفلسفي ــ كما ذكرنا ــ على أجزاء من منطق أرسطو وكان أهم موضع عُنِي فيه بتدريس العلوم، مدرسة القديس افثينيوس في قنَّسرين بسورية التي ازدهرت في العصر الإسلامي.

وتذكر المصادر من اليعاقبة الذين عاشوا في القرن السادس: يونان الأفامي وسرجيوس الرأس عيني واصطنان برصد يلة، وأخو دميّة، وفي العصر الإسلامي الأول القرن السابع ميلادي ترد أسماء: سلوانوس القردي وحينانيشوالأول، وشمعون الراهب المعروف بطيبوبة وسويرس سيبوخت ٦٦٧م وتلميذيه اثناسيوي البلذي، وايوب الرهاوي ٧٠٨م وجورجيوس أسقف العرب ٧٢٤ ميلادي في التي تسمى حوران في سوريا وهو تلميذ هذين الأخيرين وشارحاً ومترجماً لأرسطو ومن رجال القرن الثامن ميلادي يذكرون الأساقفة النسطويين مأبا، ويوشع بخت ودنما كشرّاح ومترجميين لمؤلفات أرسطو، ثم طيماثاوس الذي كان مقامه كبيراً لدى الخلفاء العباسيين الذين نقلوا عاصمة الملك إلى بغداد وكانت عنايته بالدراسات الفلسفية كبيرة جداً.

وكانت لأسرة بختيشوع طوال ثلاثة قرون مكانة كبيرة عند الخلفاء منذ أيام الخليفة الثاني المنصور وكان منها معلمو الطب والفلسفة وكان آخر أبنائها المعروفين علي ابن إبراهيم بن بختيشوع (عاش ق٤ هجرية =ق١١ميلادية) وكان مقر هؤلاء الأساتذة في قصور الخلفاء في بغداد أو سرّ من رأى (سامراء)

أنشأ المأمون سنة ٢١٥ هجرية ــ ٨٣٠ ميلادية مدرسة للترجمة سميت /بيت الحكمة/ برئاسة يوحنا بن ماسويه وقام بتجديدها بعد ربع قرن الخليفة المتوكل، برئاسة حنين... ويبدو أن الترجمة في النصف الأول من القرن ٣ هجري ــ ٩ميلادي من اليونانية إلى السريانية في أغلب الأحيان، ونادراً ما كانت إلى العربية مباشرة، ولكنها أصبحت من اليونانية إلى العربية في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري بل وأكثر من ذلك قام المترجمون بتدقيق الترجمات القديمة وإصلاحها، وكانت الترجمة محل اعتبار الناس جميعاً وقد أسهم فيها أطباء وفلكيون ورجال دين، وقام أغنياء المسلمين وكبراؤهم إلى جانب الخلفاء بشراء المخطوطات وجراية الأرزاق على المترجمين وتكفلوا بمعاشهم ومعاش أسرهم وقد اشتهر من هؤلاء الذين أسهموا بدعم

حركة الترجمة أحمد ومحمد ابنا موسى بن شاكر، كما اشتهر من المترجمين عدا حنين بن اسحق، وثابت بن قرة الصابئي الحراني وترجماته إلى العربية تكاد لا تحصى فضلاً عن قيامه بإصلاح ترجمات اسحق بن حنين الفلسفية وتعليقاته على هوامشها ولا تزال حتى الآن، وقسطا بن لوقا وكان نصرانياً من بعلبك في سوريا الذي ترجم كثير من الكتب الطبية والمؤلفات الرياضية والفلسفية وبخاصة كتب فلوطرخس.

ــ ويذكر المؤرخون بين كبار المترجمين الفيلسوف أبا يوسف يعقوب بن اسحق الكندي (٢٥٧ هجرية ــ ٨٧٠ ميلادية) فيلسوف العرب الأول، وكان أول وأشهر عربي مسلم أتقن علوم اليونان إلى درجة تدعو إلى الدهشة، ويذكرون أنه فتح الطريق للعرب إلى علوم الأوائل وله ثلاثمئة كتاب في مختلف العلوم، ولاسيما في الفلسفة الأرسطية والفيثاغورية المحدثة والأفلاطونية المحدثة والآثار العلوية والموسيقى والسياسة والأخلاق... ولكن أثر فلسفته بعد وفاته في قوم العرب كان أقل بكثير من أثرها في الغرب لاسيما في ترجمتها اللاتينية. ويذكر أيضاً بين مشاهير (القرن٣ هجري ــ ٩ ميلادي) الأسقف الفيلسوف موسى بن كيبا الذي لا تزال بعد ترجماته وشروحه لأرسطو باقية حتى الآن.

ــ هكذا كان للعلوم اليونانية طريقان الأول هو الطريق المار من الإسكندرية إلى بغداد وهو طريق الفلسفة الأرسطية وهو الأشهر في الروايات العربية التي سنذكر شيئاً منها. والطريق الآخر هو الطريق الذي يمر بدمشق والكوفة والبصرة

ولعل خير ما نبدأ فيه من الروايات العربية عن //بدء ظهور الفلسفة// رواية الفيلسوف الكبير الفارابي يقول:

وانتقل التعليم بعد ظهور الإسلام من الإسكندرية إلى إنطاكية وبقي فيها زمناً طـويلاً وهي رواية طويلة يذكر فيها من خرج ومعه الكتب، وفلان تعلم من فـلان وأن أبـا نصر نفسه تعلم من يوحنا بن حيلان كتاب البرهان.

وتذكر المصادر أن العرب كانوا يعدون المنطق الحقيقي (أي الفلسفة) هو: المقولات والعبارات والتحليلات الأولى والتحليلات الثانية والطوبيقا والسوفـسطيقا ويـضيفون إليها الخطابة والشعر، وإنهم كانوا يعدون التحليلات الثانية بحثاً في الحـق المطلـق، ويقول الفارابي: لعل ذلك كان سبب خشية الكنيسة من دراسة ذلك الذي كان العـرب يسمونه كتاب البرهان.

قال ابن أبي أصيبعة: وحدثني عمي رشيد الدين أبو حسن علي بن خليفـة رحمـه الله (وكان عمه طبيباً ماهراً من دمشق مات ٦١٦ هجرية ـ ١٢١٩ ميلاديـة) قـال إن الفارابي توفي عند سيف الدولة ابن حمدان في رجـب ٣٣٩ هجريـة وكـان أخـذ الصناعة عن يوحنا بن حيلان ببغداد أيام المقتدر، وكان في زمانه أبو البشر متّى ابـن يونان ويستمر ابن أبي أصيبعة في سرد روايته فيقول: (قال الشيخ أبو سليمان محمـد ابن طاهر السجستاني، أن يحيى بن عدي أخبره أن متّى قرأ ايساغوجي على نصراني وقرأ قاطيفورياس وبارمنياس على روبيل، وقرأ كتاب القيـاس علـى أبـي يحيـى المروزي وهنا يذكر ابن أبي أصيبعة كلام صاعد بن أحمد الأندلسي (٤٦٠ هجرية ـ ١٠٦٨ ميلادية) عن دراسة الفارابي.

وهناك رواية أخرى للمسعودي معاصر الفارابي تؤيد كلام صاعد وقد ترجمها كارادي فوهي في غاية الطرافة... ويذكر المسعودي في كتاب //فنون المعارف في الـدهور السوالف //الفلسفة وصدورها والأخبار عن كمية أجزائها وانتقـال المكـان الـرئيس للمعرفة الإنسانية، من أثينا إلى الإسكندرية فـي مـصر فأصـبح التعلـيم بمكـانين: الإسكندرية وروميّه ثم ردّ التعليم من روميّه إلى الإسكندرية، ولأي سبب نُقِل التعلـيم

في أيام عمر بن عبد العزيز من الإسكندرية إلى إنطاكية ثم إلى حران أيـام المتوكـل وكيف انتهى أيام المعتضد إلى قويري ويوحنا بن حيلان وإبراهيم المروزي ثـم إلـى محمد بن كرنيب وأبي بشر متى بن يونس الذي يعوّل على شرحه لارسطوطا لـيس حتى الآن ثم إلى نصر محمد بن محمد الفارابي وكانت طريقته في الدرس هي طريقة محمد بن زكريا الرازي، ويبدو أن ابن كرنب، الفيلسوف العربـي الإسـلامي، كـان أستاذاً في المنطق حسب رواية ابن أبي أصيبعة.

والملفت أن روايات الفارابي والمسعودي وابن أبي أصيبعة المذكورة كلها تشير إلـى أن مدرسة الإسكندرية وجدت حتى بعد الفتح العربي لمصر، وإنها انتقلت إلى الـشرق بعد مضي ثمانين سنة على الفتح العربي ـ الإسلامي وإن كانت هـذه الروايـات لا تقول لنا صراحة لماذا انتقلت المدرسة في خلافة عمر الثاني أي خلافة عمر بن عبـد العزيز القصيرة إلى إنطاكية، وإنما تشير إلى بعض الأسباب، كالعزلة التي أصـبحت فيها الإسكندرية بعد الفتح العربي، وكالانفصال عن بيزنطة بسبب الحروب البحريـة الكثيرة وكزوال أهميتها الثقافية والاقتصادية بعد أن غدت دمشق مركز الخلافـة بـل مركز الإمبراطورية العربية ـ الإسلامية الجديدة وتناقص أو قلة عدد العلماء والـذين يعرفون اليونانية، شلل حركة الترجمة إلى السريانية وما شابه ...من الأسـباب التـي تجعل من انتقال المدرسة أمراً طبيعياً.

أما الروايات التي تقول إن الخليفة عمر بن عبد العزيز قد اشترك بنفـسه فـي نقـل المدرسة، أو أنه كان سبب الانتقال، فلم نجد سنداً أو مصداقية وكل ما وجدناه هو في غاية الأهمية إن خلافته التي لم تستمر إلا سنتين كانت غنية بالإصـلاحات الـسياسية والاقتصادية والدينية، بصرف النظر عن تلك المصادر المعادية التي تنفي وجـود أي ميل من الخلفاء إلى العلوم وأنه ليس للمرء أن يتوقع ذلك من أولئك الفاتحين القـادمين من الصحراء.

تؤكد الروايات إن المصادر العربية وحتى المصادر السريانية وجود المدرسة في حران، إن الزمن الذي انتقلت فيه مدرسة إنطاكية كان في خلافة المتوكل (أي سنة ٢٣٢ هجرية ٨٤٧ ميلادية إلى ٢٤٧ هجرية_٨٦١ ميلادية) فتكون مدة بقاء المدرسة في إنطاكية ١٢٠ ـ ١٤٠ سنة قبل انتقالها إلى حران.

أما ارتحال الفلاسفة فكان في خلافة المعتضد عم المتوكل (أي سنة ٢٧٩ هجرية ـ ٨٩٢ ميلادية إلى ٢٨٩ هجرية) مما يعني أن الدراسة لم تستمر في حران أكثر من أربعين سنة.

لقد ارتحل كما تؤكد المصادر في (القرن الثالث هجري ـ التاسع ميلادي) أولاً أربعة فلاسفة من حران إلى بغداد وباشروا فيها تدريس الفلسفة، وكانت مدارسهم لها طابع الخصوصية وبعض المصادر تقول إنهم أربعة رؤساء مدارس فلسفية ولم تكن تسمية رئيس مدرسة تسمية رسمية تمنحها الدولة، وإنما كانت تُمنح بإجماع الفلاسفة، ونحن لا نستطيع هنا أن نجزم: هل كانت هناك أربع مدارس فلسفية لكل منها رئيس أم أن الحديث يجري عن أربعة أساتذة برتبة رئيس مدرسة، والفرق شاسع بالنسبة لمسألة التعليم الفلسفي .. لاسيما وان المصادر ذاتها تؤكد وجود مسلمين متزمتين أو متشددين من أصحاب النفوذ في قصور الخلفاء، كانوا يعارضون أو يقفون ضد قيام الدولة بإنشاء مدارس تقوم بتدريس الفلسفة، وكان لهؤلاء المتشددين منذ خلافة المتوكل نفوذ كبير كان يزداد يوماً بعد يوم، وعلى أساس واقعات كهذه جاءت روايات بعض المستشرقين المغرضين لتؤكد على عدم وجود منشآت أو مدارس فلسفية أو أكاديميات علمية عامة أو خاصة في بغداد إبان ذلك الزمن، ونسي هؤلاء أن المتوكل هو الذي أعاد بيت الحكمة الذي أنشأه عمه المأمون.

وحوالي ٣٨٢ هجرية ــ ٩٩٢ ميلادية تم إنشاء الأكاديمية المسماة دار العلم اشتهرت بمكتبتها الضخمة إلا أنها نُهبت وأحرقت سنة٤٤٧ هجرية ــ ١٠٥٥ ميلاديــة حــين استولى جنود طغرل بك على بغداد.

وبعد ذلك تتحدث المصادر عن منشآت التعليم الطبية (البيمارستانات) وعن ثمانيــة أساتذة للفلسفة تذكرهم كتب التاريخ بصفة رؤساء مدارس كانوا في الوقت نفسه أطباء وفلاسفة مثل المروزي (أبو يحيى) والفارابي (أبو نصر) وكانوا يسمون الواحد مــنهم تارة باسم //حكيم// وتارة باسم //فيلسوف// أو باسم منطقي، كأبي بشر متى، ويحيى بن عدي، والسجستاني وأغلب الأطباء العرب كانوا متميزين بالعلوم الحكمية مثل:

ــ أبي اسحق إبراهيم القويري الذي كان أستاذاً لأبي بشر متى، وله عدة مؤلفات مثل: تفسير انالوطيقا الأولي وكتاب تفسير قاطيفورياس، وكتاب بارمنيدس وكتاب انالوطيقا الثانية، وينسب إليه ابن القفطي شرحاً لكتاب ارسطو السوفسطيقا، وكان قــد ارتحــل إلى بغداد في خلافة المعتضد.

ــ يوحنا بن حيلان الذي كان حسب ابن القفطي وابن أبي أصيبعة، استاذاً للفــارابي، وقرأ له كل كتب أرسطو حتى أنالوطيقا الثانية التي كانت قراءتها ممنوعــة وتــذكر المصادر أنه مات ببغداد في بداية القرن ٤ هجري وأن دراسته كانت ببغــداد أو فــي حران أو فيها.

ــ أبو يحيى زكريا المروزي، هو، حسب الفهرست، الذي شرح انالوطيقا الثانية الذي كان الاشتغال به ممنوعاً على المسيحيين، وكان سريانيا (أي في لغته) وجميع ماله من كتب هو بالسريانية، ويذكر الفهرست أنه كان فاضلاً وأن أبا بشر متى بن يونس قــرأ عليه، وكان طبيباً مشهوراً بمدينة السلام وفيلسوفا وما جاء في الفهرست ينقلــه ابــن القفطي وابن أبي أصيبعة كما هو.

ـ أبو أحمد الحسين ابن اسحق بن إبراهيم بن يزيد، ويسميه الفهرست ابن كرنيب الكاتب ويعدّ أحد تلميذي الكندي: أحمد بن الطيب السرخسي، وأحمد البلخي (أبي زيد) الجيل الثاني من فلاسفة العرب المسلمين، ويذكره كتاب //التنبيه// كرئيس لمدرسة بغداد، كما يذكره (بمفرده) الفهرست من المتكلمين والفلاسفة الطبيعيين.

ـ أبو بشر متى بن يونس، تلقى تعليمه شأن معظم العلماء النصارى في مدرسة ملحقة بدير، على يد بعض اليعاقبة، وقد فاق جميع من سبقوه حتى أساتذته، ويقول صاحب الفهرست عنه //أبو بشر متى بن يونس ـ هو يونان من أهل دير قنى ممن نشأ في سكول ماري (هكذا حرفياً)..وله تفسير من السرياني إلى العربي، واليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصره، وقد ورد في الفهرست أن من بين الكتب التي ترجمها: كتاب تفسير الثلاث مقالات الأواخر من تفسير ثامسطيوس للتحليلات الأولى. ويبدو انها لم تكن قد ترجمت من قبل إلى العربية، وانه نقل كتاب البرهان وكتاب سوفسطيقا وكتاب الكون والفساد بتفسير الأسكندر وكتاب الشعر وكتاب تفسير الإسكندر لكتاب السماء الذي أصلحه من بعد أبو زكريا يحيى بن عدي، ويذكر //التنبيه// أن تراجمه هي التي كان يُعوّل عليها في القرن ٤ هجري ـ ١٠ ميلادي.

أما ما يذكره القفطي فهو: انه في زمانه، أي القرن ٧ هجري ـ ١٣ ميلادي لم يكن يوجد نقل عربي حسن للكتاب // الحسي والمحسوس// وإنما كان الموجود من ذلك هو عبارة عن تعليقات لأبي بشر متى بن يونس، كما يذكر القفطي أن من كبار تلاميذ متى كان أبو سليمان المنطقي السجستاني .

ويقول ابن العبري: أن متّى كان نسطورياً، وهذا طبيعي أن يكون نسطورياً لأن نشأته وتعليمه الأول كان في دير قنى، وهو دير نسطوري معروف، ولكنه رغم ذلك درس المنطق على يد راهبين يعقوبيين هما روفيل وبنيامين، ويذكر بن أبي أصيبعة أن متّى توفي في بغداد في ١١ رمضان ٣٢٨هجرية ـ ٢٢ حزيران ٩٤٠ ميلادية.

ـ أبو نصر محمد بن محمد بن طرحان الفارابي أشهر فلاسفة العرب المسلمين بعد الكندي وقد فاق الكندي في تأثيره في الأجيال التالية وإليه يعزى إدخال منطق أرسطو في علم الكلام وبخاصة علم الكلام المعتزلي، وربما كان هذا سبباً في تسميته /المعلم الثاني/ بعد أرسطو وقد ترك أكثر من مئة مؤلف في مختلف العلوم ورغم انه كان يعرف لغات كثيرة ولم يكن مترجماً، وظلت كتبه تدّرس مئات السنين في مصر واسبانيا، وقد اعتمد ابن سينا كثيراً على كتب أبي نصر وتأثر بها أيما تأثير، وبناء على ما تركه الفارابي صار المسار العام للفلسفة الإسلامية أرسطياً وافلوطينياً

ـ أبو زكريا يحيى بن عدي (٩٧٥م) تلميذ الفارابي ورئيس مناطقة عصره وقد كتب عنه وعن مؤلفاته الكثير، ويبدو أنه كان أول فيلسوف عربي مسيحي {{فقد كان نصرانياً يعقوبياً من تكريت على شاطئ دجلة شمال العراق}}، وفق ما كتبه غراف في كتاب (الفلسفة ونظرية الله عند يحيى بن عدي) (ص٣) وقد كتب عنه أيضاً: أنه قرأ على أبي نصر الفارابي، وعلى أبي بشر متّى، وأنه كان مترجماً ومؤلفاً غزير الإنتاج بدرجة غير عادية وأنه كان يمتلك مكتبة خاصة ضخمه مفهرسة وان تراجمه من السريانية إلى العربية شملت المقولات، الطوبيقا التحليلات الأولى التحليلات الثانية، والسفسطيقا، والنواميس والشعر لأرسطو، وطيماوس لأفلاطون والآثار العلوية لثاوفراسطس، فضلاً عن شروح للأفروديسي وامونيوس، وإصلاحه الكثير من ترجمات اسحق بن حنين، ويذكر أن ابن النديم، قد خط الكثير من هذه الكتب بخط يده (الفهرست ص٢٤٦).

وأن مؤلفاته الخاصة بالعربية بلغت في الأخلاق والمنطق حوالي خمسين كتاباً، والملفت أن المسعودي يذكر في كتابه //التنبيه// ص ٤٦ وص١٢٠ أن يحيى بن عدي تخرج من مدرسة الفيلسوف الطبيب محمد بن زكريا الرازي، التي قيل عنها أنها كانت مدرسة فيثاغورية محدثة، وأن يحيى اخذ مذهبه الفلسفي عن الرازي هذا وما يؤيد هذه الأقوال ما يذكره أبو سليمان السجستاني المنطقي الذي كان صديقاً وربما

تلميذاً ليحيى وأن يحيى قال عن أستاذه الرازي أنه قال: إن للهند علوم جليلة من علوم الفلسفة التي وصلت إلى اليونان (ابن أبي أصيبيعة ج١ ص١٠).

ويقول المسعودي عن الرازي الفيلسوف الطبيب أن الرازي كتب سنة ٣١٠ هجرية أي قبل وفاته بثلاث سنوات كتاباً في الفلسفة الفيثاغورية مؤلف من ثلاث مقالات كتب عنها /دي بور/، أي عما كانت عليه آراء الرازي في الفيثاغورية وردوده عنها، وربما أخذ هذا الاتجاه الفلسفي عن أحد تلاميذ الكندي وأنه من الممكن أن يكون يحيى ابن عدي قرأ مؤلفات الرازي واستقى منها آراءه الفيثاغورية ونقلها إلى تلاميذه شفوياً رغم أن كتبه كلها ذات طابع ارسطي نقي تقريباً وهذا ما يراه أميل برهييه الذي درس كتب يحيى بن عدي بعمق.

وإلى هنا إلى القرن الرابع هجري ــ القرن العاشر ميلادية تقريباً تقف الروايات التي أوردها المؤرخون عن استمرار مدرسة الإسكندرية الفلسفية في العصر الإسلامي لتنمو على يد الكندي والرازي والفارابي وابن سينا والرازي والغزالي في المشرق وعلى يد ابن باجه وابن طفيل لتبلغ الرشد في فلسفة ابن رشد وتموت بموته، آملين أن تجد من أبنائها من يؤرخ لها كما فعل الأسلاف ولا نأمل بأكثر من ذلك في هذا الزمن التعس ....؟

المصادر والمراجع المعتمدة

١ــ **المباحثات** الشرقية فخر الدين الرازي طهران ٩٦٦

٢ــ التعليقات / الفارابي / حيدر أباد ١٩٤٦

٣ــ **البداية والنهاية** : ابن كثير، بيروت ١٩٦٦

٤ــ **النجوم الزاهرة** تفري بردي القاهرة ١٩٣٠

٥ــ الفكر العربي والثقافة اليونانية الدار البيضاء ١٩٨٥

٦ــ **المقدمة** ابن خلدون بيروت ١٩٦٧

٧ــ **الفهرست** ابن النديم : القاهرة ١٩٦٦

٨ــ **الإيضاح في الخير المحض** /تح/ بدوي القاهرة ١٩٥٥

٩ــ تاريخ الأطباء والفلاسفة : اسحق ابن حنين : القاهرة ١٩٨٥

١٠ــ **تقويم البلدان** : ابن أبو الفداء دار الطباعة السلطانية الجزائر ١٨٤٠م

١١ــ دائرة المعارف الإسلامية: بيروت ١٩٣٣

١٢ــ **شجرات الذهب في أخبار من ذهب**: ابن العماد العكري، القاهرة ١٣٥٠ هجرية

١٣ــ **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** : اسحق ابن حنين، القاهرة ١٩٨٧

١٤ــ **فوات الوفيات** : ابن شاكر ١٩٥١

١٥ــ **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون** : حاجي خليفة، استانبول ١٣٦٠ هجرية

١٦ــ **كتاب النفس** _ اسحق بن حنين /تح/ الأهواني القاهرة ١٩٥٤

١٧ــ **معجم البلدان** : ياقوت الحموي، بيروت ١٩٥٥

١٨ــ **مبادئ الإلهيات** : /تح/ اندرس، بيروت ١٩٧٣

١٩ــ **مروج الذهب ومعادن الجواهر** : المسعودي، القاهرة ١٩٤٨

٢٠ــ **نظرة جديدة إلى التراث** : محمد عمارة، بيروت ١٩٧٤

٢١ــ **نفح الطيب** : المقري، القاهرة ١٩٤٧

العبيد عند الرومان

خلال القرنين الثاني والأول قبل الميلاد

الدكتور عبد المجيد حمدان

قسم التاريخ

كلية الآداب

جامعة دمشق

المقدمة:

لقد أسست روما على الدماء عندما قتل رومولوس أخاه ريموس قائلاً: هكذا سيهلك كل من يمتهن أسوار مدينتي، لذلك يعتبر عنصر العبيد من أهم العناصر المؤثرة في تاريخ الإمبراطورية الرومانية، حيث بدأت مسيرة الشقاء العبَودي في الدولة الرومانية، منذ تأسيسها في عام ٧٥٣ق.م.

إن وجود العبيد في روما، قديم يعود إلى الفترة الأتروسكية، حيث كان هؤلاء العبيد يعملون كخدم في بيوت وقصور أسيادهم أو في المناجم، أو في الريف، إن الرسوم الجنائزية التي اكتشفت في أغلب القبور الأتروسكية، تصور العديد من هؤلاء العبيد من نساء ورجال في أوضاع مختلفة يقومون بخدمة أسيادهم في البيوت في التعليم والقصور والمناجم والمزارع ورعي الحيوانات...

كما أن الأسرة الرومانية كانت تفقد هيبتها الأساسية من دون العبيد، وكذلك الكوميديا الرومانية لا يمكن أن تكتب بدون الحديث عن العبيد.

وبما أن الرومان كانوا يحبون الخدمة العسكرية، لذلك اعتمدوا بشكل كبير على العبيد وخاصة أسرى الحروب في تنفيذ أعمالهم. لذلك يعتبر عنصر العبيد من أهم العناصر المؤثرة في تاريخ الإمبراطورية الرومانية، كما أن أصحاب النظرية الاقتصادية حول سقوط روما، يعتبرون أن اضطهاد وظلم العبيد هو من أهم الأسباب التي أدت إلى الثورات ومن ثم إلى سقوط روما.

تعريف العبيد:

يعرّف (فارون Varron) العبد بأنه: «أداة ناطقة» ليميزه عن «الأداة المجترة» وعن «الأداة الصامتة أو الصماء»[١].

تعريف الرق:

الرق هو عمل فردي أو جماعي لخدمة فرد أو جماعة من الناس، وكلمة الرق من الناحية الاجتماعية تعني الإنسان في الصورة والشكل، ولكن في نظر القانون الروماني الرق أشبه (شبيه) بالحيوان، وله نفس المصير، ولا يحق له الملكية، وليس له عائلة، وهو مملوك لغيره، يتصرف به سيده، كما يتصرف المالك بملكه، فمن حق سيده أن يستخدمه في أي عمل، وأن يؤجره ويرهنه ويبيعه ويهبه لمن يشاء، وأن يضربه أو يقتله أو يمثّل به، فالرق من الناحية الاجتماعية هو استغلال الإنسان القوي للإنسان الضعيف والرق يقوم على العمل والإنتاج[٢]، لاسيما في رعي الماشية أو في الزراعة أو في المناجم أو البيوت أو كبحارة في الأسطول الروماني.

متى نشأ الرق؟

لقد نشأت ظاهرة الرق (الاستعباد) خلال فترة التحول من الصيد إلى الزراعة، ففي فترة الصيد وجمع الغذاء، لم يكن هناك وجود للاسترقاق، ولكن عندما انتقل الإنسان من الصيد إلى الزراعة، بدأ ظهور الرق بسبب استقرار الإنسان وتشكل الحياة القروية التي تتطلب أيدٍ عاملة للعمل بالزراعة والصناعة ورعي المواشي وفي البيوت..

لقد ظل وضع الرقيق اجتماعياً قائماً على وجود سيد قوي وعبد مستضعف يعمل من أجل سيده منذ العصور القديمة، مما جعل فكرة الاسترقاق تتغلغل إلى نفوس أرقى الناس والمفكرين والفلاسفة أمثال:

أفلاطون وأرسطو، وكلما تقادم نظام الرق، ازداد الناس ألفة له حتى أصبح من واقع حياتهم[٣]، هذا التصرف عكس أثره على نفسية الروماني وطبيعة تصرفاته مع الآخرين من الشعوب الأخرى[٤].

أما الوضع القانوني للعبد المعتق في روما فكان أفضل حالاً نوعاً ما، حيث كان يحق له أن يصبح مواطناً، ولكن مع بعض القيود التي ما تلبث أن تزول عن أولاده وأحفاده، وبالتالي فإن ذرية هذا العبد المعتق الذي أصبح مواطناً يصبحون أحراراً لاحقاً، وتسقط عنهم صفة العبودية[٥].

ومن حيث التعامل مع القضاء، فإن العبد ليس مسؤولاً عن أعماله أمام المحاكم، أو التعويض عن أي ضرر ألحقه العبد بشخص ما وسوف يؤديه سيده، الذي يستطيع التملص من هذا الضرر، عن طريق تسليم العبد إلى الجهة المتضررة[٦].

ـ صحيح أن العبد لم يكن له الحق قانوناً في أن يجري عقد زواج، ولكن في العصر الجمهوري حدثت عمليات زواج كثيرة بين العبيد اعترفت بها السلطة، كما أن بعض

النساء من الأحرار قد تزوجن من عبيد، وكان أولادهم مواطنين يتمتعون بكامل حرياتهم[٧].

إن عمل العبيد بالزراعة كان صعباً، أما العبيد الذين يعملون في العاصمة كان وضعهم أفضل وأقل شقاءً، أما الذين ذهبوا للأرياف فقد عملوا بالرعي والزراعة، تعتبر هذه الأعمال من الأعمال الشاقة، لذلك نرى أن الظلم الذي تعرضوا له تراكم جيلاً بعد جيل، إلى أن انفجر أخيراً على شكل ثورات، دمرت الاقتصاد الروماني لأن الزراعة تضررت كثيراً بسبب ثورات العبيد، لذلك إن ثورات العبيد وتضرر الزراعة، ساهما بشكل كبير في سقوط هذه الدولة العظيمة[٨].

كما أن العبد الذي يعمل في المزارع، كان يعيش حياة تعيسة، حيث كان يحشر ليلاً في الثكنات، ويساق نهاراً إلى الحقل للعمل، وكان يكوى العبيد بالمياسم، ليبقى الوسم علامة يعرف من خلالها عند الفرار[٩].

أيضاً كان العبيد الذين يعملون في المناجم، والطواحين، يعاملون بشكل سيء جداً.

طبقات المجتمع الروماني:

طبقات المجتمع الروماني تقسم إلى عدة أقسام:

١ ــ طبقة النبلاء.

٢ ــ طبقة الأتباع.

٣ ــ طبقة العوام.

٤ ــ طبقة العتقاء.

٥ ــ طبقة العبيد[١٠].

ـ لقد كانت أوضاع العبيد في العصر الملكي سيئة بسبب سيادة نفوذ وسلطة طبقة على أخرى[١١]. لقد كان الرومان يؤمنون بأنهم يوطدون السلام في العالم من خلال إرغامهم للشعوب الأخرى على الدخول في الإمبراطورية الرومانية[١٢].

لقد كان العبيد عند الرومان يعاملون بشكل سيء، وخاصة الذين يعملون في المزارع، والمناجم، والطواحين، لذلك كان هناك اختلاف بين عبيد المدن لدى أغنياء الرومان، والعبيد العاملين في الريف، وبين الطباخين، والحجاب، إلى آخره..

كما أن القانون الروماني أعطى مالك العبد سلطة غير محدودة، لاسيما حق الموت والحياة، لذلك وضعت قوانين تبين وضع العبد في الدولة والمجتمع الرومانيين[١٣].

ـ أما في العصر الإمبراطوري فقد تحسنت معاملة العبيد إلى حدٍ ما، حيث تم إشراكهم في الحياة العامة، نتيجة أخذ العبر من ثورات العبيد السابقة، لذلك حسن الرومان من أوضاع العبيد المحررين في القرن الأول ميلادي، حيث كان يعهد إليهم الإشراف على أموال الإمبراطورية في الولايات، كما ظهرت جمعيات ترعى حقوق العمال والعبيد (Collegia)[١٤]، ومنحوا بعض الحماية ضد أسيادهم القساة[١٥].

ولكن التطور الأكثر أهمية هو أن العبيد أصبحوا يستطيعون التطلع بمزيد من الثقة نحو إعتاقهم النهائي، كما أصبح عدد من العبيد المعتقين أغنياء ومتنفذين فيما بعد، وأصبح أبناؤهم مواطنين رومانيين كاملين[١٦].

لقد قضى الشرع الروماني بأن يحظى الشخص الذي أعتق بحقوق المواطن الروماني. لكن السلطات الرومانية في العهد الجمهوري لم تشجع العتق، كما أن إغسطس، لم يعترف بعتق أي شخص لم يدفع الضريبة القانونية عن العتق، وحرمه من حقوق المواطن الروماني، ولم يسمح للشخص المُعْتَقِ بالحصول على حقوق المواطن الروماني، إلا بعد الزواج والتوالد. رغم هذه العوائق، ظل العتق جارياً سارياً، وظل

عدد العتقاء ينمو ويرتفع بسبب ظهور جمعيات ترعى حقوق العمال والعبيد (Collegia) [١٧].

وكان العتق يتم في العهد الجمهوري من خلال:

١ ــ الوصية من قبل الشخص الذي يريد عتق عبده فيكتب وصية بعتق عبده بعد مماته.

٢ ــ ويتم عتق العبد عن طريق الإقرار أو الاعتراف أمام القضاء.

٣ ــ أو ببيان خطي موقع من الشخص الذي قام بإعتاق عبده أو يريد اعتاق عبده[١٨].

٤ ــ ويتم عتق العبد من سيده عن طريق إدخال اسم الرقيق في لوائح المواطنين الأحرار، باقتراح المعتق لعبده، وموافقة المراقب (Censor).

لقد كان إقبال الشعب الروماني على عتق عبيدهم بعد وفاتهم كبيراً، حيث أوصوا في كثير من الأحيان بعتق جميع أرقائهم. لذلك صدر القانون الأول في العام /٢/ ق.م الذي يحدد عدد العتقاء تحديداً، فأجاز عتق نصف الأرقاء، إذا كان مجموعهم يتراوح بين الثلاثة والعشرة، ومنع الأغنياء الذين ملكت أيمانهم مئات الأرقاء من عتق أكثر من خمس عُتقاء[١٩].

ويجب على المعتق ذكر من يعتق باسمه.

ــ وفي السنة /٤/ م أصدر أغسطس قانوناً يمنع بموجبه منح حقوق المواطن الروماني لكل شخص أُعتِق، إذا كان قد ارتكب جرماً، وعوقب عليه من قبل الدولة، أو من قبل سيده الذي أعتقه. أما العبد الذي تحلى بالصفات الحميدة، وعمر سيده أكثر من عشرين سنة فيحصل على حقوق المواطن الروماني، لذلك يبقى قدر بقية العبيد أن ينتظروا الحاكم العادل الذي قد يخلصهم من العذاب[٢٠].

ويجب أن يتم العتق أمام ممثل للسلطة يثبت خروجه من الرق عن طريق لمس الرقيق بعكاز السلطة «Vindicte»[٢١]. رغم ذلك ظل المعتق دون المواطن الحر مرتبة، لأنه لم يتمتع بجميع حقوق المواطن الروماني، لأنه كان معرضاً للتعذيب، إذا دُفع دفعاً لقاعة المحكمة، ولم يسمح له بالجلوس على منصة الحكم أو القضاء، أو الانتماء إلى طبقة الكهنة أو إلى الحرس البريتوري أو إلى فرق المشاة.

وعلى العبد المعتق أن يحتفظ باسم سيده، وأن يعطيه المقام الأول «Praenomen»، وباسم قبيلة سيده «nomen» وأن يبقى اسمه الشخصي في المرتبة الثالثة «Cognomen».

ولم يتورّع الروماني الحر عن تحقير المعتق بشتى الوسائل كتذكيره بعبوديته السابقة. وتقديم ألوان من الطعام دون تلك التي كانت تقدم للمواطن الحر.

ـ رغم هذه القيود التي تعرض لها المعتق، ظل المعتق يتمتع بعدد غير قليل من الامتيازات، فقد أعفي من مال الإعتاق، ومن مال الأراضي، واشترك في النقابات، وسيطر على بعضها، وتزوج من النساء الأحرار، وأصبح أبناؤهم مواطنين رومانيين كاملين[٢٢]، واحتكر حق خدمة الآلهة غير الرومانية، ولعب دوراً لائقاً في عبادة أغسطس[٢٣]، وأصبح عدد من العبيد أغنياء ومتنفذين فيما بعد[٢٤].

وإذا تفوق العبد في المقدرة والأمانة، وعلِمَ أغسطس بذلك، فكان أغسطس يمنحه حق لبس الخاتم الذهبي «ius onuli avrei» ومن ثم يصبح مساوياً للمواطن الحر ولائقاً للدخول في طبقة الفرسان.

لذلك انتقى أغسطس خدامه الشخصيين من عتقائه، وفوضهم: بإدارة أملاكه وأمواله الشخصية «patrimonium Caesaris» لاسيما أمين السر الإمبراطوري « libert ab epistvlis».

وأمين المال «libert a rationibus». وأمين الاستعطاف «libert a libellis». وسكرتيره القضائي «libert a cognitionibus».

ــ ولم يبلغ سائر العتقاء ما بلغه عتقاء أغسطس من النفوذ والعزة، ولكنهم تمتعوا جميعاً بامتياز واحد، هذا الامتياز خفف كثيراً من وطأة الشعور بالنقص الاجتماعي الذي كان يحز في صدورهم. كما أن أولادهم بعد العتق أصبحوا يولدون أحراراً «ingenu» كسائر المواطنين، وحملوا أسماء رومانية قديمة، أخفت ما لحق بآبائهم من وصمة العبودية.

لقد قدر العلماء نسبة الرومانيين الأحرار في روما، أحفاد الأحرار بعشرة في المئة فقط من مجموع السكان. أما الباقون فإنهم كانوا جميعاً في وقت مضى عتقاء أخذ عنهم الرق أخذاً[٢٥]. لذلك كثر عدد الأرقاء في روما في أوائل العهد الإمبراطوري، حيث بلغ عددهم مئتي ألف عبد من أصل سبع مئة ألف نسمة من الأحرار، وكانت نسبة الرقيق في روما واحداً من ستة، أما في بعض المدن فكان يوجد فيها مجموعة من التجار وأصحاب الحرف وعدد قليل من العبيد[٢٦].

مصادر العبيد:

١ ــ الاسترقاق من أسرى الحروب:

إذا غزا الرومان أي بلد أو مدينة واستولوا عليها، يؤول كل ما فيها للغالب[٢٧]، حيث يبيعون رجالها ونساءها وأولادها، كما يباع العبيد أو يقتلون جميعاً، أي أن جميع سكان البلد المفتوح هم ملكاً للفاتحين، يتصرفون بهم كما يرغبون[٢٨]، إن شاؤوا استعبدوهم وإن شاءوا أعتقوهم، وكانوا يعاملونهم كغنائم يبيعونهم للنخاسين الذين يرافقون الجيش الروماني، وإذا نقلوهم إلى روما، بيعوا بالمزاد العلني[٢٩]، حيث يوجد سوق للرقيق في كل مدينة، فيعرض العبد على صندوق خشبي، وتُعلق في عنقه بطاقة

كتب فيها عمره وأوصافه وعيوبه، فكانوا يبيعون بعد كل حرب ألوفاً من الأسرى رجالاً ونساءً وأولاداً[٣٠].

٢ ـ الاسترقاق بسبب الدين:

كل شخص يستدين مبلغاً من المال، لفترة محددة ولا يستطيع سداده يحول إلى عبد[٣١].

إذا عجز إنسان حر من طبقة العوام عن قضاء دينه، فعند ذلك يرهن نفسه أو أولاده أو زوجته لدى دائنه، ويتحول عند ذلك الرهين إلى عبد. وتقول إحدى مواد قانون «الألواح الاثنا عشر» بأنه إذا وجد عدة دائنين، لهم دين على نفس الشخص، فيحق لهم أن يتوازعوا النفس الرهينة، وذلك بتقطيع الجسد وبتقاسمهم إياه[٣٢].

ويقول المؤرخ الروماني (تيطوس ليويوس) بأن هذا النوع من الرقيق قد أُلغي بموجب قانون صدر (عام ٣٢٦ ق.م). ولكن المؤرخ تيطوس يقول بأنه:

ليس من المؤكد أن القانون أُحترم دائماً[٣٣]، ويمكن للدائن أن يبيع المدين فيما وراء نهر التيبر[٣٤].

٣ ـ ابن العبد يحوّل إلى عبد[٣٥]:

وأبناء العبيد يسمون بالربيعيين، وكان ثمنهم غالياً، لأنهم يعتادون منذ الطفولة على الاستسلام والخنوع[٣٦]. والرقيق بالولادة يطلق عليه اسم «Verna». والطفل الوليد يتبع عادة وضع أمه الحقوقي، فإذا كانت حرة فهو حر، وإذا كانت أمة فهو رقيق[٣٧]. وكان الدائن يُحضر المدين أمام الحاكم، وله الحق أن «يلوي عنقه»[٣٨].

٤ ـ الاسترقاق بسبب الجريمة:

إذا امتنع شخص عن الحضور أمام المحاكم أو الكاهن أو ولي أمره أو امتنع عن أداء الضريبة يصبح رقيقاً[٣٩]. ومن يعاقب بجرم كبير كالقتل يحوّل إلى عبد[٤٠].

٥ ـ بمقتضى سلطته المطلقة على أملاك العائلة وأفرادها:

كان يحق لرب العائلة أن يبيع أولاده كعبيد، لمدى الحياة أو لفترة محددة. ولقد قيدت فيما بعد قوانين «الألواح الاثنا عشر» سلطة الوالد المطلقة، عندما نصت إحدى المواد على أنه لا يحق للأب أن يبيع ابنه أكثر من ثلاث مرات، حيث يفقد الأب بعد ذلك، سلطته على ابنه، وأن الابن يصبح حراً بعد بيعه ثلاث مرات[٤١]. أما الأولاد الذين يعرضون للبيع يحولون إلى عبيد[٤٢].

٦ ـ عدم الاعتراف بالولد يحول إلى عبد:

تقضي العادة أن يحمل الأب ابنه الوليد في اليوم التاسع من ميلاده (أما بالنسبة للإبنة فيكون في اليوم الثامن)، وذلك دلالة على الاعتراف بالوليد. ويحق للأب أن يمتنع عن ذلك، ومعنى ذلك أنه رفض الاعتراف بالوليد بأنه ابنه، وحينئذٍ يهمل الطفل على رصيف الشارع فيهلك أو يلتقطه أي إنسان ويجعله عبداً[٤٣]. كل الأطفال المتخلى عنهم (اللقطاء) يحولوا إلى عبيد اللقطاء[٤٤].

٧ ـ إذا لم يسجل الروماني نفسه على لائحة المواطنين الأحرار أثناء الإحصاء العام الذي يشرف عليه المراقبان المنتخبان، كل خمس سنوات، فإنه يتحول إلى رقيق[٤٥].

٨ ـ كل شخص يخطف ويقع في أيدي قطاع الطرق والقراصنة، يحوّل إلى عبد، حيث يستطيع خاطفوه أن يبيعوه في سوق النخاسة[٤٦].

لم يعرف القدماء قانوناً دولياً للأحوال الشخصية. وبمجرد خروج الإنسان الحر خارج حدود وطنه، كان عرضة للقرصنة، ومصادرة الأشخاص الأحرار وبيعهم كأرقاء، كان أمراً مألوفاً لدى القدماء. والقوة وحدها هي التي تحمي الإنسان الحر البعيد عن شعبه وبلاده. وسيظل القراصنة يعيثون فساداً في مختلف أرجاء البحر الأبيض المتوسط حتى نهاية العهد الجمهوري. وكانوا يسطون على الشواطئ ويختطفون السكان ويبيعونهم كعبيد في البلدان البعيدة[٤٧]. ولما كانت القرصنة مصدراً للعبيد،

فإن القراصنة أنفسهم أصبحوا عبيداً في العهد الجمهوري في سنة /٦٧ ق.م/ حيث بلغ مجموع الأسرى من القراصنة أكثر من عشرين ألفاً[٤٨].

٩ ــ الطفل الذي يُسرق من قبل شخص ما يحوّل إلى عبد[٤٩].

١٠ ــ الأولاد المهملون من قبل أهلهم يحولون إلى عبيد[٥٠].

١١ ــ كل شخص يفقد أبويه أي (اليتيم) يحوّل إلى عبد[٥١].

١٢ ــ عن طريق الشراء: يستطيع أي شخص شراء العبيد من أسواق العبيد، لاسيما من آسيا بعد حرب انطوخوس الثالث، ومن غالية بعد حروب يوليوس قيصر، ومن البونت بعد حروب متراداتس، ومن سوق جزيرة ديلوس[٥٢].

١٣ ــ المساجين في السجون الرومانية عندما يباعوا يحولون إلى عبيد[٥٣].

١٤ ــ كل شخص يهرب من الخدمة العسكرية في روما يعاقب مقترفها من خلال الحقوق المدنية ويحوّل إلى عبد[٥٤].

١٥ ــ تحول المرأة الحرة إلى عبدة إذا ثبتت معاشرتها للملوك.

١٦ ــ تعتبر السرقة من أسباب الاسترقاق في روما القديمة، وللقاضي في العهد الإمبراطوري الحق بتحويل كل شخص سارق ثبت تدليسه وخداعه إلى عبد.

١٧ ــ كل شخص محكوم عليه بالإعدام أو الأشغال الشاقة يحوّل إلى عبد ويسقط حقه بالتصرف بأمواله، ولا تورث أملاكه من بعد موته[٥٥].

١٨ ــ إذا تزوج الحر من رقيقة يحوّل إلى عبد.

١٩ ــ إذا تزوجت الحرة من رقيق، تفقد حريتها[٥٦].

٢٠ ــ ولما كثر عدد المتسولين في روما، اتخذت الدولة تدبيراً إدارياً يتعلق بهم، فقد كانت تمنحهم لمن يخبر عنهم، فيستخدمهم أقناناً في الأرض.

ـ إن أغلب العبيد الذين كانوا يعرضون للبيع كانوا من آسيا الصغرى، وسوريا، واليونان ومصر[٥٧]، إلا أن أغلب الرقيق الشرقي كان أرقى من سيده، أما الرقيق الشمالي والغربي، الذي جاء من ألمانيا وفرنسا فقد تميز بقوته الجسدية وخشونته، لذلك كُلِّف هؤلاء بالحراثة والزراعة ورعاية المواشي[٥٨].

ـ لقد أصبحت تجارة العبيد شكلاً من الاقتصاد الأليف، الأكثر ربحاً، حيث كان تجار اللحم البشري (العبيد) يتابعون الفصائل العسكرية، ويشترون العبيد منهم[٥٩].

أسواق العبيد:

لقد كانت الفتوحات الرومانية ينابيع تدفقت منها على إيطاليا أسرى الحروب الذين كانوا يباعون عبيداً[٦٠]، لذلك أُنشئت عدة أسواق تجارية ضخمة لبيع العبيد كان أهمها:

١ ـ سوق في مسينيا يقع عند مصبات الرون.

٢ ـ سوق في أكيليا يقع على الشاطئ الشمالي للأدرياتيك.

٣ ـ كما افتتح في روما ذاتها سوق للعبيد على رصيف الطريق المقدس، والذي يقع عند كعب الكابيتول، هذا السوق لا يغلق إطلاقاً، كان العبيد متواجدين فيه بشكل دائم ومعروضين للبيع يباعون فيه كما تباع الدواب.

٤ ـ سوق في جزيرة ديلوس، والذي يعتبر من أهم الأسواق. ويقول (سترابون) كان يصل عدد العبيد المباعين في هذا السوق في يوم واحد إلى عشرة آلاف عبد[٦١].

٥ ـ سوق العبيد في جزر البليار[٦٢].

أسعار العبيد:

لقد تفاوت سعر الرقيق بتفاوت درجة رقِّه، وتغيير ظروف العرض والطلب. وليس من السهل تقدير الأسعار التي دونها «بلاوتس = plautus»، كما أنه يصعب التثبت من

صحة ما جاء في الأدب اللاتيني. فإن (كولوميلة = colomella) يعتبر أن ثمانية آلاف سسترِكة هو سعر عادل لرقيق يجيد تقليم الكرمة[٦٣].

أما (هوراتيوس) فيجعل سعر الرقيق المثقف ١٠٠،٠٠٠ سسترِكة[٦٤]، لقد كان للعبيد أسعار مختلفة فمثلاً العبد المخصص للأعمال العسيرة أو الكبيرة يصل سعره إلى ٢٠٠٠ سسترس.

العبد المتعلم سعره /٨٠٠٠/ سسترس.

العبد الطباخ يصل سعره إلى /١٠،٠٠٠/ سسترس[٦٥].

ـ لقد عاون الرقيق سيده في عمله في تجارته أو صناعته أو حرفته. وبعضهم تولى إدارة المصانع والمتاجر. ودخل بعضهم في خدمة الحكومة، فشغلوا المراكز المدنية العادية.

لقد كان (كاتو...) يقول: يجب تشغيل الرقيق في الحقول حتى الموت وابتياع من يحل محله، أرخص من العطف عليه فإن أصحاب المزارع الكبيرة، اكتشفوا لأنفسهم مع مرور الزمن، أن إنتاج هذا النوع من العمل، لم يكن مشجعاً، وأن العناية بالرقيق إلى حد الحرية كان أفيد وأنفع[٦٦].

هذا الاستغلال للعبيد كان يرهقهم كثيراً في الأعمال الزراعية، وفي عام /١٦٠/ طلب كاتون من المسؤولين زيادة أعباء العبيد، دون مراعاة الوقت ولا يوم العطلة. لقد كانوا يعطلون مرتان في العام فقط، مرة بمناسبة أعياد رأس السنة، ومرة في نهاية السنة.

إذاً يتحرر العبيد مرتين في العام من العمل فقط، وكان العبيد يعملون وهم جائعين، وأما طعامهم الشهري فيقدر بـ ٢٥ ـ ٣٠ كغ من الحنطة الرومانية، التي يدقونها بأنفسهم في جرن، ويصنعون منها خبزاً يأكلونه بشكل عصيدة، ويعطونهم نصف ليتر من زيت الزيتون، ويشربون عصير العنب الحامض المدد كثيراً بالماء.

لباس العبيد:

كان العبد يسلم كنزة لعام كامل، ومعطف قصير لسنتين، أما ثيابهم الرثة فيصنعون منها أغطيتهم، كما يسلّم العبد قبقاباً خشبياً لمدة عامين.

يقول المؤرخ ديودوروس كان أغلب العبيد في سيسيليا مضطرين لسرقة غذائهم وثيابهم(٦٧).

أهم الأعمال التي كان يعمل بها العبيد:

ـ لقد كان العبيد خاضعين لاستغلالٍ لا يرحم، حيث كانوا يعملون في المناجم، والمقالع، وفي الصناعة(٦٨)، في الزيوت، في الطواحين، في الأفران، في ورشات السيراميك، في النسيج، في تجارة الطحين، ومما يدل على ذلك حالة أولئك العبيد الذين يعملون في طاحونة، فهم شاحبو الوجوه(٦٩).

أما عمال المناجم فيقول ديودوروس: لا يرتاح العبيد، ويعملون طوال اليوم تحت الضرب حتى يقع العبد على الأرض. وكان الضرب يتم بقبضات اليد على الوجه مباشرة، لذلك نجد كثيراً ما كان هذا الضرب يؤدي إلى قلع أسنان أو عين العبد، وأحياناً يضرب العبد بالعصي والسياط. أما العبد الذي يسرق فكانوا يحرقون يديه بالحديد المحمى بالنار حتى الإحمرار. أما العبد الثرثار فيكوى لسانه بالحديد المحمى بالنار حتى الإحمرار.

أما العبيد الذين يهربون والسيئون والأقل طاعة، فكانوا يقيدون بسلاسل حديدية، ويوضعون في سراديب، أما أعمالهم فكانت شاقة لاسيما تدوير حجر الرحى أو في المقالع وأحياناً كانوا يصلبون(٧٠).

أيضاً لم تكن حياة العبيد في الزراعة والأعمال الأخرى، أرقى من حياة البهائم، لقد كانوا يكوون بمياسم محماة بالنار، فيبقى الوسم علامة أبدية يُعرفون من خلالها. وكان سادتهم

يضعونهم ليلاً في ثُكن، وفي النهار يساقون إلى الحقل كدواب الحمل ليعملوا فيها، لذلك عمل العبيد في ظروف صعبة وسيئة[٧١]، ويمكننا أن نلمس المعاملة السيئة التي لقيها عبيد المنازل، إذا علمنا أن أحد السادة الرومان كان يصر على أن يقف خدمه حول المائدة صامتين، وكان يعاقب كل من يعطس منهم بالجلد[٧٢].

ولأجل هذا الظلم، وهذه المعاملة السيئة الوحشية التي كان العبيد يعاملون بها قامت ثورات العبيد في أنحاء مختلفة من إيطاليا[٧٣]. هذه الثورات انطلقت لأجل الحرية الاجتماعية مع بداية القرن الثاني قبل الميلاد، بسبب تنامي أو ازدياد الضغط على اليد العاملة للعبيد، لذلك أخذت حركة الرقيق طابع التمردات المحلية، حيث اشترك فيها ألوف العبيد، ولكن في أفق إقليمي محدود.

أما الانفجار الأول كان عام ١٩٨ ق.م في المستعمرة الرومانية سيتيا في اللاتيوم، هذه المستعمرة كانت مركزاً للأسرى القرطاجيين من الأسر النبيلة والحاكمة، والذين كان لهم خدم وعبيد، لقد كان سادتهم يضعونهم ليلاً في ثكنات ، وفي النهار يساقون إلى الحقل كدواب الحمل، ليعملوا فيها[٧٤]، حياتهم كانت بائسة سيئة، لذلك فكروا بالثورة والتمرد ضد أسيادهم، لكن هذه المحاولة فشلت، لأن الخونة منهم وشوا بهم إلى سلطات العاصمة.

وهناك انتفاضة أخرى أضخم من الأولى حصلت في عام ١٩٦ ق.م في اترورريا، والتي كان سببها، تسلط أحد الملوك الكبار في الريف، واضطهاده للعبيد الذين يعملون عنده، هذا الظلم ولّد لديهم شعوراً بالحقد على سيدهم، حيث نجحوا في تشكيل جيش حقيقي، إلا أن القادة الرومان نجحوا في هزيمتهم في معركة نظامية حيث قتل أغلبهم، وصلب قادتهم، والبعض الآخر أعيد إلى سيده، وآخرون سجنوا[٧٥].

وفي العام ١٨٥ ق.م، انتفض رعاة أبوليا، حيث كانوا يهاجمون الطرقات والمراعي العامة، لكن الحاكم الروماني «يوستوميوس» نجح في القضاء على انتفاضتهم، حيث أعدم منهم /٧٠٠٠/ عبد متمرد، وهرب بعضهم، والباقي سلموا للتعذيب.

لقد أثرت عصيانات العبيد، في بداية القرن الثاني قبل الميلاد على أقاليم عديدة، لكن انتفاضات العبيد أصبحت الآن أكثر جرأة وتلازماً، رغم محافظتها على الطابع المحلي[٧٦]، لكن في النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد، نشبت تمردات شملت ولايات بكاملها، لاسيما في سيسيليا، وأتاكيا، وإقليم آسيا[٧٧]. لكن روما قمعت هذه الثورات جميعاً، ومع ازدياد عدد العبيد بأطراد، واستمرار وضعهم السيئ، وخاصة العبيد الذين يعملون بالزراعة بشكل خاص، لذلك نشبت الثورات من جديد في صقلية من قبل العبيد الذين يعملون بالزراعة والرعي، ولكن العبيد الرعاة في صقلية كانوا أخطر فئة من فئات العبيد، لأن طبيعة عملهم، كانت تقتضي بإعطائهم حرية التنقل من مكان لآخر، مما كان يجعل الرقابة عليهم أكثر صعوبة منها على غيرهم. لذلك كانت لديهم أفضل الفرص لتدبير الثورات. وبما أن العبيد جميعاً معرضون للتعذيب[٧٨]، ويحيون حياة صعبة جداً، لذلك لا أمل لهم في التخلص من وضعهم التعيس إلا بالثورة، ولم ينقصهم إلا زعيم يشكل لهم جيشاً من العبيد ويقودهم[٧٩].

ثورة (يونس = Junus) السوري:

ومنذ منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، قام عبيد صقلية بثورات متفرقة، ولكنهم في خريف عام ١٣٥ ق.م قاموا بثورة عارمة[٨٠]، فاقت في خطورتها كل الثورات التي سبقتها.حيث ظهر بين عبيد صقلية زعيم قدير سوري الأصل يدعى (يونس = Junus) والذي استطاع بفضل براعته في أعمال الشعوذة وقوة شخصيته أن يكتسب مكانة رفيعة بين عبيد صقلية بوجه عام، مما مكنه من أن يوحد صفوفهم ويدفعهم إلى القيام بثورة هائلة، لم يستطع الرومان إخمادها، إلا بعد مجهود شاق على مدى ثلاثة أعوام.

لقد بدأت ثورة يونس بالقرب من مدينة (إنّا = Enna) في وسط جزيرة صقلية، في ضيعة رجل إغريقي اشتهر بالقسوة، وذات ليلة تجمع /٤٠٠/ عبد في هذه الضيعة[٨١]. وتحت جنح الظلام اقتحموا المدينة، وأعملوا الذبح في كل من صادفهم، إلى أن تمت لهم السيطرة على المدينة. ولم ينج من نقمتهم إلا القليلون، الذين اتصفوا بالحسنى في معاملة العبيد، وكذلك الصناع الذين يستطيعون تصنيع الأسلحة لهم.

لقد نجح (يونس) في استغلال هذا النصر المبدئي لدعم مركزه ونشر نفوذه، بأن نادى بنفسه ملكاً عليهم، واتخذ لنفسه اسم أنطيوخوس، وهو الاسم الذي حمله كثيرون من ملوك سوريا السلوقيين، كما خلع على زوجته لقب ملكة، وشكل مجلساً استشارياً من أكثر الثوار قدرة وكفاية، وكان أبرزهم رجل يدعى (أخايوس = Achaeus)، بسبب شجاعته حيث شكل جيش الثورة، وفعلاً بدأ الثوار يتدفقون عليه من المناطق المجاورة لمدينة (إنّا)، لذلك ازداد عددهم، خلال فترة قصيرة من ٤٠٠ عبد إلى ٦٠٠٠ عبد[٨٢]، وبعد شهر زاد عدد الثوار بشكل كبير، وأصبحت لهم قاعدة ثانية في مدينة (أجريجنتوم = Agrigentum)، والتي ظهر فيها رجل يدعى (قليون = Cleon). أن أنباء ما حدث في أنّا أغرت قليون على أن يحتذى بيونس، لذلك استولى على (أجريخنتوم). ورغم نجاح (قليون) في الاستيلاء على (أجريجنتوم)، إلا أنه وضع نفسه ورجاله وكل موارده تحت زعامة الحركة الأولى.

ثم انضم إلى جيش يونس حوالي /٥٠٠٠/ ثائر آخرين، مما شجع غيرهم على الانضمام إلى هذا الجيش، حيث بلغ تعداده حوالي /٢٠،٠٠٠/ ألف مقاتل، حيث نجح هذا الجيش في الاستيلاء على مدينتي (تاورمنيوم = Tauremnium) و(قاتانا = Catana).

لقد أقلقت هذه الثورة الحكومة الرومانية قلقاً شديداً، وإزاء ذلك، لم يكن أمام الحكومة[٨٣]، سوى القضاء على هذه الثورة، وحث كلفت البرايتور (لوقيوس بلاوتيو)

بقيادة الجيش الروماني الذي يتألف من /٨٠٠٠/ مقاتل، لكنه هزم أمام جيش الثـوار، وبفضل هذا النصر، اشتد ساعد الثوار وتزايد عددهم.

وفي عام /١٣٤/ ق.م أسندت قيادة القوات الرومانية في صقلية إلى القنصل (جـايوس فولفيوس)، لكنه لم يحرز أي نجاح.

وفي عام /١٣٣/ ق.م أسندت قيادة القوات الرومانية إلى القنـصل (لوقيـوس بيـسو Piso)، حيث تمكن من الاستيلاء على بعض معاقل الثوار.

وبذلك يكون (بيسو) قد مهد الطريق للقضاء على الثورة في عهـد خلفـه (بوبليـوس روبيليوس = P. Rupilius) أحد قناصل عام /١٣٢/ ق.م[٨٤]، حيث نجح في الاستيلاء على كلٍ من تاورمنيوم، وإنّا حيث هرب يونس، وقتل (قليون).

أما يونس وآخايونس فقد نجحوا في الهروب بعد ذلك كلف (روبيليوس) كتائبه، بمهمة القضاء على هذه العصابات، وبالفعل نجحت هـذه الكتائـب بالقـضاء علـى هـذه العصابات، فعاد الهدوء من جديد إلى صقلية بعد ذلك تم إلقاء القبض علـى يـونس، ولكنهم لم يعدموه، وإنما أودعوه السجن إلى أن مات ميتة طبيعية[٨٥]. ولعل ذلك يكون أقسى حكم بعد أن ذاق حلو العيش كملك، ثم هبط من قمة الهرم لأسفله.

حرب العبيد الثانية في صقلية:

بعد نجاح روما في إخماد هذه الثورات لم تعن باستئصال أسباب التذمر، مما كان من شأنه أن حفزهم على تحين الفرص للثورة مرة أخرى. لذلك لا عجب أن ديـودوروس الصقلي يحدثنا بأنه قبيل الثورة الكبرى الثانية لعبيد صقلية، قام العبيد في إيطاليا أيضاً ببعض الثورات المحلية الصغرى في أماكن متفرقة، وكانت أولهـا فـي (نوقريـا = Nuceria) حيث كوّن ثلاثون عبداً مؤامرة قضي عليها سريعاً[٨٦].

أما الثورة الثانية فكانت في قابوا، حيث ثار مئتا عبد، أيضاً تم القضاء عليها من قبل القوات الرومانية.

أما الثورة الثالثة فكانت غريبة في بابها، وأخطر من الثورتين السابقتين، ذلك أنه في عام ١٠٤ ق.م، تكاثرت الديون على فارس روماني يدعى (تيتوس فتِّيوس = Vettius) أحب أَمَة منهم[٨٧]، وأصيب بالإفلاس، وعندما عجز عن الوفاء بسداد ديونه، دبر بوسائله الخاصة اقتراض مبلغ من المال أنفقه في شراء /٥٠٠/ زرد، وسلح عبيده[٨٨] وقتل دائنيه، ولبس الأرجوان[٨٩]، وأقام نفسه ملكاً على قمبانيا، ثم زحف على الضياع في المنطقة المجاورة لضيعته، ودعا عبيدها للثورة، فلبوا الدعوة مباشرة، فسلحهم وكوّن منهم جيشاً قوامه /٣٥٠٠/ عبد[٩٠]. لقد أدرك مجلس الشيوخ الروماني على الفور خطورة الموقف، وبادر بإرسال قوة على رأسها البرايتور (لوقولّوس Lucullus) للقضاء على مغامرة (فيتّيوس)، ومما يجدر بالملاحظة أن (لوقولّوس Lucullus) لم ينجح في مهمته إلا بفضل الخيانة والخديعة[٩١]، لذلك انتحر فيتيوس حتى لا يسقط بين يدي عدوه[٩٢].

ثم انتشرت من جديد حركة الاضطرابات في صقلية، على أثر طلب تقدم به بعض السكان طالبين فيه من مجلس الشيوخ إطلاق سراح الرجال الأحرار الذين استقروا نتيجة لعمل من أعمال العنف. فأمر مجلس الشيوخ والي صقلية بالقيام بهذه المهمة. وتحرر بنتيجته خلال عدة أيام ثمانمائة عبد، مما يدل على كثرة الأرقاء في الجزيرة. إلا أن المتنفذين استطاعوا إيقاف أعمال التحرير، فكان عملهم إيذاناً بنشوب ثورة كبرى، هب فيها الأرقاء المقيمون في شرقي الجزيرة. فنصّبوا عليهم ملكاً منهم هو (سالفيوس = Salvius) كما ذهب الأرقاء في غرب الجزيرة ونصبوا عليهم المنجّم الصقلي (أتنيون = Athenion)، ولم يلبث هذا الأخير أن أعلن خضوعه إلى سالفيوس الذي انفرد بالملك، وألف مجلس شيوخ، وبدأ يحارب قواد الرومان الذين أرسلوا للقضاء على ثورته، وكان بينهم (لوكولوس وسرفيليوس). وقد قتل (سالفيوس) في

إحدى المعارك، فتولى بدلاً عنه (أنتيون). وأخيراً أرسلت روما لقتاله قنصلاً وهو (مانيوس أكيليوس = Manius Aguilius) زميل ماريوس[٩٣]، ففرض المعركة عليه. وقتل أنتيون، وتفرق أنصاره وأسر بعضهم، ونقلوا إلى روما ليقدموا في الملاعب إلى الوحوش الضارية. إلا أنهم قتلوا بعضهم بعضاً في السجن، ولم يتركوا الرومان يتلهون بمناظر تعذيبهم. والخلاصة أنه قتل خلال الحوادث الماضية عدد كبير من الأرقاء، وفرض الرومان على من بقي منهم حياً أنظمة شديدة، ومنعوهم من اقتناء السلاح[٩٤]. لقد تضرر الاقتصاد الروماني كثيراً من ثورات العبيد، بدلاً من تنشيط الاقتصاد[٩٥].

ثورة سبارتاكوس (Spartacus) ٧٣ ـ ٧١ ق.م:

بينما كانت المخاطر تهدد روما في شرق وغرب البحر الأبيض المتوسط[٩٦]، اندلعت ثورة عاتية قادها العبيد المصارعون (Gladiators) من داخل إيطاليا ذاتها[٩٧]، بسبب وضعهم السيئ، وتدريبهم القاسي، ومصيرهم المؤكد هو الهلاك إن عاجلاً أم آجلاً[٩٨]. لقد كانوا يُدربون على التصارع في حلبة تسمى المجلد (Arena)، فرشت أرضها بالرمال، حتى يقتل أحدهم الآخر، في جوٍ حماسي من قبل الجماهير وتصفيقهم لهذا العمل الوحشي[٩٩].

وفي خلال عام ٧٣ ق.م، هبّ حوالي سبعين من مصارعي مدرسة كابوا ثائرين بزعامة مصارع يدعى (سبارتاكوس)، ولم يكد هؤلاء الثوار يعتصمون بأحد الجبال، حتى أخذ ينضم إليهم عدد كبير من العبيد التراقيين والسلت والجرمان[١٠٠]. الذين ضاقوا ذرعاً بحياتهم في الضياع التي كانوا يعملون بها، ونجح هؤلاء في القضاء على حملتين أرسلهما السناتو، مما أدى إلى اتساع نطاق نشاطهم، وازدياد عدد الذين انضموا إليهم إذ وصل في نهاية عام ٧٣ ق.م إلى حوالي ٧٠،٠٠٠ ألف ثائر من المسلحين[١٠١].

ولما كان سبارتاكوس أعقل من أن يتصور أنه كان في وسع عصابات من العبيد الاحتفاظ طويلاً بسيطرتها على جنوب (إيطاليا) [١٠٢]، لذلك رأى أنه من الحكمة الاتجاه شمالاً إلى الألب، ثم يذهب كلٍ منهم إلى وطنه الأصلي [١٠٣]. بيد أن (قريكسوس) وأتباعه من الغال، وكذلك الجرمان عارضوا هذا الرأي الحكيم مفضلين البقاء في إيطاليا لينعموا بما كانوا يجنونه من وراء أعمال السلب والنهب، مما أرغم (سبارتاكوس) على العدول مؤقتاً عن فكرته.

وفي عام ٧٢ق.م تولى القنصلان ــ (لوقيوس جليّوس بوبليقولا = Gellius Publicala) (وجنايوس قورنليوس لنتولوس قلوديانوس)، أمر بقمع ثورة العبيد، لكن سبارتاكوس أنزل بالقنصلين هزيمة بعد أخرى وشق طريقه إلى الشمال حيث هَزَم عند موتينا، جايوس قاسيوس بروقنصل غاليا في منطقة الألب [١٠٤]. ومع أن الطريق أصبح مفتوحاً أمام العبيد ليبرحوا إيطاليا، إلا أنهم لم يفعلوا ذلك، وعادوا أدراجهم جنوباً قاصدين صقلية [١٠٥]، يبدو أن النجاح الذي صادفه العبيد قد ساعدهم على إقناع سبارتاكوس بالذهاب إلى صقلية حيث يوجد آلاف من العبيد المتذمرين الذين كانوا على أتم استعداد للانضمام إليهم، وبذلك يتحرر هؤلاء العبيد، ويتوافر للثوار من القوة والموارد ما يمكنهم من الاحتفاظ بصقلية والاستمتاع بخيراتها [١٠٦]. أو بسبب عشقهم للسطو والنهب [١٠٧].

وللخروج من هذه الأزمة بعد الكوارث التي أنزلها العبيد بالقوات الرومانية اتجه السناتو في أواخر عام ٧٢ ق.م إلى البرايتور (مارقوس ليقينيوس كراسوس) فمنحه سلطة بروقنصلية غير عادية، ووضع تحت إمرته ثمان فرق [١٠٨]، إلى جانب فلول الفرق الأربع التي كانت مع القنصلين.

لقد كان كراسوس ممن ساعد (سلا) في السيطرة على إيطاليا من قبل وأثبت كفاءته العسكرية، ومع ذلك فإنه فشل في سد الطريق جنوباً في وجه سبارتاكوس ورجاله

فتمكن العبيد من الوصول إلى رجيوم «Rhegium» في أقصى الطرف الجنوبي من إيطاليا، ولكنهم فشلوا في الحصول على السفن التي تنقلهم إلى صقلية[١٠٩]. وعندئذ حاول كراسوس حصر العبيد في تلك المنطقة الضيقة المجدبة ليرغمهم على الاستسلام، ولكن دون طائل، فقد استطاعوا أن يشقوا سبيلهم شمالاً ثم انعطفوا شرقاً صوب «بروندیزیوم» على أمل أن يستطيعوا الإبحار منها[١١٠]. بيد أن وصول ماركوس لوقولّوس عندئذٍ وهو في طريق عودته من مقدونيا سد طريق بروندیزیوم في وجوههم فحولوا اتجاههم صوب الشمال حيث التقوا بكراسوس[١١١].

وفي هذه الأثناء حين كان كراسوس لا يزال عاجزاً عن قهر العبيد كان بومبي قد أنهى حرب سرتوريوس وعاد إلى إيطاليا، فتقرر أن يهبَّ لمساعدة كراسوس في مهمته. بيد أنه قبل اشتراك بومبي في محاربة العبيد كان الخلاف قد دب في صفوفهم، مما يسر على كراسوس أن ينزل بهم هزيمتين فادحتين، وأن يقتل (سبارتاكوس) وعدداً كبيراً منهم[١١٢]. وعندما فرّ كثيرون من العبيد شمالاً، التقى بهم بومبي ثم قضى على البقية الباقية من هؤلاء الثوار[١١٣]، وبذلك خوّل لنفسه الزعم بأنه هو الذي أنهى حرب العبيد وأخمد ثورتهم[١١٤].

في الحقيقة أن ثورة العبيد بقيادة سبارتاكوس والتي استمرت من ٧٣ ق.م إلى ٧٠ ق.م. فقد قضى كراسوس عليها تقريباً، وأكمل بومبي على بقيتها، وهوفي طريق عودته من إسبانيا[١١٥]، واكتسب بومبي وكراسوس شعبية كبيرة مكنتهمامن التقدم سوياً لمنصب القنصلية على الرغم من معارضة مجلس السناتو[١١٦].

الخاتمة:

في الحقيقة لقد كان سبارتاكوس رجلاً شجاعاً وحارب من أجل الحرية، لذلك شجع رفاقه على أن يحطموا الأغلال التي كبلتهم، لا من أجل السلب والنهب، ولا من أجل الوصول إلى مقاعد الحكم، وإنما لكي يتنسموا عبير الحرية، ويعيشوا كما ولدوا

أحراراً، لذلك يستحق سبارتاكوس الإجلال والتقدير من أجل هبته للحرية وشجاعته في القتال من أجل الفوز بها، وبراعته في التنظيم وقدرته على أن يكوّن من رفاقه غير النظاميين جيشاً استطاع أن ينزل هزائم متعددة بالجيوش الرومانية إلى أن دبت الفرقة بين صفوف رجاله وانقسموا على أنفسهم فقدم حياته قرباناً للحرية.

نتائج ثورة العبيد:

أما أهم نتائج ثورة العبيد فهي:

هذه الثورات خربت جنوب إيطاليا تخريباً كان له تأثيره على الحياة الاقتصادية في إيطاليا.

ـ دقت ناقوس الخطر من جديد، مما حفز كثيرين من كبار ملاكي الأراضي على أن يفتحوا صفحة جديدة، من حيث تحسين معاملة العبيد.

ـ الاتجاه نحو استبدال الأجراء الأحرار بالعبيد حتى لا تنشب ثورة أخرى بين العبيد بمثل خطورة هذه الثورة.

ـ إن انتصار كراسوس أدخل في روعه أنه قائد عسكري يتمتع بمواهب عظيمة الشأن.

ـ إن مشاركة بومبي (لكراسوس) في النصر النهائي حرم كراسوس الفضل كل الفضل في شرف إنهاء الحرب، لذلك أصبح كراسوس يكره بومبي كرهاً شديداً.

ـ وجد مجلس الشيوخ الروماني نفسه أمام قائدين منتصرين على رأس قوات كبيرة على أبواب روما.

ـ واجهت السناتو أزمة سياسية حادة لم يكن في وسع مجلس الشيوخ اجتيازها بسلام. ذلك أن كلاً من بومبي وكراسوس زحف بجيشه صوب روما، واحتفظ به بدون تسريحه.

ـ وبرغم ما كان بين القائدين المنتصرين من نفور، فإنهما وللإفادة من ظروفهما، وتحقيق أطماعهما اتفقا على المطالبة بأمرين:

أحدهما منح بومبي حق إقامة موكب نصر كبير لإخماده الثورة الإسبانية ومنح كراسوس حق إقامة موكب نصر صغير لقمعه ثورة العبيد.

والمطلب الآخر هو السماح لهما بترشيح نفسيهما لقنصلية عام ٧٠ ق.م.

ـ لفت الأنظار إلى الأحوال السيئة التي كان العبيد يعيشونها والمطالبة بتحسين أوضاعهم.

ـ لفت الأنظار أيضاً إلى تحسين أوضاع الطبقات العاملة والكادحة من الناحية الاجتماعية ومعاملتهم معاملة إنسانية.

ـ أما من الناحية السياسية فقد كانت نهاية ثورة العبيد بداية الكراهية والصراع بين بومبي وكراسوس، لأن كليهما وصل إلى أبواب العاصمة مطالباً بحقه في دخولها في موكب نصر.

ـ إن ثورة العبيد المصارعين دامت ثمانية عشر شهراً، وقضت على عدة قناصل وقضاة من قواد الجيش الروماني.

ـ ثورة العبيد مكنت القواد الظافرين من التحكم بالدستور حيث اضطر مجلس الشيوخ بعد انتهائها للاحتفاء بظفر كراسوس وبومبي اللذين وافقا على تسريح جيشهما.

ـ كما اضطر مجلس الشيوخ إلى قبول ترشيحهما إلى قنصلية عام (٧٠ ق.م) على الرغم من أن الدستور لا يجيز لهما ذلك لأنه لم تمض إلا بضعة شهور على كون كراسوس -كان قاضياً- ولأن بومبي لم يكن قاضياً في يوم من الأيام، كما لا يجوز لمن يتولى هذا المنصب أن يصبح قنصلاً حسب قانون سلا.

ـ أدرك بومبي وكراسوس أنهما لا يتمكنان من الحكم بحرية، طالما أن نظام مجلس الشيوخ الذي أنشأه سيلا ما زال قائماً. لذلك قررا أن يطرحا مؤقتاً خلافاتهما جانباً، وأن يتصادقا ويتحالفا، فانتخبهما الشعب وجعلهما قنصلين.

ـ إعادة الصفة الديمقراطية إلى المؤسسات الرومانية.

ـ فتح باب السلطة الفردية على مصراعيه أمام قواد الجيش متملقي الشعب.

الهوامش

١- ف. دياكوف. س. كوفاليف: الحضارات القديمة الجزء الثاني، ترجمة: نسيم اليازجي ــ دمشق، ١٩٥٩، ص٥١٧.

٢- فاطمة قدوره الشامي: الرق والرقيق في العصور القديمة والجاهلية وصدر الإسلام، بيروت، ٢٠٠٩، ص٢٤.

٣- فاطمة قدوره الشامي: نفس المرجع السابق، ص٢٥.

٤- كلارنس كريج: الحضارات الكبرى (روما)، ترجمة: عيسى الناعوري، بيروت، ١٩٧٨، ص٥٠.

٥- أندريه إيمار، جانين إبواية: تاريخ الحضارات العام، ترجمة: فريد داغر، فؤاد أبو الريحان الجزء الثاني، بيروت، ١٩٦٨، ص١٢٥.

٦- ف. دياكوف. س. كوفاليفك الجزء الثاني، المرجع السابق، ص٥٢٠.

٧- بيار غريمال وآخرون، موسوعة تاريخ أوروبا العام، بيروت ١٩٩٥، ص٢١٠.

٨- موريس لانجيله، العبودية، ترجمة: إلياس مرقص، دمشق، ١٩٩٤، ص٨٣.

٩- لبيب عبد الساتر، الحضارات، بيروت، د. ت، ص١٨٦.

١٠-محمد محفل: دراسات في تاريخ الرومان، دمشق، ٢٠٠٩، ص٢٥.

١١-رستوفتزف، م: تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي، ترجمة: زكي علي، ومحمد سالم، الجزء الأول، القاهرة، د.ت، ص٢٥٤.

١٢- كلارنس كريج: الحضارات الكبرى، المرجع السابق، ص٥٠.

١٣-جون كلارك. فينسنت هاردنج: تجارة الرق والرقيق، ترجمة: مصطفى الشهابي، القاهرة، ١٩٨١، ص٧.

١٤-ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة: محمد بدران، الجزء الأول، المجلد الثالث، القاهرة، ١٩٧١، ص٢٤٥.

١٥-الصادق النيهوم: بهجة المعرفة، ترجمة: ماجد فخري، المجلد الأول، طرابلس، ١٩٨٢، ص٢٠٧.

١٦-فاطمة قدورة الشامي: الرق والرقيق، المرجع السابق، ص٥٦.

١٧-أسد رستم: عصر أغسطس قيصر وخلفائه ٤٤ ق.م – ٦٩م، بيروت، ١٩٩١، ص١٠٨.

١٨-ول ديورانت: قصة الحضارة، الجزء الأول، المرجع السابق، ص٢٤٥.

١٩-أسد رستم: المرجع السابق، ص١٠٩.

٢٠-فاطمة قدورة الشامي: الرق والرقيق، المرجع السابق، ص٥٦.

21- Duff, A.M., Freedmen in the Early Roman Empire , 1928, P. 432

٢٢-فاطمة قدورة الشامي: الرق والرقيق، المرجع السابق، ص٥٦.

٢٣-أسد رستم: عصر أغسطس قيصر وخلفائه، المرجع السابق، ص١١٠.

٢٤-الصادق النيهوم: بهجة المعرفة، المرجع السابق، المجلد الأول، ص٢٠٧.

٢٥-أسد رستم: المرجع السابق، ص١١١.

٢٦-لطفي عبد الوهاب يحيى. حسين الشيخ: تاريخ الرومان وحضارتهم، الاسكندرية، ١٩٩٤، ص٨٥.

٢٧-محمد محفل: المرجع السابق، ص١٩٥.

٢٨-محمد مصطفى سبيع: الرق تاريخه معاصره ومستقبله في الإسلام، دمشق، د.ت، ص١٣.

٢٩-محمد محفل: المرجع السابق، ص١٩٥.

٣٠-محمد مصطفى سبيع: المرجع السابق، ص١٥.

٣١-ف. دياكوف. س. كوفاليف ــ ج٢، المرجع السابق، ص٥١٧.

٣٢-محمد محفل: المرجع السابق، ص١٩٥.

33- Liv., II, XXIII, P1

٣٤-محمد السيد عبد الغني: التاريخ السياسي للجمهورية الرومانيــة، الجــزء الأول، الاسكندرية، ٢٠٠٥، ص٢١١.

٣٥-أسد رستم: المرجع السابق، ص١١١.

٣٦-ف. دياكوف. س. كوفاليف، ج٢، المرجع السابق، ص٥١٧.

٣٧-محمد محفل: المرجع السابق، ص١٩٤.

٣٨-أميل بجّاني: القانون الروماني، (عصوره ــ مصادره ـــ أصــوله)، بيــروت، ١٩٨٤، ص١٦٠.

٣٩-محمد مصطفى سبيع: المرجع السابق، ص٢٢.

40- Hammond , M., the Aug. Principate in theory and Practice , 1933. P. 254.

٤١-فوستيل دي كولانج: المينة العتيقة، ترجمة: عباس بيومي بك، القــاهرة، ١٩٥٠، ص٤٢٠

٤٢-أسد رستم: المرجع السابق، ص١١١.

٤٣-محمد محفل: المرجع السابق، ص١٩٥.

٤٤-ف. دياكوف، س. كوفاليف، ج٢، المرجع السابق، ص٥١٧.

٤٥-محمد محفل: المرجع السابق، ص١٩٥.

٤٦-ف. دياكوف، س. كوفاليف، الجزء الثاني، المرجع السابق، ص٥١٧.

٤٧-محمد محفل: المرجع السابق، ص١٩٦.

٤٨-محمد مصطفى سبيع: المرجع السابق، ص٢٥.

٤٩-ف. دياكوف، س. كوفاليف، الجزء الثاني، المرجع السابق، ص٥١٧.

٥٠-أسد رستم: المرجع السابق، ص١١١.

٥١-ف. دياكوف، س. كوفاليف، ج٢، المرجع السابق، ص٥١٧.

٥٢-أسد رستم: المرجع السابق، ص١١١.

٥٣-ف. دياكوف، س. كوفاليف، ج٢، المرجع السابق، ص٥١٧.

٥٤-محمد مصطفى سبيع: المرجع السابق، ص٢٢.

٥٥-محمد مصطفى سبيع: المرجع السابق، ص٢٣.

٥٦-محمد مصطفى سبيع: المرجع السابق، ص٢٢.

٥٧-لبيب عبد الساتر: المرجع السابق: ص١٩٠.

٥٨-أسد رستم: المرجع السابق، ص١١١.

٥٩-ف. دياكوف، س. كوفاليف، ج٢، المرجع السابق، ص٥١٨.

٦٠-جايمس هنري براستد: العصور القديمة، ترجمة: داود قربان، بيـروت، ١٩٨٣، ص٥٤٨.

٦١-ف. دياكوف، س. كوفاليف، ج٢، المرجع السابق، ص٥١٨.

٦٢-بورينه، الشاذلي، محمد طاهر: قرطاج البونية تاريخ وحضارة، تـونس، ١٩٩٩، ص٢٦٠.

٦٣-أسد رستم: المرجع السابق، ص١١١.

٦٤-أسد رستم: المرجع السابق، ص١١١.

٦٥-ف. دياكوف، س. كوفاليف، ج٢، المرجع السابق، ص٥١٨.

٦٦-أسد رستم: المرجع السابق، ص١١١.

٦٧-ف. دياكوف، س. كوفاليف، ج٢، المرجع السابق، ص٥١٨.

٦٨-ول ديورانت: قصة الحضارة، مجلد ٣، الجزء الثاني، المرجع السابق، ص٢٣٩.

69- Bury (J.B.) : AHistory of the Roman Empire, London , 1930 P. 592.

٧٠-ف. دياكوف، س. كوفاليف، ج٢، المرجع السابق، ص٥١٩.

٧١-محمود محمد الحويري: رؤية في سقوط الإمبراطوريـة الرومانيـة، القـاهرة، ١٩٨١، ص١٧.

72- Charlesworth (M.P.): the Roman Empire London , 1961, P. 72.

٧٣-جايمس هنري براستد: العصور القديمة، المرجع السابق، ص٥٤٩.

٧٤-جايمس هنري براستد: المرجع السابق، ص٥٤٨.

٧٥-ف. دياكوف، س. كوفاليف، ج٢، المرجع السابق، ص٥٣٤.

٧٦-ف. دياكوف، س. كوفاليف، ج٢، المرجع السابق، ص٥٣٤.

٧٧- Diod., XXIV, 2, 26.

٧٨-أسد رستم: المرجع السابق، ص١١٠.

٧٩-إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان من أقدم العصور حتى عام ١٣٣ ق.م، القاهرة، د.ت، ص٦٣.

٨٠-إبراهيم نصحي: ج٢، المرجع السابق، ص٦٤.

٨١-س.ي كوفاليف، تاريخ الرومان، لينغراد، ١٩٨٦، ص٣٢٩.

٨٢-س. ي كوفاليف: تاريخ الرومان، المرجع السابق، ص٣٢٨.

٨٣-إبراهيم نصحي: ج٢، المرجع السابق، ص٦٥.

٨٤-س. ي. كوفاليف: تاريخ الرومان، لينغراد، ١٩٨٦، ص٣٢٩.

٨٥-إبراهيم نصحي: ج٢، المرجع السابق، ص٦٧.

٨٦-إبراهيم نصحي: المرجع السابق، ج٢، ٢١٢.

٨٧-سليم عادل عبد الحق: روما والشرق الرماني، دمشق، ١٩٥٩، ص٣٧٦.

٨٨-إبراهيم نصحي: المرجع السابق، ج٢، ٢١٢.

٨٩-سليم عادل عبد الحق: المرجع السابق، ص٣٧٦.

٩٠-ن. أ. ماشكين: تاريخ روما القديمة، موسكو، ١٩٤٧، ص٢٦٠.

٩١-إبراهيم نصحي: المرجع السابق، ج٢، ٢١٢.

٩٢-سليم عادل عبد الحق: المرجع السابق، ص٣٧٦.

٩٣-نفس المرجع السابق، ص٣٧٦.

٩٤-سليم عادل عبد الحق: المرجع السابق، ص٣٧٧.

٩٥-فنطر، محمد حسين: الحضارة في قرطاج، تونس، ٢٠٠٧، ص٧٣.

٩٦-سيد أحمد علي الناصري، تاريخ وحضارة الرومان من ظهور القرية حتى سقوط الجمهورية، القاهرة، ١٩٨٢، ص٣٠٦.

٩٧-أمين سلامة: التاريخ الروماني، القاهرة، ١٩٥٩، ٣٣٩.

٩٨-ممدوح درويش مصطفى: التاريخ الروماني، الرياض، ٢٠٠٤، ص١٥٤.

٩٩-أمين سلامة: المرجع السابق، ص٣٣٩.

100- N. G. L. Hammond , Oxford Classical Dictionary Edition , Oxford University, 1940, P.g> 1008.

١٠١- س. ي. كفاليف: تاريخ الرومان، لينتغراد، ١٩٨٦، ص٤٠٤.

١٠٢- ممدوح درويش مصطفى: المرجع السابق، ص١٥٥.

١٠٣- س. ن. كفاليف: تاريخ الرومان، موسكو، لينتغراد، ١٩٨٦، ص٢١٧.

١٠٤- ن. أ. ماشكين: تاريخ روما القديمة، موسكو، ١٩٤٧، ٢٦٠.

١٠٥- إبراهيم نصحي: المرجع السابق، ج٢، ص٣٩٥.

١٠٦- ممدوح درويش مصطفى: المرجع السابق، ص١٥٥.

١٠٧- دونالد. . ددلي: حضارة روما، ترجمة: جميل يواقيم الذهبي، وفاروق فريد، القاهرة، ١٩٧٧، ص١٣٦.

١٠٨- س. ي. كفاليف: تاريخ الرومان، موسكو، لينتغراد، ١٩٨٦، ص٤٠٦.

١٠٩- إبراهيم نصحي: المرجع السابق، ج٢، ٣٩٦.

١١٠- إبراهيم نصحي: المرجع السابق، ج٢، ٣٩٦.

١١١- س.ي. كفاليف: تاريخ الرومان، المرجع السابق، ص٤٠٧.

١١٢- إبراهيم نصحي: المرجع السابق، ج٢، ص٣٩٦.

١١٣- دونالد. ر. ددلي: حضارة روما، المرجع السابق، ص١٣٦.

١١٤- إبراهيم نصحي: المرجع السابق، ج٢، ص٣٩٦.

١١٥- فادية محمد أبو بكر: تاريخ الرومان من تأسيس المدينة حتى سقوط الجمهورية، الاسكندرية، ٢٠٠٨، ص٢٦٦.

١١٦- حسين الشيخ: الرومان، الإسكندرية، ١٩٨٩، ص٦٦.

قائمة المصادر والمراجع الأجنبية

1- N.G. L. Hammond , OxFord Classical Dictionary Edition, Oxford University, 1940.

2- Hammond , M., the Aug. Principate in theory and Practice , 1933.

3- Duff, A. M. , Freedmen in the Early Roman Empire , 1928.

4- Bury (J. B.): A History of the Roman Empire, London, 1930.

5- H.A. Mawkuh: ucmopur Dpeftlero ruma Mosko, 1947.

6- Charlesworthe (M.P.); the Roman Emoire London, 1961.

7- C.U. Kofalef; Ucmorua puma lenungrad, 1986.

قائمة المصادر والمراجع

١- إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان من أقدم العصور حتى عا ١٣٣ ق.م، القاهرة، د.ت.

٢- أسد رستم: عصر أغسطس قيصر وخلفائه ٤٤ ق.م – ٦٩م، بيروت، ١٩٩١.

٣- أميل بجّاني: القانون الروماني، (عصوره – مصادره – أصوله)، بيروت، ١٩٨٤.

٤- أندريه إيمار، جانين إبوايه: تاريخ الحضارات العام، ترجمة: فريد داغر، فؤاد أبو الريحان، الجزء الثاني، بيروت، ١٩٦٨.

٥- بيار غريمال وآخرون: موسوعة تاريخ أوروبا العام، بيروت، ١٩٩٥.

٦- جايمس هنري براستد: العصور القديمة، ترجمة: داود قربان، بيروت، ١٩٨٣.

٧- جون كلارك، فينست هاردنج: تجارة الرق والرقيق، ترجمة: مصطفى الشهابي، القاهرة، ١٩٨١.

٨- حسين الشيخ: الرومان، الإسكندرية، ١٩٨٩.

٩- دونالد . ر. ددلي: حضارة روما، ترجمة: جميل يواقيم الذهبي، وفاروق فريد، القاهرة، ١٩٧٧.

١٠- رستوفتزف، م : تاريخ الإمبراطورية الرومانية الإجتماعي والاقتصادي، ترجمة: زكي علي، ومحمد سالم، الجزء الأول، القاهرة، د.ت.

١١- س. ن كوفاليف: تاريخ الرومان، موسكو، لينغراد، ١٩٨٦.

١٢- سليم عادل عبد الحق: روما والشرق الروماني، دمشق، ١٩٥٩.

١٣- سيد أحمد علي الناصري: تاريخ وحضارة الرومان من ظهور القرية حتى سقوط الجمهورية، القاهرة، ١٩٨٢.

١٤- الصادق النيهوم: بهجة المعرفة، ترجمة: ماجد فخري، المجلد الأول، طرابلس، ١٩٨٢.

١٥- فادية محمد أبو بكر: تاريخ الرومان من تأسيس المدينة حتى سقوط الجمهورية، الاسكندرية، ٢٠٠٨.

١٦- فاطمة قدوره الشامي: الرق والرقيق في العصور القديمة والجاهلية وصدر الإسلام، بيروت، ٢٠٠٩.

١٧- فز دياكوف. س. كوفاليف: الحضارات القديمة، الجزء الثاني، ترجمة نسيم اليازجي، دمشق، ١٩٥٩.

١٨- فنطر، محمد حسين: الحضارة في قرطاج، تونس، ٢٠٠٧.

١٩- فوستيل دي كولانج: المدينة العتيقة، ترجمة: عباس بيومي بك، القاهرة، ١٩٥٠.

٢٠- كلارنس كريج: الحضارات الكبرى (روما)، ترجمة: عسى الناعوري، بيروت، ١٩٧٨.

٢١- لبيب عبد الساتر: الحضارات، بيروت، د.ت.

٢٢- لطفي عبد الوهاب يحيى، حسين الشيخ: تاريخ الرومان وحضارتهم، الإسكندرية، ١٩٩٤.

٢٣- محمد السيد عبد الغني: التاريخ السياسي للجمهورية الرومانية، الجزء الأول، الاسكندرية، ٢٠٠٥.

٢٤- محمد محفل: دراسات في تاريخ الرومان، دمشق، ٢٠٠٥.

٢٥- محمد مصطفى سبيع: الرق تاريخه معاصره ومستقبله في الإسلام، دمشق، د.ت.

٢٦- محمود محمد الحويري، رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية، القاهرة، ١٩٨١.

٢٧- ممدوح درويش مصطفى: التاريخ الروماني، الرياض، ٢٠٠٤.

٢٨- موريس لانجيله: العبودية، ترجمة: إلياس مرقص، دمشق، ١٩٩٤.

٢٩- ن. أ. ماشكين: تاريخ روما القديمة، موسكو، ١٩٤٧.

٣٠- ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة: محمد بدران، الجزء الأول، المجلد الثالث، القاهرة، ١٩٧١.

نقود حلب

بين العام ١٠٠م حتّى بداية التعريب في منتصف القرن السابع الميلادي (دراسة أثريّة ــ تاريخية)

الدكتور خالد كيوان
كلّية الآداب والعلوم الإنسانيّة
جامعة حلب

شكَّلتْ حلب إحدى المدن الهامَّة في تاريخ سورية خلال العصر الكلاسيكي سواء من ناحية الموقع الجغرافي والمنطقة المسيطرة عليها والمدن التابعة لها والتي ورثتْ هذه الأهمّية في فترات أقدم عندما كانت عاصمة مملكة يمحاض. إلا أنَّ تاريخ هذه المنطقة رغم ما شهدته من اهتمام عمراني في العصر الكلاسيكي يبقى مجهولاً ربَّما بسبب عدم إمكانية إجراء تنقيبات أثرية شاملة في المدينة وتركيزها في القلعة (أكروبوليس المدينة) التي أسفرتْ عن اكتشافٍ هامٍّ لمعبد إله الصاعقة أو لأنَّ الآثار العربيّة الإسلامية من الفترات الأيوبيّة والمملوكية والعثمانية أتتْ على أوَّابدها الكلاسيكية فلمْ يبق منها سوى أساسات ومعالم بسيطة كُشف عن بعضها وبقي الكثير منها مخفيّاً لمْ تطاله يدُ الأثريين بعد.

كما أنَّ المؤرّخين الكلاسيكيين أوردوا بعض الإشارات عن حلب (بيرويا)، لكنْ يبقى ربط ذلك مع الوثائق التاريخية أمر مهمٌّ، فرأينا أفضل مثال لذلك ربط المسكوكات مع الوثائق الأدبية من (أقوال المؤرّخين القدماء)، والبقايا الأثرية.

ـ مقدّمة:

يظنُّ الكثيرون أنَّ تاريخ الإصدار النقدي في حلب قد بدأ خلال العصر الكلاسيكي، لكن دون تحديد الفترة، فمنهم من يرى بأنَّ نقودها تعود إلى الفترة السلوقيّة رابطين ذلك بتأسيسها ضمن هذه الفترة كمدينة منظّمة وفق المخطّط الهيبودامي (الرقعي الشطرنجي) الذي أتى به اليونانيون لمنطقتنا، ومنهم من يرى بأنَّ إنتاجها بدأ في الفترة الرومانية مؤكّدين على الامتيازات التي منحها الإمبراطور ترايانوس (٩٨– ١١٧م) لهذه المنطقة التي عُرفت باسم السيروستيكا لتطويرها اقتصاديّاً، وبالتالي فإنَّ تعدّد الآراء يدفعنا إلى دراسة نقودها معتمدين على النماذج المتحفية المحفوظة في متاحف سورية، وعلى ما أتت به التنقيبات الأثرية من مكتشفات ومستجدّات، وعلى المصادر القديمة لمؤرّخي العصر الكلاسيكي لفهم طبيعة هذه المنطقة تاريخيّاً من خلال نقودها وتسلسل إصدارها وأهمِّ النماذج التصويريّة المنقوشة عليها. وقد اعتمدنا في كتابة هذا البحث على المنهج الوصفي الاستقرائي الذي يعتمد على التحليل والمقارنة في بعض الأحيان للكشف عن حوادث مرّتْ بها حلب.

أ ـ مدخل إلى تاريخ حلب قبل العصر الكلاسيكي (Halab/Halep)(١):

هي إحدى المدن الآهلة بالسكان منذ القدم، يرجعها بعضهم إلى الألف السادس قبل الميلاد إذ وجدتْ آثار إنسان العصر الحجري في المغاور القريبة من حيٍّ المغاير قرب الكلاسة وهي عبارة عن غرفة بدائية منحوتة بالصخر مداخلها ضيّقة يمكن إغلاقها بسهولة بالأحجار الكبيرة(٢)، كما جرتْ جنوبي المدينة القديمة في تلّي السودة والأنصاري تنقيبات أثريّة أسفرتْ عن نتائج مؤكّدة حول سكن المدينة على الأقلّ منذ نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد، وهذا يطابق ما ذكرته النّصوص المسمارية التي اكتشفت في إيبلا (تل مرديخ)، والنّصوص المكتشفة في بلاد الرافدين، وتشير هذه النّصوص إلى النشاط التجاري والعسكري في منطقة حلب وتؤكّد على أهمّية الصناعة

فيها كموقع يتوسّط المسافة الواقعة بين البحر المتوسّط وبلاد الرافدين، ويزيد على ذلك موقعها على طريق الحرير في آسية الوسطى وبلاد الرافدين.

إنَّ عدم إمكانية إجراء حفريّات أثرية في حلب القديمة جعل دراسة تاريخها تعتمد على مصادر خارجية رغم أهمّيتها كقوّة كبرى في الألف الثاني ق.م عندما كانت تشكّل مملكةً آمورية باسم يمحاض وعاصمتها حلب. وفي مقدّمة مصادر دراسة حلب القديمة وثائق مملكة ألالاخ (السويّة السابعة)، ووثائق العاصمة الحثّية بوغازكوي (حاتوشا القديمة) الذي أفادنا في التعرّف على العلاقة التي ربطتْ بين الحثيين ومملكة يمحاض في عهد الدولة الحثّية الحديثة، إضافةً إلى وثائق ماري الذي يعرّفنا على أوضاع مملكة يمحاض منذ بداية تأسيسها تقريباً حتّى عهد ملكها الثالث حمورابي الحلبي، في حين يكمل لنا وثائق ألالاخ سلسلة ملوك حلب حتّى نهاية هذه السلالة تقريباً. وقد جادتْ علينا التنقيبات الأثرية في تل ليلان (شوباط إنليل عاصمة الملك الآشوري شمشي حدد الأوّل) بوثائق جديدة تعرّفنا على امتداد نفوذ حلب إلى المناطق الواقعة إلى الشرق من نهر الفرات وصولاً إلى نهر دجلة، وذلك في الفترة التي أعقبتْ انهيار إمبراطورية شمشي حدد.

ظهر اسم حلب بمعنى خلب أو خلبا (**Halab/Halba**) في الفترة البابليّة القديمة وذلك للمرّة الأولى، وقد كانت حلب عاصمة مملكة آموريّة هامّة تدعى يمحاض (**Yamhad**) التي امتدّت بتاريخها بين العامين (١٨٠٠ـــ١٦٠٠ ق.م)، ويبدو أنَّ معنى هذا الاسم "أرض حلب" حيث كانتْ الأكثر قوّةً في الشرق القديم في ذلك الوقت. ويعتقد الكثيرون أنَّ المدينة لمْ تكنْ موجودةً قبل الألف الثاني ق.م، وبعض الباحثين ذهبوا يبحثون عنها في النّصوص الرّافديّة التي يرد فيها ذكر لمدن واقعة في حوض الفرات الأوسط والشّمال السوري مثل (أرمي أو أرمان)، وبعد ترجمة نصوص إيبلا من قبل (آركي) عضو اللجنة الدّولية المكلّفة بنشر وترجمة أرشيف إيبلا، رأى ورود اسم حلب بمعنى

(خلب/**Halab**)، وأنّها تعود إلى الألف الثالث ق.م، وقد كانتْ مكان عبادة ضمن سلطة ملوك إيبلا، ويشرف عليها موظّفٌ يحمل لقب قيّم (أوجولا)، فهي لا تذكر إلا ومرتبطة مع إلهها حدد إله الطقس، وإنّ زوجة هذا الإله اسمها (خبت) وتعني (الحلبيّة) أي سيّدة حلب[١].

إنّ أوّل ذكر لملوك حلب يأتي من مملكة ماري في عهد ملكها يخدون ليم (١٨٢٥ــ١٨١٠ ق.م) حيث يرد في وثيقة التأسيس التي أودعها في معبد شمس (إله الشمس) أخبار حملة قام بها إلى شواطئ البحر المتوسط، ومن ثمَّ يذكر أخبار حلف تشكَّل ضده ضمَّ عدَّة مدن وقد جاء بالوثيقة: (جاءتْ فرق سومو إيبوخ حاكم بلاد يمحاض) ومن الممكن أنْ يكون سومو إيبوخ هذا مؤسّس السلالة الملكية في حلب التي استمرَّتْ تحكم مدَّة قرنين من الزمن.

تذكر النّصوص القديمة بأنَّ تهديم يمحاض تمَّ على يدِّ الحثّيين في ظلِّ حكم مورشيلي الأوّل في القرن السادس عشر قبل الميلاد حيث توسَّع الحثّيون في شمال سورية رغبةً منهم في السيطرة على المواد الخام في المنطقة والتحكّم بالطرق التجارية، ويؤيّد ما ذهبنا إليه أنَّ أحد النّصوص الحثية تذكر: (في الماضي ملوك بلاد "حلب" امتلكوا مملكةً عظيمةً). غير أنَّ حلب أو يمحاض استردّتْ عافيتها بعد انحطاط القوّة الحثّية في المنطقة بعد كفاحٍ كبيرٍ.

بعد الفراغ الذي مرَّتْ فيه المنطقة استفاد بارشاتاتار (**Parshatatar**) ملك الحوريين ــ الميتانيين من ذلك وجهَّز حملته لاحتلال حلب في القرن الخامس عشر ق.م، من ثمَّ لتجد حلب نفسها على خطِّ الصراع بين الحثيين والميتانيين وفراعنة مصر. والنّصر يميل لصالح شوبيلوليوما ملك الحثيين الذي استطاع أنْ يزيل السيطرة الميتانيّة على حلب، ويسيطر عليها هو بنفسه في القرن الرابع عشر ق.م، لتصبح حلب إحدى أهمِّ مراكز العبادات الحثّية التي كُرِّس فيها معبدٌ لأجل إله العاصفة والطقس.

شكّلتْ حلب بعد انهيار المملكة الحثّية في القرن الثاني عشر ق.م جزءاً من المملكة الآرامية السوريّة عُرفتْ باسم (مملكة أرفاد أو بيت أجوشي/ تل رفعت). وقد امتدَّتْ حدود هذه المملكة إلى شمأل وكوموخ وكركميش في الشمال، ومملكة حماة الآرامية في الجنوب، وسهل العمق في الغرب، ومملكة بيت عديني في الشرق. وقد ذُكرتْ بيت أجوشي خلال حكم آشور ناصر بال الثاني وشلمنصّر الثالث، ويرى بعض الباحثين أنَّ مؤسّس هذه المملكة هو جوشي، وقد خلفه عدد من الملوك منهم (حادرام أو أدريمي) الذي أوقف دفع الجزية للآشوريين فهوجم من قبلهم بشدَّة عام ٨٤٩ ق.م ثمَّ ٨٤٨ ق.م، ويرى بعض الباحثين أنَّ هذا هو سبب اتجاه حادرام إلى أرفاد (تل رفعت) ليعيد تعزيز قوّته ويوجّه اهتمامه إلى الجزء الشمالي من المملكة، غير أنَّ الملك الآشوري حدد نيراري الثالث (٨١٠ـ٧٨٣ ق.م) خليفة شلمناصر الثالث غزا أرفاد عاصمة بيت جوشي، وبعد فترة من الهدوء الآشوري وانكفائهم عن الغزو نعمتْ شمال حلب بالاستقرار؛ وقد نجح متع إيل بن عتر سمك في إبقاء دولته المفتاح الأهم في سورية الشمالية، وتزعَّم مقاومة دول سورية ضد الآشوريين ممَّا حدا بآشور نيراري الخامس توقيع معاهدة معه أجبره فيها على أداء يمين الولاء والخضوع لآشور وعدم الوقوف مع أعدائها وأنْ يقدِّم المساعدة للآشوريين إذا ما احتاجوا، ويؤكِّد على ذلك النّص الذي عثر عليه في السفيرة حيث يتضمَّن نصَّ معاهدة رسميّة بين ملك برغاية ومتع إيل ملك أرفاد للقيام بعصيان ضد آشور، لكنَّ مملكة أرفاد سقطتْ على يدِّ تيجلات فلاصر ملك آشور بعد محاصرته لها بين عامي (٧٤٢ ـــ ٧٤٠ ق.م) وبسقوطها تحوّل الشمال السوري بكامله للسيطرة الآشورية[١].

ب ـــ نهاية عهود الشرق القديم وبداية احتلال الإسكندر الكبير:

إنَّ نهاية غالبية الممالك الآرامية في سورية كانت على يدِّ الآشوريين في القرنين الثامن والسابع ق.م، ففي عهد الدولة الآشورية الحديثة في حوالي منتصف القرن

الثامن ق.م تمَّ احتلال حلب، لتمرَّ فترتين بعدها على حلب هما البابليّة الحديثة والفارسيّة الأخمينية حيث أصبحت سورية بكاملها مقاطعةً خامسة من أصل (٢٣) مقاطعةً ألَّفتْ إمبراطوريَّة فارس إذ قام ملكها داريوس الأوّل بين عامي (٥٢١ـ٤٨٥ ق.م) بجعل سورية وفلسطين وقبرص (ألاشا أي النحاس) ولايةً واحدةً عاصمتها دمشق مقرَّ الخزينة الفارسية التي كانت تموّل من الضرائب التي تجبى من الساحل الفينيقي لا سيَّما المفروضة على تجارة الملاحة[٢].

ج ـ حلب في العصر الكلاسيكي:

مرَّتْ مدينة حلب بعد انتهاء السيطرة الفارسية الأخمينية على سورية بعدّة مراحل بدأتْ مع غزو الإسكندر المقدوني، وقد حُصر تاريخها بالفترات التالية:

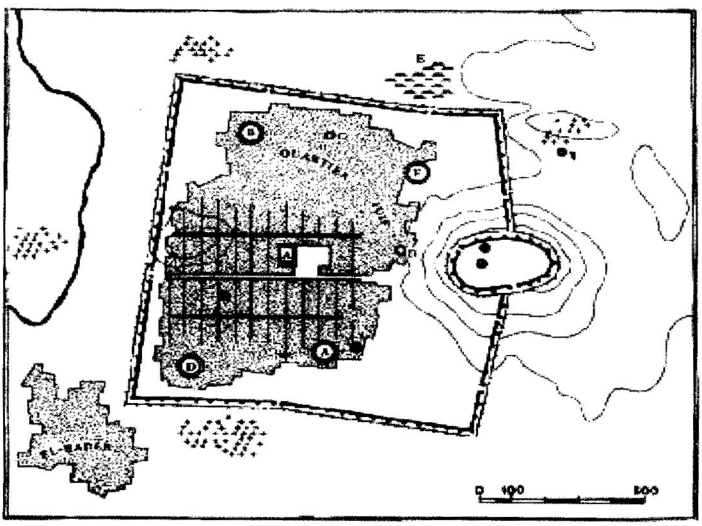
١ـ عهد الإسكندر الكبير:

استولى الإسكندر الكبير على مدينة حلب في عام ٣٣٣ ق.م، وقام خليفته سلوقوس نيكاتور (المنتصر) بافتتاح العهد السلوقي في سورية[١]، وجعل من حلب مستوطنة هلنستية بين عامي ٣٠١ ـ ٢٨٦ ق.م، اسماها بيرويا (*Beroea* (Βρέοια))، تيمناً باسم مدينة بيرويه (*Beroea*) في مقدونية مسقط رأس فيليب الثاني والد الإسكندر الكبير.

شكَّلتْ منطقة شمال سورية مركز النشاط والثقل بين مستعمرات الفترة الهلنستية بسبب ما أتتْ به المملكة السلوقيّة الجديدة من ثقافة، ويبدو أنَّ حلب (بيرويا) قد تمتَّعتْ بجانب من الاستقلال الذي كان له دورٌ هامٌ في تطوّر المجتمع المدنيّ الذي يدعى باليونانية (بوليه **Boulé**)[٢]. وقد شكّلت جزءاً من منطقة السيروستيكا(**Cyrrhestica**) التي تقع في الجزء الشماليّ من سورية بين نهر الفرات وجبال الأمانوس، وتضمُّ المدن التالية: بيرويا ـ حلب (**Beroea**)، سيرهوس ـ النبي هوري[٣] (**Cyrrhus**)، وهيرابوليس ـ منبج (**Membij -Hiérapolis**)، وفلافيا خالكيس (قنسرين).

٢ــ مصادر دراسة منطقة السيروستيكا (Cyrrhestica):

ورد ذكر السيروستيكا لدى سترابون[١] الذي استشهد بما كتبه بوسيدونيوس الأفامي[٢]، "إنَّ الدولة السلوقيّة كانت مقسَّمة إلى أربع ساترابات (ج.م ساترابي وهي الإقليم) في شمال سوريّة في القرن الثاني ق.م، وتطابق المناطق التي شكَّلت سورية الشمالية وهي: أنطاكية، وأفاميا، وخالكيدونيا، وسيروستيكا، مع زعماء أو رؤوساء لها هم من أنطاكية، وخالكيس بيلوس أو قنسرين (**Chalcis du Bélos**)، وسيرهوس"[٣]. أمّا في الجنوب، فقد شكّلت سوريّة أربع ساترابات سلوقيّة أيضاً في القرن الثاني ق.م، وذلك بحسب سترابون (**Strabon, XVI,2,4**)، لكنَّنا لا نعرف متى وكيف كان هذا التقسيم، غير أنَّها حملتْ في عهدي أنطيوخوس الثالث الكبير وبطليموس بن تراسياس "لقب ستراتيجي" الذي يعني حاكم أو والي سوريّة المجوّفة وفينيقية (**-Stratégie de Syrie Koilé et Phénicie**)[٤].



مخطّط مدينة حلب موضوع من قبل سوفاجيه (Sauvaget)

٣ــ نهاية مدينة حلب في الفترة السلوقيّة:

بقيَتْ بروريا تحت السيطرة السلوقيّة قرابة ٢٣٤ عاماً، وقد عانتْ من الصراعات والحروب الطويلة بين السلوقيين والبطالمة، تلك الحروب التي امتدّتْ بين عامي ٢٧٤-١٦٧ق.م. وعُرفتْ فيما بعد بالحروب السورية ـ الرّومانية التي انتهتْ مع نهاية آخر ملك سلوقي يدعى أنطوخيوس الثالث عشر.

ونعرض الأحداث التي مرّتْ بها حلب في هذه الحقبة، فقد انتقل إلى حلب (بيرويا) الكثير من اليونانيين حتَّى أصبحتْ عقدة للمواصلات بين الشرق والغرب ومركزاً هامَّاً للتجارة، وحصل اندماج في الدّم بين العرقين وأصبحتْ اللغة الإغريقية لغة الطبقة المثقّفة وحكمها المحلّيون الذين أصبحوا أصحاب سطوةٍ في الدولة السلوقية ومن بينهم هيراكليون وولديه ستراتون وديونيسوس اللذين استقلا في حكم المدينة، وفرض ملك حلب رأيه في البلاط الملكي السلوقي لصالح أحد الملوك المتنازعين على العرش الملكي السلوقي. وقام الملك السلوقي أنطيوخوس الخامس سنة ١٦٤ ق.م بأسر الكاهن اليهودي الأكبر أونياس مينيلاس في فلسطين وأتى به إلى حلب حيث أعدم، وكان سبب اختيار إعدامه في حلب كونه لا يوجد فيها جالية يهودية كبيرة يمكن لها أنْ تحتج. وفي عهد الملك السلوقي ديمتريوس الثالث حوّل عاصمته إلى دمشق فهاجمه أخوه فيليب الذي التجأ إلى ستراتون حاكم حلب فحاصرها ديمتريوس الثالث فاستنجدتْ بأحد شيوخ القبائل العربيّة الذي يدعى عزيزو فلبّى الطلب وسارع إلى فكِّ الحصار عنها وأسر ديمتريوس الثالث، ثمَّ حكم ديونيسوس ابن هيراكليون بيرويا ومنبج وهراقليا (الرقة على الفرات) وعُرف عنه بأنَّه طاغية.

٤ــ تنظيم مدينة حلب (*Beroea*):

تشير الأبحاث التي قام بها الفرنسي سوفاجيه في مدينة حلب على أنَّها تأسّست في الفترة الهلنستية وفق النموذج الهيبودامي الذي تألّف من شارعين الأوّل يمتدُّ من

الشمال إلى الجنوب ويتقاطع مع آخر يمتدُّ من الشرق إلى الغرب ونقطة تقاطعهما شكّلتْ التيترابيل (مفترق الطرق الرباعي "التصالب")، ونتيجة تقاطع هذه الشوارع تشكّلت جزر سكنية توزّعتْ على امتدادها، في حين احتوتْ المدينة على العديد من المباني الدينية والمدنيّة إلا أنَّ مسألة اكتشافها ما زالتْ معقّدة لأنَّه لمْ تجرِ في المدينة القديمة تنقيبات للكشف عن آثارها بسبب اكتظاظها بالسكان والحركة الاقتصادية النشطة المستمرّة، غير أنَّ سوفاجيه قد أعطانا تصوّراً عن مخطّطها التنظيمي الذي لمْ يشذ عن القاعدة الأساسية في تنظيم المدن السورية في الفترة الهلنستية حيث يوجد للمدينة أسوار وأكروبوليس يتوقع وجود آثار فيه تعود لفترةٍ أقدم من الهلنستية كما في قلعة دمشق وهذا ما أكّدته بالفعل الحفريّات التي جرت في قلعة حلب في منطقة الأكروبوليس.

إنَّ أهمَّ مَعْلَمٍ في حلب هو شبكة حيلان وهي عبارة عن قناة ماء تغذّي المدينة بمياه الشرب، حتّى أنَّ كلمة قسطل ترجع إلى كلمة (castile)، إضافةً إلى التحصين القديم المتواجد في باب الفرج بحسب سوفاجيه(١). تشبه بيرويا ببنائها كثيراً تخطيط مدينة أثينا اليونانية حتّى قال فيها الشاعر الفرنسي لامارتين: (حلب هي أثينا اليونانية).

٥ـ الديانة في حلب خلال العصر الكلاسيكي:

كانت حلب مركزاً هامّاً لعبادة الإله حدد الكبير وكان فيها معبدٌ له، والإله حدد الحلبي هو ربُّ الصاعقة والمطر والجبال العالية، وقرينته هي الرّبة عشتار الحلبية التي كان لها أكبر مكانة في نفوس الناس حيث أعطتْ لحلب لقب ابنة الرّب سين وسيدة القتال. وقد كان الملوك والأمراء والقادة وعامّة الشعب تأتي إلى حلب لزيارة معبد حدد وتقدّم له الأضاحي وتطلب منه العون لشفاء مرضاهم. وفي الفترة الهلنستية امتزجتْ ديانات حلب وآلهتها مع الديانات اليونانية وظهرتْ أسماء يونانية جديدة للآلهة حتّى اللغة اليونانية امتزجتْ بالآرامية وحلّتْ محلّها. أمّا في الفترة الرّومانيّة فقد غزتْ معتقدات

الرّومان وآلهتهم مناطق انتشارهم إلى أنْ عمّتْ عبادة كبير الآلهة السورية (حدد بعل) الذي عُرف باسم جوبيتر، وكانتْ حلب من أكبر مراكز عبادته بالإضافة إلى دمشق وبعلبك (هليوبوليس) ومنبج (هيرابوليس) التي كانت تابعة لحلب وتدور في فلكها، ويصف الكاتب السوري القديم لوقيانوس السميساطي (من ساموسات في تركية) معبد أترغاتيس (عشتار) في حلب بأنّه من أكبر المعابد وأضخمها في الشرق، بني إلى جوار بحيرة مقدّسة تسبح فيها الأسماك الخاصّة بالآلهة والمزيّنة بالحلي الذهبية، وترمز هذه الأسماك للآلهة عشتار التي رآها (اكسنوفون) في نهر حلب المقدّس المعروف باسم خالوس (نهر قويق اليوم)، ومع ذلك بقيتْ عبادة حدد الحلبي مستمرّة وتحظى بمكانةٍ مرموقةٍ حتّى في القرن الرابع الميلادي والدليل على ذلك وجود معبد كبير للإله حدد في ساحة المدينة القديمة في صحن الجامع الأموي ممّا يدلُّ على استمرار المعتقدات الوثنيّة في حلب حتّى بعد نصف قرن من الاعتراف بالديانة المسيحية بصورة رسميّة بموجب المرسوم الذي أقرّه الإمبراطور من قبل قسطنطين الكبير سنة ٣١٢م ومن ثمّ تيودوسيوس الأوّل عام ٣٨٠م، وفي عام ٣٦١م تربّع الإمبراطور جوليانوس المرتد على العرش فأخذ يحارب الديانة الجديدة (المسيحية) وعمل جاهداً لإعادة الديانة الوثنية إلى الإمبراطورية فخرّب الكنائس في أنطاكية واضطهد المسيحيين وشيّد المعابد الوثنية منها معبد أبولون في دفنة (الحربيّات) قرب أنطاكية، ورغب أنْ يكون تنظيم الوثنية على النسق المسيحي فعيّن كهنةً فلمْ ينجح في أنطاكية لذلك قرّر العيش في بيرويا (حلب) ولما مرَّ بحلب في طريقه لمحاربة الفرس غضب عندما رأى مستقبليه أعضاء المجلس البلدي الحلبي كلّهم من المسيحيين وقبل دخوله إلى المدينة خطب فيهم منددّاً بالديانة المسيحية راجياً منهم العودة إلى الوثنية فلمْ يكنْ جواب مستقبليه إلا الصّمت الكامل وعدم الإذعان له، غير أنَّ أحد أبناء المواطنين المشاهير في المدينة قد اعتنق دين الإمبراطور (الوثنية) لمنفعةٍ ما أو اقتناع فحُرم من الميراث فدعا الإمبراطور الأب والابن إلى المائدة الإمبراطورية وجلس وسطهما

وأوصى بالتسامح فلمْ يجد جدوى فاتجه نحو الشاب وقال له: (بما أنَّك فقدت أباً لتعلقك بي، فعليَّ أنا أنْ أحلَّ محله" فتبناه). وقد أرسل رسالة إلى صديقه الحميم خطيب أنطاكية الشهير ليبانيوس يخبره فيها عن زيارته حلب فقال فيها: "هنا أقمت يوماً واحداً وزرت الأكروبوليس (القلعة) وقدّمت ثوراً أبيض أضحية الإله زيوس (حدد) مثل عادة القياصرة وأجريت محادثةً قصيرة عن عبادة الآلهة مع مجلس المدينة".

٦ـ المجتمع في حلب:

إنَّ دراسة النصوص اللاتينية والإغريقية وتحليل المكتشفات الأثرية المكتشفة في حلب تشير إلى انتشار مظاهر الثقافة والفنون والحياة الاجتماعية الإغريقية في أواسط الطبقة الأرستقراطية العليا. أمَّا الطبقات الشعبية فبقيّت متمسِّكة بلغتها الوطنية الآرامية وتقاليدها وتراثها، واستعادتْ أهمّيتها التجارية بوصفها أكبر حاضرة في الشمال السوري بين الفرات وأنطاكية. فقد كانت سورية تشكِّل قلب الإمبراطورية السلوقيّة لذلك أهتمَّ الملوك السلوقيون بحلب وازدهرتْ فيها الزراعة والصناعة والأوزان الموحّدة واللغة الإغريقية المشتركة حتَّى أنَّ شجرة الفستق الفارسية دخلتْ حلب في الفترة السلوقيَّة واشتهرتْ بزراعتها حتَّى صارتْ تعرف علمياً باسم الفستق الحلبي.

٧ـ حلب في الفترة الرّومانيّة:

تشير المصادر القديمة إلى الأحداث التاريخيّة التي نقلها لنا استرابون وفلافيوس يوسيفوس عن حملة بومبيوس التي قادها نحو سورية عام ٦٤ ق.م، كما تشير إلى عقد اتفاق تمَّ مع البارثيين عند مجرى الفرات الأوسط في ملتقاه الكبير، وقد وُقِّعَ الاتفاق في المنطقة التابعة لحلب، ونصَّ على أنْ يكون الطرف الواقع إلى الجنوب الشرقيِّ على الضفة اليمنى للفرات بإدارة سلطة البارثيين بمعنى أنَّ حدود الإمبراطوريّة الرومانيّة ترسمها الضفة اليمنى من نهر الفرات في هذه الفترة. لكن بعد

مضي ٢٦ عاماً على ذلك تمكّن القائد الرومانيُّ فانتيديوس باسوس في عام ٣٨ ق.م من سحق الجيش البارثيِّ الذي كان يقوده باكوروس في جينداروس (Gindaros)[١] التابع إلى منطقة السيروستيكا شمال غرب حلب. كما يعلمنا المؤرِّخ الرّومانيّ بلوتارخوس في الجزء (١٧-١٨) عن حملات كراسوس ضد البارثيين، والدور الذي اضطّلعتْ به كنوز معبد ربّة "منبج ـــ هيرابوليس" في تجنيد جماعات من الشعب ومن بعض السلالات، وإعفاء البعض الآخر من الخدمة لمنْ قدّموا بدل الإعفاء من الفضّة[٢].

وفي عهد الإمبراطور يوليوس كلاوديوس (٤١-٥٤م)، وذلك بحسب المؤرِّخ تاسيتوس (Annales, II,57)، كانت تعسكر في سيرهوس الفرقة العاشرة فريتنسيس، وقد ذُكرت هذه الفرقة سابقاً في عهد الإمبراطور تيبريوس (١٤-٣٧م)، لكنَّها فيما بعد تمركزتْ في (سلوقية ـــ زوغما في تركية اليوم)[٣].

أمّا في القرن الثّاني الميلادي فقد صُودِرَت ممتلكات القائد الرومانيّ المدعو آفيديوس كاسيوس[٤] في المنطقة عام ١٧٥م بسبب اغتصابه رمز السلطة وهو من أصل سوري من سيرهوس، إذ كان يملك ستّ قطع من الأراضي. كما توجد كتابةٌ فريدة من نوعها في المنطقة يعتقد البعض أنّها تقدّم سيرهوس كقريةٍ أمٍّ (ميترو كوميه Métro-Komé)[٥].

د ـــ مسكوكات حلب (بيرويا / Beroea) في العصر الكلاسيكي:

تعذَّر على الباحثين في علم المسكوكات حتّى يومنا هذا في إثبات أو افتراض أنَّ بيرويا (Beroea) سكّتْ عملات في الفترة الهلنستية أو في القرن الأوّل الميلادي زمن السيطرة الرّومانية، فهي إذاً لمْ تنتجْ إصدارات نقديّة قبل العصر الإمبراطوري الرّوماني أسوةً بالمدن المجاورة لها كمدينة سيروس (النبي هوري) وهيرابوليس (منبج) اللتين أصدرتا نقوداً في الفترة السلوقية (العصر الهلنستي) لا سيّما في منتصف

القرن الثّاني قبل الميلاد، على الرغم من أهمّية موقع بيرويا الاستراتيجي في وسط المسافة الممتدّة تقريباً بين هاتين المدينتين المتوضعتين في شرقها وغربها.

١ــ نقود بيرويا الأولى:

بدأتْ بيرويا عمليّة الإنتاج النّقدي في عهد الإمبراطور ترايانوس[١] حين منحها الحقّ الذي كانت محرومة منه قبل ذلك لسبب نجهله، وخولّها إصدار سلسلة من النّقود البرونزيّة التي استمرَّتْ في إصدارها حتَّى عهد الإمبراطور أنطونينوس بيوس (التقي)، ولدى دراسة نقود ترايانوس وهادريانوس يتبيّن لنا أنَّ بيرويا صنعتْ عدّة قوالب للعملة بدليل تعدّد المشاهد أو سلسلة الترقيم التي نُقشت حصراً على مسكوكات ترايانوس. وتميّزتْ بحملها اسم (**بيرويا ــ حلب**) في مركز الظهر منقوشاً ضمن إكليلٍ من أوراق الغار بالكتابة الإغريقيّة التالية (BЄPOIAIWN)[٢]. ولدى تربّع الإمبراطور أنطونينوس بيوس (التقي) على العرش تشرَّفتْ بيرويا بضربها نقداً برونزّياً للاعتراف به وبشرعيّة حكمه، ولمْ يخرج نموذج نقده عن الشكل المألوف الصادر في زمن الإمبراطور ترايانوس من حيث حمله في مركز الظهر بالكتابة الإغريقيّة اسم (**بيرويا BЄPOIAIWN**) منقوشاً ضمن إكليلٍ من أوراق الغار.

٢ــ فترة الانقطاع عن الإصدار النقدي بين عامي ١٤٠ ــ ٢١٥م:

تشير دراسة نقود بيرويا أنّها انقطعتْ عن الإصدار منذ عهد الإمبراطور أنطونينوس بيوس (التقي) الذي لمْ نجد له سوى القليل من النّقود البرونزيّة واستمرَّ هذا الانقطاع حتَّى عهد الإمبراطور كركلا لتستعيد بيرويا في عهده حقَّها وتستأنف عمليّة الإنتاج النّقدي لكنْ هذه المرّة من معدن الفضة ومن وحدة التيترادراخما التي حملت نقش النّسر السوري.

لا ندري ما هو سبب هذا الانقطاع، فليست مدينة بيرويا وحدها توقّفت إصداراتها النّقدية فهناك العديد من المدن السوريّة التي انقطعتْ عن الإصدار سواءً النّقود الفضيّة أو البرونزيّة لكنّها عاودتْ الإنتاج في القرن الثالث الميلادي.

٣ـ مسكوكات حلب (بيرويا / Beroea) في القرن الثالث الميلادي:

استأنفتْ **(بيرويا ـ حلب)** في العام ٢١٥م عمليّة إنتاج نقود فضيّة من وحدة التيترادراخما على شرف الإمبراطور كركلا (ماركوس أوريلوس أنطونينوس) الذي حكم بين عامي (٢١١ـ٢١٧م)[١]، واستمرَّتْ حتّى عهد ديادومينيان قيصر ابن الإمبراطور أوبيليوس ماكرينوس الذي حكم عام ٢١٨م. وترتبط هذه الوحدة النّقدية بالظروف العسكرية، ويعزى سبب إنتاجها إلى تزايد نفقات الحرب ضد البارثيين، فتطلّب الأمر زيادة كميّة إنتاج التيترادراخما لدفع أجور الجنود المنضمّين إلى صفوف الجيش الرّوماني، وتغطية نفقات الحرب.

٤ـ كتالوج نقود (بيرويا / Beroea):

أ ـ النّقود البرونزية المضروبة في حلب (بيرويا / Beroea):

بدأتْ حلب أو بيرويا إصدار النّقود في عهد الإمبراطور ترايانوس (٩٨ـ١١٧م) وقد تميّزت بحملها في مركز الوجه جميع ألقابه، فماذا فعل ترايانوس ليحظى بجميع هذه الألقاب؟

ـ الإمبراطور ترايانوس (٩٨ـ١١٧م):

هو ماركوس أولبيوس ترايانوس أعلنه نيرفا إمبراطوراً في عام ٩٨م، فحكم بين عامي ٩٨ ـ ١١٧م استطاع إلحاق داكيا بإمبراطوريته، واجتياح بلاد العرب وضمّها، وإلحاق بلاد الرافدين وأرمينية، لأجل ذلك حمل عدّة ألقاب نُقشتْ على النّقود وهي بتسلسل تواريخها حسب التالي:

ـ لقب جيرمانيكوس ناله في تشرين الأوّل عام ٩٧م.

ـ لقب داكيوس "المنتصر على الداكيين" ١٠٢م.

ـ بارثيكوس "قاهر البارثيين" ١١٤ـ١١٦م.

ـ أوبتيموس "الطيّب" ١١٤م.

ومن الممكن أنَّه حمل لقب (أريستوس APICT[OC]) بين العامين ١١٦ـ١١٧م الذي يقابل الكلمة المعاصرة (أريستوكرات **Aristocrat**).

إنَّ دراسة مسكوكات ترايانوس في بيرويا أثبتتْ إصداره خمسة نماذج مرقّمة بحسب تسلسلها الزمني إلى (A, B, Γ…H..I)، وقد صنّفناها حسب الترتيب المتعارف عليه من قبل علماء النُميّات وفق الشكل التالي:



مركز الوجه ـ رأس جانبي يميني للإمبراطور ترايانوس معصوب بعصبة الأباطرة ٩٨ ـ ١١٧م.

AVTOKP KAI N[EP TP]AIANOC APICT CEB ΓEPM ΔAK ΠAPΘ

مركز الظهر ـ إكليلٌ في وسطه اسم بيروياون (BEPOI-AIΩN) التي تعني الحلبيّون (*Beroiaion-Of the Beroe-aians*) وفي الأسفل حرف ألفا اليوناني(A). **الإصدار الأوّل.**

الوزن (١٤,٨٢)

المرجع (www.ancientimports.comSNG Copenhagen 39 var/)



مركز الوجه ـ رأس جانبي يميني للإمبراطور ترايانوس ٩٨ ـ ١١٧م.

AVTOKP KAI N[EP TP]AIANOC APICT CEB ΓEPM ΔAK ΠAPΘ

مركز الظهر ـ إكليلٌ في وسطه اسم بيرويايون (BEPOI-AIΩN) وفي الأسفل حرف بيتا اليوناني(B). **الإصدار الثاني.**



مركز الوجه ـ رأس جانبي يميني للإمبراطور ترايانوس ٩٨ ـ ١١٧م.

AVTOKP KAI N[EP TP]AIANOC APICT CEB ΓEPM ΔAK ΠAPΘ

مركز الظهر ـ إكليلٌ في وسطه اسم بيرويا (BEPOI-AIΩN) وفي الأسفل حرف جاما اليوناني(Γ). **الإصدار الثالث.**



مركز الوجه ــ رأس جانبي يميني للإمبراطور ترايانوس ٩٨ ــ ١١٧م.

AVTOKP KAI N[EP TP]AIANOC APICT CEB ΓΕΡΜ ΔΑΚ ΠΑΡΘ

مركز الظهر ــ إكليلٌ في وسطه اسم بيرويا (BEPOI-AIΩN) وفي الأسفل الحرف اليوناني(H). **الإصدار الثامن.**



مركز الوجه ــ رأس جانبي يميني للإمبراطور ترايانوس ٩٨ ــ ١١٧م.

AVTOKP KAI N[EP TP]AIANOC APICT CEB ΓΕΡΜ ΔΑΚ ΠΑΡΘ

مركز الظهر ــ إكليلٌ في وسطه اسم بيرويا (BEPOI-AIΩN) وفي الأسفل الحرف اليوناني(I)، **الإصدار العاشر.**

ـ هادريانوس (١١٧ـ١٣٨م):

ولد هادريانوس عام ٧٦م، وهو ابن أخ الإمبراطور ترايانوس فلمّا مات والد هادريانوس كفله عمّه ترايانوس وتبنّاه وغرس فيه حبّاً شديداً للأدب والغناء والطّب والعلوم الرياضية واستدعاه إلى روما عام ٩١م وزوّجه بابنة أخيه فيبيا سابينا التي كانت مثالاً أعلى للفتيات ولكنَّها لمْ تلد له أبناءً، وعُرف عنه بعد ارتقائه عرش الإمبراطورية كثرة أسفاره شرقاً وغرباً وأهمَّ أعماله نقض سياسة عمّه في الإمبراطورية بالتخلي عن التوسّع والقيام بالعديد من الإصلاحات المحلّية. زار هادريانوس بالميرا (تدمر) وسمّيّتْ على اسمه (بالميرا هادريانا) ورفع من مرتبتها وأعفاها من دفع الضرائب، كما زار دمشق والولاية العربيّة، وفلسطين وأثناء ذلك نشبتْ ثورة فيها عام ١٣٢م فقمعها، وقد تبنّى هادريانوس لأنطونيوس بيوس إمبراطور المستقبل في أوج فترة حكمه. أمَّا عن إصداراته في بيرويا فقد سكّت لأجله نقداً برونزيّاً حمل في مركز الوجه صورة جانبيّة له أمَّا الوجه الثّاني فحمل غصناً نباتيّاً وحرفين من اسم بيرويا هما (B-Є).



مركز الوجه ـ رأس جانبي يميني للإمبراطور هادريانوس ١١٧ ـ ١٣٨م.

مركز الظهر ـ غصن نباتي ضمن إكليل من أوراق الغار وعلى جانبيه حرفان من اسم بيرويا هما (B-Є).



مركز الوجه ــ رأس جانبي يميني للإمبراطور هادريانوس ١١٧ ــ ١٣٨م.
(AVT AΔPIANOC)

مركز الظهر ــ غصن نباتي ضمن إكليل من أوراق الغار بعضها حمل سبع وريقات وبعضها ثمانية، ويحيط به كتابةٌ تذكر اسم بيرويا بشكل مكتمل نحو: (-BEPOI AIWN) بمعنى أنَّ هناك عدّة قوالب لهذا النوع من النّقود البرونزية في عهد هادريانوس.

الوزن (١،٩١غ)

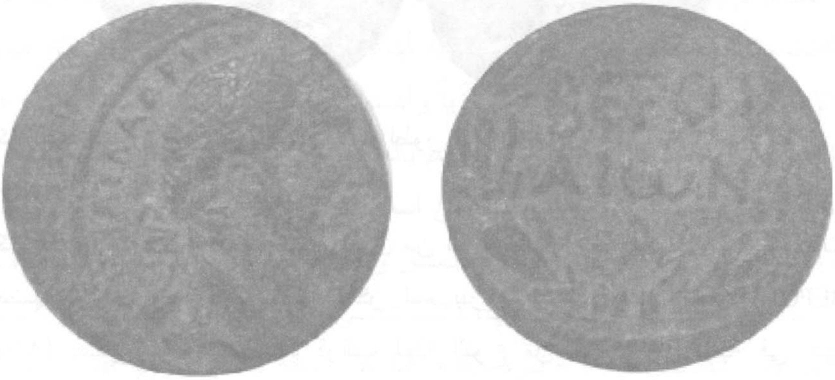
القطر (١١ــ١٢مم)

المرجع (BMC 131, Lindgren 1911)



مركز الوجه ــ رأس جانبي يميني للإمبراطور هادريانوس ١١٧ ــ ١٣٨م.
(AΔPIANOC)

مركز الظهر ــ غصن نباتي ضمن إكليل من أوراق الغار وعلى جانبيه حرفان من اسم بيرويا هما (B-Є).
الوزن (١،٦غ)
القطر (١٣،٧مم)
المرجع (BMC 131, Lindgren 1911)



مركز الوجه ــ رأس جانبي يميني للإمبراطور هادريانوس ١١٧ ــ ١٣٨م.

[TP]AIA. AΔPIA

مركز الظهر ــ إكليلٌ في وسطه اسم بيرويا (BEPOI-AIWN) وفي الأسفل الحرف اليوناني(A) الذي يساوي السنة الأولى من حكم هادريانوس. **الإصدار الأوّل.**

ــ أنطونينوس بيوس (التقي) ١٣٧ ــ ١٦١م:

استمرّتْ إصدارات بيرويا النّقدية على امتداد حكم الإمبراطور هادريانوس، لتعاود الإنتاج النّقدي أيضاً في عهد أنطونينوس بيوس، فمن هو الإمبراطور أنطونينوس بيوس؟



هو تيتوس أوريلوس فولفيوس بوجونيوس أريوس المولود في مدينة لانوفينوم الواقعة في اللاتيوم بالقرب من روما، وهو من الأباطرة الخمس الصالحين، شهدتْ سورية في عهده السلام والاستقرار بفضل ما أرساه ترايانوس وهادريانوس من أمن على الجبهة البارثية – السورية عند حدود الفرات، وفي فلسطين. كان من ضمن أهداف أنطونينوس بيوس المعلنة تحسين الأوضاع المعيشية لسكان الإمبراطورية الرّومانيّة، فاعتمد عدّة إجراءات من بينها وهب ثروته الشخصية الكبيرة إلى خزانة الدولة التي تدعى السلّة (فيسكوس)، وألغى المتأخِّر من الضرائب، ونفح المواطنين بهبات من المال لا سيّما الفقراء منهم، وأقام على نفقته الكثير من الألعاب الرياضية للترفيه عن الشعب، غير أنَّه لمْ يغامر بحربٍ على الإطلاق من شأنها توسيع حدود الإمبراطورية حرصاً على أمن وسلامة سكانها كونه اعتبر حياة كل مواطن في دولته أثمن من قتل ألف عدو، فاكتفى بالحدود التي رسمها ترايانوس قبله، والتي تقف عند الفرات شرقاً(١). وقد نجم عن ذلك الإجراء أنْ عاشتْ المدن السورية حياةً ملؤها الأمن والاستقرار، ممَّا أتاح فرصة متابعة جميع دور الضرب السورية سلسلة إصداراتها النقديّة، حينئذ أصدرتْ مدينة حلب (بيرويا) نقوداً برونزية له لكنّها قليلة العدد والنماذج منها النّقد التالي:

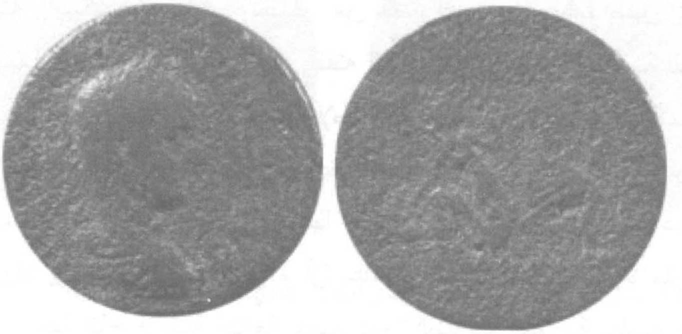


مركز الوجه – رأس جانبي يميني للإمبراطور أنطونينوس بيوس ١٣٧ – ١٦١م.

مركز الظهر – إكليلٌ في وسطه اسم بيرويا (BEPOI-AIΩN) وفي الأسفل حرف ألفا اليوناني(A). **الإصدار الأوّل.**

ب ـ آخر إصدارات بيرويا في الفترة الرّومانيّة:

كانت آخر الإصدارات النّقديّة (لبيرويا ـ حلب) من البرونز في عهد إيلاجبالوس(٢) (فاريوس آفيتوس باسيانوس) الذي حكم بين عامي ٢١٨ــ ٢٢٢م. تميّزت بحملها في مركز الظهر نقش نيمفي (**Nymphe**) ربّة الينابيع، وزوجة الإله هرمس، ووالدة الإله بان راعي القطعان الذي يأخذ نصفه العلوي شكلاً بشريّاً والسفلي شكل التيس، اشتهر بعزفه على آلة السيرينكس نسبةً لاسم محبوبته سيرينيكس.



مركز الوجه ـ رأس جانبي يميني للإمبراطور إيلاجبالوس (فاريوس آفيتوس باسيانوس) ١١٨ ـ ٢٢٢م.

مركز الظهر ـ الرَّبة نيمفي حوريّة المياه واقفةً تمسك جرّةً في يدها اليمنى ويتقدّم نحوها هادس إله العالم السفلي لينتزع منها شيئاً ما.

المصدر: (**www.wildwinds.com**).

ج ـ مسكوكات بيرويا ذات طابع شبه الاستقلال:

أصدرتْ بيرويا نقوداً برونزيّة صغيرة غير محدّدة التاريخ بدقّة لكن يبدو أنَّها أُنتجت في القرن الثالث الميلادي بعد توقّف إصدارات إيلاجبال. أمَّا عن سبب تسميَّتها بالنقود ذات طابع الاستقلال، فكما هو متعارف عليه عندما تختفي صورة الملك أو

الإمبراطور عن وجه النّقد وتحلُّ بدلاً عنها صورة الرّبة تيكة حامية المدينة التي تعتمر التاج المزدان بالأبراج للإشارة إلى سور المدينة فهو أقوى إشارة على الاستقلال وعدم التبعية والانفراد بالحكم تماماً كتلك المسكوكات البرونزية الصادرة عن حمص والتي سكَّتها زنوبيا عندما انشقّت عن السيطرة الرّومانية وأعلنتْ استقلالها وعدم التبعية للحكم الرّوماني. ومن الجدير ذكره أنَّ غالبية المدن السورية قد توقّفت عن الإنتاج النّقدي في منتصف القرن الثالث الميلادي.

تعتبر صورة هذا النّقد البرونزي نادرة وهي منسوبة إلى العصر الإمبراطوري الرّوماني بحسب توثيق المتحف البريطاني ومحفوظة فيه وموصوفة حسب التالي:



مركز الوجه ــ رأس جانبي يميني للربّة تيكة ضمن إطار من النقاط النافرة، وتيكة / فورتونا هي ربّةُ الحظِّ الحسن والمصير السيّئ، وحاميةُ المدينة من حيث التاج الذي يعلو رأسها والمزيّن بسور وأبراج ترمز لسور المدينة.

مركز الظهر ــ إطار من النقاط النافرة في وسطه الحرفان الأوّلان من اسم بيروبا (B-Є).

الوزن (١،٢٢غ)

القطر (٩مم)

المصدر: (BMC).

د ــ نقود حلب (بيرويا / Beroea) الفضيّة من وحدة التيترادراخما:

أجرى الإمبراطور كركلا إصلاحاً نقديّاً واسعاً عام ٢١٥م، وتَميّز عهده بإصدار كمّيّات كبيرة من المسكوكات التي تشير إلى التطوّر الكبير في المدن السورية على صعيد إصدار عملات فضيّة، وذلك بموجب سياسة ترقية وترفيع المدن السوريّة التي اتبعها كركلا، حين منحها لقب كولونيا (Colonia) الذي يعني المستعمرة الرومانيّة، كما أصدر مرسومه الشهير في العام ٢١٢م، يقضي بموجبه منح حقوق المواطنة الإيطالية لرعايا الإمبراطورية الرومانيّة والمعروفة باسم (جوس إيتاليكوم Jus Italicum). وتشير دراسة المسكوكات السوريّة في عهد كركلا إلى أنَّ عدد دور الضرب المصدرة للنقود الفضيّة قد تجاوز ٢٠ داراً، واتّفقتْ جميعها بحملها في مركز الظهر نقش النسر السوريّ (العقاب)، في حين اختلفتْ فيما بينها بالرمز الذي يوضع بين براثن النسر، والذي يشير إلى دار الضرب، كمدينة دمشق التي حظيت للمرّة الأولى في العهد الإمبراطوريّ بإصدار عملات من وحدة التيترادراخما، حيث وضعتْ بين براثن النّسر نقش رأس كبش، على أنَّه رمز من رموز زيوس (جوبيتر) أو أنَّه قربان منذور على شرف الإله جوبيتر الذي ظهر بهيئة نسر باسط الجناحين في إشارةٍ إلى عظمة الإمبراطوريّة الرومانيّة واتّساعها وهيمنتها، كما أنَّه رمز الفيلق المقدوني التابع للإسكندر الكبير. كذلك حملتْ نقود حمص نقشاً جانبيّاً لرأس الإمبراطور كركلا المكلّل بتاج شعاعيّ، وضِعَ بين براثن النسر إشارةً إلى أنَّ الإمبراطور يمثّل الكاهن الأعلى لمعبد الشمس في حمص. بينما حملتْ مسكوكات اللاذقيّة الفضيّة نقش نجمة بين براثن النسر إشارةً إلى منارة ميناء اللاذقية، وفيما يخصّ مدينة أنطاكيّة، فقد عفا الإمبراطور سبتيموس سفيروس عنها بعد مضي عدّة سنوات، وذلك أثناء زيارته للمدينة بين عامي ٢٠٢ و ٢٠٤م، وأعاد إليها ابنه كركلا لقب كولونيا أي المستعمرة الرومانيّة، كما منحها حقّ إصدار عملات فضيّة حملت في مركز الظهر نقش نسر منتصب، وقد أمسك ببراثنه فخذ حيوان قربانيّ. في حين تابعتْ بيرويا (حلب) إصدار

مسكوكات من الفضّة في عهد كركلا، تميّزتْ بحملها بين براثن النسر نقش طائر خرافيّ والحرفين الأوّلين من اسمها (Є____B).



مركز الوجه ــ رأس جانبي يساري للإمبراطور كركلا ملتحيّاً، يعلوه تاجٌ شعاعيٌّ:

AVT.K.M.A. ANTΩNЄINOC.CЄB

مركز الظهر ــ نسر منتصب نصف مفتوح الجناحين والجناحان متساويا الارتفاع، رأسه لليسار وبمنقاره هالة شعاعيّة، وبين براثنه نقش رمز دار الضرب المشار إليها بحيوان (طائر) بوضعيّة مواجهة مع الحرفين اليونانيين الأوّلين من اسم بيرويا (Є___B)، وعبارة تحيط بالمشهد المركزي تذكر سنة الحكم الرابعة (**ΔΗΜΑΡΧЄΞ ΥΠΑΤΟ Δ**).

الوزن (١٣,٢٤غ).

القطر (٢٥-٢٦مم).

التاريخ ٢١٥م

المرجع: (www.beastcoins.comPrieur 883 (Population 5)).

يبدو أنَّ بيروبا قد أصدرتْ عدّة نماذج من التيترادراخما لأجل كركلا بدليل اختلاف قوالب السكِّ، فالنموذجان أدناه يظهران تمثالاً نصفيّاً جانبيّاً يمينيّاً لكركلا أحدهما مكللاً بأوراق الغار والثاني يعلو رأسه التاج الشعاعي، وهما صادران بالسنة نفسها التي صدرتْ فيها التيترادراخما السابقة.



تيترادراخما الإمبراطور كركلا

مركز الوجه ــ رأس جانبي يميني للإمبراطور كركلا ملتحياً، مكللاً بأوراق الغار:

AVT.K.M.A. ANTΩNЄINOC.CЄB

مركز الظهر ــ نسر منتصب نصف مفتوح الجناحين والجناحان متساويا الارتفاع، رأسه لليسار وبمنقاره هالة شعاعيّة، وبين براثنه نقش رمز دار الضرب المشار إليها بحيوان (طائر) بوضعيّة مواجهة مع الحرفين اليونانيين الأوّلين من اسم بيروبا (B___Є)، وعبارة تحيط بالمشهد المركزي تذكر سنة الحكم الرابعة (**ΔHMAPXЄΞ VΠATO Δ**).

الوزن (١٣,٢٤غ).

القطر (٢٥مم).

التاريخ ٢١٥م

المرجع: (Prieur).



مركز الوجه ــ رأس جانبي يميني للإمبراطور كركلا ملتحياً، يعلوه تاجٌ شعاعيٌّ:

AVT.K.M.A. ANTwNЄINOC

مركز الظهر ــ نسر منتصب نصف مفتوح الجناحين والجناحان متساويا الارتفاع، رأسه لليسار وبمنقاره هالة شعاعيّة، وبين براثنه نقش رمز دار الضرب المشار إليها بحيوان (طائر) بوضعيّة مواجهة مع الحرفين اليونانيين الأوّلين من اسم بيروبا (**B__Є**)، وعبارة تحيط بالمشهد المركزي تذكر سنة الحكم الرابعة (**ΔHMAPXЄΞ VΠATO Δ**).

الوزن حوالي (١٣,٢٤غ).

التاريخ ٢١٥م

المرجع: (A. Djarouah, prev. Coll).

ـ الإمبراطور ماكرينوس (٢١٧ـ٢١٨م):



صورة من تيترادراخما

بدأ الإمبراطور كركلا سياسة الاغتيال بعد فترة الاستقرار الأمني التي أرساها والده سبتيموس سفيروس، وذلك حين قتل أخيه دون رحمة، لينتهي مصير كركلا نفسه بالاغتيال إثر تآمر أولبيوس ماكرينوس عليه، فنجم عن هذا الوضع حدوث حالة من الفوضى، وعدم استقرار العرش الرّوماني الذي آل إلى ماكرينوس في العام ٢١٧/٢١٨م، كما بدأ الخطر البارثي بالظهور مجدّداً من خلف الفرات. وعلى الرغم من كل ذلك فقد أصدرتْ دار ضرب حلب تيترادراخما فضّيّة على شرف ماكرينوس، حملتْ في مركز الوجه نقشاً جانبياً لرأس الإمبراطور ماكرينوس الملتحي، المكلل بأوراق الغار، وأُحيط المشهد المركزي بكتابةٍ يونانيةٍ تذكر اسمه ولقبه: **أوتوكراتور أوبليوس ماكرينوس.**

كان مصير الإمبراطور ماكرينوس وابنه مؤلماً للغاية ذلك عندما هُزم بالقرب من حمص نتيجة التآمر عليه من قبل جوليا ميسا جدة فاريوس آفيتوس باسيانوس (إيلاجبالوس)، التي نصّبت حفيدها الصغير على إدارة عرش أكبر إمبراطورية في العالم القديم بالعام ٢١٨م، واستمرَّ حكمه حتّى العام ٢٢٢م، واستغلتْ جوليا ميسا ضعف الإدارة السياسية لحفيدها ذي الـ ١٤ ربيعاً، فمرّرتْ أفكارها عبره. إضافةً إلى

ذلك، فقد أثبتتْ الدراسات الجارية على النّقود استمرار دار ضرب حلب بعملية الإصدار النّقدي البرونزي في عهد هليوجبال.



مركز الوجه ـ رأس جانبي يمينيّ ملتحٍ للإمبراطور ماكرينوس مكلّلاً بتاج من أوراق الغار:

AVTK. MAOΠCЄ. MAKPINOC.CЄB...

مركز الظهر ـ نسر منتصب نصف مفتوح الجناحين والجناحان متساويا الارتفاع، رأسه لليسار وبمنقاره هالة شعاعيّة وأمامه غصنٌ نباتيٌّ، وبين براثنه نقش رمز دار الضرب المشار إليها بحيوان (طائر) بوضعيّة مواجهة مع الحرفين اليونانيين الأوّلين من اسم بيرويا (**B__Є**)، وعبارة تحيط بالمشهد المركزي تذكر سنة الحكم **ΔHMAPXЄΞ VΠATO A**.

الوزن (١٣,٦٠غ).

القطر (٢٥ ملم).

السماكة (٣ ملم).

التاريخ ٢١٧ ـ ٢١٨م.

المرجع: (Kh. KIWAN. Musée de Damas).

أصدرتْ بيرويا نموذجاً آخر من التيترادراخما لأجل ماكرينوس بدليل اختلاف قوالب السكِّ، فالنموذج أدناه يظهر تمثالاً نصفيّاً جانبيّاً يمينيّاً لماكرينوس مكللاً بأوراق الغار وهو صادر بالسنة نفسها التي صدرتْ فيها التيترادراخما السابقة، غير أنَّ الاختلاف كان في نموذج الظهر إذ لا نلاحظ وجوداً للغصن النباتي المتوضع إلى يمين رأس النسر في التيترادراخما السابقة ممّا يشير إلى وجود عدّة قوالب للسكِّ في عهده، وإنَّ العبارة التي تحيط بالمشهد المركزي والتي تذكر سنة الحكم لا تحتوي على حرف ألفا اليوناني **ΔΗΜΑΡΧЄΞ ΥΠΑΤΟ**.



تؤكِّد الدراسة الدقيقة لتيترادراخمات بيروتيا الصادرة على شرف ماكرينوس تعدّد قوالب السّك، فهناك تيترادراخما تظهره بلحيةٍ كثيفة وإكليل من أوراق الغار تجعله مختلفاً ومتبايناً عن سابقه.



مركز الوجه ــ رأس جانبي يمينيّ ملتحٍ للإمبراطور ماكرينوس مكلّلاً بتاج من أوراق الغار:

AVTK. MAOΠCЄ. MAKPINOC.CЄB...

مركز الظهر ــ نسر منتصب نصف مفتوح الجناحين والجناحان متساويا الارتفاع، رأسه لليسار وبمنقاره هالة شعاعيّة، وبين براثنه نقش رمز دار الضرب المشار إليها بحيوانٍ (طائر) بوضعيّة مواجهة مع الحرفين اليونانيين الأوّلين من اسم بيروتيا (**B__Є**)، وعبارة تحيط بالمشهد المركزي تذكر سنة الحكم **ΔHMAPXЄΞ**.

التاريخ ٢١٧ ــ ٢١٨م.

المرجع:

(SYRO-PHOENICIAN, MACRINUS, AR TETRADRACHM NICE VF, VF CONDITION PRIEUR 896)

ـ ديادومينيان بن ماكرينوس (٢١٨م):



مركز الوجه ـ رأس جانبيّ يمينيّ لديادومينيان قيصر بن ماكرينوس يعلوه التاج الشعاعي:

AVTK.M.OΠ.Є. Δ

مركز الظهر ـ نسر منتصب نصف مفتوح الجناحين والجناحان متساويا الارتفاع، رأسه لليسار وبمنقاره هالة شعاعيّة، وبين براثنه نقش رمز دار الضرب المشار إليها بحيوان (طائر) بوضعية مواجهة مع الحرفين اليونانيين الأوّلين من اسم بيرويا (**B__Є**)، وعبارة تحيط بالمشهد المركزي تذكر سنة الحكم **ΔΗΜΑΡΧЄΞ VΠΑΤCΟ**. الوزن (١٢,٩٣غ).

القطر (٢٦ ملم).

السماكة (٣ ملم).

التاريخ ٢١٨م.

المرجع: (Kh. KIWAN. Musée de Damas) (RÖMISCHES KAISERREICH).

اتّبعتْ بيرويا في إصدار التيترادراخمات على شرف ديادومينيان السياسة النّقدية نفسها التي تبعتها على شرف والده، ويتضح تباين قوالب الضرب من قالب إلى آخر، ففي التيترادراخما التالية نلاحظ اختلافاً في تمثيل المظهر العام لشكل ديادومينيان من حيث العنق الطويل والصدر الواضح والتاج الشعاعي واستطالة الوجه والعقدة المربوطة خلف الرأس، مع وضوح في الكتابة اليونانية التي تشير إلى اسمه: (ΔΙΑΔ. ANTWNINOC. K)، بينما نقوش الظهر لمْ يطرأ عليها أيّ تغيير.



تيترادراخما ديادومينيان بن ماكرينوس

٦ــ حلب في الفترة البيزنطية:

كانت برويا (حلب) في ظلِّ حكم البيزنطيين المدينة الثانية في سورية بعد أنطاكية عاصمتها، والمدينة الثالثة في العالم الروماني، وما أنْ أطلّ العهد البيزنطي حتّى سيطرتْ الديانة المسيحية وأصبحتْ بعد الاضطهاد ديانة الدولة وأخذتْ بدورها تُضيِّقُ على الوثنية التي لفظتْ أنفاسها. أمّا حلب فتوسّعتْ كثيراً وازدهرتْ وأصبحتْ أبرشية كبيرة وبرز الكثير من أبنائها الذين احتلّوا مناصب دينية كبيرة منهم مطران حلب ايستاش الذي احتل الكرسي البطريركي الأنطاكي سنة ٣٢٥م، والمطران الفيلسوف أكاكيوس الحلبي الذي أصبح بطريركاً في سنة ٣٧٨م، وقد دعم هذا المطران النساطرة وآزرهم ضد البطريرك كيرلس السكندري ثمَّ ساعده وتوفي في سنة ٤٣٢م

عن عمر بلغ ١١٠سنين. كما اهتمّتْ الملكة هيلانة أمّ الإمبراطور قسطنطين الكبير بنصارى حلب فأقامتْ لهم في وسط مدينتهم كنيسة هيلانة التي كانوا يسمّونها العظمى (٣١٣ـ٣٢٤م.) وكان بناؤها في غاية الروعة بهندستها وجمال تيجانها وهي معروفة اليوم باسم المدرسة الحلاوية (الحلوية)، وتقول الروايات أنَّه بعد أنْ أتمّت الملكة عمارة الكنيسة طلبت من ابنها قسطنطين أنْ يرسل إليها أسقفاً فأرسل الأسقف أوسطاطس ثمَّ أرسل بعده مطرانين تولّى أحدهما فيما بعد وهو (ملاكس) الكرسي الرسولي في أنطاكية، وفي سنة ٤٣٢م عُقد في حلب (بيرويا) مجمّع من الأساقفة الشرقيين ممّا يدلُّ على سموِ مكانتها الكنسية آنذاك خاصّةً وأنَّها تقع بين مركزين مسيحيين كبيرين هما أنطاكية ذات التقاليد الكنسية الإغريقية في غربها والرها (أوديسا) بتقاليدها الآرامية في شمالها الشرقي. وعند انقسام الإمبراطورية الرّومانية في نهاية القرن الرابع الميلادي ــ حوالي العام ٣٩٥م ــ إلى إمبراطورية شرقيّة وإمبراطورية غربيّة آلتْ حلب إلى الإمبراطورية الشرقيّة التي عرفتْ بالبيزنطية، إلا أنَّ الحروب بين فارس وروما أنهكتْ حلب، فبعد أنْ كانت حلب تتمتّع بمركزٍ فكريٍّ فقد شعر سكانها بضعف الروم وعجزهم عن الدفاع عنهم فأرسلوا إلى كسرى خسرو أنوشروان ملك الفرس قبل وصوله حلب وفداً برئاسة مطرانها ميكاس فالتقى به ولكنَّ كسرى الفرس دخل حلب وأخذ يدمّر ويخرّب فتوسّل إليه ميكاس والوفد الحلبي ورجوه أنْ يعفو عن مدينتهم وأنَّهم مستعدّون أنْ يدفعوا له الجزية ولكنّهم فشلوا لأنَّ كسرى خسرو أنوشروان كان يعلم ما تحتويه المدينة من كنوز وغنى فشنَّ هجومه عليها وأحرقها عام ٥٤٠م ، ولمْ يكتف بذلك فقد هاجم منبج، وفي بداية القرن السابع الميلادي جمع الرّوم قوّاتهم بقيادة الإمبراطور هرقل الذي غزا بلاد فارس وهزمهم، ويروى أنَّ وفداً فارسياً جاء إلى هرقل العظيم المقيم آنذاك في حلب وعقد معه معاهدة سلم دائم وقدّم الوفد الفارسي خشبة الصليب التي نهبتْ عام ٦١٤م من بيت المقدس على إثر استيلائهم عليها، ولكن هذا السلم لمْ يدم طويلاً إذ جاء العرب الفاتحون

وحرّروا سورية وحلب من الحكم البيزنطي ثمَّ قضوا على الإمبراطورية الفارسية الساسانية وغادر بعدها الإمبراطور هرقل أنطاكية ولمْ يعد أبداً.

هذا وتشير الأبحاث الأثرية إلى كثافة المستوطنات السكنية بين أنطاكية وبيرويا (حلب) في القرن السادس الميلادي ولا تزال آثارها وأطلالها قائمة إلى الآن، فهناك العديد من الكنائس والأديرة كدير القديس سمعان العمودي، والقديس مارون الذي يعتقد أنَّه ولد في هذه المنطقة حيث يتوضّع قبره في براد إلى الغرب من حلب، وقد تحدّث مكابيوس في كتابه عن ذلك. لمْ تصدر حلب نقوداً في هذه الفترة وبقيت على هذه الحال حتَّى منتصف القرن السابع الميلادي عندما قام عبد الملك بن مروان بإعادة استخدام الفلوس النحاسية الصادرة في عهد هرقل ملك الروم البيزنطيين والتي تميّزتْ بحملها في مركز الظهر نقش الصليب ليحوّر ذلك الصليب ويضيف إليه بعض الكتابات العربيّة، وقد منح حقّ الإصدار لحلب وقنسرين ومنبج...الخ.

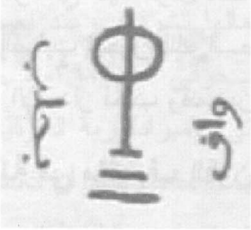
٧ـ نقود حلب شبه المعرّبة في منتصف القرن السابع الميلادي:

أصدرتْ حلب نقوداً نحاسيّة حملتْ شارات بيزنطيّة مسيحيّة إلى جانب الكتابات العربيّة، فقد حمل مركز الوجه نقش صليبٍ قائمٍ على ثلاث درجات()، وإلى اليمين كلمة (بحلب) بشكل عمودي، وإلى اليسار (واف)، وأحيط المشهد المركزي بكتابة هي: (لا اله إلا الله وحده محمد ر"سول الله"). بينما حمل مركز الظهر صورة الخليفة عبد الملك بن مروان واقفاً يرتدي العباءة، متقلّداً سيفه، تحيط به كتابةٌ تذكر (لعبد "الله عبد" الملك أمير المؤمنين).

ومن نماذج هذا النّقد ما تمّ إصداره بحمص، وعمّان، وقنسرين، ومعرّة مصرين بالقرب من (إدلب ومعرّة النعمان).

ـ الدراسات المنشورة عن نقود حلب شبه المعرّبة:

نشر الباحث الفرنسي لافوا (**Lavoix**) في كتابه: (*Catalogue des Monnaies Musulmanes*) مجموعة من الفلوس النحاسيّة الصادرة في حلب لعبد الملك بن مروان والتي حملت اسمه (لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين)، في حين حملت في مركز الظهر الصليب القائم على ثلاث درجات وحوله شهادة التوحيد والرسالة المحمّدية (لا إله إلا الله محمّد رسول الله)، وعلى جانبيه كلمتي (بحلب) و(واف)[١]. كما درس الباحث التركي أرتق (**ARTUK**) فلوس عبد الملك الصادرة بحلب ووصفها في كتابه[٢].



(ARTUK, I. C., 1971)

كذلك نشر الباحث الرّوسي تايسن هاوسن (**TIESENHAUSAN**)[٣] في كتابه فلوس عبد الملك شبه المعرّبة وهي مرقّمة (N 33, 34, 35)، ولمْ يأتِ بجديد. أمَّا في مجال الدراسات العربيّة فقد انفرد بها الباحث نايف جورج القسوس من المملكة الأردنيّة في كتابه المعنّون: (نُميّات نحاسيّة أمويّة جديدة من مجموعة خاصّة مساهمة في إعادة النظر في نميّات بلاد الشام)، وقد استعرض لنا صورة إحدى الفلوس المنشورة لديه بالرقم (٤٣٣)[١] والتي حملت ضرب بحلب وكلمة وافٍ.



فلس الخليفة عبد الملك بن مروان واقفاً.

القطر: ١٨مم، الوزن: ٢،٦٥غ

إصدار حلب



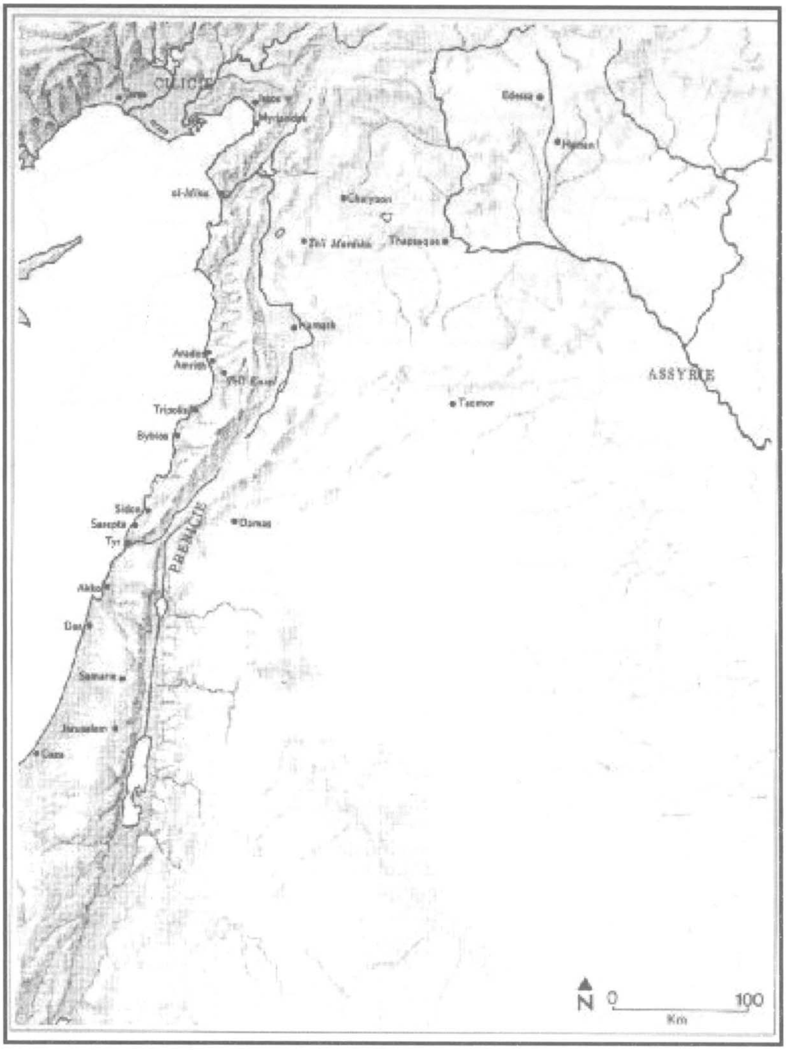
فلس الخليفة عبد الملك بن مروان واقفاً.

القطر: ١٨×١٩مم، الوزن: ٣،٠٦غ

إصدار حلب

الخاتمة:

تبدو من خلال ما تناولناه مدى أهمّية حلب خلال الألف الثّاني ق.م واستمرار هذه الأهمّية في الفترة السلوقيّة لا سيّما إذا تتبعنا معبدها الذي كان ذائع الصيت آنذاك وتغيير اسمها، أمّا في القرن الأوّل الميلادي فقد كانت حلب مهملة من قبل الرّومان، وبدأ اهتمامهم بها في مطلع القرن الثّاني الميلادي بل في المنطقة بأسرها فكانت حلب قلبها الفاعل، وما يشير إلى أهمّيتها إصدارها في الفترة الرّومانية لفئتين من النقود الفضّية والبرونزيّة. في حين توقّفتْ عن إصدار العملة في الفترة البيزنطية غير أنّ أهمّيتها بقيّتْ محفوظة لدى أباطرة القسطنطينية لا سيّما في عهد الإمبراطور جوليانوس، ويشهد على مكانتها الدينية القديسين الذين برزوا منها وفي المناطق التابعة لها ـــ كالقديس مارون من براد ـــ والتي يضمّها البعض إلى مدن الكتلة الكلسيّة. استعادتْ حلب إصدارها النّقود لكن على الطراز البيزنطي في عهد الخليفة الأموي الخامس عبد الملك بن مروان الذي أعاد استخدام النقود النحاسية البيزنطية فنقش اسمها بالعربية، وله دلالة على إعادة الاسم العربي لها من قبل هذا الخليفة بعد غيابه عنها ما يقارب الألف عام بعد أنْ ساد في الألف الثاني ق.م عندما كانت حلب عاصمة مملكة يمحاض/ يمخاض.

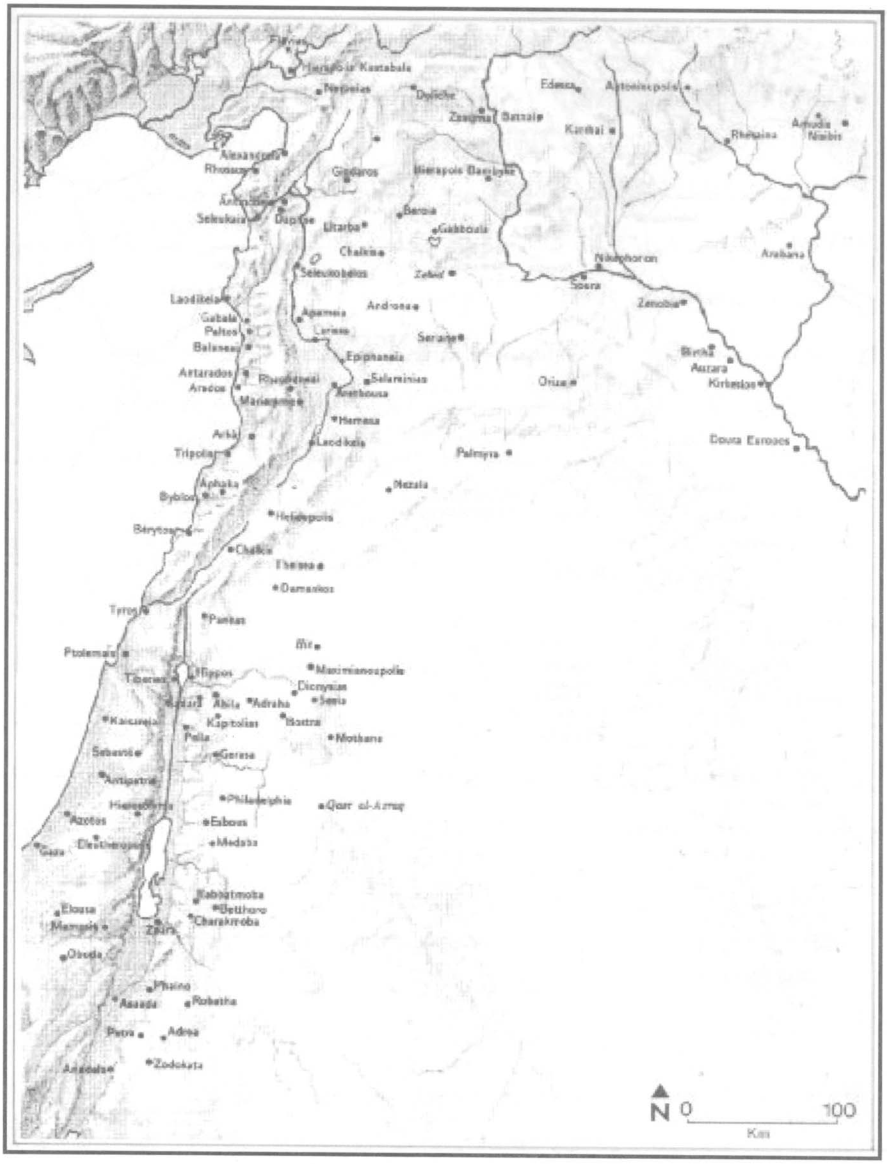


سورية في الفترة الأخمينيّة عن (AUGÉ, 1989, la monnaie en Syrie,

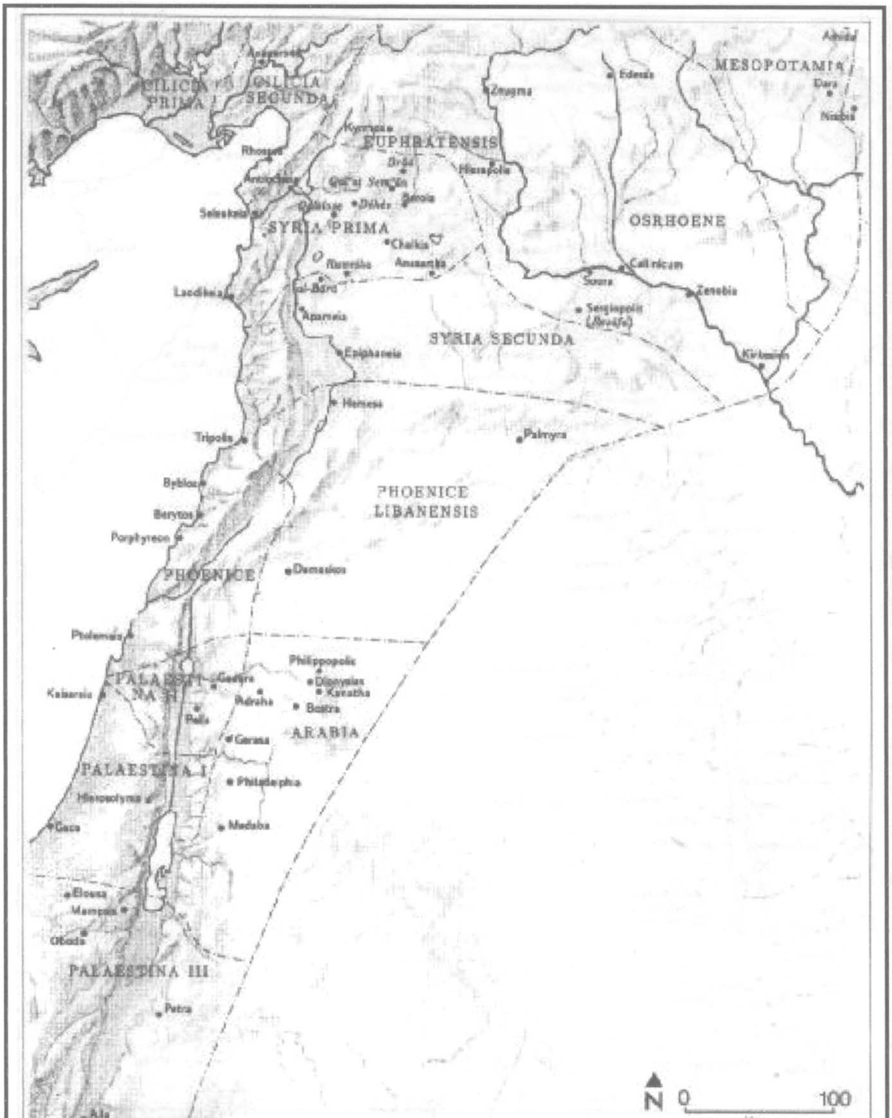
(Archéologie et Histoire de la Syrie, J. M. Dentzer, Saarbrucken.



سورية في الفترة الهلنستية



سورية في الفترة الرّومانيّة



سورية في الفترة البيزنطيّة

الهوامش

(١) Aleppo city area Sources: City population From Wikipedia, the free encyclopedia.

(٢) جود الله، فاطمة، ١٩٩٩، **سورية نبع الحضارات**، ط١، دمشق، ص ٣٢١.

(٣) قابلو، جباغ، ٢٠٠٨/٢٠٠٩م، **تاريخ الحضارة القديمة في الوطن العربي**، جامعة دمشق، ص ١٥٠.

(٤) حمود، محمود، ٢٠٠٨م، **الممالك الآرامية السورية**، ط١، دمشق، ص ٧٠.

(٥) الفرس الأخمينيون: هي سلالة فارسيّة ظهرتْ في مطلع القرن السابع قبل الميلاد شرق عيلام سميّتْ باسم مؤسّسها، من أهمّ ملوكها قورش الأوّل وقمبيز الأوّل، خضعتْ فترةً لحكم الميديين ثمَّ استقلتْ سنة ٥٥١ ق.م على يد قورش الثّاني حيث استولى على عاصمة الميديين وأصبحتْ ميديا وبلاد فارس مملكةً واحدة انصهرتْ فيها عادات وتقاليد الشعبين في بوتقة واحدة وأصبح لها عاصمتان اقبتانا وسوسة. استطاع قورش أنْ يجعل من دولته قوّة سياسة عالمية احتلتْ بابل وكان متسامحاً تجاه الديانات الأخرى، وفي عهد قمبيز الثاني وصلتْ فارس إلى شواطئ البحر المتوسّط وشمال إفريقية ودخل مصر عام٥٢٥ق.م. قسّمت الإمبراطورية الأخمينية الدول الواقعة تحت سيطرتها إلى ٢٣ ولايةً دخلتْ بلاد الشام وقبرص في إدارة الولاية الخامسة التي سمّيتْ عبر الفرات وقدّمتْ للمغتصب جزيةً قدرها ٢٥٠ وزنة من الفضة مع مساعدة الفرس وقت الحروب بالإمدادات الحربيّة والأساطيل البحرية وحدث ذلك أثناء غزو الفرس لمصر واليونان وأهمِّ مدن سورية دمشق وأرواد وجبيل وصيدا وصور.

(٦) تمزّقتْ الإمبراطورية المقدونية بعد موت مؤسّسها الإسكندر الكبير وتسابق قواده للفوز بأحسن أقاليمها وأدّى هذا السباق إلى حروب طويلة دامية بين أربعة قادة هم بطليموس في مصر، وسلوقس في بابل، وأنتيغونس في آسية الصغرى،

وأنتيباتز في مقدونيا، وكان بطليموس أكثرهم ذكاء ولكنّ سلوقس كان أقدرهم حيث يعتبر سلوقس مؤسّس الدولة السلوقية في سورية ثمّ آسية الصغرى وبنى عاصمته في أنطاكية على نهر العاصي وسمّاها باسم والده وجعلها مقرّ حكومته في سورية.

(٧) *Balai of* Phenix, Robert R. (2008) *The sermons on Joseph of Qenneshrin*.

(٨) سيرهوس: تعرف اليوم باسم النبي هوري، نقّبتْ فيه سابقاً بعثة فرنسية عام (١٩٥٢م)، وتنقب فيه حالياً بعثة وطنية سورية ـ لبنانية بقيادة جانين عبد المسيح. وقد ازدهر هذا الموقع في الفترة الهلنستية في عهد أنطيوخوس الرابع أبيفانس، ثمَّ في القرن الثّاني الميلادي، وبلغ الذروة في الفترة البيزنطية. كشفت التنقيبات فيه عن العديد من المنشآت المعمارية الرّومانيّة أهمّها المسرح، ولوحات الفسيفساء من الفترتين الرّومانيّة والبيزنطيّة، والمدافن والقبور والبيوت.

(٩) (سترابون Strabon): مؤرّخ وجغرافي من آسية الصغرى عاش بين ٦٤ ـ ١٩م كتب في الجغرافية.

(١٠) (بوسيدون الأفامي Poseidonios d'Apamée): ولد في أفامية على العاصي ١٣٥ ـ ٥٠ ق.م، درس الفلسفة في أثينا، ترك مؤلّفات كثيرة اعتمد عليها سترابون في جغرافيته وكتابه في التاريخ.

(١١) BIKERMAN. E., 1938. *Institutions des Séleucides*, Paris. P.197-207.

(١٢) SARTRE M, 2001. D'Alexandre à Zénobie, histoire du Levant antique, Paris, p.165.

(١٣) انظر أيضاً: سلهب، زياد وكيوان، خالد ٢٠١٠: **المسكوكات القديمة**. دمشق. ط١.

(١٤) Leriche, Pierre, 1989, Les fortifications grecques et romaines en Syrie, Archéologie et histoire de la Syrie, Édit par J. M. Dentzer, Saarbrücken, p. 271.

(١٥) جينداروس: تلّ أثريّ يقع إلى الشمال الغربي من سورية في سهل عفـرين، وقد نقّبتْ فيه بعثة ألمانية ثمّ تابعتْ أعمال الحفر والتّنقيب البعثة السوريّة الوطنيّة بقيادة الدكتور عمار عبد الرحمن من المديريّة العامّة للآثار والمتاحف. وقد تـمَّ الكشف عن طبقات تعود إلى العصر الكلاسيكي بفتراته الهلنـستيّة والرّومانيّـة والبيزنطيّة، وعن آثار هامَّة لمنشآت معماريّة، ولقى كالسرج الفخاريّة، والنّقود، وطبعات الأختام... وتذكر المصادر التاريخيّة حدوث معركـة بـين البـارثيين والرّومان، إذ حشد البارثيون قوّاتهم واندفعوا بقيادة قائدهم باكوروس الذي ترأّس قسماً كبيراً من قوّاته، واتجه قسم آخر إلى مدينة كوماجين وعاصمتها ساموسات في آسية الصغرى (تركية اليوم)، وألقى فانتيديوس (القائـد الرّومـانيّ) حولهـا حصاراً، وقاد فانتيديوس الجيش بنفسه لكنَّه لمْ يتمكّن من استرداد المدينة، فتحوّل نحو السهل كي يؤمّن اتصاله مع سورية بعد تركه للحصار. وأثناء ذلـك عقـد مارك أنطونيوس سلاماً مع ملك كوماجين لإبقاء سوريّة في حالة قلقة وحرجـة. ويعتبر المؤرِّخون أنَّ معركة جينداروس التي دارتْ رحاها في شـهر حزيـران عام ٣٨ ق.م كانت الحدَّ الفاصل بين الإمبراطوريتين من حيث إبعادهـا خطـر البارثيين عن سورية مدَّة قرنين من الزمن. وفي جينـداروس جعـل الرّومـان معسكرهم بالقرب من معبد هرقل.

(١٦) PLUTARQUE, Crassus 17-18. (Trad. R. FLACELIERE, Les Belles Lettres 1972).

(١٧) SARTRE M, 2001. p.480.

(١٨) آفيديوس كاسيوس: قائد الجيوش الرّومانية التي طردتْ البارثيين من سورية سنة ١٦٦م، وقد نصّب نفسه إمبراطوراً بعد وصول أنباء خاطئـة عـن مـوت الإمبراطور ماركوس أوريليوس، وقد انتقم منه الأخير بأنْ صادر جميع ممتلكاته في سيرهوس، وألقى القبض عليه، وكان مصيره فـي النهايـة المـوت. ومـن الحوادث الشهيرة في هذه الفترة انتشار داء الطاعون الذي فتك بالعديد من رجال

الدولة والشعب من بينهم الإمبراطور ماركوس أوريليوس.

(١٩) SARTRE M, 2001. p.741.

(٢٠) على صعيد سياسة ترايانوس الخارجية في الشرق فقد اتّسمتْ بتحقيق فكـرةٍ أساسيّة هي تحطيم إمبراطورية الفرس وشنَّ هجوماً كبيراً عليهم، حيث وصـل على رأس جيشه إلى سورية في الأيام الأولى من سنة ١١٤م، وزار معبد زيوس في جبل كاسيوس القريب من أنطاكية، ثمَّ سار إلى هليوبوليس (بعلبك) فاستـشار كهنتها. واتجه إلى الشمال ليهاجم البارثيين من جهة أرمينية حيـث شـنَّ عـدّة حملات متتالية على دولة الفرس البارثيين من جهة الفرات وأرمينية. وأمـضى ترايانوس شتاء عام ١١٥-١١٦م في أنطاكية ساعياً لإنشاء أسطول نهري لكـي يبلغ بواسطته النتيجة الحاسمة. ولما كان في أنطاكية ضربها زلزال شـديد فـي أوّاخر عام ١١٥م، واستمرّتْ الهزّات لعدّة أيام ممَّا ألحق بها أضـراراً فادحـة، ونجا ترايانوس بأعجوبة من هذه الكارثة. وفي سنة ١١٦م تجـدّد القتـال بـين الرومان والبارثيين حيث اجتاحتْ القوّات الرّومانيّة بلاد الرافدين واحتلتْ بابـل، ثمَّ اندفعتْ إلى سلوقية والمدائن فاستولتْ عليها، وفرَّ (خسرو) ملك الفرس هارباً إلى الشرق. ونتيجة ذلك اتخذ ترايانوس رسـميّاً لقـب (بـارثيكوس) أي قـاهر الفرس، وجعل من هاتين المقاطعتين ولايتين رومانيتين.

(٢١) HEAD. B. 1911. Historia Numorum, Oxford, p.777.

(٢٢) كركلا هو ماركوس أوريلوس أنطونينـوس ابـن الإمبراطـور سـبتيموس سيفيروس المجاهد العظيم الذي حكم بين عامي ١٩٤ ــ ٢١١م، الـذي أورثـه جيشاً منظّماً قويّاً مخلصاً لأسرته وخاصّةً لزوجته جوليا دومنا، وكـان الجـيش يشعر بالارتياح لجيتا أخ كركلا أكثر منه ممّا أثار حقد كركلا واستشاط غـضباً على أخيه وفسّر أنَّ الجيش تآمر مع والدته لصالح أخيه، فقام كركلا بقتل أخيـه في حضرة والدته التي حاولتْ الدفاع عنه فأخفقتْ، وقد تقطّعتْ بعض أصـابعها من سيوف الجند الذين أحضرهم كركلا لاغتيال أخيه، فكسب كـركلا العـرش

بالإضافة إلى الكره الشعبي الذي انصبّ عليه مع لقب قاتل أخيه وتمادى حتّى ارتكب ٢٠ ألف جريمة قتلٍ بحقٍّ أنصار أخيه حتّى بابنيان أعظم فقهاء القانون في العالم لمْ ينج منه. وقد كانت والدته تتدخل في الحكم لتحدّ من تصرفات ابنها الطائشة وتقوّم قراراته المرتجلة، ثمَّ استولت على كركلا فكرة غزو الشرق تشبّهاً بالإسكندر المقدوني فانتقل إلى أنطاكية وقد عهد إلى والدته تصريف شؤون الحكم المدني واعتبرها أمينة سره ورئيسة ديوانه تستلم الرسائل وتجيب عنها وتحلّ محله في استقبال رجال الدولة والأجانب، وذهب هو ليقضي معظم وقته مع جنوده وفضّل مرافقتهم على مرافقة الرجال المهذبين وكان كريماً معهم واتبع خطّة والده وهي السير معهم مشياً على الأقدام رافضاً ركوب حصان أو عربة وإذا احتاج الجنود حفر خندق أو عمل جسر كان هو أول من يحمل الفأس للحفر وكان طعامه طعامهم وقد كان قويّاً حتّى قيل أنّه قادر على قتل أسد. ورغم أنّه شارك جنوده طعامهم وأكواخهم إلا أنَّ حبّهم للغنائم كان أكثر من حبهم للقتال فأقدموا على قتله في حرّان (كاره Carrah) شمال سورية عام ٢١٧م.

(٢٣) ديورانت، ويل. ١٩٥٥م. **قصّة الحضارة**، ت. محمد بدران، مج ٩ و١٠ اجامعة الدول العربية. ص ٤١٩.

(٢٤)إيلاجبالوس: هو ابن جوليا سوميا وحفيد جوليا ميسا أخت جوليا دومنا زوجة سبتيموس سفيروس، وابن كركلا (ماركوس أوريليوس أنطونينوس) وهو مجرد إدعاء من أمه وجدته قبل المناداة به إمبراطوراً لكسب تأييد الجنود له. عيّن إمبراطوراً بمساعدة القوّات السورية الموالية لكركلا في مدينة رافانيا، وبحنكة النساء السوريةت الحمصيّات. نقل هذا الإمبراطور عبادة الحجر الأسود الحمصي النيزكي المعروف باسم (سولي إنفيكتوس إيلاجبالوس) إلى روما، ممّا سبّب الصدام مع كهنة مجمّع الآلهة الرّوماني بروما. اغتيل إيلاجبالوس في ٢٢٢م، وجرّت جثته في شوارع روما وألقيت في نهر التيبر، ويُقال أنَّ الحجر

النيزكي أُعيد إلى حمص بدليل ظهور صوره على قطع نقديّة من عهد المغتصب أورانيوس أنطونينوس الحمصي بين عامي ٢٥١-٢٥٣م.

(٢٥) LAVOIX, H., 1887, *Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale, Khalifes Orientaux*, Paris, p.19.

(٢٦) ARTUK, I. C., 1971, *Istanbul Arkeoloji Muzeleri Teshirdeki Islami Sikkeler Katalogu*. Cit 1. Istanbul, p. 2-3.

(٢٧) TIESENHAUSAN, B., 1873, *Moneti Vostochnavo Khalifato*, St. Petersburg, p.6.

(٢٨) نايف جورج القسوس ٢٠٠٤، **نُميّات نحاسيّة أمويّة جديدة من مجموعة خاصّة مساهمة في إعادة النظر في نُميّات بلاد الشام**، البنك الأهلي الأردني، ص ٣٧٦.

المصادر

Aleppo city area Sources: City population From Wikipedia, the free. Encyclopedia.

PLUTARQUE, ***Crassus*** 17-18. Trad. R. FLACELIERE, Les Belles Lettres 1972.

المراجع العربية

جود الله، فاطمة، ١٩٩٩م. سورية نبع الحضارات، ط١، دمشق

حمود، محمود، ٢٠٠٨م. الممالك الآرامية السورية، ط١، دمشق.

ديورانت، ويل. ١٩٥٥م. قصّة الحضارة، ترجمة محمد بدران، المجلد ٩ و ١٠جامعة الدول العربيّة.

سلهب، زياد وكيوان، خالد ٢٠١٠. المسكوكات القديمة.جامعة دمشق.

قابلو، جباغ، ٢٠٠٨/٢٠٠٩م، تاريخ الحضارة القديمة في الوطن العربي، جامعة دمشق. ط١.

نايف جورج القسوس ٢٠٠٤، نُميّات نحاسيّة أمويّة جديدة من مجموعة خاصّة مساهمة في إعادة النظر في نُميّات بلاد الشام، البنك الأهلي الأردني.

المراجع الأجنبية

AMANRY, Michel, 2002,

La politique Monétaire des Flaviens en Syrie de 69 à 73 " ***Les monnayages Syriens***" Actes de la table ronde de Damas, édit par Christian Augé, IFAPO Beyrouth.

ARTUK, I. C., 1971,

Istanbul Arkeoloji Muzeleri Teshirdeki Islami Sikkeler Katalogu. Cit 1. Istanbul.

BELLINGER. A, 1940,

The Syrian Tétradrachmes of Caracalla and Macrinus, ***The American Numismatic of Society.*** New York.

BIKERMAN. E, 1938.

Institutions des Séleucides, Paris.

HEAD. B. 1911.

Historia Numorum, Oxford.

LAVOIX, H., 1887,

Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale, Khalifes Orientaux, Paris.

LERICHE, Pierre, 1989,

Les fortifications grecques et romaines en Syrie, *Archéologie et histoire de la Syrie*, Édit par J. M. Dentzer, Saarbrücken.

PHENIX, Robert R. (2008)

The sermons on Joseph of Balai of Qenneshrin.

PRIEUR. Michel. 2000,

A type corpus of the Syro - Phoenician Tétradrachmes and their fractions from 57 BC to 253 AD. London..

SARTRE Maurice, 2001.

D'Alexandre à Zénobie, histoire du Levant antique, Paris, p.165.

TIESENHAUSAN, B., 1873,

Moneti Vostochnavo Khalifato, St. Petersburg.

إسهامات المقدسي في الجغرافية والدراسات الإقليمية

الأستاذ الدكتور إبراهيم أحمد سعيد

قسم الجغرافية

كلية الآداب

جامعة دمشق

ملخص البحث:

المقدسي: عالم عربي مسلم هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر البنّاء الشامي المقدسي. ولد في بيت المقدس وعُرف بكتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، الذي يُعدّ من أهم الكتب الجغرافية العربية والعالمية في العصور الوسطى.

يُعدّ المقدسي أهم وأفضل الجغرافيين العالميين الذين وضعوا أسس التقسيم الإقليمي والأقاليم الجغرافية. لقد اعتمد هذا العالم الجليل على ثلاثة أسس في التقسيم الإقليمي وهي:

١-الأساس الديني.

٢-الأساس اللغوي.

٣-الأساس الإداري والسياسي.

واتبع منهجاً متفرداً في دراسة الأقاليم معتمداً التقسيم العنقودي والمركزي كالآتي: الإقليم – الكورة – القصبة –المدينة – القرية.

لقد استفاد العالم الجغرافي الألماني كريستللر من دراسات المقدسي عندما وضع نظريته في التوزيع الجغرافي للمراكز العمرانية في جنوب ألمانيا في النصف الأول من القرن العشرين فكانت كالآتي: إقليم – محافظة – ولاية – منطقة – بلدة – مزرعة.

اعتمد عالمنا الكبير في دراساته على المصادر الآتية: الدراسة الميدانية (أحدها ما عايناه)، والمقابلات (والثاني ما سمعناه من الثقات)، والمكتبات (والثالث ما وجدناه في الكتب المصنفة). وحدّد المقدسي أهداف دراسته للإقليم بجملة أهداف تركزت حول إظهار شخصية الإقليم والتعرف على الخصائص الطبيعية والبشرية والاقتصادية والتعرف على الطرق والمسالك والمسافات بين المدن، والتعرف على الأضرحة والمشاهد التاريخية والمساجد المشهورة. ولخّص المقدسي جوانب دراساته عن الأقاليم بالجانب الوصفي والبنيوي والوظيفي وركّز على العلاقات بين الأقاليم التي درسها.

إسهامات المقدسي في الجغرافية والدراسات الإقليمية.

أسهم الجغرافيون العرب في تطور الفكر الجغرافي العالمي وأرسوا أسسه المتينة وابتكروا مناهج جديدة في الدراسات الجغرافية لا زالت حتى الآن تستخدم في كل الجامعات العالمية، ولعل من أهم المناهج المبتكرة والتي تشكل أساس معظم الدراسات الجغرافية، وهو المنهج الإقليمي، الذي يُعدّ بحق من المناهج الأصيلة في الجغرافية، لأن المجال العلمي الذي يغطيه في الجغرافية هو صلب الجغرافية الحديثة وأهم مجالاتها التطبيقية والعملية والتخطيطية.

لقد مثّل المقدسي بكتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم مرحلة مهمة في تطور الجغرافية العربية والعالمية على حدّ سواء، فإذا جاز لنا أن نقّسم تطور الجغرافية

العربية إلى مراحل مميزة مترابطة تكمّلُ بعضها البعض وتعتمد على بعضها البعض. ففي المرحلة الأولى أو مرحلة التأسيس اهتمت الجغرافية بالملاحظة والتسجيل والتبويب والوصف وإنتاج الخرائط والاهتمام بالسكان والعادات والعناصر الطبيعية الكبيرة كالجبال والصحارى والبحار. ومن أعلامها اليعقوبي [١]، ابن خرداذبة [٢]. أما المرحلة الثانية وهي مرحلة النضج في الدراسات الجغرافية ويمثلها أعلام كثيرون مثل: الاصطخري [٣]، والبلخي [٤]، والهمداني [٥]، والمسعودي [٦] وابن حوقل البغدادي [٧] ويترأس هذه المرحلة عالمنا الجليل محمد بن أحمد المقدسي، وتأتي المرحلة الثالثة وهي مرحلة الإبداع في الجغرافية العربية ويمثلها البيروني [٨]، والإدريسي [٩]، وابن الشاطر الدمشقي [١٠]. ولكن للمقدسي مكانة متميزة في الجغرافية العربية لم يجاريه فيما أبدعه أحد من الجغرافيين لا من العرب ولا من غير العرب، في العصور الوسطى والحديثة وبخاصة فيما أبدعه في دراسة الأقاليم وما وضعه من أسس في الدراسة الإقليمية أو في المنهج الإقليمي في الدراسات الجغرافية. وسنحاول في هذه الدراسة التعرف على المقدسي وما أبدعه في الجغرافية العربية والعالمية.

التعريف بالمقدسي:

هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البنّاء الشامي المقدسي البشاري المعروف بالمقدسي. ولد سنة ٣٣٥ للهجرة الموافق ٩٤٧ ميلادية في بيت المقدس. كان جدّه ممن ساهموا ببناء ميناء عكا في عهد ابن طولون، أما أمه فتنتمي لعائلة من قرية بير من أعمال تومس في إقليم الديلم على الحدود الغربية لخراسان، لذلك كان متقناً للفارسية، وقد ساعده هذا في نجاح مهماته في معظم أقاليم الشرق. توفي المقدسي سنة ٣٩٠ للهجرة الموافق ١٠٠٠ ميلادية، وبذلك يكون قد عمّر ٥٥ سنة هجرية ونحو ٥٣ سنة ميلادية. وهذا يعني أنه توفي في قمة عطائه العلمي مما يجعل من موته خسارة كبيرة في علم الجغرافية وفي المعرفة الإنسانية.

ارتحل المقدسي في شبابه الأول إلى العراق، بعد أن كان قد تعلم في بيت المقدس أصول القراءة والكتابة وحفظ القرآن. وفي العراق انطلق نحو عالم المعرفة من خلال مخالطة العلماء والفقهاء والتنقل بين المكتبات الكبيرة والإطلاع على المصنفات والمراجع وأمهات الكتب في مجالات العلوم المختلفة. ويبدو أن شغفه كان كبيراً بالبناء والعمران ويظهر ذلك من خلال اهتماماته بهذا الجانب، ولعل ذلك يعود إلى طفولته التي عاش فيها في كنف أبيه وجده اللذين كانا مهتمين بالبناء والعمارة. لقد ساعده ذلك في وضع منهج متميز، أو لنقل فرضية، في تقسيم العمران وإتباع مرجعية محددة في ذلك، جعله الرائد في هذا المجال حيث نجد أن الجغرافي الكبير فالتر كريستللر[١١] قد اعتمد عليه في نظريته المعروفة في المزج بين توزيع المراكز العمرانية وحجم الأسواق الاقتصادية المرتبطة بها.

مكانة المقدسي العلمية:

مثّل المقدسي مرحلة النضج في الجغرافية العربية والإسلامية (وهو يدخل ضمن مرحلة الإبداع أيضاً) ويراه بعض الجغرافيين العالميين بأنه أفضل جغرافي على مر العصور، فيقول سبرنجر[١٢] SPRENGER أن المقدسي هو "أكبر جغرافي عرفته البشرية قاطبة.... ولم يسبقه شخص في اتساع مجال أسفاره وعمق ملاحظاته وإخضاعه المادة التي جمعها لصياغة منظمة " وهذا ما سيظهر بالفعل عند الحديث عن منهجه في الوصول إلى المعلومة الجغرافية وفي تصنيفها والاعتماد عليها. وكذلك بيّن الجغرافي المشهور كرايمرز بأن المقدسي: " أكثر الجغرافيين أصالة " فالمقدسي كان شغفه الأساسي وربما الوحيد هو الجغرافية التي أعطاها جلّ وقته وحبه وأسفاره وعمله حيث خاطر بحياته مرات ومرات مما اضطره لتغيير اسمه من إقليم إلى آخر ليضمن سلامته أولاً وليتمكن من الوصول إلى المعلومة المراد الحصول عليها ثانياً، وقد زادت ألقابه عن الثلاثين لقباً.

تمكّن المقدسي من رصد العالم الإسلامي في القرن الرابع الهجري بشكل دقيق وحي ويرى العالم بلاشير [١٣]: " أن كتاب المقدسي أساسي لمعرفة العالم الإسلامي في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي.... ونظراً لما كان يتمتع به المقدسي من حب استطلاع يقظ دوماً، ومن روح تسامح فريدة تماماً،وبقدرة على الفهم نادرة، فقد نتج عن كل هذه المزايا المذكورة أن أصبح كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) وصفاً بديعاً للعالم كما رآه في تعقيده الحي ". سيتبين فيما بعد أن المقدسي كان مبدعاً في الجغرافية الإقليمية وفي منهج الدراسات الجغرافية في البعدين العمراني والاقتصادي. وعلى الرغم من أنه درس ما قدّمه الجغرافيون الذين سبقوه كابن خرداذبه والبلخي والهمداني إلا أنه وجه إليهم النقد المر [١٤] ورفض مناهجهم رفضاً قاطعاً وسجل كتابه في إطار المنهج الأفضل الذي ابتكره.ولم يكن المقدسي يؤمن بتقسيم الجغرافية إلى فرعين رئيسين / الجغرافية الطبيعية والجغرافية البشرية / إلا أنه يمكن استشراف دعمه ذلك في كتاباته ولكن ضمن ما يُعرف بالدراسة الإقليمية وليس خارجها.

إبداعات المقدسي الجغرافية:

تتمحور إبداعات المقدسي في الجغرافية في اتجاهات مختلفة يمكن تحديدها بالآتي:

١-عدم اتباع التقسيم السباعي في التقسيم الجغرافي والتوجه نحو الاختلافات الجغرافية في الدراسات.

٢-اعتماد منهج محدد في الدراسة لا يحيد عنه في دراسة الأقاليم.

٣-اعتماده أسساً جديدة في التقسيم الإقليمي.

٤-ابتكاره الألوان المناسبة لرسم الخرائط بما يتوافق والوظائف المنوطة بها ووضع الشمال في أعلى خرائطه كما هي الآن.

٥-توظيف المعرفة لما فيه صالح المجتمع من الفائدة المعنوية إلى الفائدة المادية وإلى متعة السفر والمعرفة البسيطة.

أسس التقسيم الإقليمي عند المقدسي:

اعتمد المقدسي الأسس الآتية في التقسيم الإقليمي:

١-استخدم الدين كأساس للتقسيم الإقليمي، وعليه فقد قسّم العالم إلى قسمين رئيسين وهما: أ- أقاليم إسلامية.

ب- أقاليم غير إسلامية (وقصد بذلك الصقالبة والفرنجة وما وراء بلاد الترك).

فعلى الرغم من أنه لم يغفل دور زاوية سقوط الأشعة الشمسية، الذي كان متبعاً عند غيره في تقسيم الكرة الأرضية إلى أقاليم جغرافية، إلا أنه لم يكتفِ به ولم يعتمده الاعتماد الكلي في التقسيم.

٢-استخدم اللغة الأساس الثاني في التقسيم الإقليمي فقسّم الأقاليم الإسلامية إلى مجموعتين:

أ- مجموعة الأقاليم العربية وعددها ستة أقاليم وهي: جزيرة العرب، الشام، العراق، مصر، المغرب،آقور وهي بلاد الثغور وتتضمن: (ديار ربيعة، ديار مضر وديار بكر). انظر الخريطة رقم (١).

ب- مجموعة الأقاليم الأعجمية وعددها ثمانية أقاليم وهي: المشرق، الديلم، الرحاب، الجبال، خوزستان، فارس، كرمان والسند.انظر الخريطة رقم (٢).

٣-الأساس الإداري أو السياسي، حيث نجد إقليم مصر كوحدة إدارية وسياسية واحدة وإقليم المغرب العربي وإقليم العراق وإقليم جزيرة العرب وإقليم الشام وكذلك بقية الأقاليم.

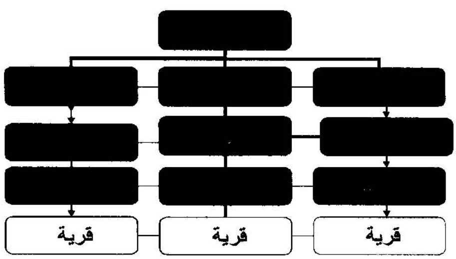
استخدم المقدسي طريقة جغرافية أصيلة في تحديد الأقاليم لا زلنا حتى الآن نستخدمها وهي تحديد الإقليم بالجوار مع ذكر الجهات بالتقابل، وهي طريقة مناسبة فعلاً، واستخدم جهة الشمال أولاً في التحديد ونحن ندين له بذلك، فيقول عن إقليم مصر[١٥]:

"وإقليم مصر يأخذ من البحر الرومي [16] طولاً إلى بلد النوبة، ويقع بين بحر القلزم [17] وتخوم المغرب، ويمتد إقليم المغرب من تخوم مصر إلى البحر المحيط [18] مثل الشريطة بضغطه من قبل الشمال، بحر الروم ومن قبل الجنوب بلدان السودان ".

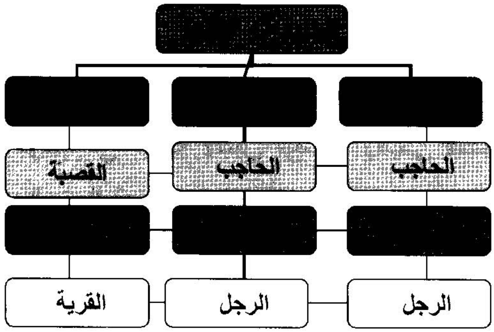
يبدو أن المقدسي قد توقع، في إتباعه لأسس التقسيم الإقليمي المذكورة آنفاً، أن تأتيه الانتقادات كمجدد في الجغرافية، ولذلك فقد ذكر جوابه عن تساؤلات من يطرح عليه هذه القضية فيقول[19]:"فإن قال قائل لِمَ جعلت اليمن والمشرق والمغرب جانبين جانبين قيل له: أما اليمن فالنبي صلى الله عليه وسلم (وآله) جعلها. حيث فرّق مواقيتها في الإحرام[20]. وأما خراسان فإن أبا زيد[21] جعلها إقليمين وهو إمام في هذا العلم وبخاصة في إقليمه، فلا عيب أن جعلناها جانبين. فإن قال فلما خالفته بعدما نصبّته إماماً فصيرّت خراسان إقليماً واحداً قيل له: لنا في هذا جوابان: أحدهما أنّا لم نُحب أن نفرّق مملكة سامان[22]... والجواب الثاني أن أبا عبد الله الجيهاني[23] أيضاً إمام في هذا العلم وهو لم يُفرّق خراسان".

منهج المقدسي في دراسة الأقاليم:

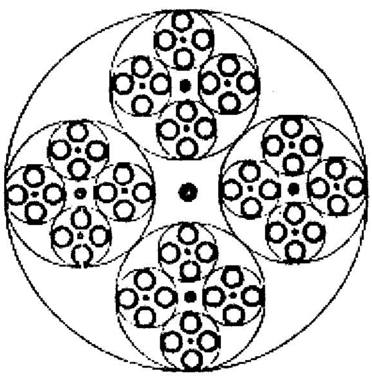
اتبع المقدسي منهجاً متفرداً في دراسة الإقليم نفسه معتمداً التقسيم العنقودي بالشكل بالآتي[24]:

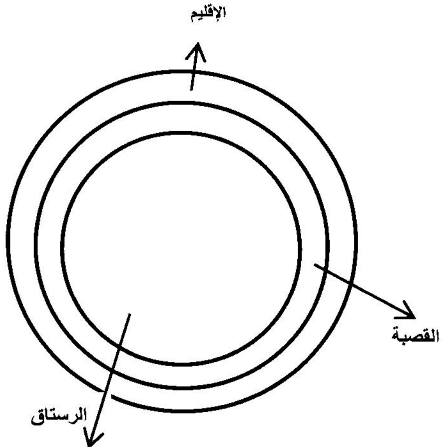


حاول المقدسي أن يجد مرجعية سياسية لمنهج التقسيم عنده فبيّن أن تقسيمه السابق في دراسة الإقليم يشابه التقسيم الآتي:

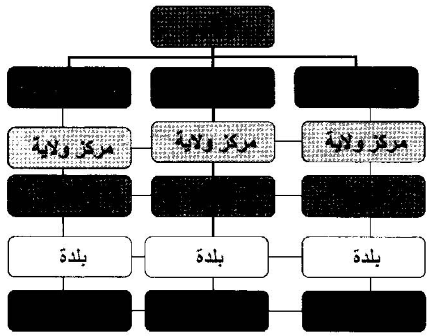


أما التقسيم المساحي والرباعي عند المقدسي فكان بالشكل الآتي:





يُعد منهج المقدسي السابق أصيلاً، كما ذكرنا، في الجغرافية الإقليمية وقد استفاد منه جغرافيون أوربيون وطوروه مثل الجغرافي الألماني الكبير كريستللر ومزج بين التوزيع الجغرافي للمراكز العمرانية ووظائف الأسواق المرتبطة بها ضمن دراسة كل إقليم من الأقاليم. وقد وضع كريستللر نموذجه ومنهجه في الدراسة الاقتصادية الإقليمية بالشكل الآتي وتتضح العلاقة الوثيقة بين نموذجه ونموذج المقدسي:



مصادر دراسة الإقليم عند المقدسي:

تميز المقدسي بأنه كان موضوعياً في كتاباته إلى درجة كبيرة، لذلك فقد صنّف درجة الثقة في دراساته وفقاً لمصادر معلوماته التي اعتمد عليها وهي:

١-المصادر الميدانية فيقول: فلم يبقَ إقليم وقد دخلناه، وأقل سبب إلا وقد عرفناه.... فانتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام: أحدها ما عايناه ". والمعاينة تعني الملاحظة الدقيقة والمنهجية والفهم المتكامل لأية ظاهرة مدروسة والإحاطة بها من معظم الجوانب.

٢-المقابلات التي أجراها مع أهل العلم فيقول: " والثاني ما سمعناه من الثقات ". وبالنسبة للثقات الذين اختارهم المقدسي لتقصي الأخبار والمعلومات فقد تمهل كثيراً في اختيارهم والتأكد من رجاحة عقولهم وعدم التناقض في آرائهم فيقول: [٢٥]" سؤال ذوي العقول من الناس.. ومن لم أعرفهم بالغفلة والالتباس عن الكور والأعمال في الأطراف التي بعدت عنها ولم يقدر لي الوصول إليها، فما وقع عليه اتفاقهم أثبتّه، وما اختلفوا فيه نبذته.. وما لم يقر في قلبي ولم يقبله عقلي أسندته إلى الذي ذكره أو قلت زعموا "

٣-المكتبات والمراجع العلمية وأمهات الكتب والمصنفات "والثالث ما وجدناه في الكتب المصنّفة" فيقول: "وما بقيت خزانة ملك إلا وقد لزمتها، ولا تصانيف فرقة إلا وقد

تصفّحتها "ولكن المقدسي انتقد بشدة الكتب التي اطلع عليها عن بعض المناطق فيقول: [٢٦]"أما ابن الفقيه الهمداني فإنه سلك طريقة أخرى ولم يذكر إلا المدائن العظمى ولم يُرتب الكور والأجناد وأدخل في كتابه ما لا يليق به من العلوم، وأما الجاحظ وابن خرداذبه فإن كتابيهما مختصران جداً لا يحصل منهما فائدة كثيرة ". وحتى لا يبخس العلماء حقوقهم فيقول: " اجتهدنا في ألا نذكر شيئاً قد سطّروه، ولا نشرح أمراً قد أوردوه،إلا عند الضرورة لئلا نبخس حقوقهم، ولا نسرق من تصانيفهم" ويختم طريقته بالتعامل مع ما أخذه من الآخرين بالقول: [٢٧]"وقد ذكرنا ما رأيناه، وحكينا ما سمعناه فما صحّ عندنا بالمعاينة وأخبار التواتر أرسلنا به إلى الذي منه سمعناه ".

أهداف دراسة الإقليم عند المقدسي:

لقد عانى المقدسي معاناة شديدة قي سبيل الوصول إلى أهدافه التي أرادها وكرّس جلّ حياته من أجلها فيقول:[٢٨] " لم يبقَ شيء مما يلحق المسافرين إلا وقد أخذت منه نصيباً غير الكُدية [٢٩] وركوب الكبيرة. فقد تفقهّت وتأدبت وتزهدت وتعبدت... وصاحبت في الطرق الفسّاق، وبعت البضائع في الأسواق، وسُجنت في الحبوس، وأُخذت على أنني جاسوس ".

يستهل المقدسي كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم فيبين هدفين اثنين من كتابه ومن دراساته كلها وهما:

١-الأول شخصي، كما فعل العلماء من قبله فيقول: "أما بعد فإنه ما زالت العلماء ترغب في تصنيف الكتب لئلا تدرُس آثارهم [٣٠]، ولا تنقطع أخبارهم، فأحببت أن أتبع سنتهم، وأقفو سننهم، وأُقيم علماً أُحيي به ذكري.. ".

٢-الثاني الفائدة العلمية والعملية للناس بما يُرضي ربه فيقول: [٣١] "... ونفعاً للخلق أُرضي به ربي ".

كان المقدسي عند دراسته لأي إقليم يهدف رزمة من الأهداف أهمها:

١-إظهار شخصية الإقليم المميزة له وتقسيماته الإدارية.

٢-التعرف على الخصائص الطبيعية في الإقليم من حيث:

أ- السطح (الجبال والصحارى والمفازات[٣٢] والسهول والوديان).

ب- المناخ والأنواء الجوية.

ت- موارد المياه والأنهار.

ث- البحار والبحيرات والسباخ.

٣-التعرف على الخصائص البشرية من حيث:

أ- السكان والقبائل القاطنة في الإقليم.

ب- المراكز العمرانية مرتبة حسب أهميتها.

ت- عادات السكان ولغاتهم وأديانهم ومذاهبهم وتقاليدهم.

٤-التعرف على الخصائص الاقتصادية من حيث:

أ- المحاصيل الزراعية وأنواع الزراعات والثروة الحيوانية.

ب- الثروة المعدنية المستثمرة في الإقليم.

ت- الصناعات الموجودة.

ث- السلع والتجارة والأسواق.

ج- نظام الضرائب والمكوس والخراج.

ح- المكاييل والموازين والعملة المستعملة.

٥-التعرف على الطرق والمسالك والمسافات بين المدن والحواضر الرئيسة.

٦-التعرف على الأضرحة والمشاهد التاريخية والمساجد المشهورة.

وهكذا يمكن القول أن المقدسي ركّز دراساته في الإقليم على الجوانب الرئيسة الآتية:

١-الجانب الوصف للإقليم.

٢-الجانب البنيوي في الإقليم.

٣-الجانب الوظيفي للإقليم.

٤-جانب العلاقات بين الأقاليم.

نتائج وخلاصة البحث:

اتبع المقدسي منهجاً واضحاً في تصنيف أهدافه السابقة عند دراسة الإقليم من خلال تقسيم الدراسة إلى ثلاثة فصول رئيسة وهي:

١-الفصل الأول، ويذكر فيه التقسيمات الإدارية وبعض الخصائص الطبيعية والمراكز العمرانية.

٢-الفصل الثاني، ويذكر فيه المناخ والأنواء والمياه والسكان وبعض الأنشطة السكانية كالتجارة والصناعة والزراعة وما يرتبط بها من ضرائب ومكاييل وخراج.

٣-الفصل الثالث ويذكر فيه المسافات والطرق والمسالك وغير ذلك.

ابتكر المقدسي ألواناً ثابتة في رسم الخرائط لازالت مستخدمة حتى الآن وبخاصة في محتوى الخريطة الجغرافية كما يأتي:

١-استخدم في رسم البحار اللون الأخضر.

٢-استخدم في تنزيل ورسم المياه العذبة كالأنهار والبحيرات اللون الأزرق.

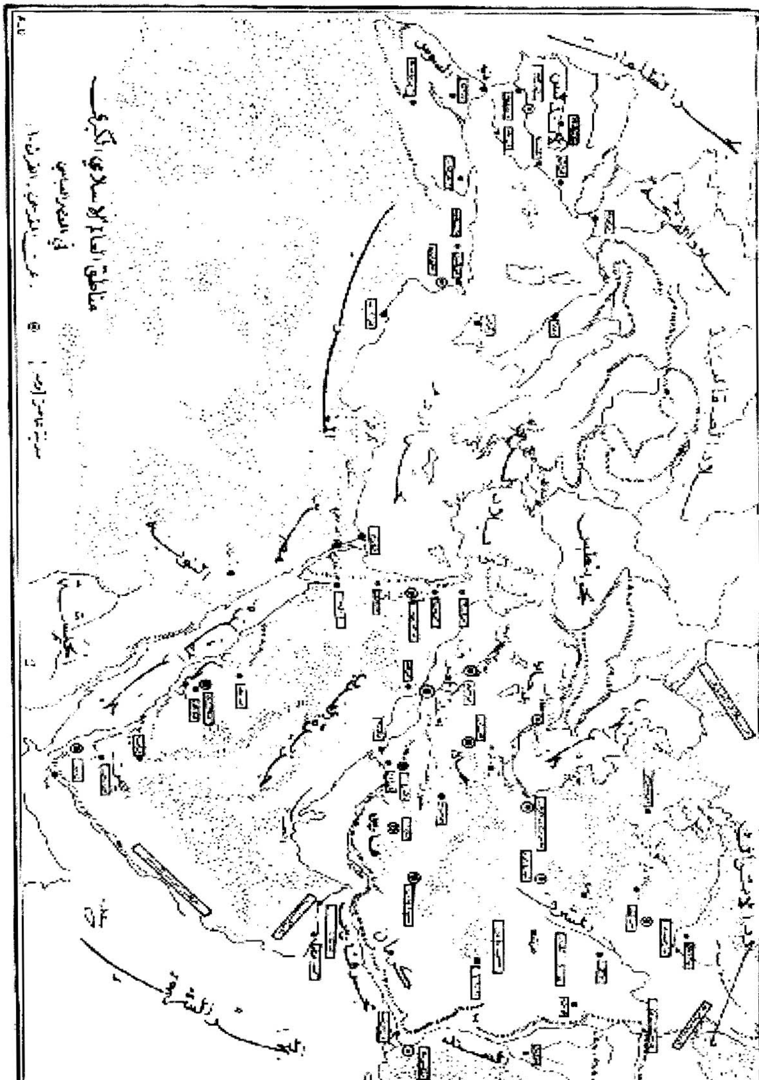
٣-استخدم في رسم الجبال والمرتفعات اللون البني وتدرجاته حتى الغُبرة.

٤-استخدم في رسم الطرق اللون الأحمر.

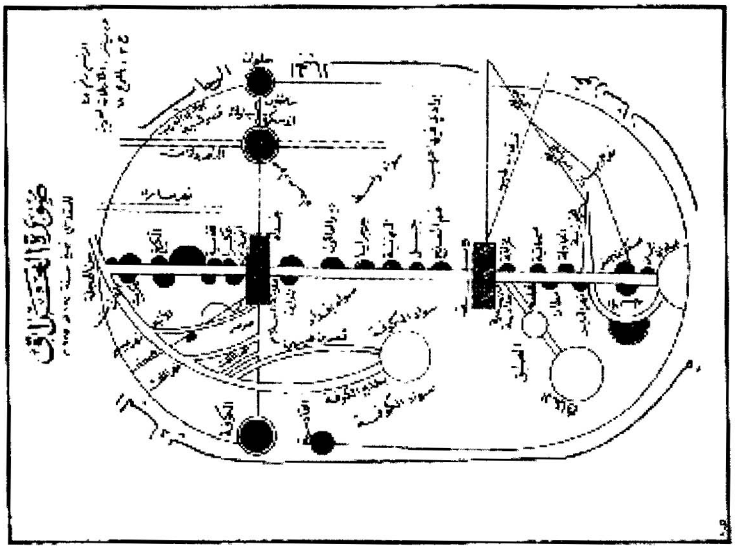
٥-استخدم في رسم الصحارى والمفازات والرمال: اللون الأصفر.

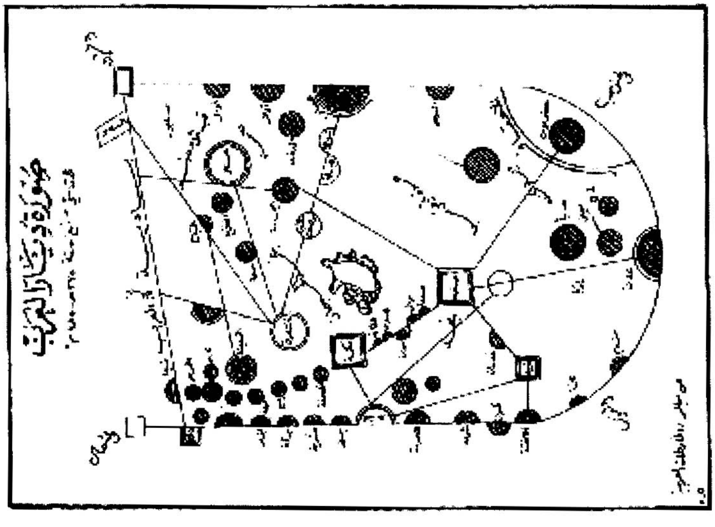
وهكذا نجد أن ابتكارات المقدسي في الجغرافية قد تراوحت بين المنهج العلمي الأصيل في الجغرافية الإقليمية وبين تطوير آليات رسم الخرائط الجغرافية ذات الأهمية الكبيرة في المجالات التطبيقية والتخطيط الإقليمي الذي يُعدّ هدفاً حيوياً واستراتيجياً في العصور الراهنة.

الشكل رقم (١)



الشكل رقم (٢)





الهوامش

١- هو أبو العباس أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي البغدادي. جغرافي كبير مؤلف كتاب **البلدان** متوفى عام٢٨٤هـ الموافق٨٩٧ ميلادية(٢٩٢ هـ).

٢ – هو أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله المشهور بابن خرداذبة. ألّف **كتاب المسالك والممالك**، متوفى سنة ٢٨٢ هـ (٢٧٢ هـ).

٣ – هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري نسبة إلى مدينة اصطخر جغرافي واسع المعرفة مؤلف كتابي **الأقاليم والمسالك والممالك**،متوفى سنة ٣٤٦ للهجرة (٣٤٠ هـ).

٤ – هو أبو زيد أحمد بن سهل البلخي. جغرافي مهم جداً. ألف كتاب **صور الأقاليم أو أشكال البلاد**. متوفى سنة ٣٢٤ للهجرة (٣٦٧ هـ)

٥ –هو أحمد بن محمد الهمداني. جغرافي ألف كتاب **البلدان**. متوفى عام٣٦٥هـ (٣٣٤هـ).

٦ – هو أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي مؤرخ وجغرافي، عَرف بكتابيه الرئيسين: **مروج الذهب ومعادن الجوهر والتنبيه والإشراف**. متوفى سنة ٣٤٦ للهجرة ٩٥٧ ميلادية.

٧- هو أبو القاسم محمد بن علي الموصلي المشهور بابن حوقل. جغرافي ورحالة كبير عَرف بكتابه **صورة الأرض وكتاب المسالك والممالك** وملاحظاته على الاصطخري متوفى سنة ٣٨٠ للهجرة.

٨- أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني(كلمة بيرون معناها براني أي أنه عاش خارج بلاده). موسوعي المعرفة رياضي وفيلسوف وجغرافي ومؤرخ، سمي بالخوارزمي نسبة إلى خوارزم متوفى في غزنة سنة ٤٤٠ للهجرة (١٠٤٨م) من كتبه الجغرافية **(الآثار الباقية عن القرون الخالية، تحديد نهاية الأماكن لتصحيح مسافات الأماكن)**.

٩- هو أبو عبد الله محمد بن محمد الحمودي بن عبد الله الشهير بالإدريسي من عائلة علوية كريمة من الأشراف أكبر جغرافي وسيد الجغرافيين في العصور التاريخية. رحالة كبير. كني باسترابون العرب (نسبة إلى الجغرافي اليوناني – الروماني استرابون) تشكل خريطته عن العالم وكتابه الشهير **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، نهاية الجغرافية القديمة وبداية الجغرافية الجديدة أو هو حلقة الوصل بين الجغرافية القديمة والحديثة. متوفى عام ٥٦٠ للهجرة / ١١٦٦ م.

١٠ هو علاء الدين علي بن برهان الدين إبراهيم بن شمس الدين محمد بن الهمام الأنصاري الدمشقي المطعّم فلكي عظيم وجغرافي مبدع لم يدرسه الجغرافيون ولم يصنفوه من أعلام الجغرافية مع إبداعاته في الجغرافية (انظر بحث هل كان ابن الشاطر جغرافياً لمؤلف هذا البحث) له مؤلفات كثيرة منها: **ربع الأوتار. الزيج، نهاية السول، تعليق الأرصاد**. متوفى ٧٧٧ هجرية / ١٣٧٥م

١١ – جغرافي اقتصادي ألماني كبير من مواليد ١٨٩٣م غطى فترة واسعة من تطور الجغرافية في ألمانية ما بين الحربين العالميتين ووضع نظرية في اقتصاديات المكان وتوزيع المراكز العمرانية. استفاد بشكل واضح من ابداعات المقدسي ولكنه لم يُشر إليه مع العلم أن كتاب المقدسي تُرجم للألمانية وطبع في عام ١٨٧٧م قبل أن يطلع عليه الفرنسيون والإنكليز بلغاتهم بأكثر من عقدين من الزمن.

١٢ – لويس سبرنجر مستشرق نمساوي ١٨٣٨-١٨٩٣م.

١٣ – ريجي بلاشير. ١٩٠٠-١٩٧٣م. كتاب م**قتطفات من أهم الجغرافيين العرب في العصور الوسطى** ١٩٣٢م.

١٤ –صلاح الدين الشامي. **الفكر الجغرافي سيرة ومسيرة**، منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٨٠ ص ٢٤٤.

١٥- المقدسي. **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**. ص ٦٣.

١٦ - المقصود به البحر المتوسط.

١٧ - المقصود به البحر الأحمر.

١٨ - المقصود به المحيط الأطلسي.

١٩ - أحس التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٦٧-٦٨.

٢٠ -المقصود ميقات اليمن من يلملم.

٢١ - يقصد أحمد بن سهل البلخي.

٢٢ - هي المملكة التي أسسها أحفاد سامان خداه في عهد المعتضد العباسي واستمرت من عام٢٦١إلى٣٨٩هجرية (٨٧٤-٩٩٩م) وهم من أحفاد الساسانيين (انظر الموسوعة العربية م ١٠ ص٥٩٩ -٦٠٠).

٢٣- يقصد أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني.

٢٤- الأسماء مرتبة حسب المساحة من الأكبر(الإقليم) إلى الأصغر (القرية). والكورة مصطلح جغرافي استخدم في الجغرافية القديمة يعادل المنطقة في المصطلحات الحديثة وهو مساحة أصغر من الإقليم وأكبر من القصبة.

٢٥ - **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** ص ٣.

٢٥ - **أحسن التقاسيم**. ص ٤.

٢٧ - **أحسن التقاسيم**. ص ٨.

٢٨ - **أحسن التقاسيم**. ص ٤٤.

٢٩ - الكُدية تعني التسول والاستجداء.

٣٠- يعني تتمحي أخبارهم. ص ١.

٣١- **أحسن التقاسيم**. ص ١.

٣٢- المفازة أرض صعبة الاجتياز لوجود أخطار شديدة فيها أغلبها على شكل صحارى لكنها ليست واسعة يقال: الداخل فيها مفقود والخارج منها مولود.

مراجع البحث

١- حميدة، عبد الرحمن. أعلام الجغرافيين العرب، دار الفكر، دمشق ١٩٨٠م.

٢- الشامي، صلاح الدين. الفكر الجغرافي سيرة ومسيرة، منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٨٠م.

٣- طليمات، غازي. من أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي. مختارات من التراث العربي. منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي. دمشق ١٩٨٠ م.

٤- كراتشكوفسكي، اغناطيوس يوليانوفيتش. تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٧م.

٥- محمدين، محمد محمود. مفهوم الإقليم وأسلوب دراسته عند المقدسي. المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول. م ٣، جامعة الإمام محمد ١٩٨٤م.

٦- الموسوعة العربية. مجلدات عدة.

الفكر السياسي والاجتماعي للمؤيد في الدين الشيرازي

الدكتور غسان بركات

قسم التاريخ - كلية الآداب

جامعة تشرين - اللاذقية

الملخص

تكمن أهمية هذا البحث في كونه يسلط الضوء على مختلف الجوانب الفكرية للداعية والمفكر العربي الإسلامي – المؤيد في الدين الشيرازي - الذي عاش في القرون الوسطى والذي لم ينصفه التاريخ العربي الإسلامي، بالرغم من الأثر الكبير الذي تركه هذا المفكر في حياة الأمة العربية والإسلامية في تلك الفترة.

فالمؤيد في الدين من أشهر فلاسفة المذهب الاسماعيلي، وقد عُرف في الآدب العربي من خلال مناظراته مع الشاعر أبو العلاء المعري في ((تحريم أكل اللحم))، وهو الذي وصفه المعري نفسه بقوله: ((ولو ناظر أرسطاطاليس لجاز أن يفحمه، أو أفلاطون لنبذ حججه خلفه)).

وفي هذا البحث تم رصد مختلف الجوانب الأساسية المضيئة في حياة هذا الداعي منذ ولادته وحتى وفاته، مستعرضين العوامل التي ساهمت في تكوين وعيه وفكره، وأهم جوانب فكره السياسية والاجتماعية والاقتصادية وعلاقته بالسلطة ودوره السياسي، كما جرى تسليط الضوء على دوره الكبير في ترسيخ الكثير من القيم في حياة الأمة العربية والإسلامية.

المقدمة:

إن المتتبع لتاريخ الدعوة الفاطمية وأثرها على المجتمعات الإسلامية خلال قرون عديدة، يستنتج بشكل مباشر بأن هذه الدعوة العقلانية الفكرية التي اعتمد عليها الأئمة الفاطميون، كانت ترتكز على نظام دقيق صعب مستصعب، وبأن النظام الفاطمي يقوم على نظام تراتبي يقع في قمته مرتبة الداعي الذي آخذ على عاتقه نشر الأفكار الفاطمية في كافة البلدان والأمصار.

ولقد اعتبر الفاطميون من حيث الأصول والأحكام ((الدعاة)) من حدود الدين المفروضة طاعتهم على المؤمنين، كطاعة الإمام الذي يُعتبر المحور الأساسي الذي تدور عليه كل العقائد عملاً بقوله سبحانه وتعالى: ((يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم)). ومن الطبيعي أن يوجه الإمام الفاطمي جل اهتمامه إلى ترتيب الدعوة وتنظيمها تنظيماً دقيقاً ينسجم مع المهمات الخطيرة الملقاة على عاتق ((الدعاة)) في مختلف بقاع الأرض، لذلك تم وضع شروطٍ قاسية لاختيار الدعاة، من حد المستجيب إلى حد داعي الدعاة، مما أعطى الدعوة زخماً وقوة، مهدت السبيل لنشر الأفكار الفاطمية، بشكل مثير في مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

والشروط التي وضعت للداعي بغاية القسوة والدقة والصلابة، حيث يتوجب عليه أن يجسد جميع الفضائل العلمية في الظاهر والباطن، وأن يكون مؤمناً بالدين الذي يبشر به بقوة ويقين وإخلاص، وأن يكون معروفاً بالصبر والرأي والفطنة والذكاء والعفة، والمروءة والشجاعة، والسخاء والتدبير، والأدب والعدل، لأنه سيكون طبيباً للأرواح، ومهندساً للعقول، وخبيراً بأنواع التربة، ليعرف كيف يزرعها ببذور الحقيقة.

وإذا كانت هذه الشروط أساسية لتحديد شخصية ((الداعي)) فإن خير من يجسد هذه الشروط هو العالم الكبير المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي داعي الدعاة الذي عُرف

في الأدب العربي بمناظراته مع الداعي والشاعر أبو العلاء المعري في ((تحريم أكل اللحم))، ويُعتبر المؤيد من أشهر فلاسفة المذهب الاسماعيلي(١).

وتكمن خطورة هذا الداعي بأنه استطاع أن يُدخل ملكاً من ملوك ((البويهيين)) في دعوته، كما أنه حاول القضاء على الدولة العباسية بتأليب أمراء العراق والشام على القائم بأمر الله العباسي، ونجحت مساعيه في إقامة الدعوة لإقامة المستنصر الفاطمي على منابر بغداد سنة ٤٥٠هـ كما أنه استطاع أن يعيد مدينة حلب إلى أملاك الفاطميين.

والمؤيد في الدين هو الذي وصفه ((أبو العلاء المعري)) بقوله: ((ولو ناظر أرسطاطاليس لجاز أن يفحمه أو أفلاطون لنبذ حججه خلفه)) (٢).

وبالطبع لا يمكن لأي باحث أن يدرس أو يقرأ أو يكتب عن الدعوة الإسماعيلية وعلماء ودعاة الإسماعيلية وفلاسفتها، وتأثير هذه الدعوة العقلاني والفكري على المجتمعات الإسلامية خلال قرون عديدة إلا أن يتوقف مطولاً عند أبرز دعاتها ((المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي)) الذي عُرف في الأدب العربي كما أشرنا سابقاً بمناظراته مع الداعي والشاعر أبو العلاء المعري في ((تحريم أكل اللحم)). فمن هو هذا الداعي؟

أولاً: المؤيد في الدين الشيرازي داعي الدعاة:

هو هبة الله بن أبي عمران موسى بن داؤد الشيرازي – ولد في شيراز بفارس في القرن الرابع للهجرة ضمن أسرة اتخذت العقيدة الفاطمية مذهباً لها، فأبوه كان حجة جزيرة فارس في عهد الخليفة الفاطمي ((الحاكم بأمر الله)) – فنشأ هبة الله وأعُد إعداداً علمياً ليحتل مكان والده في تلك الجزيرة، وما كاد يبلغ أشده حتى استوعب كل ما يتعلق بالدعوة وأسرارها وتنظيماتها الظاهرة والباطنة، فكاتب أبوه الخليفة الحاكم بأمر الله متوسلاً أن يولي ابنه ((هبة الله)) أمر الدعوة في فارس من بعده،

ولكن الخليفة أجابه بأن نظام الدعوة لا يقر بالوراثة، فإذا كان هبة الله يستحق أن يخلف والده عن جدارة ومقدرة فليثبت ذلك عملياً.

وبالفعل أثبت ((هبة الله)) بأنه جدير بهذا المنصب بعد أن وهب الدعوة كل ما يتمتع به من ذكاء وعبقرية، فخلف والده بعد وفاته، كرس جهوده لرفع مستوى الأتباع في تلك البلاد، فازداد عددهم وانتشرت أخباره كانتشار النار في الهشيم، واستطاع من خلال قدراته العقلية وحججه المنطقية أن يقنع أحد ملوك البويهيين ((أبي كاليجار)) سلطان شيراز من الدخول في دعوته، مما سهل له أمر إجهار معتقداته الفاطمية في بلد يدين للعباسيين بالولاء دون خشية، إلا أن العباسيين شعروا بخطورته وتآمره عليهم فحاولوا إلقاء القبض عليه إلا أنه فر إلى مصر مقر الخلافة الفاطمية وأقام بها زهاء ثلاثين عاماً، عمل خلالها على نشر العقائد الإسماعيلية عن طريق إلقاء المحاضرات العلمية والمجالس التأويلية، فاستمع له جمهرة من المصريين وآخذوا عنه علوم الدعوة وفلسفتها، وعنه أيضاً أخذ اليمنيون والجزائريون فأدانوا له بالأستاذية في علوم الدعوة.

وفي القاهرة أنشد المؤيد أكثر قصائده في مجالسه التي بلغت ((٨٠٠)) مجلس تحدث فيها عن العقائد الإسماعيلية وعلوم دعوته. وبعد مقابلته للخليفة الفاطمي المستنصر بالله في مصر في آخر شعبان سنة ٤٣٩هـ.

تقلد المؤيد ديوان الإنشاء وزيد في رزقه وعلا قدره في نظر الإمام المستنصر وكان المؤيد بارعاً في الكتابة باللغة العربية والفارسية فتوسع نطاق الدعوة الفاطمية إلى بغداد حيث نجحت خطة المؤيد في نشر الدعوة الإسماعيلية في الطرق ونشر خطب للإمام المستنصر هناك، إلا أن الصراع السياسي والعسكري أطاح بأحلام ((هبة الله)) عندما استطاع القائد العسكري ((طغرل بيك)) من الانتصار على جيوش ((البساسيري)) المؤيد للدعوة الفاطمية وخروج ((هبة الله)) من بغداد.

ونظراً للجهود التي بذلها ((المؤيد)) في نشر الدعوة الفاطمية تم تعيينه من قبل الإمـــام الاسماعيلي ((المستنصر بالله)) داعياً للدعاة سنة ٤٥١هـــ.

إلا أن المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي توفي في القاهرة سنة ٤٧٠هـــ ودفن في دار العلم بجوار القصر وقد صلى عله المستنصر (٣).

وقد كان لقوة حججه المنطقية والعقلية دورٌ أساسيٌ في نشر الدعوة الفاطمية حتى بين ملوك وقادة في عصر الدولة العباسية. وقد اعترف ((أبي العـــلاء المعـــري)) أثنـــاء مناظرته له بأنه في طليعة علماء عصره. فقال: ((وسيدنا الرئيس الآجل المؤيـــد فـــي الدين لازالت حجته باهـــرة، ودونته عالية، ولو ناظر أرسطاطاليس لجاز أن يفحمه أو أفلاطون لنبذ حججه خلفه)) (٤).

ولقد ترك داعي الدعاة مؤلفات عديدة قيمة، **ومن أهم مؤلفاته:**

١- **المجالس المؤيدية:** في ثمانمائة مجلسٍ من مجالس الحكمة التي كان يلقيهـــا فـــي ((دار العلم)) حيث جمع هذه المجالس وبوبها حسب موضوعاتها الفكرية الـــداعي المطلق ((حاتم بن ابراهيم الحامدي)) وسماها ((جامع الحقائق)) وفي هـــذا الـــسفر نرى مناظرات المؤيد في الدين ورده على بعض الفرق.

٢- **ديوان المؤيد في الدين:** مجموعة من القصائد التي أنشدها فـــي مـــدح الأئمـــة، وتعرض فيها لحياته، ووصف أحواله، وأشار إلى جهوده في نشر الدعوة، والديوان عامر بالإشارات والرموز والمصطلحات العقائدية الفاطمية.

٣- **السيرة المؤيدية:** وهو كتاب يتحدث فيه المؤيد في الدين عن الحيـــاة الـــسياسية والاجتماعية في ((فارس)) والعراق ومصر من سنة ٤٢٩هـــ إلى سنة ٤٥٠هـــ.

ويُعتبر سجلاً للوثائق التي تبودلت بين المؤيد وأمراء العرب، وبينه وبـــين الـــوزراء المصريين إبان ثورة ((البساسيري)).

٤- كتاب شرح المعاد.

٥- كتاب الإيضاح والتبصير.

٦- كتاب الابتداء والانتهاء.

٧- رسالة تحريم اللحوم.

٨- القصيدة الاسكندرانية.

٩- تأويل الأرواح.

١٠- نهج العباد.

١١- المسألة والجواب.

١٢- ترجمة أساس التأويل إلى الفارسية.

١٣- **المجالس المستنصرية:** وهذا الكتاب مشكوك في نسبته إلى المؤيد في الدين.

- **المجالس المؤيدية:** وتضم ثمانمائة مجلسٍ بثمان مجلدات خصصها المؤيد في الدين الشيرازي لطبقة من الدعاة والأجنحة والمأذونين. وهي بما تضمنته فوق علوم الشريعة والظاهر والمدخل التمهيدي إلى علم الباطن والحقائق. ومن المعروف أن هذه المجالس التي كان يلقيها داعي الدعاة في دار العلم على شكل محاضرات ثم يطرحها بعد ذلك للمناقشة والاستفسار قد فاقت شهرته الآفاق.

والمواضيع التي عالجها المؤيد في الدين في محاضراته هي: مفهوم التوحيد عند الفاطميين، والإبداع، والوجود والموجدات، وترتيب العوالم السفلية والعلوية، والوحي، وعالم الآخرة، والمعاد، والبعث، والقيامة، والجنة والنار وإثبات الوصاية، والمثل والممثول، والقيام بالقوة، والقيام بالعقل، وكيفية أخذ العهد والميثاق بالإضافة إلى الردود القصيرة على القائلين بالرجعة والتناسخ والتقمص، وعلى الحشوية، والمعطلة والمعتزلة، والصوفية، والغلاة من الشيعة، والفلاسفة الملحدين وغير ذلك من المواضيع الهامة (٥).

ثانياً: الفكر السياسي والاقتصادي للمؤيد:

أشارت الكاتبة ((فيرينا كليم)) بأن السيرة الذاتية للمؤيد ليست فقط مصدراً تاريخياً غنياً لتنظيم وعمل الدعوة الإسلامية، لكنها مصدر قيم للتاريخ الإسلامي في القرن الحادي عشر، حيث كان الفاطميون والعباسيون والبويهيون والسلاجقة في تنافس على القيادة السياسية والعسكرية في العالم الإسلامي (٦).

والإمام الشيرازي يتعامل مع المسألة السياسية كمن خلال رؤية تستند إلى فهم واقعي يأخذ بعين الاعتبار التراكمات الاجتماعية والاقتصادية لمجتمعه، حيث أنه لا يمكن تجريد السياسة عن علاقتها بالاقتصاد والمجتمع (٧).

وهذا **ما أكده الشيرازي بقوله:** ومن فهمَ السياسة أن يعرف الإنسان ارتباط الأمور بعضها ببعض وإن أي أمر يؤثر في أي أمر آخر (٨).

ومما لاشك فيه فإن تأسيس الإمام الشيرازي لهذه النظرة السياسية التي ترتبط بالجانب الاجتماعي والاقتصادي دفعته كي يعالج المسألة من جانبين ((الجانب الداخلي والجانب الخارجي)) حيث أشار الشيرازي إلى أنه من الواجب أن نوحد الجهود ونعيد وحدتنا ووحدة أمتنا عن طريق نشر الوعي الإسلامي فمن الواجب على كل مسلم أن ينشر الوعي الإسلامي (٩).

فالشيرازي دعا إلى تأصيل المسألة السياسية في الفكر الإسلامي والبدء في صياغة السؤال حول مفهوم السياسة، وهو يضع مدلول هذه الصياغة في إطار الرد على ما يثار من المآزق الحاضرة في عملية التغير السياسي. فليس من المبالغة القول أن الفشل الواضح لأغلب الفقهاء والفلاسفة في مجال الفكر السياسي والعجز عن تقديم نظرية سياسية واقعية قابلة للتطبيق، كان سبباً لخيبات أمل أكبر في مجال التطبيق. لقد أخضع الشيرازي المسألة السياسية للبعد الثقافي الواعي عبر مرور نظرته السياسية

بصراع فكري واجتماعي وعملي جاد مع واقع متخلف وظروف عالمية متسارعة التغيير (١٠).

إن ارتكاز نظرية الإمام الشيرازي السياسية على الجانب الاجتماعي والاقتصادي راجع إلى اكتشافه ازدياد مساحة التجمد الفكري وأن هذا التجمد في الفكر لا يعدو أن يكون انعكاساً للتجمد على أرضية المجتمع نفسها، يرجع بدوره إلى أسباب اجتماعية بحتة (١١). فالوصول إلى رؤية متكاملة تنهض على ضوء الغوص الاجتماعي في أعماقٍ المجتمع، ومن ثم بحث هذا المجتمع وما له من تجليات تساهم في حراكه الاجتماعي.

فالإمام الشيرازي يشير إلى المشكلة الأهم في الرحم التي تلد الحاكم، وهي ((الأمة))، فالأمة إذا صارت كالجسم الضعيف تسلط عليه المرض، بينما الأقوياء لهم المناعة في طرده من أجسامهم (١٢).

لذلك وضع الإمام الشيرازي إطار الشورى الذي يجمع تعدد وجهات النظر ويمهد للأمة أن تأخذ نصيبها من الممارسة السياسية المتداخلة مع حيثيات وجودها، فكل شيء يرتبط بشؤون الأمة لابد فيه من الاستثارة سواء في أصل الفعل أو توابعه(١٣). لأن منع المجتمع من الإفصاح عن طاقاته وعن امتلاكه لممارسة دوره في تأصيل المشاركة السياسية تجعله في منأى عن التطور في مختلف جوانب الحياة.

إن اعتماد الإمام الشيرازي نظريته ((الشورى)) كأطروحة في الحكم مرده إلى هاجس تحقيق التلاحم بين المجتمع من حكام ومحكومين مستنداً إلى التجربة الإسلامية التي حصلت في الزمن الماضي والتي تبقى صالحة بمضمونها وأساسها، حيث أوجدت مناخاً من الاستقرار الاجتماعي المنشود، ثم إن الاستشارية سواء في الحكومات الزمنية مما تسمى ((الديمقراطية)) أو في الحكومة الإسلامية هي صمام الأمان الذي يردع الطبقة الحاكمة من الميل إلى متطلبات المجتمع من بناء وتأسيس آفاق التنمية في

كافة نواحي الحياة، ولا يكفي للحاكم الإسلامي أن يطبق مبادئ الإسلام وقوانينه بدون قانون الشورى، لأن الناس يرون أنه لـــم يطبـــق قانون الإسلام الذي هـــو الـــشورى فينفضون من حوله ثم يثورون عليه حتى إسقاطه (١٤).

وحينما ينظر الإمام الشيرازي لمسألة الشورى وكيفية تحققها في المجتمع لا يقفز فوق أساسيات الفعل السياسي الصحيح في إيجاد ضمانات الأمن الاجتماعي لهذا المجتمـــع، لذلك نراه يؤصل مطلب الحرية بالقول: ((الأصل في الإنسان الحريـــة)) (١٥). إنـــه يعي ضرورتها' وخاصة ضمن بنية المجتمع الإسلامي الذي يغيب فيه مفهوم الحريـــة تحت مطلب العدالة، ولا تخلو كتابات المفكرين الإسلاميين من إبراز جانـــب العدالـــة على حساب مطلب الحرية وعلى وجه الخصوص، الغزالي والماوردي، حيث ارتكزا في بناء النظرية السياسية الإسلامية على مفهوم العدالة.

أن المسيرة السياسية للإمام الشيرازي عملية ساهمت في بلورة مفاهيم سياسية تتماهى مع حاجات الواقع الاجتماعي. أما المفهوم الإسلامي للـــسياسة كمـــا يـــستوضح مـــن استجلاء فكر الإمام الشيرازي، فهو مفهوم أوسع من وظيفة الدولة وأوسع من وظيفة زمن محدد ومكان محدد، لأنه فكر منبثق من الفلسفة الإســـلامية للحيـــاة، واعتبـــار أجزائها وحدة متكاملة مندمجة لأجزاء موحدة الأركان، منها جزء اسمه السياسة(١٦).

ولم يغفل الإمام الشيرازي قضية التنمية السياسية في تنظيره السياسي، حيث استند إلى ركيزتين أساسيتين في بناء العملية السياسية في المجتمع وهمـــا: الـــوعي والتنظـــيم السياسي. لأن الرؤية السياسية الإسلامية للإمام الشيرازي تقوم على شورى المراجـــع والحرية والتقدم الاجتماعي والمشاركة السياسية، وكل هذه الضوابط تساعد على تبني العمل الحزبي (١٧).

إن الوصول إلى حياة سياسية ناضجة تكسب المجتمع التوجه الواعي والهدف الواضح، وهذا لا يمكن أن يتم دون الاعتماد على بديهيات العمل السياسي ((الوعي الـــسياسي،

التنظيم السياسي)) لقد وعى الإمام الشيرازي هذه الحاجات الخطيرة وأولويتها في تكوين المجتمع سياسياً، لذا أطلق التساؤل في كتاباته السياسية، فهل يمكن العيش في مثل هذا الجو المشحون بالتنظيمات بدون تنظيم ؟ أم أن النتيجة لن تكون إلا التبعثر والتمزق والانهيار (١٨).

لقد تفاعل الإمام الشيرازي مع قول الإمام علي: ((أوصيكم بتقوى الله ونظم أمركم)) بخليفة استراتيجية تضع أمامها التحديات المعاصرة، فإننا بدون التنظيم لن نستطيع مواجهة التحديات المعاصرة، ولن نتمكن من الوقوف أمام الشرق والغرب (١٩). من هذا المنطلق نرى الإمام الشيرازي يرى بأن التنظيم يشكل الأرضية الصلبة لكل عمل هادف حيث اعتبره سنة كونية (٢٠).

الإمام الشيرازي يدافع بقوة وحرارة عن حق الانتخاب، فالأمة هي التي تختار حاكمها في النظرية الإسلامية حسب تصوره، والحاكم الإسلامي يجب أن يجمع بين شرطين أساسيين: الأول أن يكون مرضياً لله سبحانه وتعالى، والثاني أن يكون منتخباً من قبل أكثرية الأمة (٢١).

والقارئ لتاريخ الإمام الشيرازي السياسي يلاحظ بقوة كيف اتخذ من أصالة الحرية النقطة الجوهرية في نسيج رؤيته السياسية وتفصيلاتها في قيام الدولة، وتشكيل الأحزاب واختيار الحاكم الذي حدد له الوصول إلى الحكم عن طريق الانتخاب، وبهذا الصدد يقول الشيرازي: ((الحكم في الإسلام ليس رديئاً ولا ديكتاتورياً، كما أن الحاكم الذي يأتي إلى الحكم عبر انقلاب عسكري مرفوض من قبل الإسلام حتى لو كان الحاكم مسلماً، إذ أن الإسلام يشترط إرادة الأكثرية، وهذا الانتخاب ينبغي ألا يكون مصحوباً بالمظاهرات والاحتفالات كما أنه من الضروري أن تجري انتخابات عامة بين فترة وأخرى كل أربع أو خمس سنوات مثلاً لانتخاب الحاكم العام والحكام المحليين حسب رأي الأكثرية أيضاً (٢٢).

اجتهد الإمام الشيرازي وبذل جهداً فكرياً سياسياً متميزاً من أجل زحزحة الأفكار والتصورات الماضية، التي أصبحت قاصرة عن سد النقص في التنظير لأطروحات الفكر السياسي الإسلامي، لذا يبدأ الإمام الشيرازي أطروحته عن الثورة بتعريفها: فيعتبرها ((انقلاباً اجتماعياً)) أي أنها عمل تغييري هائل يتناول الحياة الفكرية والسياسية والاقتصادية بالتغيير والتبديل (٢٣). وبالرغم مما يشير إليه الإمام من الحاجة إلى حدوث تحولات ديناميكية تاريخية عميقة تمس جذور المشكلة من أساسها، وتحتاج إلى وقت طويل لكنها بالرغم من ذلك تؤدي بالنتيجة إلى رؤية تاريخية ونظرة شمولية. فقد جاهد في تشييد هذه الرؤية والنظرة والجمع بينهما بصورة فنية رائعة، راعى فيها حق العالم من جهة وحق الأمة من جهة ثانية.

ويشترط الإمام الغزالي لنجاح العمل التغييري أو النهضة أو الوصول إلى تأسيس ((الدولة الإسلامية)) توفر عوامل ذاتية وموضوعية في نفس الوقت. وما الدولة إلا ظاهرة من ظواهر المجتمع الطبيعي، تولدت حسب قانون طبيعي، فحكمها إذن مندرج تحت حكم المجتمع العام وهذا يعود بالدرجة الأولى إلى حنكة القيادة السياسية العليا ((وهي شورى الفقهاء)) التي يفترض فيها قيادة العمل التغييري أولاً ثم قيادة التطور النهضوي ثانياً، ومدى حرصها على تطبيق مقولات نظريتها في التنمية والنهضة وعلاقاتها الخارجية (٢٤).

وما يميز فكر الشيرازي هو تأكيده على مسألة الحرية وأصالتها وجعلها المرتكز الأساسي لانطلاق مفاهيمه وبناء أنساق فكره السياسي. فالحرية هي الأصل في الإنسان، أي أن الإنسان مفطور بطبعه وتكوينه وتأسيسه على ((الحرية)) فهي ليست هبة أو مكسباً أو مغنماً وإنما هي ضرورة (٢٥).

فالإمام الشيرازي لا يترك الحرية بدون أنظمة تديم استمراريتها، ولكنه كما أوجب فتح باب الحريات وإيجاد شروطها وتوفير شرائطها من ناحية، نجده يحددها بحدود

الصلاح والحكمة من ناحية أخرى. وهذا شأن القيادة الصحيحة للفرد والجماعة (٢٦). والإمام الشيرازي يرى بأن الإسلام دين الحرية بكل معنى الكلمة، والحرية الإسلامية أكثر من الحرية الغربية بكثير، وقد استنبط الفقهاء من الآيات والروايات القاعدة الفقهية المشهورة (الناس مسلطون على أموالهم وأنفسهم) وهذه القاعدة تعطي ألوف الحريات للإنسان، فهو حر في أن ينتخب مرجع تقليده، وهو حر في انتخاب إمام جماعته، وهو حر في أن ينتخب قاضيه، وهو حر في أن يسافر ويبني ويزرع ويتاجر ويكتسب ويسبق إلى المباحات ويستملك الأراضي (٢٧).

ولقد انتصر الإمام الشيرازي للحرية في السؤال الذي واجه الفكر السياسي الإسلامي، أيهما أضمن للأخرى، الحرية أم العدالة ؟ إن الإمام الشيرازي يلازم تحقيق العدالة بضمان الحرية، حيث الحرية في الإسلام هي حرية الواجبات والوقوف عند حدود التكيف الشرعي، فهي ((تكليف)) حسب عبارة الأصوليين، لذلك فالحرية هي أن نمارس مسؤوليتنا ممارسة إيجابية، وأن نفعل الواجب طوعاً، بإتيان الأمر واجتناب النهي (٢٨).

لقد دعا الفكر السياسي للإمام الشيرازي إلى استنباط قاعدة سياسية خطيرة جداً تدعو إلى مناهضة الاستعمار بكافة أشكاله عن طريق أساليب التوعية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، كما أنه حارب التبذير الفردي والجماعي وأمر بترشيد الإنفاق لما فيه صالح الشعوب، بمعنى تنظيم أمور الاقتصاد لتقوية البلاد الإسلامية كي يستطيع مقاومة إغراءات الدول الأخرى (٢٩).

وفي خاتمة هذا البحث نصل إلى النتائج التالية:

١- إن الدعوة الفاطمية دعوة عقلانية فكرية كان لها تأثير بالغ الأهمية على المجتمعات الإسلامية خلال قرون عديدة، وقد طرحت الكثير من القضايا الفلسفية والكوزمولوجية كمسألة ((النفس)) و((العقل)) وفكرة السلم الصاعد والذي يعني

التقدم الذي تحوزه النفس الإنسانيـــة عن طريق عودتها صعوداً نحـــو خالقهـــا، وبهذا الشكل تتشكل عقيدة النجاة ((سويتر بولوجي)) الاسماعيلية المعادل لنظرية أصل العالم ((كوزمولوجي)) (٣٠).

٢- يعتبر المؤيد في الدين – هبة الله الـــشيرازي – مـــن أشـــهر فلاســـفة المـــذهب الاسماعيلي ومن أكثرهم تأثيراً بالناس، لما يمتلكه من قـــدرات عقليـــة وحجـــج منطقية تركت آثرها حتى على الشاعر العربي المعروف ((أبي العلاء المعري)) الذي وصف المؤيد بقوله ((ولو ناظر أرسطاطاليس لجاز أن يفحمه، أو أفلاطون لنبذ حججه خلفه)) (٣١).

٣- إن السر الكامن وراء قيام الدولة الفاطميـــة ونجاحهـــا، وتأثيرهـــا فـــي وســـطها الإسلامي هو قيامها على أسس وقواعد متينة، العلم، التقوى، السياسة، وقد أدرك المؤيد في الدين أهمية هذه الأسس في تمتين وحدة الأمة، وبـــأن وحـــدة الأمـــة وقوتها تكون عن طريق نشر الوعي بين المسلمين.

٤- المؤيد في الدين الشيرازي يعتبر أول من دعا إلى تأصيل المسألة الـــسياسية فـــي الفكر الإسلامي رابطاً بين الجانب السياسي والجوانب الاجتماعية والاقتـــصادية للمجتمع الإسلامي معتبراً أن الجمود الفكري في المجتمـــع يعـــود إلـــى جمـــود الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسيـــة وقد سبق كارل ماركس في رؤيته لطبيعة العلاقة بين ((البنى التحتية)) و((البنى الفوقية)) وكيف أن البنى التحتيـــة ((المادية)) تعكس البنى الفوقية ((السياسية)) والفكرية والدينية... الخ (٣٢).

٥- إن أهم ما يميز فكر المؤيد في الدين الشيرازي هو تأكيده علـــى مـــسألة الحريـــة وأصالتها واعتبارها المرتكز الأساسي لانطلاق مفاهيمه وبنـــاء أنـــساق فكـــره السياسي، فالحرية هي الأصل في الإنسان أي أن الإنسان مفطور بطبعه وتكوينه

وتأسيسه على ((الحرية)) فهي ليست هبة أو مكسباً أو مغنماً، وإنما هي ضرورة إنسانية.

٦- الإمام الشيرازي انتصر للحرية في السؤال الذي واجه الفكر السياسي الإسلامي، أيهما أضمن للأخرى، الحرية أم العدالة ؟ فالشيرازي يلازم تحقيق العدالة بضمان الحرية، حيث أن الحرية في الإسلام هي حرية الواجبات والوقوف عند حدود التكيف الشرعي، فهي ((تكليف)) حسب دعوى الأصوليين، فالحرية هي أن نمارس مسؤوليتنا ممارسة إيجابية، وأن نفعل الواجب طوعاً، بإتيان الأمر واجتناب النهي.

مصادر ومراجع البحث

١- **أسد الغابة** / لابن الأثير، دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٠-١٩٧٤م، ص٢١١.

٢- **سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة**، ترجمة حياته بقلمه، تقديم وتحقيق محمد كامل حسين، القاهرة، دار الكتاب المصري، ١٩٤٩، ص٢٤.

٣- The History of the Ismailia , D , Awat.j.r.a.s. pott,1932

٤- معجم الأدباء، الجزء الثالث، ص٢٠٢.

٥- **ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة**، تقديم وتحقيق محمد كامل حسين، دار الكتاب المصري، ١٩٤٩، ص١٦٧.

٦- **مذكرات رسالة**: رجل الدولة والشاعر الاسماعيلي المؤيد في الدين الشيرازي، لندن ونيويورك، ب. تورس بالتعاون مع معهد الدراسات الإسماعيلية، ٢٠٠٣، ص١٩.

٧- **ممارسة التغير**: الإمام الشيرازي: مؤسسة الفكر الإسلامي للثقافة والإعلام، بيروت، ١٩٩٠، ص١١.

٨- **ممارسة التغير**: الإمام الشيرازي: مؤسسة الفكر الإسلامي للثقافة والإعلام، بيروت، ١٩٩٠، ص١٣.

٩- **السبيل إلى إنهاض المسلمين**: الإمام الشيرازي، مؤسسة الفكر الإسلامي، ١٩٩٤.

١٠- **دراسات في فكر الإمام الشيرازي**: إياد موسى، المسلم الحر، واشنطن، ٢٠٠١.

١١- سمير أمين وبرهان غليون: **حوار الدولة والدين**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٦.

١٢- عبد الله العروي: **مفهوم الدولة**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٨٣.

١٣- عبد الله العروي: **مفهوم الدولة**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٨٣، ص٦.

١٤- عبد الله العروي: **مفهوم الدولة**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٨٣، ص٧.

١٥- **ملامح النظرية السياسية في فكر الإمام الشيرازي**: محمد غالب أيوب، دار المنهل، بيروت، ١٩٩١.

١٦- دراسات في فكر الإمام الشيرازي: إياد موسى، **المسلم الحر**، واشنطن، ٢٠٠١.

١٧- **ملامح النظرية السياسية في فكر الإمام الشيرازي**، محمد غالب أيوب، دار المنهل، بيروت، ١٩٩١.

١٨- **السبيل إلى إنهاض المسلمين**: الإمام الشيرازي، مؤسسة الفكر الإسلامي، ١٩٩٤.

١٩- **السبيل إلى إنهاض المسلمين**: الإمام الشيرازي، مؤسسة الفكر الإسلامي، ١٩٩٤.

٢٠- **ملامح النظرية السياسية في فكر الإمام الشيرازي**، محمد غالب أيوب، دار المنهل، بيروت، ١٩٩١.

٢١- **ملامح النظرية السياسية في فكر الإمام الشيرازي**، محمد غالب أيوب، دار المنهل، بيروت، ١٩٩١، ص١١٠.

٢٢- **ملامح النظرية السياسية في فكر الإمام الشيرازي**، محمد غالب أيوب، دار المنهل، بيروت، ١٩٩١، ص١١٢.

٢٣- **ملامح النظرية السياسية في فكر الإمام الشيرازي**، محمد غالــب أيوبـــا، دار المنهل، بيروت، ١٩٩١، ص١١٣.

٢٤- **دراسات في فكر الإمام الشيرازي**: إياد موسى، المسلم الحر، واشنطن، ٢٠٠١.

٢٥- **دراسات في فكر الإمام الشيرازي**: إياد موسى، المسلم الحر، واشنطن، ٢٠٠١.

٢٦- **السياسة، الإمام الشيرازي**، دار العلوم، بيروت، ١٩٨٩، ص١٠٨.

٢٧- **الحرية الإسلامية**، الإمام الشيرازي، دار الفردوس، بيروت، ١٩٨٩، ص١١٢.

٢٨- **الحرية الإسلامية، الإمام الشيرازي**، دار الفردوس، بيروت، ١٩٨٩، ص١١٣.

٢٩- **دراسات في فكر الإمام الشيرازي**: إياد موسى، المسلم الحر، واشنطن، ٢٠٠١.

30- Ismailia Neo-Platonism Pawl Walker early philosophical. shi , ism the of .abou agued alssitistani: Cambridge

31- Dafary , Farhdi Ismailia in the medieval Muslim societies , chpetar ,4: the .Ismailia Awa and the Fatimi Awla , London , 2005 , pp-52-88

32- Hansberger , Allies. Nasir Khusraw: the Ruby of Badakshan , London , 2000, pp – 62 – 69.

الحياة الفكرية في إقليم خراسان في ظل سلاطين ووزراء العصر السلجوقي

أ. د. شكران خربوطلي

قسم التاريخ

كلية الآداب

جامعة دمشق

اختلف اللغويون والبلدانيون في أصل تسمية خراسان كما اختلفوا بحدودها، وهذا التأطير الجغرافي يدخل به الجانب السياسي، فالجغرافيون العرب حددوا إقليم خراسان من جهة الشرق بإقليم سجستان والهند، ومن الغرب صحراء الغز وجرجان، ومن الشمال بلاد ما وراء النهر، ومن الجنوب صحراء فارس وقومس إلى نواحي جبال الديلم مع جرجان وطبرستان والري وقزوين"١".

ويبدو أن لخراسان مكانة سياسية واقتصادية سبقت وصول الإسلام إليها، إذ قسمت إدارياً إبّان العصر الساساني إلى أربعة أقسام إدارية وبقي التقسيم الإداري لخراسان في القرنين الأول والثاني الهجريين على ما هو عليه، فعندما فتحها العرب المسلمون على يد عبدالله بن عامر أبقاها أرباعاً، نيسابور ومرو وهراة وبلخ"٢". ويبدو أن الظروف والأحوال التي رافقت تكوين الدولة الإسلامية هي التي حتمت على أولي الأمر التركيز على توسيع رقعة الدولة وحماية حدودها وضبط الأمن فيها، فضلاً عن تنظيم علاقتها بالخلافة ولا سيما في الأمور المالية والإدارية، والأهم من ذلك ما

فرضته تعاليم الإسلام وأولها التسامح مع المجتمعات التي ضموها إلى الدولة الإسلامية الواسعة الأرجاء"٣"، إلا أنه لابد من الإشارة إلى أن تقسيم خراسان الإداري شهد تغيراً واضحاً بعد استقرار الأوضاع السياسية، ففي خراسان مثلاً إبَّان العصر العباسي، ومنذ مطلع القرن الثالث الهجري أُلغيَ التقسيم الرباعي وظهر نظام الكور.

ولا بد من الإشارة إلى أن ما تمتعت به خراسان من موارد اقتصادية كبيرة كل ذلك ساعد على رخاء اقتصادي متميز ظهر على نحو واضح، في رغبة سكانها في طلب العلم والثقافة وعلى نطاق واسع ولا سيما أن فيها تيارات فكرية مختلفة دينياً مذهبياً وعقائدياً"٤"، فاستحقت خراسان المكانة العلمية والفكرية المرموقة التي وصلت إليها إبان مدة البحث.

أعقب الفتح العربي الإسلامي لخراسان استقرار العرب فيها، ولا سيما نخبة كبيرة من الصحابة والعلماء المسلمين الذي أصبحوا النواة الأولى لانتشار الفكر والعلوم الإسلامية، فظهر ذلك على نحو واضح وكبير ليس فقط في نشر الدين الإسلامي واللغة العربية، بل في قيام حركة علمية وفكرية، حتى غدت خراسان محط أنظار المسلمين التواقين للعلوم والآداب، وبالفعل برز من بين أبناء خراسان عدد كبير من مشاهير علماء المسلمين في شتى المناحي"٥"، ولهذا فليس من المستغرب إذا ما ارتبط اسم خراسان بالعرب حتى غدا اللفظان وكأنهما اسم لمعنى واحد، ومن ثم أصبحت خراسان وكأنها رمز سياسي ومظهر حضاري عربي إسلامي، ويبدو أن ذلك الأمر رافق خراسان منذ البداية إذ تجلى باهتمام الخلافة الراشدية بالسيطرة عليها وهجرة القبائل العربية إليها والاستقرار فيها،وترسخ الاهتمام بها أكثر في العصر الأموي بإخضاع مناطق كثيرة منها للسيطرة العربية الإسلامية عن طريق فتحها، وبرزت أهميتها وقيمتها على نحو جليّ بما أبداه العباسيون في نشر دعوتهم فيها وقيام دولتهم على أكتاف الخراسانيين "٦" عرباً وغير عرب، وبقي تأثير عرب خراسان واضحاً في تسيير دفة الخلافة العباسية حتى انتهاء حكم السامانيين سنة ٣٨٩هـ/٩٩٨م،

الذين استمروا بالمحافظة على الكيان العربي في خراسان، بل سعوا إلى دعم مراكزهم في دار الخلافة العباسية والعمل ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً على ديمومة وحدة الدولة العباسية ونصرة خلافتها، وهكذا عدّ بعضهم أهل خراسان أنهم " أهل دعوة وأنصار دولة"٧" .

والأكثر من ذلك كله فان استقرار العرب في إقليم المشرق أسهم في انتشار الإسلام، ودخل الناس في الدين الجديد طوعاً والأمر الذي له دلالاته في هذا الشأن، وما دام معظم أهالي خراسان قد انصهروا في بوتقة الإسلام،فإن من بين أبرز ما يدعو إليه الدين الإسلامي هو المكانة الرفيعة للعلم والعلماء،وفي القرآن الكريم أكثر من آية في هذا الشأن كقوله تعالى "يَرفَع اللهُ الذّينَ آمَنُواْ منكَم والذينَ أُوتُوا العلمَ دَرَجَاتٍ"٨"، وقوله عز وجل "إنَّما يَخشىَ اللهَ مِن عِبادِهِ العُلَماءُ إنَّ اللهَ عَزيزٌ غَفُورٌ"٩"، بل إن الرسول الكريم ﷺ حث على طلب العلم بل عدَّه "فريضة على كل مسلم"١٠" .

وما دام أهل خراسان قد انخرطوا في الإسلام وعرفوا مكانة العلم والعلماء الرفيعة وما شكله العرب من ثقل سكاني، فإنهم تشبثوا بمعرفة اللغة العربية وعلومها وآدابها، مما أعطى جرعة قوية لازدهار الثقافة والفكر على نحو بارز في تلك البقاع"١١".

وأمام ذلك المناخ العلمي والفكري الذي عجت به خراسان فمن الطبيعي أن تشهد المذاهب والفرق الإسلامية فيها أرضاً خصبة كالخوارج والمعتزلة والشيعة والكرامية، إلا أن الغلبة يومئذ كانت لأصحاب أبي حنيفة أولاً ثم للشافعي في بعض كور خراسان ومدنه"١٢".

ويبدو أن سياسة الخلفاء العباسيين وإدراكهم لأهمية الأقاليم الشرقية السياسية والاقتصادية كان وراء احتوائها وإدماجها، ومن ثم نتج عنه خلق ذلك الجو من التفاهم الاجتماعي والفكري والحضاري، مما تولد عنه ذلك الازدهار العلمي والأدبي

والفكري ولاسيما خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين/التاسع والعاشر الميلاديين"١٣".

والملاحظ أن أمراء الإمارة السامانية قد أدركوا حقيقة أهمية استخدام اللغة العربية والعودة إليها، هذا فضلاً عما تمتعت به خراسان في عهدهم من هدوء واستقرار وما شهدته صلاتهم ببغداد عاصمة الخلافة العباسية من علاقة طيبة، وأثر تشجيع الأمراء السامانيين في العلم والعلماء فارتقت خراسان وازداد إقبال العلماء على التأليف والإبداع،وفضلاً عن ذلك فإن بعض الأمراء السامانيين كانوا أنفسهم علماء وأدباء، أمثال الأمير نصر بن أحمد الساماني (٣٠١-٣٣١هـ/٩١٤-٩٤٣م) فإنه كان أديباً فاضلاً"١٤".

وعرف عن الأمير منصور بن نوح الساماني (٣٥٠-٣٦٥هـ/٩٦١-٩٧٥م) تقديره للعلماء وتكريمه وتشجيعه لهم على البحث والتأليف فهو الذي احتضن الفيلسوف الإسلامي الشهير محمد بن طرخان الفارابي (ت٣٣٩هـ/٩٤٩م) فألف للأمير بعض كتبه ومنها "مبادئ آراء أهل المدينة الفاضلة" و"إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها"١٥" .

ومن سمات احترام الأمراء السامانيين للعلماء والمكانة المتميزة التي يتمتعون بها، أن أهل العلم لا يقبلون الأرض في حضرة الأمراء كما تقضي رسومهم"١٦". وقد غلب على الأمراء السامانيين العدل والدين والعلم"١٧"، وأنصف المقدسي مكانتهم العلمية ورعايتهم للعلم والعلماء"١٨"، وغدت عاصمتهم بخارى مركزاً ثقافياً مهماً، بل وصفها الثعالبي"١٩"بأنها أصبحت بمثابة "المسجد وكعبة الملك ومجمع أفراد الزمان ومطلع أدباء الأرض وموسم فضلاء الدهر".

ولم يقتصر الأمر على الأمراء السامانيين بل اصطف معهم وزراؤهم، والأكثر من ذلك أن بعض وزرائهم كانوا علماء أصلاً، مثل أبي عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني

(ت٣٣٠هـ/٩٤٢م) وزير الأمير نصر، وله العديد من المؤلفات مثل كتاب "المسالك والممالك" وكتاب "العهود للخلفاء والأمراء"٢٠" .

ومما تجدر الإشارة إليه إن أمراء خراسان ووزراءها أجزلوا العطايا للعلماء تقديراً لمكانتهم المتميزة ففضلاً عما أشرنا إليه في سياق البحث، فإن الأمراء خصصوا لبعض العلماء جرايات تكريماً لجهدهم العلمي الواضح .

وعلى أية حال فإن الرعاية والاهتمام الذي شهده العلم والعلماء في خراسان لم يكن حكراً على الأمراء والوزراء بل امتد إلى بعض القضاة والأعيان ومع توالي الأيام بقي الاهتمام بالعلم والعلماء، ونشطت الرحلة في طلب العلم بين خراسان وعواصم الدولة الإسلامية دمشق خراسان، خراسان بغداد .

وعندما ضعفت السلطة المركزية لخلفاء بغداد قامت في كثير من المقاطعات دول متفاوتة من حيث القوة والحجم والعظمة، وإنما كلها دان اسمياً بالطاعة لخليفة بغداد العباسي، والذي يعنينا هنا مباشرة الحديث عن الدولة السلجوقية .

إن مصدرنا الأساسي بالنسبة لأخبار وأصل الأسرة السلجوقية هو كتاب ملك نامة، وعلى ما جاء فيه اعتمد المؤرخون العرب، وعلى هذا يمكن القول إن زعيم السلاجقة هو سلجوق بن دقاق " ٢١" و وقد خلف أربعة أولاد، أرسلان، وميكائيل وموسى، ويونس، الذي لم تتفق معظم المصادر على اسمه بل ذكرت غيره، وكان أبرزهم ميكائيل الذي أنجب طغرلبك (محمد)، وجغري بك (داود)، اللذين قام عليهما مجد السلاجقة .

أعد سلجوق أبناءه، وأحفاده للغزو والفتح "٢٢"، حيث هاجر السلاجقة بزعامة طغرلبك وجغري في الربع الأول من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي إلى خراسان الخاضعة لنفوذ الغزنويين، وبعد سلسلة من الصراعات بين الغزنويين والسلاجقة، استطاع السلاجقة السيطرة على خراسان بعد هزيمة الغزنويين في معركة

دندانقان " ٢٣" بقيادة مسعود بن محمود بن سبكتكين سنة ٤٣١هـ/١٠٤٠م أمام طغرلبك وأخيه جغري"٢٤"، بحيث يمكن القول إن نصر دندانقان هذا أذن بقيام إمبراطورية جديدة .

وساعدهم على توطيد سلطانهم انتماؤهم لمذهب الخلافة العباسية الديني وإعلانهم الولاء والتبعية للخليفة العباسي القائم بأمر الله الذي عين طغرلبك نائباً عنه في إقليم خراسان، وما وراء النهر، وفي كل ما يتم فتحه من البلاد، وهنا يمكن القول أن مشروع السلاجقة السياسي والعسكري في إقامة إمبراطورية ذات سلطة مركزية لايعود إلى تقدمهم السياسي والعسكري بقدر مايعود إلى استغلال الدين لبسط سيطرتهم، فتحالفهم مع الخلافة العباسية، واعتناقهم لمذهب يتماشى مع مذهب الخليفة العباسي، واتخاذهم هذا الأمر غطاء ساعد في اعتراف الخلافة العباسية بهم، وبالمقابل كان الخليفة العباسي يبغي من وراء ذلك التخلص من قوة البويهيين المسيطرة على حكمه، وقد استغله الخليفة العباسي لتحقيق هدف سعى إليه معظم الخلفاء هو التخلص من القوة المهيمنة على حكمه، ألا وهو السلطان البويهي وهنا يمكن القول أنه تلاقت المصالح بين الطرفين .

وبسرعة هائلة استطاع السلاجقة توسيع حدود دولتهم، واستولى زعيمهم طغرلبك على جرجان وطبرستان سنة ٤٣٣هـ/١٠٤٢م، وعلى خوارزم، والري، وهمذان، سنة ٤٣٤هـ /١٠٤٣م، وعلى أصبهان سنة ٤٤٣هـ/١٠٥١م، وأذربيجان ٤٤٦هـ/١٠٥٤م، وبدأ يتطلع للسيطرة على بغداد .

وهيأت له الأوضاع السائدة في العراق تحقيق هذا الهدف حيث سلمت له المدينة دون مقاومة، وأصبح طغرلبك ركن الدولة أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق أول سلاطين السلاجقة في بغداد ابتداء من رمضان ٤٤٧هـ/١٠٥٥م، واستقبله الخليفة

القائم بأمر الله بكل مظاهر الحفاوة والترحاب، واعترف به سلطاناً ولقبه ملك المشرق والمغرب "٢٥".

وبالمقابل كان طغرلبك حريصاً على إبداء كل مظاهر الإجلال والاحترام والتوقير للخليفة، والعمل على فعل كل ما يرضيه، لتحقيق أهدافه المذكورة سالفاً مع أهداف الخليفة العباسي بالتخلص من القوى المعارضة له، والمسيطرة على مناطق حكمه (بويهي، فاطمي) أملاً في إعادة وحدة الأمة، ومواصلة بقاء منصب الخليفة العباسي.

والمفيد ذكره أنه عندما حُكِمَتْ خراسان من قبل الدولة السامانية شهد بلاطها بعث اللغة الفارسية مع الثقافة الإيرانية، وأسهم في نموها عدد لابأس به من المفكرين والأدباء وغيرهم، ففي زمن السامانيين بدأ الفردوسي ينظم الشاهنامة ملحمة فارس القومية.

ومسألة بعث اللغة الفارسية الجديدة، وإن رافقها في البداية ازدهار للثقافة العربية كانت ذات خطر تستحق وقفة خاصة نثير فيها مسألة انتشار اللغة العربية في الأراضي الشرقية، ثم بداية انحسار وانتكاس، وإقصاء حلت الفارسية فيها محل العربية، فمن المعروف أن اللغة العربية انتقلت إلى إيران، وخراسان مع الفاتحين العرب، وعاش الفاتحون العرب في البداية على شكل تجمعات قبلية سكن غالبيتها أولاً حول مدينة مرو، وكان العرب هم جند خراسان يحكمون، ويجمعون الجزية والخراج، بل قد يتحاربون فيما بينهم أثناء الأزمات المبكرة لأواخر العصر الراشدي، وبداية العصر الأموي، لكن دون أن يكون للسكان شأن مباشر، أو غير مباشر في كل هذا.

وعندما جاءت الدولة الغزنوية ظهرت الثقافة الإيرانية وفق الصيغة الإسلامية، وظهر أدباء وشعراء وفقهاء يكتبون باللغة الإيرانية، واللغة العربية، لكن يتحدثون بالدرجة الأولى بالإيرانية، وقد ظهرت مفاهيم سياسية وإدارية مستمدة من التراث الإيراني، وتمازجت مع التراث الإسلامي، ولاسيما في العصر العباسي .

وعندما دخلت الدولة السلجوقية إلى خراسان، وانتزعتها من الغزنويين، ورثت منهم رجال الإدارة، وعاصرت كثيراً من مظاهر النهضة العلمية الإسلامية في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، الذي شهد هو وسابقه القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، أروع وأزهى مراحل تاريخ الحضارة الإسلامية، وقد تضافرت عدة عوامل في إنعاش الحركة الفكرية والعلمية في إقليم خراسان منها قيام الدول المستقلة مهما كان حجمها وإمكانياتها المادية في جعل بلاطها شبيه ببلاط الخلافة العباسية في بغداد الذي احتوى الفقهاء والفلاسفة والأدباء والشعراء، حيث يذكر أن قصور بني العباس كانت على الدوام أندية وملتقيات علمية تعج بالمحافل الفكرية والأدبية لمختلف المناقشات الفكرية، هذا وعلى الرغم من التمزق السياسي، والقلاقل لم تتأثر حركات العطاء الفكري، لا بل ازدادت نمواً بشكل ملحوظ للغاية، أضف لذلك اهتمام السلاطين، والوزراء بالعلم والعلماء.

كان استجابة لدعوة القرآن الكريم إلى العلم، وما تواتر عن الرسول (ص) في أهمية العلم، إلى جانب الصراعات المذهبية، والدور الذي شغلته في تطور العلم، وما خلفته من آثار علمية، إلى جانب الرحلات العلمية.

ومن هنا يمكن القول إن السلاطين السلاجقة الأوائل دعموا الحركة الفكرية، باستعانتهم برجال أكفاء لخدمة الشؤون الإدارية والسياسية والعلمية "٢٦"من وزراء وحجاب وكتاب ممن كان لهم خبرات سابقة في هذه المجالات لدى الدول الإسلامية الأخرى في المشرق كالسامانيين، والقراخانيين، والغزنويين وغيرهم.

ولكن هنا قضية يجب ذكرها هي: أن معظم المصادر جعلت الصراع دينياً وإحلال مذهب مكان مذهب،إلا أن ذلك كان صراعاً سياسياً هدفه التوسع، والهيمنة على مناطق الخلافة العباسية، وعلى الخليفة بالذات، فسعوا كل ما بوسعهم لتحقيق ذلك، فأسسوا المدارس النظامية التي كانت تدرس مذهبهم، وبما أن السلاجقة كانوا سُنَّةً، فقد

روجوا لهذا المذهب واتخذوا وزراء يشجعون على هذا المذهب فالوزير الكندري ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م الذي بدأ حياته حاجبا في الديوان ثم صعد في المراتب حتى أصبح وزيراً لدى طغرلبك"٢٧" كان يبالغ في اهتمامه بأئمة المذهب الحنفي – مذهبه – وكان شديد التعصب على الشافعية "٢٨"، كما كان متصوفاً "٢٩" وأظهر اهتماماً بالنواحي الأدبية، وله مؤلفات باللغتين العربية والفارسية، فنشأت عملية تمازج، حتى أن معظم المؤرخين يرجع ازدهار دولة طغرلبك إلى كفاءة هذا الرجل وشهرته العلمية والأدبية"٣٠" وقد وجد صدى ذلك عند السمرقندي حين تحدث عن ماهية الكاتب الكامل بأنه من يريد بلوغ درجة الكمال في هذه المهمة عليه أن يطلع على كتب السلف ممن كان لهم باع في هذا المجال، وكان ممن عددهم من هؤلاء عميد الملك الكندري، أضف لذلك أنه كان له ديوان شعر"٣١".

وقد حظي الأدباء في عهده باهتمامه ورعايته وإغداق الأموال فأصبح ممدوحاً من قبل الشعراء، كالباخزري"٣٢"على سبيل المثال لا الحصر.

وتوالت الأيام، وتوفي طغرلبك عقيماً ٨ رمضان ٤٥٥هـ/١٠٦٣م بمدينة الري ببلاد الجبل وعمره نحو سبعين عاماً، وقد أوصى بأن يخلفه بعد موته ابن أخيه سليمان بن داود جغري، فنفذ وزيره الكندري الوصية، ولكن الناس كانوا أميل إلى ألب أرسلان، الأمر الذي جعل الكندري يأمر بالخطبة له، وتم الأمر لألب أرسلان بمساعدة وزيره نظام الملك، وأصبح سلطان السلاجقة.

وعقب تولي ألب أرسلان سلطنة السلاجقة، أقر الكندري في منصبه، ولكن سرعان ما تغير عليه، فعزله في شهر محرم ٤٥٦هـ/ديسمبر ١٠٦٣م، وسجنه، ثم دبر قتله في شهر ذي الحجة ٤٥٦هـ/نوفمبر ١٠٦٤م، وصمتت المصادر عن ذكر السبب ويبدو أن نظام الملك أبو علي حسن بن علي بن اسحاق الطوسي، شغل دوراً في ذلك فقد

أصبح وزيراً لألب أرسلان، ٤٥٥-٤٦٥هـ/١٠٦٣-١٠٧٢م والسلطان ملكشاه ٤٦٥-٤٨٥هـ/١٠٧٢-١٠٩٢م فيما بعد.

ومما يذكر أن نظام الملك كان شخصية كبيرة، شافعي المذهب، متصوفاً، واشتغل بالحديث والفقه"٣٣" على المذهب الشافعي، وحفظ القرآن الكريم"٣٤" وكانت مجالسه معمورة بالعلماء والفقهاء والصوفية كثير الإنعام عليهم "٣٥".

وقد ظهر في عهده أكابر العلماء، وظهرت لهم المصنفات في كافة فروع العلوم وبأعداد ضخمة، وأصبح لهؤلاء العلماء مدارس يقصدها التلاميذ الذين يكتبون ما يمليه عليهم مدرِّسوهم، وفيما بعد تجمع هذه الكتب وتنشر في مختلف الأوساط المتعلمة، وتحفظ في الخزائن، ودور الكتب، وينسخ منها نسخ للإعارة والنقل والتعليق "٣٦" .

أضف إلى ذلك أنه أسس المدارس النظامية (جامعات أوكليات)، في أنحاء العراق، وفارس، وبغداد، والبصرة إلى نيسابور، وهراة، وأسس المكتبات أيضاً وملأها بالكتب المتعددة الثقافات، وبمختلف مجالات العلم، فأدت هذه المدارس رسالتها بتخريج جمهرة من العلماء، وإن كانت على المذهب الشافعي، وزودت الجهاز الحكومي بالموظفين ردحاً من الزمن، ولاسيما دوائر القضاء، والحسبة والإفتاء، وهي أهم وظائف الدولة في ذلك العصر، وانتشر هؤلاء في العالم الإسلامي حتى بلغوا المغرب الإسلامي، لأن علماء هذه المدارس أعلنوا الحرب ضد المذهب الشيعي لنشر الشافعية، والتصوف، إنما هنا دخل عنصر جديد هو التمازج مع فكر الأشاعرة، وقد اقتضى هذا التمازج، الصراع ضد الفاطميين، هذا ولا بد من الإشارة إلى أن النظاميات مهدت السبيل فيما بعد أمام نور الدين زنكي، والأيوبيين، والمماليك كي يكملوا المسيرة التي من أجلها أنشئت النظاميات وتتمثل في العمل على سيادة المذهب السني على الرغم من أن الصراع لم يكن مذهبياً بل سياسياً بحتاً، خاصة في المناطق التي كانت موطناً لنفوذ الشيعة كالشام، ومصر، وغيرها.

ومفيد هنا الإشارة إلى أن المرحلة الأولى مرحلة الوزير الكندري كان من مؤثراتها قيام المعز بن باديس برفض الدعوة الفاطمية، والأهم من ذلك قيام حركة المرابطين، ويذكر هنا في هذا المقام أن إحياء علوم الدين للغزالي عندما وصل في أيام المرابطين إلى الأندلس أحرق، لكن في المرحلة التالية، وهي مرحلة نظام الملك، ودخول فكر الأشاعرة كان من المؤثرات ظهور المهدي بن تومرت وتأسيسه لحركة الموحدين.

في هذه الحقبة كما سلف القول ظهر عدد من العلماء والفقهاء ونشطت الحركة الفكرية في العالم الإسلامي عامة، وإقليم خراسان خاصة بفضل الوزير نظام الملك أبو علي حسن بن علي بن اسحاق الطوسي ٤٥٥-٤٨٥هـ/ ١٠٦٣-١٠٩٢م، الذي لم يتفق لغيره ما اتفق له من ازدحام العلماء عليه، وترددهم إلى بابه، وثنائهم على عدله "٣٧"، وليس غريباً على هذا الوزير اهتمامه بالعلم والعلماء فهو من أولاد الدهاقين"٣٨".

وقد جعل في داره ندوة يوم الاثنين من كل أسبوع يرتادها العلماء والأدباء دون تقيد بسن أو مذهب، وحفز هذا الاهتمام السلطان ألب أرسلان لحضور المناظرات العلمية، والاستماع إلى المناقشات التي تتم بين العلماء"٣٩" كما كان يذهب إلى العلماء ليتقرب إليهم، ويستبشر بهم، ويتبرك، فلقد ذهب إلى نيسابور فالتقى بالعالم الجليل حسان بن سعيد المنيعي (ت٤٦٣هـ/١٠٩٦م) وكان يحترمه، فسأله أن يبني جامعاً بنيسابور، فأجابه السلطان بالموافقة"٤٠"، وقد كان مجلسه حافلاً بالفقهاء، وأئمة المسلمين، وأهل الخير والصلاح"٤١" أضف إلى ذلك أن إمامه أبو النصر محمد بن عبد الملك كان ممن لهم رأي مسموع عند ألب أرسلان، وقد ظهر ذلك في معركة ملازكرد"٤٢" وكان النصر له"٤٣".

ومن علماء خراسان الذين برعوا في عهد ألب أرسلان عبد الله بن محمد بن علي ابن جعفر أبو اسماعيل الأنصاري الهروي (ت٤٨١هـ/١٠٨٨م)، وكان كثير السهر بالليل، وحدث وصنف وكان شديداً على أهل البدع، قوياً في نصرة السنّة "٤٤"، ويقال

أنه اشتغل في حداثة سنه بالدرس والتحصيل، فدرس العلوم الدينية، والأدبية وحفظ أشعار العرب، وأجاد اللغتين الفارسية والعربية، وألّف بهما، وقال الشعر العربي، ومزج في أشعاره بين الشعر الصوفي وغيره من فنون الشعر"٤٥".

ولعلّ كثير من الباحثين ركزوا اهتمامهم على شخصية نظام الملك، وأفضل من تحدث عن هؤلاء العماد الأصفهاني في القسم المخصص لخراسان من كتابه خريدة القصر وجريدة العصر، وقد تم الاعتماد على هذا الكتاب بالدرجة الأولى، ثم رفدت بمواد أخرى حول الوضع الثقافي في خراسان الذي لولا قيام الحكم السلجوقي لما توفرت الأجواء لازدهاره .

هذا وفي غمرة انتصارات ألب أرسلان ونجاحه مات مقتولا ٤٦٥هـ/١٠٧٢م عن عمر يناهز أربعين سنة، أو واحد وأربعين سنة "٤٦"، وعقب وفاته تولى السلطنة ابنه ملكشاه بعهد من أبيه ٤٦٥-٤٨٥هـ/١٠٧٢-١٠٩٢م، وتولى نظام الملك أخذ البيعة له، وأقره الخليفة القائم بأمر الله على السلطنة، وبالمقابل أقرّ ملكشاه نظام الملك في الوزارة، كما كان في عهد أبيه، بل زاد على ذلك بأن فوّض إليه تدبير المملكة، وقال له: قد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرها إليك، فأنت الوالد، ولقبه ألقاباً كثيرة أشهرها لقب أتابك – مربي الأمير – وكان نظام الملك أول من أطلق عليه هذا اللقب.

وسبب هذه المكانة الرفيعة التي حظي بها نظام الملك عند السلطان ملكشاه، أنه هو الذي مهّد له الأمور، وقمع المعارضين، فرآه السلطان أهلاً لهذه المكانة، وقد بلغت الدولة السلجوقية ذروة مجدها وعظمتها على يد ملكشاه الذي استمر في السلطنة عشرين عاماً تقريباً حيث استطاع أن يستثمر ما حققه طغرلبك، وألب أرسلان على أحسن وجه.

وقد كان ملكشاه كما وصفه ابن خلكان: أحسن الملوك سيرة حتى كان يلقب بالسلطان العادل "٤٧"، فقد كان يجلس للمظالم بنفسه، ويقضي بين الناس بالقسطاس المستقيم،

وكان بابه مفتوحاً لكل قاصد، بحيث يستطيع أي شخص من أفراد شعبه أن يدخل عليه في سهولة ويسر لرفع ظلامته، أو التعبير عما لحقه من اضطهاد، وكانت السبل في أيامه آمنة، والقوافل تسير من بلاد ما وراء النهر إلى أقصى بلاد الشام بأمن وطمأنينة"٤٨"، وقد حقق انجازات عظيمة بمعونة وزيره نظام الملك، ففي عهده بلغت الدولة السلجوقية أقصى عظمتها، فبنى المساجد، وأنشأ الخانات على طرق القوافل لنزول المسافرين، ومهد طرق الحجاج إلى مكة، وزودها بالحراس، وأمر بتجميل بغداد وتنظيمها، وإقامة شبكة لتصريف مياه الحمامات .

أضف إلى ذلك فقد ازداد اهتمام ملكشاه، ووزيره بالعلم والعلماء، فعلى سبيل المثال جمع نظام الملك جماعة من العلماء المتخصصين في علم الفلك لتنظيم التقويم الفارسي، وإصلاحه، وأثمر عملهم التقويم المعروف باسم التقويم الجلالي نسبة إلى السلطان جلال الدين ملكشاه، ومن منجمي خراسان في تلك الحقبة الحكم الموصلي فقد كان الوزير يستشيره في مهمات الأمور، ويسأله الرأي والتدبير، وأقام مرصداً في مدينة نيسابور عام ٤٦٧هـ /١٠٧٤م"٤٩".

ومن جملة الاهتمامات أن ملكشاه أمر عدداً من كبار العلماء بتأليف كتاب في الإدارة، والتشريع وغيرها من الأمور الأخرى، يقترحوا فيه خير الوسائل لإصلاح نظام الحكم، مسترشدين في ذلك بما حفظ التاريخ من أخبار الملوك السالفين العظام فكتبوا ذلك، ورفعت كتبهم إلى السلطان فأعجبه ما كتب وزيره نظام الملك، حيث كتب كتاباً اسماه سياسة نامة أي سير الملوك وقد كتب باللغة الفارسية وترجم إلى العربية، وضع فيه أفضل النظم لحكم الولايات التي تتكون منها الدولة، وتصريف الأمور، وسجل فيه أصول الحكم التي تؤدي إلى استقرار البلاد، كما ضمنه نصائح إلى السلطان للسير بالعدل، وبيَن أنه لا يمكن الحفاظ على المُلْكِ إلاّ بالعدل. لذا أعلن ملكشاه أنه سوف يتخذ ما كتبه إماماً يسير على هداه في الإصلاح"٥٠". ومن إنجازاته العلمية كتاب في الحديث أودعه عند زيارته الأولى للمدرسة النظامية ٤٧٩هـ/ ١٠٨٧م، هذا وتزخر

دمية العصر للباخرزي بمدح الوزير، الذي رتب رواتب ثابتة للعلماء تصرف لهم بانتظام"٥١" خاصة إذا علمنا أنه كان حريصا على أن تؤدي المدارس النظامية التي أنشأها رسالتها المنوطة بها فعلى سبيل المثال، عندما أرسل إليه أبو الحسن محمد بن علي الواسطي الفقيه الشافعي أبياتاً من الشعر يستحثه على المسارعة للقضاء على الفتن التي نشبت بين الحنابلة، والأشاعرة قام نظام الملك، وقضى عليها"٥٢".

وفي ذروة هذا المجد الذي وصلت إليه الدولة السلجوقية قتل الوزير نظام الملك ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م غيلة في الطريق بين أصفهان، وبغداد"٥٣"، وتوفي السلطان ملكشاه، وله من الأولاد أربعة بنين: وهم: بركياروق، ومحمد، وسنجر ومحمود، وكان محمود طفلاً، وكانت أمه مسؤولة أيام ملكشاه، فبايعوه على السلطنة، وكان بركياروق أمه سلجوقية، ولم تنقض سنة حتى مات محمود، فتولى الملك بركياروق، (٤٨٦ – ٤٩٨هـ / ١٠٩٣–١١٠٥م)، ومدة ملكه اثنتي عشرة سنة"٥٤".

اتخذ بركياروق مؤيد الملك بن نظام الملك وزيراً، وقد امتاز بالكفاءة، ورجاحة العقل، والفصاحة، والبلاغة، يجيد النثر والنظم باللسانين الفارسي والعربي"٥٥" ويبدي في ذلك بلاغة وطلاقة "٥٦"، وقد توفي سنة٤٩٤هـ/١١٠٠م، فاتخذ بركياروق سعد الملك الأوجي وزيراً، وكان له اهتماماً كبيراً بالعلم والعلماء وكان حريصاً على حضور مجالس العلم ليرغب الناس فيه "٥٧" .

وتوفي بركياروق،وظهر الانقسام والتمزق، وانتشرت الفتن حتى استطاع سنجر ابن ملكشاه إنقاذها (٤٩٠–٥٥٢هـ/١٠٩٦–١١٥٧م) وشهدت البلاد نهضة ثقافية شملت العلوم والآداب"٥٨" ويرجع ذلك إلى اتخاذه خراسان مقراً له، ومن مرو عاصمة لدولته"٥٩"، مما جعل كبرى مدن خراسان، والمشرق من أهم مراكز الثقافة خلال ذلك العصر، وكان سنجر يحترم علماء الدين احتراماً كبيراً، ويتقرب إليهم تقرباً تاماً، ويميل ميلاً كاملاً إلى الزهاد والعباد ويختلي بهم"٦٠"، ولقد تجلى تأثير الأدب الفارسي

بالأدب العربي في عصر السلطان سنجر بقول النظامي العروضي ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م أن الكاتب الجيد هو الذي يستفيد من كل علم، وعالم، وحكيم، وأديب سابق عليه"٦١" وكان النظامي العروضي من الكتاب المعاصرين للسلطان سنجر وكان قد اتصل به عندما كان مقيماً عند حدود طوس بخراسان سنة٥١٠هـ/١١١٦م "٦٢". ووزر للسلطان سنجر الوزير شهاب الإسلام عبد الرازق بن الفقيه عبد الله بن علي ابن أخي نظام الملك (ت ٥١٥هـ/١١٢١م)وكان من فقهاء نيسابور وممن لهم الرياسة الدينية فيها، وكان متبحرا في علوم الشرع متبحراً في الأصل والفروع"٦٣" وممن عاصروا شهاب الإسلام من الشعراء الشاعر أبو عبد الله محمد بن عبد الملك المعزي ٥٤٢هـ/ ١١٤٤م أمير الشعراء، وكان الوزير معين الدولة أبو النصر بن أحمد الكاشاني من وزراء السلطان سنجر، وله اهتمام كبير بالعلم والعلماء، حيث أمر ببناء المدارس والخوانق والأربطة والمؤسسات الخيرية في جميع البلاد"٦٤".

وكان لوزير سنجر نصير الدين أبو القاسم محمود بن أبي توبة المروزي اهتمام كبير بالعلم والعلماء، وكان نفسه من الكتاب المهرة، ومن مشجعي العلماء والأدباء"٦٥"، وقد خصه العلماء بمصنفاتهم، فصنف له عمر بن سهلان الساوجي البصائر النصرية "٦٦"، والشاعر الفارسي أوحد الدين محمد بن اسحق الأنوري توفي بين سنتي٥٨٥-٥٨٧هـ /١١٨٩-١١٩١م، له قصيدة في مدحه.

ولم يكن وزير سنجر نصير الدين الوحيد الذي أبدى اهتماماً بالعلم والعلماء إنما شمل هذا الاهتمام أيضاً الوزير قوام الدين أبو القاسم بن حسن الدركزيني توفي ٥٢٧هـ/١١٣٢م، فقد كان على علم تام ببعض فنون الفضائل مثل الشعر والإنشاء، لذا اهتم بالشعراء، فشملهم بعناية وإحسان"٦٧"، فنظم الشعراء أشعاراً في مدحه هذا وقبل ختام البحث لابد من الاعتراف بأن كل فكر يؤثر ويتأثر، فهو يأخذ ما يناسبه من ثقافات الأمم الأخرى، ويعطيها ما يعزز مقدرته، فالتنوع الفكري إخصاب للفكر والثقافة، يضاف إلى ذلك أن الخلافات الفكرية ازدهار للفكر، والثقافة كما أن فكرة

إنشاء النظاميات لمقاومة الفكر الشيعي مقاومة فكرية كان بنفس الأسلوب الذي نشروا فيه دعوتهم بشكل ظاهر، وهيمنة سياسية بشكل باطن، يظهر ذلك من النظرة السريعة للتوزع الجغرافي للمدارس النظامية الذي يشير إلى أنه لم يكن اعتباطياً، وإنما أمراً مدروساً مقصوداً حتى تقوم بدورها الفكري الفعال إلى جانب اختيار أساتذتها الذين كانوا أعلام عصرهم، وهذه أسماء بعض العلماء الذين برعوا في عصر السلاطين السلاجقة منهم على سبيل المثال لا الحصر:

في علم الفقه القاضي يحيى بن صاعد بن سيار الهروي (ت ٥١٥هـ)كبير فاضل من كبار أئمة العصر وفضلائهم له النظم والنثر الفائق في الطبقة الأولى سمع عن أبيه وعن المتأخرين "٦٨".

- المصباح الشاركي الهروي، أبو منصور نصر بن منصور كان زمن نظام الملك وهو من فضلاء خراسان، سافر إلى مصر وتوطن بها"٦٩" .

في علم اللغة العربية شعراً ونثراً، عبد الواسع بن عبد الجامع الجبلي كان من مشاهير الفضلاء بخراسان، حسن النظم والنثر باللسانين (ت ٥٤٥هـ)"٧٠ " .

- الإمام أبو الحسن علي بن عثمان بن محمد بن الهيصم كان من أعيان الفقهاء الفضلاء"٧١" .

- الأمير أبو سعد منصور بن محمد العاصمي البوشنجي كان من مفاخر خراسان يضرب به المثل في رقة الطبع وحسن النظم والنثر وكانت مجالسه عامرة بحضور الأئمة الكبار"٧٢".

- منتجب الملك أبو جعفر محمد كان من كبراء دولة السلطان سنجر في وزارة معين الدولة القاشاني وهو من أهل الفضل يضرب في فنون العلم بسهام وافرة (ت ٥٣٤هـ)"٧٣ ".

- وفي الطب والشعر، الكامل أبو الفضل المظفر بن أحمد الطبيب الأصفهاني المعروف باليزدي كان مقرباً من نظام الملك وملكشاه فارق أصفهان وأقام بالشام حتى تعلم الطب ونظم الشعر ورجع إليها في أيام ملكشاه"٨٠".

هكذا بفضل رعاية واهتمام السلاطين والوزراء بالحياة الفكرية في إقليم خراسان، زخرت مدن وقرى هذا الإقليم بالعلم والعلماء ومؤلفاتهم، بكافة ألوانها ومذاهبها، وأصبح هذا الإقليم من مراكز الإشعاع الثقافي الذي بثه في الأقاليم المجاورة، وقد كانت النهضة السلجوقية أشبه بربيع ظل تحت عواصف ثلجية، طرأت سابقاً لأوانها، وقد تعرضت هذه الحضارة لخسائر فادحة بسبب الاجتياح المغولي، والصليبي، والتمردات، والاضطرابات الداخلية.

الحواشي

١. الاصطخري، أبو إسحق إبراهيم بن محمد الكرخي (ت٣٤١هـ)، **مسالك الممالك**، تحقيق محمد جابر عبدالحق الحسيني، مراجعة محمد شفيق غربال، القاهرة، مطابع دار القلم، ١٩٦١م، ص١٤٥؛ ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي النصيبي (ت٣٦٧هـ)، **صورة الأرض**، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة ، ١٩٧٩، ص٣٥٨.

٢. اليعقوبي، أحمد بن واضح (ت٢٨٤هـ)، **تاريخ اليعقوبي**، النجف، مطبعة الغرى، ١٣٥٨هـ ينظر الحديثي، قحطان عبدالستار، أرباع خراسان، البصرة، مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر، ١٩٩٠، ص١٩؛ المقدسي، المطهر بن طاهر (ت٣٥٥هـ)، **البدء والتاريخ**، باريس، د. ط، ١٩٠٧م، ص٧٩؛ الثعالبي، أبو منصور عبدالملك بن محمد ابن إسماعيل (ت٤٢٩هـ)، **لطائف المعارف**، تحقيق إبراهيم الأبياري وحسن كامل الصيرفي، مصر، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٠م، ص٢٠٣؛ شيخ الربوة، شمس الدين محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي (ت٧٢٧هـ)، **نخبة الدهر وعجائب البحر**، بطرسبورغ،د. ط، ١٨٦٥م، ص٢٢٣.

٣. المسعودي، نجم عيدان إبراهيم، **خراسان في العصر العباسي الأول دراسة في أحوالها السياسية والإدارية**، ١٣٢-٢٠٥هـ، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٥، خراسان، ص٤٣؛ العلي، صالح أحمد، **إدارة خراسان**، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد ١٥، ١٩٧٢م، ص٣١٣.

٤. المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المعروف بالبشاري (ت٣٧٥هـ)، **أحسن التقاسيم في معرفة الإقليم**، ط٢، ليدن، مطبعة

بريل، ١٩٠٦م، ص٣٢٣، ٣٣٦؛ ينظر الثامري، **الحياة العلمية زمن السامانيين**، ص٤١.

٥. العمادي، محمد حسن، **خراسان في العصر الغزنوي**، الأردن، دار الكندي للنشر والتوزيع، ١٩٩٧، ص٢٤٨.

٦. ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني (ت٣٢٠هـ)، **مختصر كتاب البلدان**، ليدن، مطبعة بريل، ١٣٠٢هـ، ص٣١٥؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٢٩٤؛ ينظر الحديثي، قحطان عبد الستار، **التواريخ المحلية لإقليم خراسان**، البصرة، مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر، ١٩٩٠، ص٢٢؛ **خراسان في العهد الساماني**، ص٢٠٠.

٧. ابن الفقيه، **البلدان**، ص٣١٥؛ المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ص٢٩٣؛ فامبري، **تاريخ بخارى**، ص٧٤.

٨. سورة المجادلة: الآية (١١).

٩. سورة فاطر: الآية (٢٨).

١٠. ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد (ت ٢٧٥هـ)، **سنن ابن ماجه**، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، د. ت، جـ١،ص٨.

١١. الطاهر، عبدالباري، **خراسان وما وراء النهر بلاد أضاءت العالم بالإسلام**، ط١، مصر، مطبعة الشروق، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ص٨٤؛ شفق، رضا زادة، **تاريخ الأدب الفارسي**، مصر، محمد موسى هنداوي، د. م، دار الفكر العربي، د. ت، ص١٤؛ لعلي صالح، **مراكز الحركة الفكرية في صدر الإسلام**، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، م٣١، جـ٣، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص٢١.

١٢. المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ص٣٢٣.

١٣. الدفاع، علي عبد الله، **العلوم البحتة في الحضارة العربية الإسلامية**، ط٢، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٣م، ص٢١؛ ليسنر، يعقوب، **خطط بغداد في العهود العباسية الأولى**، ترجمة صالح أحمد العلي، بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٤م، ص٢٣٢.

١٤. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت٥٩٧هـ)، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، تحقيق وتقديم سهيل زكار، بيروت، لبنان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٥، م٧، ص٢٦٥.

١٥. ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، جـ٥، ص١٥٣؛ ابن عماد الحنبلي، شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العسكري الدمشقي (ت١٠٨٩هـ)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، د. ت، جـ٢، ص٣٥٠-٣٥١؛ ينظر آل ياسين، جعفر، فيلسوفان رائدان الكندي والفارابي، ط١، بيروت، دار الأندلس، ١٩٨٠، ص٦٢؛ محي الدين، عبد الرزاق، الفارابي ما يروى عنه ويروى فيه، مجلة المجمع العلمي العراقي، م٢٧، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، ص١٣٣-١٣٤.

١٦. المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ص٣٣٩.

١٧. ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، جـ٥، ص١٥٩.

١٨. المقدسي: **أحسن التقاسيم**، ص٣٣٨.

١٩. الثعالبي، **يتيمة الدهر**، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الفكر، د. ت، جـ٤، ص١٠١.

٢٠. المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ص٣، ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، م٢، ص١٨١.

٢١. الصلابي، (محمد علي):**دولة السلاجقة**،بيروت،دار المعرفة٢٠١٠ ص١٥.

٢٢. الصلابي: المرجع نفسه ص٢١.

٢٣. زكار، (سهيل):**الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية**، دمشق، دار الفكر، ٢٠٠٠، ج١،ص٥٦-٥٧.

٢٤. طقوش،(محمد سهيل): **تاريخ الدولة العباسية**، بيروت،دار النفائس،١٩٩٦، ص٢٣٩-٢٤٠

٢٥. طقوش: المرجع السالف ص٢٤٠-٢٤١.

٢٦. مريزن عسيري: **الحياة العلمية في العراق في عصر السلاجقة** ص١٧١.

٢٧. حسنين: **إيران والعراق في العصر السلجوقي** ص١٨٥، الطويل: **الحضارة الإسلامية** ص١٠٨ .

٢٨. الراوندي: **راحة الصدور وآية السرور** ص٧٢-٧٣.

٢٩. البنداري: **تاريخ دولة آل سلجوق** ص٢٨.

٣٠- البنداري: **تاريخ دولة آل سلجوق** ص٢٥، إقبال: **الوزارة في عهد السلاجقة** ص٦٦.

٣١- ابن الجوزي: **المنتظم**،م٧ ص٢٣٩.

٣٢- الباخزري، (علي بن الحسن بن علي بن أبي الطيب، ت٤٦٧هـ / ١٠٧٤م): **دمية القصر وعصرة أهل العصر**، تحقيق ونشر محمد ألتوني، بغداد ١٩٧١م، ج٢ ص٢٩٨.

٣٣- ابن الأثير، (علي بن أحمد بن أبي الكرم، ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٨م): **الكامل في التاريخ**، بيروت، دار صادر، ج٨ص٤٨٠ - ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج٢

ص١٢٨ ٣٤- ابن كثير، (عماد الدين إسماعيل بن عمر أبو الفداء الدمشقي، (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م): **البداية والنهاية**، القاهرة، ١٩٤٨م، ج١٢ص١٥١ - خواندمير: دستور الوزراء ص٢٤٥ - الزهراني، (محمد ابن مسفر): **الوزارة في الدولة العباسية في العهد البويهي والسلجوقي**، بيروت مؤسسة الرسالة ١٩٨٦م،ص١٤٢.

٣٥- الذهبي، (أبو عبد الله بن أحمد بن عثمان بن قيمازت٧٤٨هـ /١٣٤٧م): **سير أعلام النبلاء**، تحقيق بشار عوا معروف ويحيى هلال السرحان، بيروت مؤسسة الرسالة ١٩٨٥م، ج٢ ص٤٤٩- ابن العماد الحنبلي:(أبو الفلاح عبد الهادي بن علي بن محمد، ت٤٨٢هـ / ١٠٨٩م): **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، بيروت، دار إحياء التراث العربي ١٩٧٧م، ج٤ ص٣٧٤- محبوبة: نظام الملك ص٢٥٤-٢٥٥- ابن رجب الحنبلي، (عبد الرحمن بن أحمد ت ٧٩٥هـ): **الذيل على طبقات الحنابلة**، ج١ ص٥٤.

٣٦- محبوبة: نظام الملك ص١٥٩-١٦٠ إقبال، (باس): **الوزارة في عهد السلاجقة**، ترجمة محمد علاء الدين منصور، القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٩٠م، ص١٤٣.

٣٧- السبكي، (تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن تقي الدين، ت٨٧٩هـ / ١٤٧٤م): **طبقات الشافعية الكبرى**، تحقيق محمد الطناحي وعبد الفتاح الحلو، القاهرة ١٩٦٦ م، ج٤ ص٣١٣ - نظام الملك، (الحسن بن اسحاق بن العباس أبو علي الطوسي، ت٤٨٥هـ/١٠٩٢م): **سياسة نامة**، ترجمة محمود العزاوي، القاهرة، ١٩٧٥م ص٥.

٣٨-العيني، (بدر الدين أبو محمد محمود بن موسى، ت٨٨٥ هـ / ١٤٥١م): **السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي**، حققه وقدم له فهيم شلتوت القاهرة، دار الكتاب العربي ١٩٨٧م، ص١٠٩ حاشية.

٣٩- ابن رجب الحنبلي: **ذيل طبقات الحنابلة** ج١ ص٥٤-٥٥.

٤٠- الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، ج٢ ص٣٨٢، السبكي: **طبقات الشافعية الكبرى** ج٤ ص٤٧٠.

٤١- حسن، (حسن ابراهيم): **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، دار النهضة المصرية، ١٩٥٢، ج٤ ص٣٤.

٤٢- صلابي: **دولة السلاجقة** ص٧٩-٨٠.

٤٣- صلابي: **دولة السلاجقة** ص٧٩-٨٠.

٤٤- ابن الجوزي: **المنتظم** ج٩ ص٤٤-٤٥.

٤٥- عبد الهادي،(سعاد): **فنون الشعر الفارسي**، القاهرة، ١٩٧٢م، ص١٨٦، أبو النصر: **نظم الحكم وأهم مظاهر الحضارة** ص٣٦، صلابي: **تاريخ** ص٨٤.

٤٦- صلابي: **تاريخ** ص٨٤.

٤٧- ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج٤ ص٣٧٤.

٤٨- ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج٤ ص٣٧٢.

٤٩- العروضي: جهار مقالة ص١٥٧-حسنين، (عبد النعيم): **سلاجقة إيران والعراق**، مصر، مكتبة النهضة ١٩٥٩م، ص١٨٥.

٥٠- نظام الملك: **سياسة نامة** ص١٠.

٥١- البنداري: **آل سلجوق** ص ٨٠.

٥٢- ابن الأثير: **الكامل** ج٦ ص٢٧٦، الصلابي: **الدولة العثمانية** ص٣٥.

٥٣- الأصفهاني: **الخريدة** ج٢ص٦٠.

٥٤- البنداري، (الفتح بن علي بن محمد): **آل سلجوق،** القاهرة، ١٩٠٠م ص٨١ - الراوندي (محمد بن علي سليمان، ت٥٩٩هـ / ١٠١٩م): **راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية،** نشر وتصحيح محمد إقبال، ترجمة ابراهيم الشواربي وغيره، القاهرة، دار العلم ١٠٦٠م، ص٢١٤- إقبال،(عباس): **إيران بعد الإسلام،** ترجمة محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٨٩م، ص٣٦٢.

٥٥- الأصفهاني: **الخريدة** ج٢ ص٦١.

٥٦- الأصفهاني: **الخريدة،** ج٢ ص٤١، إقبال، (عباس): **الوزارة في عهد السلاجقة،** ترجمة محمد علاء الدين منصور، القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٩٠م، ص١٩٦.

٥٧- خواندمير: **دستور الوزراء** ص١٧١-ابن كثير: **البداية والنهاية**ج١٢ ص١٧٧.

٥٨- إدريس: **سلطان السلاجقة الأعظم** ص١٢٤- الوزنة،(يحيى حمزة عبد القادر): **الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر،** أطروحة دكتوراه بإشراف الدكتور محمد السيد دراج، جامعة أم القرى، قسم التاريخ ٢٠١٠م، ص٢١٤.

٥٩- ابن الجوزي: **المنتظم** ج١٠ ص١٧٨- الذهبي: **سير أعلام النبلاء**ج٣ ص٤٧.

٦٠-الراوندي: **راحة الصدور** ص٢٦٠.

٦١- العروضي: جهار مقالة ص٢٣ - ادريس: **سلطان السلاجقة الأعظم** ص١٢٥.

٦٢- العروضي: جهار مقالة ص٧- الوزنة: **الدولة السلجوقية** ص٢٦٠.

٦٣-البنداري: **آل سلجوق** ص٢٤٥- خواندمير: **دستور الوزراء** ص٣٧٦، إقبال : الوزارة في عهد السلاجقة ص٣٥٣.

٦٤- خواندمير: **دستور الوزراء** ص٢٨٠.

٦٥- إقبال: **الوزارة في عهد السلاجقة** ص٣٨٥.

٦٦- البنداري: **آل سلجوق** ص٢٤٦- خواندمير: **دستور الوزراء** ص٢٨٣.

٦٧- خواندمير: **دستور الوزراء** ص٢٨٧.

٦٨- الأصفهاني: **الخريدة** ج٢ ص١١.

٦٩- الأصفهاني: **الخريدة** ج٢ص١٧ .

٧٠- الأصفهاني: **الخريدة** ج٢ص٢٧ .

٧١- الأصفهاني: **الخريدة** ج٢ص٣٢ .

٧٢- الأصفهاني: **الخريدة** ج٢ ص٣٦ .

٧٣- الأصفهاني: **الخريدة** ج٢ ص٥١ .

٧٤- الأصفهاني: **الخريدة** ج٢ ص٦٣-٦٤ .

٧٥- الأصفهاني: **الخريدة** ج٢ ص٦٥ .

٧٦- الأصفهاني: **الخريدة** ج٢ ص٧٦ .

٧٧- الأصفهاني: **الخريدة** ج٢ س٨٥ .

٧٨- الأصفهاني: **الخريدة** ج٢ ص٩٤ .

٧٩-الأصفهاني: **الخريدة** ج٢ ص٢١٧ وما بعد .

٨٠- الأصفهاني: **الخريدة** ج١ ص١٥٤ .

التطور الزراعي الصناعي في غوطة دمشق وأثره في الحياة الاقتصادية بين القرنين العاشر والثامن عشر

الدكتور صالح محمود وهبي

قسم الجغرافية

كلية الآداب

جامعة دمشق

ملخص البحث:

يبين البحث التطور الزراعي الصناعي وأهميته ومدى تحقيقه في غوطة دمشق بين القرنين العاشر والثامن عشر.

يهدف البحث إلى الآتي:

إظهار التطور الزراعي الصناعي في غوطة دمشق وأثره في الحياة الاقتصادية لسكان الغوطة. وتوضيح العوامل التي ساهمت في تحقيق هذا التطور. وإظهار أهم المنتجات الزراعية النباتية والحيوانية الغذائية وغير الغذائية التي شكلت المادة الأولية لتحقيق التطور والتكامل الزراعي الصناعي في غوطة دمشق، وأهم صادرات غوطة دمشق من تلك المنتجات ووجهتها.

استخدم في البحث المنهج التاريخي لإظهار تطور التكامل الزراعي الصناعي في غوطة دمشق خلال الفترة المدروسة، إضافة إلى المنهج الوصفي التحليلي والمنهج الكارتوغرافي. وتم عرض أهم النتائج والمقترحات في نهاية البحث.

المقدمة:

يشمل مفهوم التكامل الزراعي الصناعي إنتاج المحاصيل الزراعية النباتية والمنتجات الحيوانية وتصنيفها وتخزينها ونقلها وتسويقها، وهذا يحقق قيمة مضافة، والقيمة المضافة هنا لا تقتصر على المبالغ المالية التي تضاف إلى قيمة السلعة الزراعية، بل يتعدى ذلك إلى إقامة المصانع وخلق فرص عمل في التصنيع والتسويق وكافة حلقات العمل الزراعي الصناعي التي يجب أن تتكامل من أجل تطوير الصناعات الزراعية التي تعتمد على المواد الأولية المنتجة محلياً. وبتصنيع المنتجات الزراعية الغذائية السريعة التلف، نستطيع استهلاكها خارج مواسم إنتاجها ونحفظها من التلف ونمنع انهيار الأسعار لوجود فائض خلال الموسم، وبذلك نحافظ على أسعار مناسبة للفلاح والمستهلك، وعلى استمرارية وتطوير الزراعة، وتسمح تلك المنتجات المصنعة من استهلاكها في غير مناطق إنتاجها.

كانت غوطة دمشق خلال العصور الماضية سباقة بتحقيق التكامل الزراعي الصناعي ضمن الإمكانات التقنية والفنية المتوفرة في تلك الفترة. وساعدها في تحقيق ذلك توفر مجموعة من الشروط الطبيعية والبشرية ووجود فائض من الإنتاج الزراعي.اشتهرت الغوطة ببعض منتجاتها وصناعاتها الزراعية، وصدرت الفائض عن حاجاتها وحاجة مدينة دمشق إلى المناطق المجاورة والبعيدة. حتى بداية السبعينات كانت الغوطة بمثابة سلة غذائية من الخضار والفواكه لمدينة دمشق وغيرها. تحول جزء كبير من الغوطة حالياً إلى غابات إسمنتية من السكن العشوائي في ظل غياب التخطيط العمراني

والإقليمي الصحيح. والنمو السكاني المرتفع الناتج عن الهجرة من المحافظات الأخرى.

أهمية البحث:

تأتي أهمية البحث من خلال تسليط الضوء على التطور والتكامل الزراعي الصناعي بغوطة دمشق، إذ أظهر سكان غوطة دمشق قدرتهم الفائقة على استغلال الموارد الطبيعية الزراعية، وتطوير خبرتهم ومعرفتهم الزراعية عبر العصور، وإتباعهم نمط الزراعة الكثيفة والمختلطة، فارتفع الإنتاج كما ونوعا، وفاض الإنتاج الزراعي عن حاجتهم خلال المواسم الزراعية، وكان هناك صعوبة كبيرة في تصدير المنتجات الزراعية السريعة التلف إلى المناطق البعيدة، لبطئ وسائل النقل وضعف قدرتها في تلك الفترة.

وتصنيع المنتجات الزراعية والحيوانية ساعد على تصديرها خارج مواسم إنتاجها، كما ساعدفي الحصول حصولهم على قيمة مضافة جراء تصنيعها وسهولة نقلها، مما أدى إلى تحسين حياة السكان الاقتصادية.

أهداف البحث:

١- إظهار التطوروالتكامل الزراعي الصناعي في غوطة دمشق وأثره في الحياة الاقتصادية خلال الفترة المدروسة.

٢- توضيح العوامل التي ساهمت في تطور الزراعة و التكامل الزراعي الصناعي بغوطة دمشق.

٣- تبيان أهم المنتجات الزراعية النباتية والحيوانية الغذائية وغير الغذائية التي شكلت المادة الأولية لتطور الصناعات الزراعية في غوطة دمشق.

مشكلة البحث:

يعد مفهوم التكامل الزراعي الصناعي حديث نسبياً، حيث ظهر بعد الثورة الصناعية والزراعية والتقدم العلمي والتقني واعتماد التخطيط الإقليمي في الإنتاج الزراعي في الدول المتقدمة، لذلك نجد ندرة في الدراسات السابقة التي عالجت مثل هذا الموضوع للفترة التي تعود إلى ما قبل مفهوم التكامل الزراعي الصناعي.

مناهج البحث:

تم استخدام المناهج الآتية في البحث:

١- المنهج التاريخي: الذي تم استخدامه لملاءمته لهذا البحث لدراسة التطور الزراعي والتكامل الزراعي الصناعي في غوطة دمشق.
٢- المنهج الوصفي التحليلي: الذي يفيد في تحديد الإطار النظري للظاهرة المدروسة وإبراز سماتها وخصائصها.
٣- المنهج الكارتوغرافي: الذي تم استخدامه لإظهار منطقة الدراسة.

الدراسات السابقة:

وجدت بعض الدراسات التي تطرقت إلى بعض جوانب الموضوع ومنها الآتي:

١- دراسة محمد أحمد زيود. حالة بلاد الشام الاقتصادية، منذ العهد الطولوني حتى نهاية العصر الفاطمي، رسالة دكتوراه، جامعة دمشق، كلية الآداب، ١٩٨٧م.

تناولت هذه الدراسة الحياة الاقتصادية في بلاد الشام إذ خصص فصلا عن الزراعة والثروة الزراعية والمحاصيل الزراعية الغذائية والصناعية والأشجار المثمرة، كما تطرق إلى الصناعة والتقدم الصناعي وأنواع الصناعات ومنها الصناعات الزراعية، والتجارة الداخلية والخارجية وعلاقة بلاد الشام مع المناطق والبلاد المجاورة لها.

٢- دراسة أحمد فرزت طوقجي. دمشق وغوطتها في النصف الأول من الألف الثاني ق.م. رسالة ماجستير في التاريخ القديم، جامعة دمشق، كلية الآداب،.

تناولت هذه الدراسة أهمية دمشق وغوطتها وموقعها وجغرافيتها من الناحية الطبيعية واستعرض أعمال التنقيب والمسح الأثري (القديم والحديث) في مدينة دمشق وحوضتها وأحدث المكتشفات والمعلومات الأثرية والتاريخية، وعلاقة منطقة دمشق مع كل من وادي الفرات ووادي النيل على ضوء المكتشفات الأثرية الحديثة.

موقع الدراسة:

تقع غوطة دمشق ضمن حوض دمشق المغلق ويعد من أهم وأكبر الأحواض الجبلية الهامشية. يقع عند أقدام جبل عنتر وقاسيون وأبو العتا غرباً، وبداية السلاسل الجبلية التدمرية عند الضمير من جهة الشمال والتلال الاندفاعية في منطقة الكسوة وأطراف صبة الصفا من جهة الجنوب والجنوب الشرقي، وهضبة ديرة التلول وعتبة أبو الشامات شرقاً. يبلغ متوسط ارتفاع الحوض نحو (٦٥٠م) وأعلى ارتفاع له في الغرب (٧٠٠ – ٧٢٥م) وأخفض منطقة في الحوض تقع في منطقة الهيجانة والعتيبة على ارتفاع (٥٩٨ م). ويقسم الحوض إلى قسمين، غربي ويعرف بالغوطة وشرقي يعرف بالمرج ويخترقهما نهرا بردى والأعوج [١].

حدد ياقوت الحموي اتساع الغوطة بقوله "إن استدارتها ثمانية عشر ميلاً(٢) بينما حدد المقدسي مساحتها بمرحلة في مثلها (المرحلة تساوي مسيرة يوم على الراكب بالسير المعتدل)[٣]. في حين حدد محمد كرد علي وأحمد وصفي زكريا الغوطة بأنها كل ما أحاط بمدينة دمشق من قرى شجراء وكان من أرض السهل والتي تروى من نهر بردى وفروعه والجداول المتفرعة عنه. إن حصر الغوطة بالأراضي التي تروى من بردى غير دقيق، لأن بعض القرى تروى أراضيها من مياه نهر بردى والأعوج، بل نفس الأرض يمكن أن تروى من مياه النهرين مثل أراضي داريا، كما كان هناك

مصادر أخرى للري غير مياه النهرين السابقين مثل مياه الفجارات (القنوات الرومانية) التي تروي أراضٍ ضمن الغوطة، وأراضي قرية برزة كانت تشرب من مياه منين سابقاً. لذلك فإن حصر حدود الغوطة بالأراضي التي تروى من نهر بردى وفروعه أساس غير واقعي وفيه تجاهل للعرف والمظهر الطبيعي. بينما مصطفى الشهابي اتبع العرف للتمييز بين قرى الغوطة عن سواها وحدد الغوطة على الشكل الآتي:

من الشمال نهر يزيد في حي المهاجرين، وجنوبي حي الأكراد ثم برزة وحرستا ودوما. ومن جهة الجنوب خيارة نوفل وعقربا وقبر الست وحجيرة والبويضة والأشرفية وصحنايا. ومن جهة الغرب داريا وصحنايا والقسم الذي يسقى من المزة، ومن الشرق المزرعة والعب (من مزارع دوما) ومسرابا وبيت سوا وحمورية والمحمدية وبالا وزبدين والمليحة. وبالتحديد الإداري قسمها إلى ناحيتين:

١- ناحية الغوطة الشرقية ومركزها قرية عربيل وفيها١٩ قرية ومساحتها١١٠ كم٢.

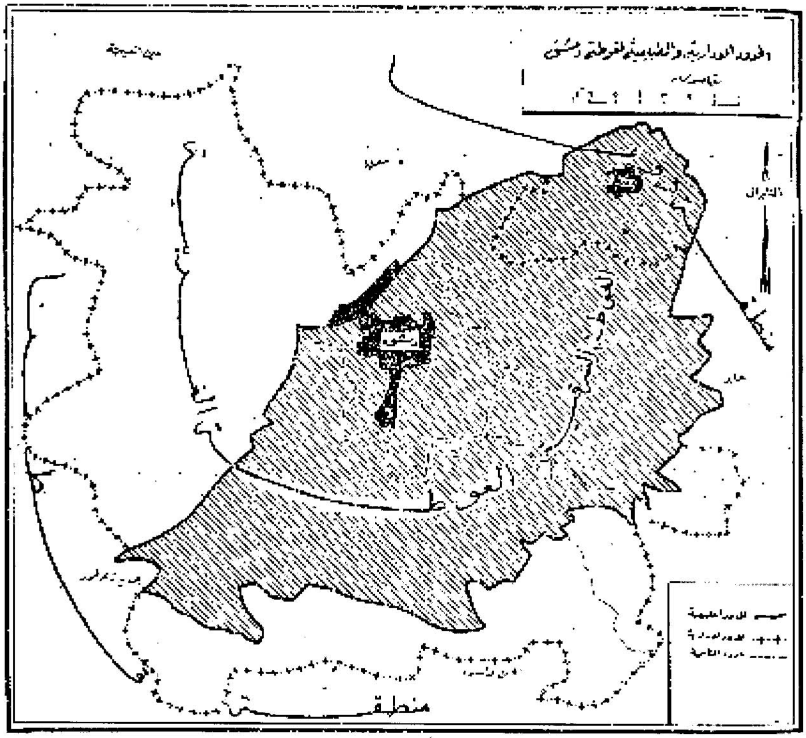
٢- ناحية الغوطة الغربية ومركزها داريا تتبع لها٢٠ قرية ومساحتها نحو١٢٠ كم٢.

(خارطة ١ – ٢) [٤].

بذلك تكون مساحة الغوطة نحو ٢٣٠ كم٢.

يقع المرج إلى الشرق من غوطة دمشق ويصل امتداده إلى منخفض العتيبة شرقاً، ويشكل نهر الأعوج الذي كان يصب في بحيرة الهيجانة قبل جفافها حد المرج جنوباً. يعد المرج امتداداً طبيعياً لغوطة دمشق لكنه يشكل منطقة انتقالية إلى البادية السورية. ويختلف عن الغوطة من حيث التربة والمناخ والمياه والنشاط الاقتصادي ونوعية المزروعات.

(خارطة ١) الحدود الإدارية والطبيعية لغوطة دمشق.



مصدر الخارطة: صفوح خير. غوطة دمشق، دراسة في الجغرافية الزراعية، ص ١٦.

(خارطة ٢) حدود غوطة دمشق والقرى والمزارع.



مصدر الخارطة صفوح خير غوطة دمشق. دراسة في الجغرافية الزراعية، ص ٢١.

أولاً: عوامل قيام التطور الزراعي الصناعي في غوطة دمشق:

أ – العوامل الطبيعية:

تعد العوامل الطبيعية من أهم العوامل المؤثرة في الإنتاج الزراعي سلباً أو إيجاباً بل غالباً ما تكون هي العامل المحدد لنوعية المحصول أو درجة نجاحه (٥).

١ - **الموقع الجغرافي**: ساعد موقع غوطة دمشق ومدينة دمشق التي تقع على الأطراف الغربية لغوطة دمشق في ازدهار الصناعات الزراعية، حيث كانت معبراً ومقصداً للقوافل التجارية حيث كان يتحكم موقعها بعدد من الطرق التجارية والحربية في العالم القديم والوسيط، إذ كانت باباً إلى بادية مأهولة، تقع خلفها بغداد وفارس والهند، وشبه الجزيرة العربية، وتشكل مخرجاً من البادية إلى البحر عبر الممرات والطرق الجبلية لجبال لبنان الشرقية والبقاع، وشكلت صلة وصل بين بلاد الرافدين ومصر وإفريقية والحضارة الرومانية شمالاً، وكانت محطة رئيسة لتجمع وانطلاق الحجاج إلى الحجاز. فشكلت عقدة مواصلات ربطت تلك الحضارات وتفاعلت معها من مختلف النواحي البشرية والاقتصادية والثقافية والسياسية عبر العصور (٦).

٢ - **البنية الجيولوجية**: تتكون البنية الجيولوجية لحوض دمشق في الغوطة والمرج من الأعلى إلى الأسفل على الشكل الآتي:

أ- تشكلت الطبقة السطحية في الزمن الجيولوجي الرابع من الترسبات النهرية والسفحية التي نقلتها مياه الأنهار والأمطار وترسبت فوق الترسبات البحيرية (الشكل).

ب- رواسب بحيرية تتكون من مواد طينية جيرية ويبلغ سمكها عند بلدة داريا نحو ٨٠ متراً.

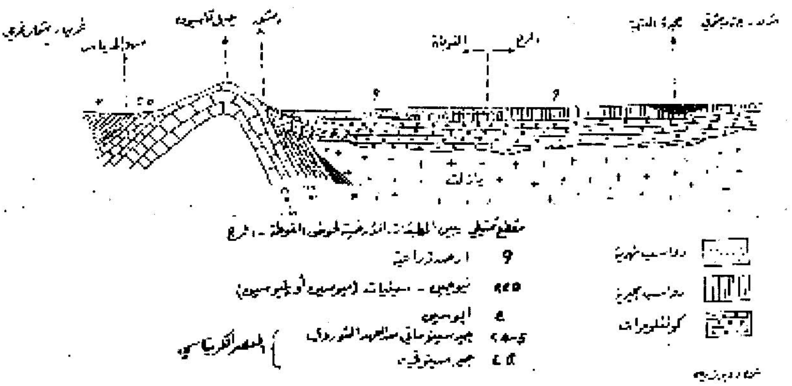
ج- طبقة الكونغلوميرا المشققة من الحجر الكلسي والصوان والبازلت والحجر الرملي. وتعود إلى عصر البليوسين.

د - طبقة من البازلت تحت طبقة الكونغلوميرا، إذ انساحت التدفقات البازلتية من المنطقة الجنوبية واستقرت في حوض دمشق. وتعود إلى الزمن الجيولوجي الرابع وتبلغ سماكتها مئات الأمتار.

هـ - تتوضع الصخور البازلتية فوق طبقات جيرية تعود إلى عصر الايوسين (٧).

ساعد الشكل السهلي لغوطة دمشق من استثمار كل شبر فيها، إذ لا توجد تضاريس وأحجار تعرقل العمليات الزراعية.

(الشكل ١) مقطع تمثيلي يبين الطبقات الأرضية لحوض الغوطة والمرج.



مصدر الشكل: صفوح خير، غوطة دمشق ص ٤٤.

٣- **المناخ:** يحدد المناخ بعناصره المختلفة نوع المحصول وشكل الإنتاج الزراعي [٨].

يشكل مناخ غوطة دمشق منطقة انتقالية بين المناخ شبه الجاف البارد والمناخ الصحراوي الجاف. ويتميز بجفافه خلال ستة أشهر من السنة على الأقل، وترتفع الفروق الحرارية السنوية واليومية فيه إلى أكثر من ٢٠ ْم [٩]. ويكون الصيف طويلاً وحاراً والشتاء بارداً وقصيراً وفصلان انتقاليان قصيران. يبلغ متوسط درجة الحرارة السنوي نحو ١٧ مْ، ويحدث الصقيع بين شهري تشرين الثاني وآذار. يصل المعدل العام لسرعة الرياح في دمشق إلى نحو ٣،٤ كم / سا، وتكون أقصى سرعة لها في

شهري حزيران وتموز وآذار ونيسان، إذ تبلغ سرعتها وسطياً على التوالي (١٨،٢ – ١٨،٦ – ١٧،٣ كم / سا) وأدنى سرعة لها في شهر كانون الأول نحو ٧ كم / سا. يبلغ معدل المطر السنوي في الجزء الغربي من غوطة دمشق ٢١٢ مم سنوياً ويقل هذا المعدل كلما اتجهنا شرقاً، وتعود قلة الأمطار لوقوع غوطة دمشق في ظل الجبال التي تصد الرياح الماطرة. وتتركز معظم الأمطار في فصل الشتاء والخريف والربيع، علماً أن كمية الأمطار تتذبذب بشكل كبير بين سنة وأخرى. يبلغ متوسط الرطوبة النسبية (٥٧ %).

إن مناخ غوطة دمشق المعتدل الدافئ نسبياً يسمح بزراعة أنواع كثيرة من المحاصيل الزراعية والأشجار المثمرة الصيفية والشتوية.

٤ – **التربة:** تتميز تربة غوطة دمشق بخصوبتها والتي تعود في نشأتها إلى الرواسب النهرية والتربة التي جرفتها السيول من السفوح الجبلية المجاورة. كان الفلاحون يقومون بغمر أراضيهم بمياه الفيضان العكر شتاءً والتي تحمل المواد الطينية الناعمة لتترسب فوقها لتجديد خصوبتها. أما التربة في المرج فهي بُحيرية المنشأ وأقل خصوبة من أراضي الغوطة.

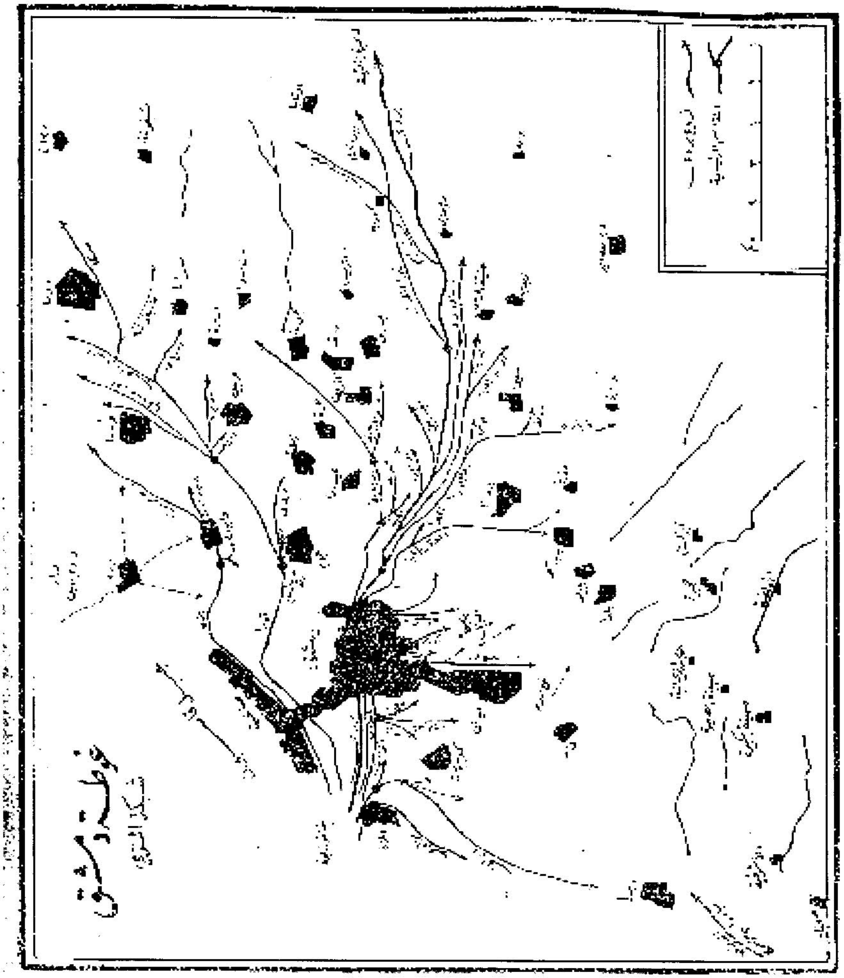
٤ – **المياه:** تدين غوطة دمشق ومدينة دمشق في وجودها لنهري بردى والأعوج. إذ لا يمكن لتجمع بشري كبير أن يستمر في هذه المنطقة شبه الجافة لولا توفر المياه السطحية والجوفية التي عوضت قلة الأمطار[١٠].

استطاع سكان غوطة دمشق من الاستفادة من نهري بردى والأعوج إلى أقصى حد ممكن[١١]، من خلال نظام توزيع محكم للمياه، إذ تم تقسيم نهر بردى إلى سبعة فروع إضافة إلى شبكة فرعية من الجداول تغطي كل أراضي الغوطة (خارطة٣)[١٢]

لم يكتفِ سكان الغوطة بمياه نهري بردى والأعوج فقط، بل حفروا عشرات الفجارات (القنوات الرومانية) للاستفادة من المياه الجوفية السطحية، بخاصة في المناطق التي لا

تصلها مياه نهري بردى والأعوج والتي يظهر بعضها في (الخارطة ٣). والتي جفت حالياً بسبب انخفاض المياه الجوفية.

(خارطة ٣) شبكة الري وأهم التجمعات السكنية في غوطة دمشق



ب- العوامل البشرية:

أثبتت الأدلة الأثرية المكتشفة أن حوض دمشق فيه الكثير من المواقع التي تعود إلى إنسان العصور القديمة، واستمر إعمار حوض دمشق دون انقطاع منذ أخذت بحيرة دمشق بالانحدار، حيث بدأ الإنسان ينّزل من جبل قاسيون والجبال المحيطة بحوض دمشق ليستوطن على ضفاف البحيرة. بينت أحدث المكتشفات الأثرية أقدم استيطان في حوض دمشق بأنه يعود إلى العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري من الألف الثامن والسابع ق.م مثل تل أسود وتل الرماد وتل الغريفة وتل الخزامى.(١٣)* وتشهد التلال الأثرية الكثيرة في غوطة دمشق على التجمعات السكانية التي كانت منتشرة بأعداد كبيرة، التي تنتظر التنقيب فيها، ولا تزال التلال التي طالتها معاول التنقيب محدودة منها تل الصالحية وتل الجارية وتل سكا*. يبلغ عدد التلال المسجلة في محافظة ريف دمشق التي تقع في حوض دمشق ٣٢ تلا، وربما سيتضاعف هذا العدد عند القيام بمسح أثري دقيق.(١٤)

مارس الإنسان الزراعة في حوض دمشق منذ أكثر من ١٠ آلاف سنة مضت، حيث دلت أقدم المكتشفات الأثرية على ممارسة الزراعة في تل أسود منذ الألف السابع ق.م.نتيجة ممارسة سكان حوض دمشق للزراعة طيلة آلاف السنين تراكمت لديهم خبرات ومعارف لا يستهان بها في كافة العمليات الزراعية ومنها التصنيع الزراعي للمنتجات الزراعية والحيوانية بطرق مختلفة، مما مكنهم من التغلب على مشكلة

---

* يقع تل أسود بين بحيرتي العتيبة والهيجانة قبل جفافهما حاليا، شرقي قرية جديدة الخاص. وتل الرماد بين عرطوز وقطنا، وتل الغريفة يبعد عن دمشق ٣٠ كم باتجاه الشرق، أما تل الخزامى فقد زال بعد إنشاء مدرجات مطار دمشق الدولي.

* تتبع ناحية النشابية حالياً

الإنتاج الفائض من الإنتاج الزراعي في المواسم الخيرة، وخاصة المنتجات الزراعية السريعة التلف وغير القابلة للتخزين في تلك الفترة الزمنية.

لا يزال الطابع الزراعي القديم في الغوطة هو السائد، لم يدخل إليها من الأساليب الحديثة إلا القليل، وإن ما أدخلته من التحسن في زراعتها وصناعتها الزراعية تلحظ أنها تمثلته وتبنته، مع الاحتفاظ بطابع القرون الغابرة (١٥).

تبنى المزارعون في غوطة دمشق نمط الزراعة الكثيفة والمختلطة القائمة على تنوع الخضار والفواكه والأشجار الحراجية ونباتات صناعية، ومن مزايا ذلك عند حصول آفة زراعية أو عوارض مناخية ضارة فإنه ليس بالضرورة أن تصاب كل أنواع المحاصيل المزروعة في الغوطة وبذلك تعوض الأصناف الأخرى بعض الخسائر وتقل الكوارث الاقتصادية التي يمكن أن تصيب الفلاح. وكان موزعاً على مدار العام لتفرد الزراعات الصيفية والشتوية وتربية الحيوانات.

كانت الغوطة عامرة وفيها كثافة سكانية كبيرة وعدد غير قليل من القرى، حيث كتب محمد كرد علي في كتابه غوطة دمشق نقلا عن الظاهري: "قيل أن في إقليم الغوطة ثلاثمائة قرية ونيفا، وبها مدن صغار وبلدان تشابه المدن"(١٦) وربما في هذا الأمر مبالغة، إلا في حال حساب قرى المرج وقرى الغوطة وبعض القرى المحيطة بحوضة دمشق. وكشف الملك المعظم قرى الغوطة في القرن السابع فوجدها مائة وسبعين قرية عامرة. وكتب محمد كرد علي في كتابه غوطة دمشق في عام ١٩٤٩ أسماء وعدد سكان أربع وأربعين قرية أكبرها دوما (٢٠٤٥٨ نسمة) حاضرة الغوطة الشمالية، وداريا (٨٦٤٣ نسمة) حاضرة الغوطة الشمالية(١٧).

إن وقوع مدينة دمشق في الجهة الغربية من غوطة دمشق جعلها على مقربة من المناطق الزراعية، فشكلت الظهير لمدينة دمشق التي تمدها بما تحتاجه من الخضار والثمار والحبوب والأخشاب والألبان واللحوم الطازجة. وكان الغوطيون يجتمعون

بالدمشقيين كل يوم في أسواق مدينة دمشق لتصريف منتجاتهم الزراعية وشراء حاجاتهم الصناعية. وظل هذا التناغم بين غوطة دمشق ومدينة دمشق ونهر بردى سائدا منذ آلاف السنين وحتى وقت قريب، وشكل سر وجود واستمرار مدينة دمشق وغوطتها الغناء.

لم تكن دمشق واحة معزولة تحيط بها الجبال، بل كانت ترتبط بطرق تصلها بكل الاتجاهات والحضارات المجاورة لها فكان هناك طرقات تربطها عبر البادية السورية ببلاد الرافدين وتدمر و منها إلى بلاد فارس والهند وأسيا الوسطى، كما كانت دمشق تتصل مع شبه الجزيرة العربية عبر الطرق التي كانت تعبرها القوافل خلال رحلة الشتاء والصيف. ومن الشمال ارتبطت بطرق جيدة مع حمص وشمال سورية والساحل السوري.ومن الغرب اتصلت ببيروت وصيدا. وصور عبر الممرات الجبلية. كما ارتبطت جنوباً مع فلسطين، ومصر عبر سيناء ومن خلال مياه البحر المتوسط منذ القدم.

اكتسب سكان غوطة دمشق عبر العصور تقنيات وخبرات كثيرة في مجال الزراعة والري. في مجال الري استطاعوا تقسيم مياه نهر بردى إلى ستة فروع إضافة إلى مجرى نهر بردى الأصلي وهي ترتفع بمنسوبها عن المجرى الرئيس لنهر بردى لتروي أكبر مساحة ممكنة من أرض الغوطة وهذه الفروع تقسم إلى فروع أصغر وأصغر حتى تصل إلى كل حقول الغوطة تقريباً، واتبعوا نظاماً محكماً لتقسيم المياه بين الفلاحين. واستخدموا الناعورة لرفع المياه وخاصة في منطقة حي الصالحية حالياً. إذ لا تزال ناعورة في أحد المنازل القديمة في حي الصالحية شاهدة حتى وقتنا الحاضر، كما يوجد زقاق اسمه زقاق النواعير. ورفعوا المياه باستخدام الحيوانات(١٨)، وحفروا الفجارات (القنوات الرومانية) لاستخراج المياه الجوفية لإرواء الحقول التي لا تصلها مياه نهري بردى والأعوج، معظمها جف حالياً منذ أواخر النصف الأول من

القرن العشرين بسبب انخفاض منسوب المياه الجوفية بعد استخدام مضخات المياه الحديثة.

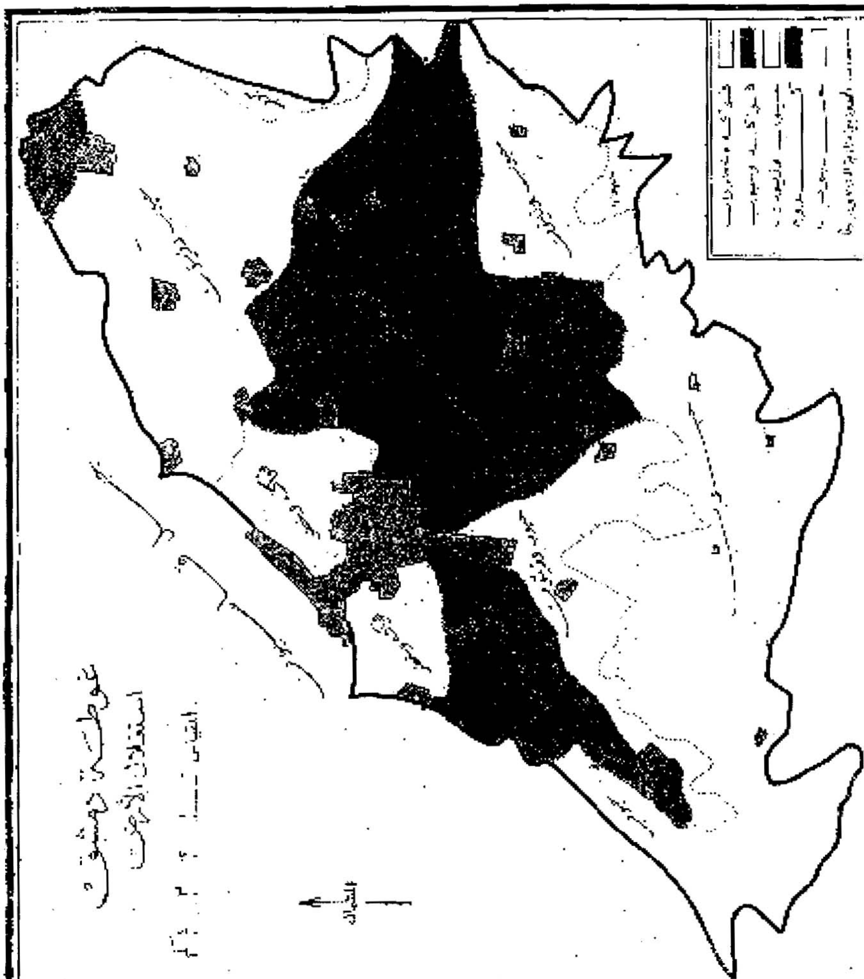
وعرف الفلاحون في الغوطة بعض التقنيات والعمليات الزراعية منها التطعيم حيث قال الميدومي في كتابه (لطايف الأعاجيب): " كان بغوطة دمشق أشجار تحمل الواحدة منها أربعة أنواع من الفواكه كالمشمش والخوخ والتفاح والكمثرى". وكانت بعض الكرمة المطعمة تثمر بالعنب الأبيض والأسود والأحمر، وشجرة التوت الواحدة تطرح التوت الأبيض والأسود.[١٩]

زرع الفلاحون بغوطة دمشق الأشجار على أطراف الحقول منها المثمر وغير المثمر حيث تعمل مصدات للرياح وسياج للحقول وتستخدم في مواد البناء والأثاث. واستخدموا روث الحيوانات لرفع خصوبة التربة. وأتقنوا معرفة أوقات الزرع وجنيه وأوقات نضج الثمار. وعرفوا الأنواع الأصيلة من الحيوانات فاهتموا بها مثل الأبقار البلدية والماعز الشامية [٢٠].

ثانيا: التصنيع الزراعي للإنتاج الحيواني الغذائي:

أ – **صناعة الطحين والخبز:** انتشرت زراعة الحبوب في غوطة دمشق والمرج منذ آلاف السنين، واعتمدت أسس العيش على الزراعة، حيث أثبتت الأدلة الأثرية المكتشفة حديثاً زراعة القمح والبقول (العدس والحمص)، في تل أسود في حوض دمشق منذ الألف الثامن ق. م [٢١]. والألف السابع ق. م. في تل الرماد، إذ ثبت وجود قشور لنوعين من الشعير والحنطة والعدس في أسفل تل الرماد.[٢٢]. كانت تزداد المساحات المزروعة بالحبوب كلما ابتعدنا عن مدينة دمشق (خارطة)[٢٣].

(خارطة ٤) النطاقات الزراعية في الغوطة للخضار والفواكه والحبوب.



كان إنتاج القمح المزروع في غوطة دمشق يسد حاجة جزء كبير من حاجة سكان غوطة دمشق ومدينة دمشق، وكانت تسد ما ينقصها من سهول حوران وحمص وحماه القريبة منها (٢٤).

اعتمد سكان حوض دمشق على الحبوب في غذائهم، إذ كانت تطحن الحبوب بأنواعها الشعير والذرة بخاصة القمح، والقمح هنا من النوع الممتاز، الذي يصنع منه الخبز والكعك على شكل أطواق كبيرة يمكن حفظها لفترة طويلة من الوقت (٢٥).

انتشرت مطاحن الحبوب بدمشق والمناطق المحيطة بها حيث توجد المساقط المائية في حوض نهر بردى. كانت بعض الطواحين توجد داخل سور مدينة دمشق (طاحونة اليسار وطاحونة الثقفيين وطاحونة القلعة)، وطاحونة السجن، إضافة إلى تسع طواحين خارج السور (طاحونة الرحا الإحدى عشرية وتقع خارج باب شرقي، والأشنان، والبرمكية، ابن أبي الحديد، الدباغة خارج باب توما، الزبيرية والسميرية، المنشر غرب القلعة، والنورية، والأشعرية (٢٦).

كان يدخل الطحين في تصنيع الحلويات والمعجنات، حيث كان أكل الحلويات بعد تناول الطعام مألوفاً (٢٧).

ت- صناعة المربيات والعصائر وتجفيف الخضار والثمار وحفظها:

تزرع في غوطة دمشق أنواع كثيرة من الأشجار المثمرة والخضار تعد بالعشرات لا مجال هنا لذكرها كلها، منها ما يؤكل طازجاً، وبعضها يمكن تجفيفه وحفظه لفترة خارج الموسم. من الثمار التي تدخل في الصناعات الزراعية الآتي:

العنب: اشتهرت غوطة دمشق بعنبها من حيث جودته وتنوع أصنافه، وكانت تتخصص بعض القرى والبلدات بزراعته مثل داريا بعنبها الزيني الأبيض والأحمر

الداراني والحلواني، كما تميزت دوما بعنبها الأحمر اللذيذ. ويذكر البدري خمسين صنفا من العنب الذي كان يزرع في غوطة دمشق وهذه الأصناف الآتي:

"البلدي، خناصري، عاصمي، زيني، بيتموني، قناديلي، إفرنجي، مكاحلي، بيض الحمام، حلواني، بوارشي، جبلي، قصيف، ابزاز الكلبة، قشلميش، كوتافي، عبيدي، جوزاني، دراقني، فخ العصفور، عرايشي، رومي، شبيهي، ينطاني، عصيري، رناطي، ورق الطير، سماقي، حرصي، مجزع، شعراوي، دربلي، قاري، علوي، عينوني، مورق، مشعر، مسمط، مرصص، محضر، مقوس، حمادي، تفاحي، رهباني، زردي، مبرد، مخصل، مغاربي، شحمة القرط.(٢٨)

كان جزء من العنب يؤكل ويصدر طازجا والجزء الآخر يتم تصنيعه إلى دبس أو زبيب أو نبيذ. وكان يشمل الدبس مادة محلية مثل السكر والعسل" (٢٩).

التين: اشتهرت غوطة دمشق بتينها الذي كان يزرع بكثرة. واشتهرت بزراعته كل من قرية المزة وبرزة، من أشهر أصنافه الملكي وموطنه الأصلي المزة ويليه الميسوني والسلطاني.(٣٠) واشتهرت قرية برزة بتينها ويعد أبو البقاء في كتابه نزهة الأنام ستة عشر صنفاً من أنواعه في الغوطة.(٣١) كان يستهلك طازجاً وما يزيد عن الحاجة أثناء المواسم يتم تجفيفه وتصديره إلى العراق ومصر والعالم الإسلامي(٣٢)

المشمش: إن شهرة غوطة دمشق بإنتاج المشمش وأنواعه غنية عن التعريف. ذكر البدري إحدى وعشرين صنفاً للمشمش في غوطة دمشق وهي: حموي، سندياني، أويسي، عربيني، خراساني، كافوري، بعلبكي، لقيس، لوزي، دغمشي، وزيري، كلابي، سلطاني، حازمي، أيدمري، سنيني، برديّ، مُلَوّح، قرط النجاتي، والشحمي جلاجل القلوع.(٣٣) ويعد الحموي أشهر وألذ الأصناف طعما وأغلاها ثمنا، ويؤكل طازجا ولا يصنع منه النقوع ولا قمر الدين، ويأتي البلدي في المرتبة الثانية وثماره كبيرة يؤكل طريا ويصنع منه النقوع. والشحمي قليل العصارة ويستخدم لصناعة

المربى، والكلابي ثماره صغيرة وغير لذيذة وبزرته مرة، ويخصص لصناعة قمر الدين. ويزرع المشمش في كافة أنحاء الغوطة. كانت سورية تحتل المرتبة الثالثة عالمياً بإنتاج المشمش بعد الولايات المتحدة الأمريكية وإيران منذ وقت ليس ببعيد. ويصنع من المشمش قمر الدين وتحديدا الكلابي، حيث يتم عصره وتجفيفه على دفوف من الخشب وبعد جفافه يصنع على شكل لفائف، وكان الفائض منه يصدر إلى البلدان المجاورة والبلدان العربية والإسلامية وغيرها. ويعد منقوعه من ألذ المرطبات في البلدان الحارة. وكان يعمل في صناعة قمر الدين آلاف العمال في شهر حزيران من كل عام.(٣٤) وكان المشمش يجفف بعد نزع بذرته ليستهلك في غير موسمه وبذلك يصبح سلعة قابلة للتصدير إلى أماكن بعيدة. ومن المعروف عن المشمش أنه سريع التلف لذلك لا بد من أكله طازجا خلال فترة قصيرة أو تصنيعه.

من الفواكه الأخرى التي كانت تزرع بكثرة في غوطة دمشق ويتم تجفيفها الرمان والخوخ والليمون(٣٥). بينما كان التفاح يحفظ طازجا بمادة حافظة هي العسل.(٣٦)

وكان يتم تجفيف بعض الخضار الصيفية أو تخليلها لاستهلاكها في غير مواسم نضجها منها الملوخية والبندورة والفاصولياء وغيرها ويتم التخليل بحفظ الخضار بالملح مثل الخيار والفليفلة واللفت وغيرها.

اشتهرت دمشق وغوطتها بصناعة المربيات منها مربى المشمش والسفرجل والخوخ والعنب والتين والنارنج والتفاح وغيرها.

كانت الحكومة العثمانية خلال الحروب تضع بعض المحفوظات والمربيات في دمشق من الثمار والبقول مجففات ومحضرات بطريقة لا تنقص من تغذيتها وتكون عند الاستعمال كأنها طرية حديثة ومقطوفة حديثا " بلغ عدد البقول المربية عشرة أنواع كان يتناولها الجندي في كل وقت كأنه على مقربة من الحدائق والمباقل والمقاتي"(٣٧)

صنعت الأشربة والعصائر من معظم الثمار التي كانت تزرع في غوطة دمشق. من الأشربة التي كانت تصنع ماء الزهر والورد وشراب قشر الليمون وقشر البرتقال " حيث كانت تجعل أرواحها في زجاجات وتكفي القطرة منها كأس ماء لتكون حلوة ذات نكهة تستعمل في الأشربة" (٣٨) وأصبح لدمشق وغوطتها شهرة واسعة في صناعة الحلويات والسكريات والمعجنات والمربيات فكانت من أهم صادرات دمشق.(٣٩)

ج- صناعة زيت الزيتون:

تعد منطقة البحر المتوسط المهد الأول لشجرة الزيتون والتي ما تزال بعض الأصناف البرية منها منتشرة في أرجاء عديدة من سورية. يزرع الزيتون في غوطة دمشق ويجود فيها وأهم مناطق زراعته دوما وبرزة والقابون ودير العصافير والمزة وكفرسوسة ويلدا وببيلا وحوش الريحانة وغيرها.(٤٠) والمصعبي التي تفردت به دمشق ويخصص بالدرجة الأولى للمائدة، والجلط وحبته كبيرة الحجم ويخصص للمائدة ويعد من أجود وأغلى الأصناف. تستخدم ثمار الزيتون للمائدة بعد حفظها بالماء والملح ومنها الأسود والأخضر.(٤١) كما يستخدم في صناعة الزيت ومتفق عليه عالميا أنه من أقدم وأفضل أنواع الزيوت في العالم.

انتشرت معاصر الزيتون في مناطق زراعة الزيتون في غوطة دمشق منذ فترة قديمة جداً، حيث شهدت مملكة دمشق الآرامية رقياً في بعض الصناعات منها معاصر لاستخراج الزيوت وصنع الخمور(٤٢)،كانت تدار بعض الطواحين بقوة الماء على المجاري المائية، وهي متعددة الاستخدامات، إذ كانت تستخدم لطحن الحبوب وصناعة الدبس وعصر الزيتون والسمسم لاستخراج الزيت ويشير ابن عساكر وابن العديم لوجود معصرتين في مدينة دمشق(٤٣)،ويروي أبو البقاء البدري بأنه توجد في كفرسوسة معصرة زيت وأشجار زيتون من زمن عيسى عليه السلام.(٤٤) لم يشكل

زيت الزيتون أهمية للاستهلاك المحلي فقط بل كان مادة لصناعة الصابون وله قيمة تصديرية مهمة.(٤٥)

ثالثاً: التصنيع الزراعي للمحاصيل الصناعية:

أ- صناعة المنسوجات:

اشتهرت بلاد الشام عموماً ودمشق خصوصاً بصناعة المنسوجات المصنعة من المحاصيل الزراعية الصناعية مثل الحرير والقطن التي كانت تزرع في غوطة دمشق والكتان الذي كان يستورد من مصر، وكان يزرع القنب في غوطة دمشق.

تمت زراعة أشجار التوت في غوطة دمشق، التي تعتمد تربية دودة القز على أوراقه فتعطي خام الحرير اللازم لصناعة المنسوجات.(٤٦) أدخل العباسيون زراعة التوت إلى بلاد الشام ومنها غوطة دمشق، كما أدخلوا صناعته بإحضارهم صناعاً من الصين قاموا بتربية دودة القز وغرسوا شجرة التوت وغزلوا ونسجوا الحرير. فاشتهرت بعض مدن الشام ومنها دمشق بصناعة الأقمشة والمنسوجات الحريرية، وكان حرير دمشق معروفاً ويقدر عاليا في أوروبا وأقمشة الدامسكو والبروكار ما تزال شهرتها إلى يومنا هذا.(٤٧) ذكر أبو البقاء البدري في كتابه نزهة الأنام صناعة النسيج والقماش في دمشق وصناعة الحرير بالفتل والدواليب والسرير. عني الحكام المسلمون منذ العصر الأموي بصناعة المنسوجات لدرجة أشادوا ديواناً خاصا بالطراز، يشرف عليه صاحب الطراز، الذي ينظر في أمور الصباغة والحياكة وأعمال التطريز، وهذا يعكس مدى الاهتمام بالجودة ويفسر شهرة المنسوجات الدمشقية عالميا في تلك الفترة.(٤٨)

دخلت زراعة القطن إلى غوطة دمشق لتوفر الظروف البيئية المناسبة لزراعته من حرارة ومياه بعد أن تم إدخاله إلى حوض البحر المتوسط، إذ تعد الهند موطنه الأصلي.

احتلت المنسوجات القطنية المرتبة الثانية بعد المنسوجات الحريرية من حيث السعر والجودة والمتانة. وأثبت الدمشقيون مقدرتهم الفنية بصناعة الأقمشة المطرزة والمزخرفة والملونة. وكانت غالبية القماش من النوع المشجر. وذكر أبو البقاء البدري بقوله: "من محاسن الشام، يصنع فيها من القماش والنسيج على تعدد نقوشه وضروبه ورسومه. ومنها القماش الأبيض القطني المصور لأحياء القصور وأموات القبور"[٤٩].
شكل الصوف مادة أولية لصناعة المنسوجات وكان الصوف واسع الانتشار ويوجد في دمشق سوق متخصص بتجارة الصوف. كانت تصنع منه المشدات التي توضع على الخصور، والعمائم. ومعظم الأهالي كانوا يغزلون الصوف في المنازل وتقوم النساء بنسجه. ودخل الصوف بصناعة السجاد والأسرة والستائر التي تزين الغرف وصناعة البسط وصناعة الخيم، وكان يخلط أحياناً مع الكتان والحرير.وانتشرت الصناعات النسيجية الكتانية، إذ كان الكتان يستورد من مصر، حيث ينمو بوفرة لتوفر الظروف البيئية له لأنه يحتاج إلى مناطق دافئة.[٥٠]
ومن الألياف النباتية التي كانت تزرع في الغوطة القنب، وبخاصة في سقبا والمحمدية وحمورية وغيرها، وكانت نوعية متميزة ومربحة، وتصنع منه الحبال والخيطان.[٥١]
كانت تصبغ الأنسجة بالصباغ الطبيعية المحلية التي يتم الحصول عليها من المحاصيل الزراعية مثل قشور الرمان وبزر المشمش الكلابي،[٥٢] والزعفران والسماق والنيلة وغيرها.
كانت تصدر المنسوجات من دمشق إلى العراق وبلاد فارس ومصر وغيرها، وتميزت بجودتها وارتفاع أسعارها.

ب- صناعة العطور وماء الورد:

عُرفت دمشق بوردها وجمالها، إذ قال عنها الخوارزمي "إنها من جنان الدنيا الأربع" ووصفت بأنها أحسن هذه الجنان، حيث أحدقت بها البساتين والأزاهير إحداق الهالة بالقمر. وقيل أن حكماء اليونان زرعوا هذه الرياحين والأزهار في حواكير على سفح

جبل قاسيون لحكمة، فإذا مر بها النسيم فإنه يحمل منها ما استطاع به إلى من تحتها من أهل المدينة والسكان.(٥٤) ومن محاسن الشام: الورد النسريني، والنسرين، والنرجس، والبنفسج، والياسمين، والمنثور، والسوسن، والزنبق، والبهار (وهو الأقحوان الأصفر)، والأقحوان، والأذريون، والبابونج، والآس، والريحان، والنمام، وشقائق النعمان، والنيلوفر، والبان، والآس، وتمر الحنّا، والحيلاني (شجر يشبه الصفصاف)، وشجر الزنزلخت، وشجر السرو. وجميع هذه المحاسن بالحواكير، غير أن الماء لا يصل إليها لعلوها عن نهر يزيد، ورفعوا الماء لها بالدواليب التي تديرها الحيوانات والنزاعي.(٥٥) واختصت دمشق بالروائح العطرية وماء الورد ونالت شهرة واسعة منذ العصور الإسلامية الأولى، إذ صنعوا العطور والطيوب ومستقطرات الزهور. وأشار شيخ الربوة إلى ذلك قائلا: إن العطر وغيره كان يستخرج من المزة في ضواحي دمشق من زهورها وورودها حتى أن حراقته تلقى على الطرقات وفي دروبها وأزقتها كالمزابل فلا يكون لرائحته نظير ويكون ألذ من المسك إلى مدة انقضاء الورد. ووصف كيفية إخراجه بالكركات والأنابيق. وكان يحمل الورد المستخرج بالمزة إلى شبه الجزيرة العربية والهند والسند والصين وإلى ما وراء ذلك ويسمى هناك الزهر.(٥٦)

ج- صناعة الورق:

أصبح الورق أهم مادة للكتابة في العالم الإسلامي إذ لم يكن المادة الوحيدة منذ القرنين التاسع والعاشر. تم تأسيس معامل لصناعة الورق في دمشق بعد تأسيس معمل لصنع الورق في بغداد وكانت المادة الأولية لصنع الورق متوفرة في دمشق وكذلك المياه، إذ وصف محمد كرد علي ورق الشام وطريقة صنعه وبين أهم مواده المصنوع منها مثل الخرق البالية أو الحرير والقطن.

وفي سنة ٧٠٦م استبدل الورق الدمشقي المصنوع من القطن بالحرير. ومدح أبو البقاء البدري ورق دمشق في كتابه نزهة الآنام بقوله: " وفيها تعمل صناعة القرطاس

بحسن مقالة ونقي أوصاله. ونظراً لتفوق وجودة ورق دمشق فقد راجت تجارته، إذ كان يصدر منه كميات كبيرة إلى مصر وأوروبا الشرقية" [٥٧].

رابعا- التصنيع الزراعي للإنتاج الحيواني:

اكتملت حلقة التكامل الزراعي الصناعي في غوطة دمشق بتربية الحيوانات وزراعة المحاصيل الزراعية الغذائية والصناعية والخضار والأشجار المثمرة والمحاصيل العلفية التي تشغّل عدداً كبيراً من الأيدي العاملة على مدار العام، وتحقق قيمة مضافة جراء تصنيعها وإمكان استهلاكها خارج مواسم إنتاجها وتمكين تصدير الفائض منها إلى المناطق المجاورة والبعيدة. فلولا تصنيعها لما كان بالإمكان تصديرها لمسافات بعيدة لسرعة تلفها وعدم وجود وسائل الحفظ والتبريد الحديثة في تلك الفترة.

تميزت غوطة دمشق بتربية الأبقار والماعز البلدية (تعرف بالشامية) ذات العرق الأصيل التي ليس لها مثيل في ثائر بلاد الشام وتدر الألبان الجيدة.[٥٨]

وتوفرت لها الأعلاف الجافة والخضراء المروية والظل. ولا تنجح تربيتها إلا في الغوطة أو الأماكن المشابهة لها.

يصنف البقر البلدي الثاني أو الثالث عالمياً بين عروق البقر من حيث وفرة ما يعطيه من الحليب، فبعض الأبقار إذا غذيت جيداً تعطي أكثر من ٢٠ لتراً من الحليب يومياً، وأكثر من ٥٠٠٠لتراً خلال السنة.[٥٩] أما الماعز البلدية (الشامية تتميز بحجمها) الكبير ولونها الأشقر ووفرة حليبها الذي قد يصل ٤-٥ كغ يومياً، ويدوم حليبها ٨-٩ أشهر في السنة، كما أنها تنجب توائم في معظم السنوات، وحالياً قل عددها كثيراً. وكانت تباع أو تهرب إلى منطقة الخليج العربي حيث وصل سعر العنزة الواحدة مئات الآلاف من الليرات السورية إذا لم يكن أكثر من ذلك. كان يتم تصريف المنتجات الحيوانية الفائضة من الحليب ومشتقاته واللحوم في مدينة دمشق لقربها والطلب عليها، وما يزيد عن حاجة السوق كان يصنع إلى جبنة وسمنة وقريشة وقشدة ولبنة. وتمت

الاستفادة من جلود الحيوانات في الصناعات الجلدية، ومن شعر الماعز كانت تصنع الحبال والخيام، وروث الحيوانات لتسميد تربة الغوطة.

نتيجة خصوبة التربة ووفرة المياه والمناخ المناسب والإنسان بما يملكه من خبرات زراعية متراكمة وإتباعه لأسلوب الزراعة الكثيفة والمختلطة تمكن سكان الغوطة من الاكتفاء الذاتي بما في ذلك تأمين حاجة سكان مدينة دمشق مع وجود فائض للتصدير وذلك قبل تضخم عدد سكانها نتيجة الهجرة إليها. لدرجة أنه من كان عنده أرض مساحتها أربعة أفدنة ويعمل فيها بنفسه فإنه يعيش مرفهاً. ويذكر محمد كرد علي في كتابه غوطة دمشق أنه لو كان عندهم الحديد والفحم الحجري لما احتاجوا إلى شيء في زراعاتهم وصناعاتهم.(٦٠) وقد وصف محمد كرد علي هذه الحالة بقوله: " يستخرج الغوطيون الزيت من زيتونهم، والدبس والنبيذ والجلاب من عنبهم، والعصير والنقوع (قمر الدين) من مشمشهم، والعطور من زهرهم ووردهم، والصابون من زيتهم، والأجبان والسمون والزبد والقشدة من ألبان بقرهم وماعزهم وغنمهم، والطحينة من سمسمهم، والنشاء من بُرّهم. ويعالجون استخراج ألياف القنب على أسلوبهم، ومنه يتخذون حبالهم وخيوطهم، ويحيكون من صوف حيواناتهم ثيابهم، ويتخذون من أخشابهم أدوات زراعتهم وصناديق فاكهتهم ومنجور بيوتهم، ووقودهم من حطبهم، وبناؤهم من ترابهم، وما برحوا يعلفون دوابهم بالقديم من طرائقهم، ويحرثون الأرض ويزرعونها ويسقونها على نحو ما اعتاد أباؤهم(٦١).

النتائج:

من خلال ما تقدم يمكن استنتاج الآتي:

١- توفرت في غوطة دمشق عوامل التطوروالتكامل الزراعي الصناعي وعلى رأسها وفرة المياه وخصوبة التربة والمناخ والخبرات الزراعية المتراكمة عند سكان الغوطة، إذ أثبتت المكتشفات الزراعية الحديثة ممارسة الزراعة فيها منذ ١٠ آلاف سنة مضت.

٢- تحقق التكامل الزراعي الصناعي لوجود موقع مدينة دمشق على أطراف غوطة دمشق، والغوطة تعطي لدمشق ما تحتاجه من المنتجات المختلفة وتأخذ منها ما تحتاجه من الصناعات، وكان يتم اللقاء يومياً بين سكان الغوطة وسكان دمشق في أسواقها. إضافة إلى ارتباط غوطة دمشق بطرقات في كل الاتجاهات مع المناطق والحضارات المجاورة لها.

٣- براعة سكان غوطة دمشق ومدينة دمشق بالهندسة المائية وتقسيمهم نهر بردى إلى ستة فروع ترتفع بمنسوبها عن المجرى الرئيس للنهر، لإرواء أكبر مساحة ممكنة من الغوطة. واستخراج المياه الجوفية عن طريق حفر الفجارات (القنوات الرومانية) في المناطق التي لم تصلها مياه نهري بردى والأعوج.

٤- تنوع المنتجات الزراعية النباتية، والحيوانية ووفرتها ساعد على تصنيع قائمة كبيرة من تلك المنتجات الفائضة عن حاجة السوق المحلية. وتحقيق قيمة مضافة ناتجة عن تصنيعها، واستهلاكها خارج مواسم إنتاجها وتصديرها. بدلاً من تلفها لصعوبة تخزينها في تلك الفترة.

٥- تميزت المنتجات الزراعية والحيوانية المصنعة والمجففة بكونها طبيعية وبخلوها من كل المنتجات الكيميائية التي تستعمل حالياً لحفظ الأغذية، إذ يؤكد علماء الصحة والتغذية للعودة إلى الطرق القديمة لخلوها من المواد الكيميائية الضارة الحافظة والملونة. وإمكان تصنيعها في المنازل.

٦- تميزت منتجات العطور وماء الورد، والورق، والمنسوجات المصنعة في دمشق بالشهرة الواسعة والجودة العالية، مما جعلها تتصدر قائمة الصادرات الصناعية الزراعية، وتحقق مردوداً عالياً.

٧- اشتهرت غوطة دمشق بالأبقار والماعز البلدية (الماعز الشامية) من حيث نوعيتها وإدرارها للحليب. و قلت أعداد الماعز بسبب تقلص مساحة الغوطة وتصديرها إلى دول الخليج العربي.

المقترحات:

١- وقف الزحف العمراني في غوطة دمشق للحفاظ على ما تبقى منها، وتخصيص أراضي للبناء في المناطق غير الصالحة للزراعة في أطراف وضواحي مدينة دمشق.

٢- تصفية وتنقية مياه المجاري لمدينة دمشق وضواحيها وبناء سد في وادي نهر بردى بالقرب من الهامة لإعادة ضخ المياه التي تم تنقيتها إليه لإعادة الحياة لنهر بردى وسقاية الأراضي والحدائق بهذه المياه.

٣- تنمية المحافظات السورية لوقف الهجرة إلى حوض دمشق وتشجيع الهجرة المعاكسة إلى تلك المحافظات لتخفيف الضغط السكاني والبيئي عن غوطة دمشق.

٤- تشجيع الأسر على إتباع الطرق القديمة في تصنيع وحفظ المنتجات الزراعية المختلفة لأنها صحية وخالية من المواد الحافظة الضارة.

٥- تشجيع المزارعين في غوطة دمشق على إعادة الاهتمام بالماعز الشامية وإكثارها وتوزيعها على المربين بأسعار مناسبة.

٦- إعادة الاعتبار لصناعة العطور الطبيعية من الأزهار والورود الدمشقية بعد التوسع بزراعتها.

المراجع حسب ورودها في البحث

١- عادل عبد السلام. **جغرافية سورية العامة**، دمشق، ١٩٩٠، ص ٩٣ – ٩٤.

٢- ياقوت الحموي. **معجم البلدان**، المجلد السادس، ط١، ١٩٠٦، ص ٣١٤.

٣- محمد كرد علي. **غوطة دمشق**، ط١، ١٩٤٩، ص١٤.

٤- صفوح خير. **غوطة دمشق دراسة في الجغرافية الزراعيـــة**، دمـــشق، وزارة الثقافة، ١٩٦٩، ص ١٥ – ٢٥.

٥- كريتشكوف. **جغرافية الزراعة للاتحاد السوفييتي السابق**، كراسنادار، ١٩٧٢، ص٦، (المرجع غير مترجم.

٦- جان سوفاجية. **دمشق الشام**، لمحة تاريخية منذ العصور القديمة حتـــى عهـــد الانتداب، ترجمة فؤاد البستاني، دمشق ١٩٨٩، ص١٧.

٧- صفوح خير. مرجع سابق، ص ٤٤ – ٤٦.

٨- صالح وهبي. **أصول الجغرافية الزراعية**، دمشق، ٢٠٠٠ م، ص ٦١ – ٦٢.

٩- ..Combier, C1933,OP,P329

١٠-ليندا شيلشر. **دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عـــشر**. ترجمـــة عمـــر الملاح ودنيا الملاح، ط١، ١٩٩٨. ص ١٧.

١١-محمد كرد علي. **خطط الشام**، ج٣، دمشق، مكتبة النوري، ط ٣، ١٩٨٣ م، ص ١٣٣.

١٢- صفوح خير. **مدينة دمشق**، دراسة في جغرافية المدن، وزارة الثقافة، ١٩٦٩، ص ٨٦ – ٨٧.

١٣- أحمد فرزت طرقجي. **دمشق وغوطتها في النصف الأول من الألف الثاني** ق. م. رسالة ماجستير، جامعة دمشق، ٢٠٠٥، ص ٢٤.

١٤ – المرجع السابق، ص٣٧.

١٥ – محمد كرد علي. **غوطة دمشق**، ط٣، دار الفكر، ١٩٨٤، ص٤٧.

١٦ – المرجع السابق، ص ١٦.

١٧ – المرجع السابق، ص ١٦ – ٢٠.

١٨ – المرجع السابق، ص ٨٩.

١٩ – أحمد الإيبش وقتيبة الشهابي. **دمشق الشام في نصوص الرحالين والجغرافيين والبلدانيين العرب والمسلمين**، ج٢،وزارة الثقافة، ١٩٩٨، ص٦٧٧ – ٦٧٨.

٢٠ – محمد كرد علي. مرجع سابق، ص ٤٨ –٤٩.

٢١– أحمد فرزت طرقجي. مرجع سابق، ص ٣١.

٢٢– فان تزايسن وبتمه. **استقصاء نباتات العصر الحجري القديم** (الباليولتيك) في تل الرماد ، تعريب على أبو عساف، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق، المجلد ١٦، ١٩٦٦، ص٦٧.

٢٣– صفوح خير. **غوطة دمشق**، ص ٣٨٣.

٢٤ – أحمد وصفي زكريا، **الريف السوري**، محافظة دمشق، ج٢، ١٩٥٧، ص ٧٧.

٢٥ – الفارس دارفيو. **وصف دمشق في القرن السابع عشر**، ترجمة أحمد الإيبش، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٩٨٢ م، ص ٢٣.

٢٦ – ابن عساكر. **تاريخ دمشق**، مجلد ٢، ج١، ص٢٥٥.

٢٧ – محمد أحمد زيود، **حالة بلاد الشام الاقتصادية**، مرجع سابق، ص ٢٧٧.

٢٨– محمد كرد علي، **خطط الشام**، مرجع سابق، ص١٥٥.

٢٩– محمد أحمد زيود، مرجع سابق،ص٢٠٨.

٣٠– أحمد وصفي زكريا، **الريف السوري**، ج٢،مرجع سابق ص٨٤.

٣١- محمد أحمد زيود. مرجع سابق ص٢٠٩.

٣٢- ابن حوقل. **صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص١٥٥.

٣٣- محمد كرد علي، **خطط الشام**، ج٣، مرجع سابق ص١٥٥.

٣٤- أحمد وصفي زكريا، **الريف السوري**،ج٢،ص٨٠-٨١.

٣٥- الفارس دارفيو، **وصف دمشق القرن السابع عشر**، مرجع سابق، ص٢٣.

٣٦- محمد أحمد زيود، مرجع سابق، ص٢٧٦.

٣٧- محمد كرد علي، **خطط الشام**، ج٣، مرجع سابق ص١٥٧-١٥٨.

٣٨- محمد كرد علي، **خطط الشام**، ج٣، مرجع سابق ص١٥٨.

٣٩- محمد أحمد زيود، مرجع سابق، ص٢٧٧.

٤٠- محمد كرد علي. **غوطة دمشق**، مرجع سابق ص٨٢.

٤١- أحمد وصفي زكريا. **الريف السوري**، محافظة دمشق، ج٢، مرجع سابق ص٨٢.

٤٢- صفوح خير. مدينة دمشق، مرجع سابق، ص١٣٦.

٤٣- محمد أحمد زيود. مرجع سابق ص٢٨٨.

٤٤- أحمد الإيبش وقتيبة الشهابي، **دمشق الشام**، ج٢، مرجع سابق ص٦٥٩.

٤٥- محمد أحمد زيود، مرجع سابق ص٢٠٤.

٤٦- محمد أحمد زيود، مرجع سابق، ص٢١٨.

٤٧- ماجد اللحام، **دمشق في نصف قرن**، دار الفكر، ١٩٩٠، ص١٨.

٤٨- أحمد الإيبش وقتيبة الشهابي، **دمشق الشام** ج٢، مرجع سابق ص٦٧٨-٦٧٩.

٤٩- محمد أحمد زيود، مرجع سابق ص٢٦٣.

٥٠- المرجع السابق ص٢٦٥.

٥١- أحمد وصفي زكريا، **الريف السوري**، ج٢، مرجع سابق ص٧٨-٧٩.

٥٢- ماجد اللحام. **دمشق في نصف** قرن، مرجع سابق ص٤٧.

٥٣- محمد أحمد زيود. مرجع سابق، ص٢٦٨.

٥٤- أحمد الإيبش وقتيبة الشهابي، مرجع سابق ص٦٥٨.

٥٥- المرجع السابق، ص٢٥٨.

٥٦- محمد كرد علي، **خطط الشام**، ج٣، مرجع سابق ص١٥٦-١٥٧.

٥٧- محمد أحمد زيود. مرجع سابق، ص٢٣٩-٢٤٢.

٥٨- محمد كرد علي، **غوطة دمشق**، مرجع سابق، ص٤٩.

٥٩- أحمد وصفي زكريا، **الريف السوري**، مرجع سابق ص٨٩.

٦٠- محمد كرد علي، **غوطة دمشق**، مرجع سابق، ص٢٥.

٦١- المرجع السابق ص٤٧.

الدراسات النظرية الجديدة
في عصر دولة المماليك البحرية
٦٤٨-٧٨٤ هـ = ١٢٥٠-١٣٨٢م

الدكتور عمار محمد النهار
قسم التاريخ
جامعة دمشق

ـ المقدمة:

أسس المماليك في منتصف القرن السابع الهجري = الثالث عشر الميلادي دولة مترامية الأطراف شملت مصر وبلاد الشام، وامتد حكمهم على مدى ثلاثة قرون تقريباً من الزمن، وأحرزوا باسم الإسلام انتصارات باهرة، وما زالت أسماء مواقع عين جالوت، ومرج الصفّر، والمنصورة، وفارسكور، وأنطاكية، وطرابلس، وعكا، حيَّة في التاريخ تشهد لهم بالبطولة والشجاعة والفداء .

ومارس العرب والمسلمون في عصر المماليك نشاطاً دينياً وعلمياً خصباً صحب انتقال الخلافة العباسية من بغداد إلى القاهرة، وظهر أثره في مصر وبلاد الشام، من

خلال إحياء شعائر الدين، وإقامة المنشآت الدينية والعلمية، واشتداد ظاهرة التصوف والزهد، والرغبة الجامحة في الإقبال على التعليم والتأليف والكتابة .

وتعد الدولة المملوكية من أغنى الدول بحكامها الأقوياء؛ أمثال بيبرس وقلاوون والناصر محمد الذين أسسوا دولة واسعة الأرجاء قضت على بقايا الصليبيين، وأوقفت الزحف المغولي على بلاد المسلمين، وخطب ودَّها ملوك أوربا وآسيا.

والعصر المملوكي هو العصر الذي أضحت فيه مصر وبلاد الشام مركزاً للتجارة العالمية والطريق الرئيس لتجارة الشرق، وبوابة العبور إلى أوربا، الأمر الذي يجعلنا نفسر، في ضوء ذلك، تلك الثروة الواسعة التي تمتع بها المماليك، وذلك الثراء الضخم وما نتج عنه من مظاهر البذخ والترف والسعة والأبهة (١).

والمؤسف أن ما وصلنا من تراث عظيم من العصر المملوكي ما زال مخطوطاً ومحفوظاً في مختلف أنحاء مكتبات العالم في الشرق والغرب. ومازلنا كل يوم وكل فينة نكتشف كنزاً جديداً من كنوز تراث ذلك العصر، لذلك لا يزال هذا التراث مجالاً خصباً للدراسة والتحقيق، وقد بدأت بوادر الاهتمام به بعد فترة طويلة من عدم الاكتراث وقلة التقدير والجفاء .

فلقد شهد عصر المماليك انتعاشاً فكرياً عظيماً يوازي في كثير من تفاصيله ما شهدته الحضارة العربية الإسلامية من نهضة في عصورها المختلفة، فالباحث في هذا المجال يجد بسهولة المئات من المؤلفات التي تتكلم عن المئات من العلماء الذين صبغوا العصر بفكرهم، وملؤوه بمؤلفاتهم التي احتوت على كثير من الإبداعات والإنجازات، التي ما زالت إلى يومنا هذا تملأ مكتبات العالم في الشرق والغرب.

ويشكل مضمون الواحد من هذه المؤلفات التي وصلتنا من العصر المملوكي موسوعة ضخمة تجمع التاريخ والجغرافية والعلوم النظرية والعلوم التطبيقية والتراجم ومختلف

الفنون والآداب، فلا نبالغ إن أطلقنا على الكثير من تلك الكتب تسمية: دائرة معارف[٢].

فيُعد العصر المملوكي من أغزر العصور العربية الإسلامية في حقل الكتابة، ومن أغناها في حقل التأليف، ولا زالت آثاره المادية ظاهرة إلى اليوم.

وإن من أعظم إيجابيات علماء ذلك العصر أنهم أعادوا وبزمن قياسي جمع ما خسرناه من التراث والفكرالعربي الإسلامي الذي تعرض للنهب والإحراق والإغراق والإتلاف على يد المغول، وتابعوا فوق ذلك مسيرة التأليف والإبداع، فكونوا نهضة كبرى توجت حلقات تطور الحضارة العربية الإسلامية.

والغريب، أن عصر المماليك هذا تعرض ـ على الرغم من كل ما ذكرنا ـ لظلم ما بعده ظلم، فوُصف بأوصاف بعيدة جداً عن واقعه، ومن ذلك أن المشتغلين باللغة والآداب العربية أطلقوا عبارة (عصر الانحطاط) على الحضارة العربية الإسلامية في عصر المماليك، وهم يعنون بذلك أن هذا العصر لم يكن عصر أصالة وإبداع في العلوم عامة، كما أنه لم يوجد فيه من المؤرخين والأطباء والفلكيين والمحدثين والفقهاء والفلاسفة والشعراء والأدباء من يضاهي أمثالهم من القرون الثلاثة الأولى وهي العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية.

ووُصف عصر المماليك أيضاً أنه عصر تقهقر فكري، وعصر اجترت فيه العلوم اجتراراً، وعصر خال من الإبداع بالكلية.

واتهم آخرون ذلك العصر بأنه عصر مختصرات وشروح، لا إبداع فيه ولا ابتكار، ولكن نقول: على الرغم من ظهور المختصرات والشروح بكثرة في ذلك العصر، إلاّ أنها ظهرت إلى جانب كثير من الأبحاث الجديدة؛ هذا أولاً، وثانياً كان لظهورها أسباب منطقية وواقعية وضرورية؛ ولعل أهم الأسباب الكامنة وراء ظهورها هي ظروف الحروب الصليبية (حروب الفرنجة) التي رافقت ذلك العصر وظلت آثارها

وقتاً طويلاً، فتوجه العلماء إلى المختصرات لاستدراك أكبر قدر من العلم الذي ضاع على يد التتار الذين استباحوا كل شيء، فظهر التعويض السريع لما فقد من التراث.

وتكمن النقطة الأهم في كل ذلك في مضامين هذه المختصرات أو الشروح؛ فأغلب الظن أن الناقدين قد اطلعوا على العناوين، فقرؤوا كلمة مختصر كذا أو كذا، ووقفوا عند ذلك، فلم يطلعوا على مضامين تلك المختصرات أو الشروح، لأن المطلع على موضوعاتها يجد أن المختصرات ليست إلاّ توضيحات مهمة فسرت ووضحت وقيدت وأجملت وفق ما حصل من تطور في العلوم، وفتحت مدارك العقل بما فيها من زيادات على الأصل وآراء جديدة، كالشروح التي وضحت وبينت ما استُغلق أو أُبهم أو أُشكل، لذلك كانت كثير من الشروح أفضل من الأصول وأغزر، حتى إنّ بعض الشروح تظهر كأنها كتاب مستقل بحاله وليست شرحاً لكتاب آخر، وزيد عليها أبواب وفروع، وعللت أحكامها، وشرحت ألفاظها.

وكان كثير من هذه المختصرات والشروح والمتون من الإيجاز وقوة التركيز بحيث احتاجت إلى شروح جديدة لها، فظهر شرح للشروح، ويظهر ذلك الأهمية المميزة للشرح المشروح، وليس كما قيل إنها كانت سلبية، وإذا كان كذلك، فليس إلا مراعاة لمستويات الطلاب، فظهرت المختصرات والشروح إلى جانب المطولات والأصول.

ثم إن المختصرات والشروح كلاهما تعلقا بجانب العلوم الدينية وعلوم اللغة العربية في أغلبها، ولم تطل بقية العلوم.

كما توجه الفقهاء والمحدثون والأدباء في عصر المماليك إلى التراث الإسلامي الأصيل والضخم فعلقوا عليه جمعاً وشرحاً وتعليقاً وإضافة، كما فعل ابن رجب وابن حجر في صحيح البخاري على سبيل المثال، وهذا العمل هو ضرورة من أهم الضرورات التي يحتاجها تراثنا الإسلامي.

ومن هذه الانطباعات السابقة؛ وصف بروكلمان الإنتاج العلمي في ذلك العصر بأنــه: «إنتاج يكاد يكون خلواً من الأصالة والإبداع بالكلية»(3).

وقول فيليب حتي عن عصر المماليك بأنه: « عصر تجميع وتقليد أكثر منــه عــصر توليد وإبداع »(4).

وإن هذا البحث هو محاولة تصحيح لهذه التــصورات والانطباعــات، مــن خــلال الإبداعات الجديدة في عصر المماليك فيما يتعلق بالعلوم النظرية، سواء فــي العلــوم الدينية أو علوم اللغة العربية أو فنون التاريخ وغير ذلك، والتي تدل على ظهور إبداع في ذلك العصر، وأنه لم يكن عصر انحطاط وتقليد وجمود.

أولاً – العلوم الدينية:

وهي كثيرة ومتنوعة، ومن خلالها أبدع العلماء الكتّاب مواضيع وأبــواب لــم تكــن معروفة قبل ذلك، في الدراسات الفقهية، وعلوم القرآن الكريم، وعلوم الحديث النبــوي الشريف، والتصوف، فساهموا بذلك في تقدم هذه العلوم وتطورها، وســايروا بــذلك أيضاً مستجدات ذلك العصر.

١ ــ الدراسات الفقهيه:

نشطت الدراسات الفقهية كثيراً في عصر المماليك، فكــان للفقهــاء نــشاطاً واســعاً وملحوظاً، فظهر المئات منهم، وظهر عدد كبير من المدارس الفقهية المتنوعة.

وظهرت في طوايا الدراسات الفقهية لعلماء العصر المملوكي أوليــات إبداعيــة لــم نعرفها قبل ذلك، وهذه أهمها:

أــ باب المقاصد:

برز في خدمة المذهب الشافعي عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن (ت ٦٦٠هــ = ١٢٦١م) الذي ولد في دمشق عام ٥٧٧هــ= ١١٨١م ونشأ فيها، ومارس

التدريس والإفتاء، وتولى خطابة جامع عمرو بن العاص، و إلى جانب علمه الكبير شارك في الجهاد وحرّض على ملاقاة التتار وقتال الصليبيين، وتوفي في القاهرة (5).

وقد برع في الفقه حتى إنه أبدع باباً جديداً فيه لم يسبقه إليه أحد؛ هو (باب المقاصد) من خلال كتابه «القواعد الكبرى» المعروف بـ (قواعد الأحكام في إصلاح الأنام)، حيث رجَّع الفقه كله إلى اعتبار المصالح ودرء المفاسد (6)، وقال في مقدمته: «والشريعة كلها نصائح، إما بدرء مفاسد أو بجلب مصالح»، وهكذا فقد أبان ما في بعض الأحكام من مفاسد حثاً على اجتنابها، وما في بعضها من مصالح حثاً على إتيانها(7).

وهذا الكتاب هو من أنفس ما كُتب في هذا الشأن، فقد أتى في مصنفه بما لم يُسبق إليه في فن القواعد والضوابط الشرعية، وأبدع فيه إبداعاً لم يُشْهدْ في مؤلف غيره من كتب القواعد، فقد تناول المقاصد الشريفة بنظر شمولي عميق، ونظام منسق عجيب، جعل الإمام العلائي يصفه في مقدمة كتابه (المجموع المذهب في قواعد المذهَب) بقوله: « كتاب القواعد الذي اخترعه شيخ الإسلام عزالدين بن عبدالسلام، هو الكتاب الذي لا نظير له في بابه ».

وهذا الإمام السيوطي يعد العز بن عبد السلام أول من فتح هذا الباب (أي نظرية المقاصد) في هذا الكتاب، ويضاف إلى ذلك أنه أتى فيه بنظريات فقهية رائعة، وأقام صرح تجديدات تشريعية نفيسة، لم تخطر ببال أحد ممن سبقه في هذا الميدان، ولا يتسع المقام لبيانها، وقد أفاد منها من جاء بعده من الأعلام.

وللعز سبق إبداعي ثان؛ فهو أول من ألقى دروس التفسير في مصر (8). مما يؤكد نبوغه وأفق طموحه منذ كان صغير السن.

ب ــ تصنيف المسائل الفقهية في أبوابها:

وتم هذا العمل الإبداعي على يد محمد بن بهادر بن عبد الله المصري الزركشي الشافعي (ت ٧٩٤هـ= ١٣٩١م) الذي وُلد عام ٧٤٥هـ= ١٣٤٤م، ودرس الفقه وتخرج به على يد عبد الرحيم بن علي الأسنوي، رحل في طلب العلم إلى دمشق وحلب.

من تصانيفه في الفقه «شرح جمع الجوامع» و«شرح المنهاج» و«البحر المحيط»(9)، وهذا الأخير وافق اسمه مسماه ولفظه معناه، فتألف من عدة مجلدات في أصول الفقه، أراد المؤلف فيها أن تكون موسوعة يجمع فيها أقوال علماء الأصول ممن عاصروه أو سبقوه في مدونة واحدة، حتى قيل:«جمع فيه جمعاً كثيراً لم يسبق إليه»(10)، وقال السيوطي كذلك عنها: «وبحره الذي هو في الأصول نهاية»(11).

والكتاب الذي يهم مقالتنا هنا، هو كتابه «خبايا الزوايا»(12) حيث رأى أن الكثير من المسائل الفقهية ذُكرت في غير أبوابها، فشمّر ساعد الجد وتتبع المسائل وأرجعها إلى أبوابها، ولم يُسمع أن أحداً أقبل على مثل هذا العمل قبله(13).

وقد ذكر الزركشي سبب تأليفه لهذا الكتاب في بدايته، فقال:

« فهذا الكتاب عجيب وضعه، وغريب جمعه، ذكرت فيه المسائل التي ذكرها الإمامان الجليلان أبو القاسم الرافعي في شرحه للوجيز (المهذب)، وأبو زكريا النووي في روضته (التنبيه)- تغمدهما الله برحمته - في غير مظنتها من الأبواب، فقد يعرض للفطن الكشف عن ذلك فلا يجد مذكوراً في مظنته، فيظن خلو الكتابين عن ذلك وهو مذكور في مواضع أخرى منها، فاعتنيت بتتبع ذلك، فرددت كل شكل إلى شكله، وكل فرع إلى أصله، رجاء الثواب والتسهيل على الطلاب»(14).

ج ـ أحكام أهل الذمة:

كان ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ= ١٣٥٠م) عارفاً بالتفسير والأصول، والحديث، والفقه وأصوله، والعربية، ومن مصنفاته الفقهية «رفع اليدين في الصلاة» و«حكم تارك الصلاة» و«حكم إغمام هلال رمضان» و«التحرير فيما يحل ويحرم من لباس الحرير» و«بيان الدليل على استغناء المسابقة عن التحليل» و«كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء» (15).

ومن أهم مصنفات ابن قيم الجوزية «أحكام أهل الذمة»، حيث لم يترك الفقهاء المسلمون شيئاً إلا وألّفوا فيه، ولم تغادر أقلامهم أبسط الموضوعات إلا وقد أغنوها بالبحث والتفصيل، ومنها ما كتبه هنا ابن قيم في الفقه المتعلق بتنظيم الجاليات غير الإسلامية في دار الإسلام، وإن كان الفقهاء قد كتبوا فيه قديماً، لكن ابن قيم تميز عن كل من سبقه بالدقة والعمق والشمول، فكان كتابه أول كتاب جامع في بابه، تناول فيه كل شاردة وواردة بموضوعات تفصيلية تكاد تكون كافية ووافية لمن يقرؤها.

اشتمل هذا الكتاب على مايلي:

الفصلان الأول والثاني: شرح ابن قيم فيهما موقف الإسلام من الذميين عند أداء شعائرهم الدينية، والاحتفال بأعيادهم ومناسباتهم، والتظاهر بأعرافهم وتقاليدهم.

الفصل الثالث: اشتمل على بحث فقهي لم يخل من السرد التاريخي والتحقيق الاجتماعي لأزياء الذميين ومقارنتها بأزياء المسلمين.

أما الفصل الرابع: ففيه عن علاقة الذميين بالمسلمين في المعاملات المالية والاقتصادية، فقد جاء شديد الإيجاز لأن ابن قيم كان قد أفاض فيه في الربع الثاني من أصل الكتاب في الفصل الذي عقده لأحكام معاملتهم وشركتهم .. .

أما الفصل الخامس: فقد عرض فيه ابن قيم لموضوع ربما بدا تافهاً ولكنه عده مهماً قائماً بنفسه، وهو تكليف الذميين بإكرام المسلمين بالضيافة ونحوها.

وفي الفصل السادس والأخير: شرح قانون العقوبات حين يقوم الذمي بما يستوجب إنزال عقوبة به تتفاوت بتفاوت الجرم الذي أحدثه، وبمدى تعلقه بعقد الأمان الذي منحه الإسلام إياه مقابل الجزية (16).

لقد تفرّد ابن قيم في هذا الكتاب بالدقة والشمولية والأسلوب الممتع والعلم الغزير والفائدة الجمة.

د ـ الفروع الفقهية منزلة على القواعد النحوية:

برز في الفقه الشافعي الفقيه عبد الرحيم بن الحسن بن علي بن عمر الأسنوي (ت ٧٧٢هـ= ١٣٧٠م) الذي قدَّم في هذا الفن «شرح ألفية ابن مالك» و«الكواكب الدرية في تنزيل الفروع الفقهية على القواعد النحوية»(17)، واسمه المعتمد هو «الكوكب الدري فيما يتخرج على الأصول النحوية من الفروع الفقهية».

يُبرز هذا الكتاب الدور الكبير لعلم العربية في الفروق بين المعاني من جهة الألفاظ، وهو أول كتاب يجمع بين دفتيه الفروع الفقهية مُنزّلة على القواعد النحوية.

وهذا الكتاب درس تطبيقي للتفاعل الحار بين علوم الشريعة بعامة، والفقه بخاصة، وبين علوم العربية، وفيه نموذج عن العلاقة بين الحضارة الإسلامية ووسائلها في التعبير عن ذاتها، فهو أول كتاب يجمع بين دفتيه مسائل فقهية مدارة على أسس نحوية، وقد بلغت هذه المسائل مائة و ثمان وخمسين مسألة موزعة على خمسة أبواب وسبعة وعشرين فصلاً، وقد سار المؤلف في مسائله على نهج لم يفارقه من أول كتابه حتى نهايته، فهو يذكر المسألة النحوية أولاً، ثم يتبعها المسألة الفقهية، ثم يستخلص بعد ذلك الحكم الفقهي المبني على مقتضيات القواعد النحوية.

وسبق هذا الكتاب محاولات جادة عديدة من علماء الأمة، غير أن هذه المحاولات لم يقدر لها أن تجتمع في كتاب خاص بها، فظلت متناثرة في ثنايا كتاب النحو والفروع الفقهية، حتى ارتضى الإمام الأسنوي لنفسه أن ينهض بهذه المهمة فيجمع مسائل الفقه مدارة على مسائل النحو في هذا الكتاب، وهو بهذا يكون قد سجل سبقاً علمياً جليلاً[18].

هـ ـ قضاة المذاهب:

كان الظاهر بيبرس من أكثر السلاطين المماليك الذين أظهروا للعلماء المكانة التي يستحقونها، وتدلل مواقفه المتعددة على ذلك، فأكثر لهم من بناء المؤسسات العلمية، وكان محباً للعلم وأهله، ويُقال إن عبد العزيز بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ = ١٢٦١م) لما حضر بيعة الظاهر بيبرس، قال له: «يا ركن الدين أنا أعرفك مملوك البندقدار»، فما بايعه حتى جاء من شهد له بالخروج من رقه، وبلغ من تقدير بيبرس له أنه شهد جنازته بنفسه(19)، ولما بلغه نبأ وفاته، قال: «لم يستقر ملكي إلا الساعة، لأنه لو أمر الناس فيَّ بما أراد لتبادروا إلى امتثال أمره»(20).

وكان الظاهر بيبرس قد استقبل العالم عز الدين بن شداد بعد ما وصله من حلب هارباً من طغيان التتار، وأحسن وفادته وشمله بالإنعام والإكرام، وردّ ابن شداد الجميل بأن ألف كتاباً مدح فيه بيبرس، وأثنى على إنجازاته(21)، وقد عُرف عن بيبرس أيضاً محبته للفقهاء خاصة(22).

وقد ارتبطت عناية بيبرس بالعلماء بعنايته بالمذاهب الفقهية والقضاة، إذ عُد أول من جعل القضاة أربعة، و لكل مذهب قاض، وحدث هذا سنة ٦٦٣ هـ = ١٢٦٤م، وذلك عندما سأل القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز الشافعي في أمر فامتنع من الدخول فيه، وقال له: « مُر نائبك الحنفي يستتيب من شاء من المذاهب الثلاثة، فامتنع من ذلك أيضاً، فولى كل مذهب قاضياً، وبهذه المناسبة قال الشاعر شرف الدين البوصيري:

غدا جامع ابن العاص كهف أئمةٍ فلله كهف للأئمة جامـــعُ

لقد ســرّنا أن القضـــاة ثلاثـــةٌ وأنك تاج الدين للقوم رابع (٢٣).

٢ــ علوم القرآن:

يقصد بعلوم القرآن كل علم يخدم القرآن الجليل أو يستند إليه، ويضمّ ذلك علم التفسير، وعلم القراءات، وعلم الرسم العثماني، وعلم إعجاز القرآن، وعلـم أسـباب النـزول، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم إعراب القرآن، وعلم غريب القرآن، وعلـوم الـدين، وعلوم اللغة، إلى غير ذلك، ومنهم من توسع في ذلك فجعل منها علم الهيئة والهندسة والطب، ومنهم من أوصلها إلى مئات العلوم(24).

وقد ظهر في العصر المملوكي عدد من كبار المفسرين وأفذاذ من علماء علوم القرآن الكريم، وتكاثر علماء هذا الفن في القرنين السابع والثامن الهجريين= الثالـث عـشر والرابع عشر الميلاديين، وحظيت هذه العلوم بمزيد من الاهتمام والعنايـة، وشـهدت نشاطاً باهراً ومتألقاً، فرأينا في ذلك العصر: القرطبي وابن منير وأبي حيان الغرناطي وابن قيم الجوزية، والزركشي، أولئك الذين عُدت مؤلفاتهم من المـصادر الأساسـية لعلوم القرآن الكريم في التاريخ الإسلامي، وحملت في طيّاتها دلائـل هامـة رفـدت مسيرة إغناء القرآن الكريم بالدراسات الجديدة الموفقة.

ومن هذه الإبداعات:

أ ــ أقسام القرآن الكريم:

أنتج ابن قيم الجوزية في علوم القرآن كتاباً هاماً وفريداً، تناول فيه بالدراسة الأقـسام التي هي بمعنى الحلف واليمين، وسمّاه «التبيان في أقسام القرآن» ففـصّل فـي ذلـك بأسلوبه العذب، وانفرد في تناول هذا الموضوع بين العلماء حتى ذلك الوقت، وهـذا أمر لم يسبقه إليه أحد ممن قبله، وهذا في حد ذاته يعطي الكتاب أهمية فريدة.

الكتاب من خيرة الكتب التي خطها قلم ابن قيم، وفاضت بها قريحته، فقد بذل في هـذا الكتاب غاية جهده وأقصى طاقته، إذ تكلم فيه عما ورد في القرآن الكريم من أقسام الله تعالى ببعض مخلوقاته في الأرض والسماء، فأبان الحكمة من ذلـك، وكـشف عـن المعاني الدقيقة والحقائق البديعة التي أراد الله عز وجل أن يطلعنا عليها، لنزداد إيماناً، وبمخلوقاته معرفة واطلاعاً(25).

ب ـ الاستثناء في القرآن الكريم:

وظهر في ذلك العصر الكثير من علماء اللغة العربية الذين صنفوا مؤلفات مهمة قيِّمة، ومنهم أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن القرافي (ت ٦٨٤هـ= ١٢٨٥م) الـذي ألـف كتاباً سمَّاه «الاستغناء في الاستثناء»؛ وهو أول دراسة في استثناءات القرآن الكـريم، وأول بحث مستقل في الاستثناء (26).

٣ ـ الحديث:

كثر المحدثون في عصر المماليك، فكان منهم المسند والمحدث والحافظ (27).

وكان لهؤلاء العلماء جهود في متابعة مسيرة خدمة الحديث النبوي الشريف بإسهاماتهم المباركة، ومنها:

ـ الأحاديث المشهورة:

أقبل الزركشي محمد بن بهادر على خدمة الحديث الشريف الذي اشتغل بـه وخدمـه بكتاب فريد هو: «اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة»، ويُسمى أيضاً «التـذكرة في الأحاديث المشتهرة»، وصدَّره بمقدمة ذكر فيها أن تبيين الأحاديث المشتهرة علـى ألسنة العوام وكثير من الفقهاء من الأمور المهمة جداً، ذلك لأن كثيراً منهـا مكـذوب مختلَقٌ لا أصل له، وبعد النظر في تاريخ التأليف في هذا الفن يتبـين لنـا أن كتـاب الزركشي المذكور، يعد الكتاب الأول الذي وصل إلينا في هذا الفن، وما سـبقه مـن بحوث ليست إلاّ نتفاً وإشارات عابرة في كتب لم يقصرها مؤلفوها على هذا الفن، وقد

بلغت خطوة الزركشي في كتابه هذا درجة متقدمة في الجودة عند الإمام السخاوي (ت ٩٠٢هـ= ١٤٩٦م) في كتابه «المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة».

وقسّم الزركشي الكتاب إلى الأبواب التالية:

الباب الأول: فيما اشتهر على ألسنة الناس من أحاديث الأحكام وأورد فيه ٣١ حديثاً.

٢- في الحكم والآداب: وأورد فيه ٦١ حديثاً.

٣- في الزهد: وأورد فيه ٣١ حديثاً.

٤- في الطب والمنافع: وأورد فيه ١٨ حديثاً.

٥- في الفضائل: وأورد فيه ٥٢٠ حديثاً.

٦- في الأدعية والأذكار: وأورد فيه ٣ أحاديث.

٧- في القصص والأخبار: وأورد فيه ١٤ حديثاً.

٨- في الفتن: وأورد فيه ٩أحاديث.

٩- في أمور منثورة: وأورد فيه ٧ أحاديث.

ويضاف إلى ذلك أحاديث أخرى يذكرها المصنف مع ترجمة هذه الأحاديث(28).

٤ــ التصوف:

انتشر التصوف في العصر المملوكي انتشاراً واسعاً، ولقي علماؤه تشجيعاً من السلاطين والأمراء (29).

وكان هناك أماكن لخلوة الصوفية، ينقطعون فيها للعبادة والتصوف، ويسكن فيها الزهاد، كالخوانق والربط والزوايا، ولكن هذه الأماكن لم تؤد هذا الدور فقط، بل رافقه تمثيل لدور المسجد ودور المدرسة، فأصبح بيت الصوفية مكاناً للعبادة وموضعاً لتدريس العلوم، وعُرفت هذه الأماكن بالخوانق والزوايا والربط.

وظهرت في عصر المماليك أشهر الطرق الصوفية عبر التاريخ؛ فتأسست في تلك الفترة الطريقة الأحمدية أو البدوية: وهي الطريقة التي ينتسب إليها أتباع السيد أحمد ابن علي بن إبراهيم الحسيني الشهير بالبدوي (ت: ٦٧٥هـ= ١٢٧٦م) الذي عاش في مدينة طنطا في دلتا مصر، وعظم شأنه في مصر، وانتسب إليه جمهور كبير؛ منهم السلطان الظاهر بيبرس، وظلوا يحتفلون بمولده ثلاث مرات في العام(٣٠).

و تأسست كذلك الأمر الطريقة الدسوقية: هي طريقة صوفية أنشأها الشيخ إبراهيم ابن أبي المجد بن قريش بن محمد (ت: ٦٧٦ هـ= ١٢٧٧م)، وهو من أهل دسوق بالوجه البحري بمصر، وتتفق هذه الطريقة في نظرياتها ومبادئها مع الطريقة الأحمدية البدوية (٣١).

كما وصلت إلى مصر الطريقة الشاذلية بوساطة أول شيوخها علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن يوسف بن هرمز الشاذلي المغربي (ت: ٦٥٦ هـ = ١٢٥٨م) الذي ولد في ريف المغرب، ثم سكن شاذلة قرب تونس فنُسب إليها، ثم رحل إلى بلاد المشرق، فحج ثم دخل العراق، ثم سكن الإسكندرية(٣٢).

كما وُجد في ذلك العصر جلال الدين الرومي (٦٧٢ هـ = ١٢٧٣م) أول شيوخ الطريقة الصوفية المولوية (الجلالية): وهو محمد بن محمد بن الحسين، ويلقب بالبلخي نسبةً إلى مسقط رأسه، وبالقونوي نسبة إلى الأرض التي سكنها (قونية)، والرومي نسبةً إلى بلاد الروم، وقونية كانت إحدى مدنها. رحل إلى نيسابور، وبغداد ومكة، ودمشق، وأذربيجان.

كان جلال الدين متقناً لعدة علوم، وكان شاعراً مجيداً ينظم بالفارسية والتركية والعربية.

انصرف عن الحياة العامة إلى التصوف، متأثراً باتصاله بالصوفي شمس الدين التبريزي، وعُرف أتباعه بالمولوية نسبة إلى كلمة (مولانا)، كما عُرفوا بالدراويش الراقصين لاستخدامهم الموسيقا التوقيعية في أذكارهم.

أشهر ما ألّف جلال الدين كتابه (المثنوي)، وهو ملحمة صوفية شعرية كبيرة تتكون من ٢٥،٧٠٠ بيتاً باللغة الفارسية، لها مقدمة باللغة العربية، كما تتضمن بعض أبيات باللغة العربية، وتشتمل على مجموعة من القصص والتأملات والحكم والمواعظ بإطار من الرموز والمبهمات التي يتميز بها الشعر الصوفي، وتقع في ستة أجزاء (٣٣).

ثانياً - علوم اللغة العربية:

شهد العصر المملوكي عناية فائقة بعلوم النحو والصرف، فقامت فيه نهضة حقيقية، وعاش فيه أربعة من عمالقة اللغة العربية عبر العصور الإسلامية، وسار على نهجهم بقية علماء العصر والعصور التالية.

وهؤلاء هم: ابن مالك (ت ٦٧٢هـ= ١٢٧٣م)، وعبد الله بن يوسف بن أحمد ابن هشام (ت ٧٦١هـ= ١٣٥٩م)، و عبد الله بن عبد الرحمن بن عقيل (ت ٧٦٩هـ= ١٣٦٧م) الملقب برئيس العلماء، ومحمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، أثير الدين الغرناطي (ت ٧٤٥هـ= ١٣٤٤م).

وكانت الإبداعات اللغوية الآتية:

١ ـ نائب الفاعل:

كان من علماء عصر المماليك النحويين محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك الطائي النحوي (ت ٦٧٢هـ= ١٢٧٣م) شيخ النحاة، الذي يعد من أشهر علماء العربية في تاريخ الإسلام، يقول عنه ابن شاكر الكتبي: «وأما اللغة فكان إليه المنتهى فيها ... وأما النحو والتصريف فكان فيهما بحراً لا يُشق لُجُّهُ»(34)، وقال عنه ابن حجر في

معرض حديثه عن أبي حيان الغرناطي: «وهو الذي جسر الناس على قراءة كتب ابن مالك، رغبَّهم فيها وشرح لهم غامضها ... وكان يقول: وأُلزم أحداً أن لا يقرأ إلا كتاب سيبويه أو في التسهيل لابن مالك»(35).

ترك ابن مالك للغة العربية وأبنائها تراثاً ضخماً وثروة طائلة من المؤلفات المفيدة التي اشتهرت عبر الأيام والعصور، وأقبل عليها وعلى دراستها العلماء والمتعلمون، ويأتي في مقدمتها كتاباه «ألفية ابن مالك» و«تسهيل الفوائد»، وهي أوفر الكتب حظاً وعناية من العلماء والمحققين، فقد ذكرت المراجع المختلفة أن الألفية شرحها أكثر من أربعين عالماً، كما تناولها بعض العلماء بالإعراب، وبعضهم بالاختصار، ووضع لها عدد منهم الحواشي، واتجه آخرون إلى تحويلها من نظم إلى كلام منثور، كما ذكرت هذه المراجع أن التسهيل قد شرحه أكثر من خمسة وعشرين عالماً، كما حوّله بعض العلماء إلى كلام منظوم(36).

ولقد تضمنت «ألفية ابن مالك» أبياتاً شعرية يشرح من خلالها ابن مالك قواعد النحو والصرف وأصولهما ومسائلهما، وقد بدأها بالأبيات التالية:

قال محمد هو ابن مالك ... أحمد ربي الله خير مالك

مصلياً على النبي المصطفى ... وآله المستكملين الشرفا

وأستعين الله في ألفيةْ ... مقاصد النحو بها محويةْ

تُقرِّب الأقصى بلفظ موجز ... وتبسط البذل بوعد منجز(37)

ومدح الإمام السيوطي الألفية بمدح من جنسها، فقال:

سقى الله رب العرش قبر ابن مالك ... سحائب غفران تغاديه هطلاً

فقد ضم شمل النحو من بعد شته وبيَّن أقوال النحاة وفصَّلا
بألفية تُسْمَى الخلاصة قد حوت خلاصة علم النحو والصرف

ومن خلال هذه الألفية عُد ابن مالك أول من استخدم عبارة «نائب الفاعل»، وكان قبله يسمى: المفعول الذي لم يُسم فاعله، فتابعه النحويون على ذلك إلى يومنا.

ففي فصل: النائب عن الفاعل، يقول ابن مالك:

ينوب مفعول به عن فاعل فيما له، كنيل خير نائل (39).

وفي ألفيته وشروحها تفاصيل هذه القاعدة.

٢ـ تصنيف النحو بمنهج جديد:

ونلتقي بعد ابن مالك بعبد الله بن يوسف بن أحمد بن هشام (ت ٧٦١هـ= ١٣٥٩م)، الذي ولد عام ٧٠٨هـ= ١٣٠٨م، وتعلم حتى أتقن اللغة العربية وظهر فيها إبداعه، وفاق الأقران، ولُقِّب بشيخ النحاة أيضاً، وقد قال فيه ابن خلدون: «وما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يُقال له ابن هشام أنحى من سيبويه»(40).

وصنَّف ابن هشام تصانيف كثيرة مفيدة ومشهورة، ويأتي في مقدمتها كتابه «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب»، فهو من بين كتبه خاصة أجلها قدراً وأبعدها أثراً، وبين كتب العربية عامة من أكثرها استيعاباً ونفعاً، ومن خلاله عُدَّ ابن هشام صاحب أول كتاب في النحو بمنهج جديد، حيث اختط فيه منهجاً لم يُسبق إليه، حيث قسَّمه إلى قسمين كبيرين؛ أفرد القسم الأول للحروف والأدوات، فوضَّح وظائفها وطرائق استعمالها مع عرض الآراء المتصلة بها، وتحدث في القسم الثاني عن أحكام

وخصائص متنوعة كأحكام الجار والمجرور،وخصائص الأبواب النحويـــة، وصـــور العبارات الغريبة(41).

٣- المعاجم:

تعددت المعاجم في عصر المماليك وتنوعت؛ وأول معجم أُلِّف في هذا العصر وضعه النحوي ابن مالك (ت ٦٧٢هـــ= ١٢٧٣م)، وسمَّاه «إكمال الإعلام بتثليث الكلام» في عدة مجلدات، ويعني التثليث مجموعة من ثلاث مفردات، مركبة من الحروف نفسها، وهذه الحروف تتفق في ترتيبها، وفي تعاقب الحركة والسكون عليها، والتثليث يكـــون بتحريك حرف أو حرفين بالفتح في المفردة الأولـــى، والحـــرف نفـسه أو الحـــرفين يحركان بالكسر في المفردة الثانية، وبالضم في المفردة الثالثة، مثل: (بثرَ، بثِر، بثُـــر، وينبَع، ينبِع، ينبُع)؛ فاحتوى معجم ابن مالك هذا على ما يزيد على (٢٣٠٠) كلمة من كلمات المثلث المتفق المعنى والمثلث المختلف المعنى، وهو عدد لم يجتمع في غيـــره من كتب المثلث(42).

ووضع الإمام يحيى النووي (ت ٦٧٦هـــ= ١٢٧٧م) الذي يعد في طليعة أعلام القرن السابع الهجري= الثالث عشر الميلادي (43)، معجماً جيداً ســـمَّاه «تهـــذيب الأســـماء واللغات»، وقدَّمه بقوله: «وأرتب الكتاب على قسمين، الأول في الأسماء والثاني فـــي اللغات، فأما الأسماء فضربان، الأول في الذكور والثاني في الإناث ... وأما اللغـــات فأرتبها أيضاً على حروف المعجم على حسب ما سبق مـــن مراعـــاة الحـــرف الأول والثاني وما بعدها»(44).

أما المؤرخ خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـــ= ١٣٦٢م)، الذي وُلد في صفد عام ٦٩٦هـــ= ١٢٩٦م، وتلقى العلم في دمشق والقاهرة، وباشر كتابـــة الإنـــشاء فيهمـــا، وكتبه في التراجم والتاريخ معروفة، يضاف إلى ذلك أنه أديب بليغ، وكتب في مجـــال البلاغة «الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه» و«جنان الجناس» و«فض الختام عن

التورية والاستخدام» (45)؛ فقد فرّغ كثيراً من وقته من أجل اللغة، وتوجه بشكل خاص باتجاه الاهتمام بمصنفات اللغوي الجوهري صاحب الصحاح، وصنف بخصوصه خمسة مصنفات: واحد لشواهده، وآخر لتلخيصه، وثالث لنقده، ورابع مختار من غوامضه.

وقدم وأبدع الصفدي عمل معجمي جديد، ذا موضوع جديد، سماه «غوامض الصحاح» وهو مختار على معجم الصحاح للجوهري، ولا يقدِّم فيه جديداً من حيث مادته، ولكنه يقدم جديداً من حيث دراسة تاريخ المعجمات، حيث اتبع فيه أسلوباً لم يسبقه إليه أحد، فكلمة الغموض هنا لا تتجه إلى ما يُسمى بغريب اللغة، وإنما تتجه إلى غموض الاشتقاق وصعوبة رد الكلمة إلى أصلها، ولذلك كان يذكر بعض تلك الغوامض ولا يذكر معناها، لأن معناها من الوضوح بحيث لا يخفى على أحد، ولكن الصعوبة تكمن في رد الكلمة إلى أصلها (46).

أما المعجم الشهير «لسان العرب» لابن منظور محمد بن مكرم بن علي (ت٧١١هـ= ١٣١١م) المولود في القاهرة عام ٦٣٠هـ= ١٢٣٢م، والعارف باللغة والتاريخ والكتابة (47)، فهو أول معجم متداول بين أيدي الخاصة والعامة من الناس حتى يومنا هذا، وهو في حد ذاته مكتبة علمية وأدبية، وقيل عنه إنَّه أعظم كتاب أُلف في مفردات اللغة العربية وهو أكبر معجم لغوي ظهر في الأزمنة الماضية، وهو في الوقت نفسه كتاب لغة ونحو وصرف وفقه وآداب وشرح للحديث الشريف وتفسير للقرآن الكريم(48).

وهناك معجم «تهذيب التهذيب» لمحمود بن محمد بن حامد الأرموي «ت ٧٢٣هـ= ١٣٢٣م) الصوفي المحدث، المولود في القاهرة عام ٦٤٧هـ= ١٢٤٩م، وتعلم فيها، وفي الإسكندرية والشام، وهو يوصف بأنه أفضل معجم أُلف بعد لسان العرب لابن منظور وتهذيب اللغة للأزهري (49).

وألَّف أحمد بن يوسف السمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ= ١٣٥٥م) معجماً لغوياً لألفاظ القرآن الكريم، سمَّاه «عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ» وقال في مقدمته: «ورتبت هذا الموضوع على حروف المعجم بترتيبها الموجودة عليه الآن، فأذكر الحرف الذي هو أول الكلمة مع ما بعده من حروف المعجم، إلى أن ينتهي ذلك الحرف مع ما بعده، و هلم جراً إلى أن تنتهي» (50).

وأخيراً نقف مع أحمد بن علي المقرئ الفيومي (ت بعد ٧٧٠هـ= ١٣٦٨م) العارف بالعربية والفقه الذي ألف معجمه «المصباح المنير في غريب الشرح الكبير» وخصصه للألفاظ الواردة في كتب الفقه (51).

٤ – الأدب:

أ ــ كتابة السر:

ازدهر فن الكتابة في ذلك العصر، وبلغ الكتَّاب منازل رفيعة لدى سلاطين المماليك قاربت منازل أصحاب السيوف وكبار القضاة، وقد كان رئيس الكتّاب منذ العصر الفاطمي وخلال فترة العصر الأيوبي صاحب ديوان الإنشاء، وكان بمنزلة الوزير، بل ربما ارتفع عن منزلة الوزارة إلى مرتبة نائب السلطان، واستحدث المماليك منصباً جديداً في الكتابة إلى جانب صاحب ديوان الإنشاء، وهو «كاتب السر» أو رئيس الديوان السلطاني، وتنافس في تولي هذا المنصب كبار كتَّاب الدولة(52).

ومن أشهر كتّاب العصر المملوكي؛ محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ = ١٢٩٢م)، والملقب بشيخ أهل الترسل، وهذه الموهبة هي التي أهلته ليتسلم رئاسة ديوان الإنشاء في عهود ثلاثة من سلاطين المماليك: الظاهر بيبرس، والملك المنصور قلاوون، والملك الأشرف خليل، وظهرت هذه الموهبة كثيراً في كتبه التاريخية، كما

ظهرت في أنواع الرسائل التي كان ينشئها في ديوان الإنشاء، ويذكر القلقشندي له كتاباً أدبياً سمَّاه «تمائم الحمائم»(53).

وما نريد أن نركز عليه هنا؛ أن ابن عبد الظاهر عُدّ أول من سُمي بكاتب السر في مصر(٥٤). وكتابة السر تعني: قراءة الكتب الواردة على السلطان، وكتابة أجوبتها، وأخذ خط السلطان عليها وتفسيرها، وتصريف المراسيم وروداً وصدوراً، والجلوس لقراءة القصص بدار العدل والتوقيع عليها(٥٥).

ب ـ وصف الشامة:

من كتب خليل بن أيبك الصفدي في الأدب «كشف الحال في وصف الخال»؛ وتناول فيه وصف الخال (الشامة) بإيراد الأدب والشعر، ولم يكتف بذلك بل تعداه إلى حال الخال في اللغة والفلسفة والطب وعلم الجمال ليكون كتاباً شاملاً للمعاني، وهو كتاب انفرد ببحث هذا الموضوع، فلم يسبقه إليه أحد (56).

وهذا الكتاب هو من غرائب الموضوعات ونوادرها، وهذا ما تميز به الصفدي، إذ ألّف في موضوعات نادرة كثيرة مثل «نكت الهيمان في نكت العميان»، وخصه بتراجم العميان، و«الشعور بالعُور» يترجم فيه للعُور، و«لذة السمع في وصف الدمع» و«رشف الزلال في وصف الهلال»[57].

ج ـ رثاء الأبناء:

من أدباء ذلك العصر أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن عبد الواحد المعروف بابن أبي حجلة (ت ٧٧٦هـ = ١٣٧٤م)، الذي وُلد في تلمسان عام ٧٢٥هـ = ١٣٢٤م، ثم قدم دمشق، ثم نزل القاهرة، وعُرف بمهارته في الأدب نظماً ونثراً، ومن مقاماته ومجاميعه «حاطب ليل» و«سكردان السلطان»(58).

ولابن أبي حجلة كتاب قيِّم سمَّاه «سلوة الحزين في موت البنين»، ويدور حول رثاء الأبناء أدباً وشعراً، وعُدَّ أقدم كتاب وصلنا في هذا الموضوع، واعتمدت جميع الكتب التي أُلفت بعده عليه اعتماداً واضحاً.

وهو أقدم نص ينشر في موضوعه، كانت غاية المؤلف من هذا الكتاب تسلية النفس الإنسانية عن مصائب الدنيا وبلاياها، والارتفاع بها من عالم اليأس والحزن إلى جو رحيب من الرضى والاطمئنان، وبخاصة عند فقد الأولاد ، ومن هنا دارت مادة الكتاب حول هذه الغاية، فحشد المؤلف كل ما يؤدي إليها من آية قرآنية وحديث شريف، وأدب ونثر وشعر، وحكاية، وقول مأثور، وقصة، وكل ما يمكن أن يبلسم جراح المحزونين، ويجد من يقرأ هذا الكتاب أن المؤلف قد قدم كتاباً جامعاً في الموضوع الإنساني المتجدد تجدد الأيام والسنين(59).

د ــ في البديع:

من علماء البديع في عصر المماليك؛ سليمان بن بنيمان بن أبي الجيش، أمين الدين الإربلي (٠٠٠- ٦٧٠هـ- ... -١٢٧١م)، الذي كان شاعراً وصاحب نوادر ومزاح، وعمل صائغاً كمهنة أبيه (٦٠).

ومن إبداعاته العديدة أنه عُدّ أول من وضع قصيدة جمع فيها أنواع البديع، خصّ كل بيت منها بنوع منه، وسأذكر هذه القصيدة كاملة مع بيان كل نوع من أنواع البديع في كل بيت منها؛ وهي قوله:

بعض هذا الدلال والإدلالِ   حالي الهجرُ والتجنبُ حالي

(الجناس اللفظي)

حرتُ إذ حزنتَ ربع قلبي وإدلا   لي صبراً أكثرت من إذلالي

(الجناس الخطي)

رقَّ يا قاسي الفؤاد لأجفا   نٍ قصارٍ أسرى ليالٍ طوال

(الطباق)

شارحات بدمعها مجمع البحـــ ـــرين في حب مجمع الأمثال

(الاستعارة)

نفت النوم في هواك قصاصاً حيث أدنى منها خداع الخيال

(المقابلة)

أنا بين الرجاء والخوف في أحـــ ياء ما بين صحة واعتدال

(التفسير)

لست أنفك في هواك ملُوماً في مُعاد يسومنـــي ومُوال

(التقسيم)

عمري ينقضي وأيامي الأيـــ ـــامُ بالهجر والليالي الليالـــي

(الإشارة)

ليس ذنبي سوى مخالفة اللا حين فيه واخيبـــةَ العُذَّالِ

(الإرداف)

سالباً بزتي وما هي إلا الـــ ـــعمر رفقاً بهـــذه الأسمال

(المماثلة)

طلبٌ دونه منال الثريا وهوىً دونه زوال الجبـــال

(الغلو)

وغرامٌ أقله يُذهل الآ سادَ في خيْسها عن الأشبال

(المبالغة)

أنا أخفي هواك صوناً وإن بتـــ ـــت طعين القنا جريح النبال

(الكناية والتعريض)

فشمالي لم تستعن بيميني ويميني لم تستعن بشمالي

(العكس)

لذّ طول المطال منك ولولا الـــ ـــحب ما لذّ منك طول المطال

(التذييل)

خنت عهدي فدام وجدي فهل نكـــ ـــكبت صدّي يوماً بطيب الوصال

(الترصيع)

لك ألحاظ مقلتين شباها كالحسام الهندي غب الصقال

(الإيغال)

كملت وصفها بمدح علي في علي ربِّ الحجا والكمال

(التوشيح)

ما جد بعض فضله بذله الما ل وقل الـــذي يجـــود بمال

(رد العجز على الصدر)

يفعل المكرمات طبعاً فإن جُوِّ د أفنى رغائـــب الأمـــوال

(التتميم والتكميل)

طال شكري نداه حتى لقد أفـــ ـــحم فضل لازال ذا أفضال

(الالتفات)

هو ما لم يزل وذلك أبقى عصمة المُرملين ذي الأطفال

(الاعتراض)

ذو وداد للأصفياء بعيد عن زوال وهل به من زوال

(الرجوع)

أفتِرْبُ الأنواء تخصب منه الـــ أرض أم سيب جوده الهطال

(تجاهل العارف)

جاد حتى للمكتفين فأثروا فنـــداه كالمال فـــي سيمال

(الاستطراد)

جامع العلم والفصاحة والحلـــ ـــم وحسن الأخلاق والأفعال

(جمع المؤتلف والمختلف)

لايُعد الفعلَ الجميل لدنيا ه ولكــن يُعــده للمــآل

(السلب والإيجاب)

ليس فيه عيب يعدده الحســـ ـــاد إلا العطاء قبل السؤال

(الاستثناء)

عالم أن من يعيش كمن زا ل وإن دام الــورى في زوال

(المذهب الكلامي)

يجتلى وجهه الكريم من الحبـــ ـــب ويغضى عنه من الإجلال

(التشطير)

أيها الصاحب الذي نلت منه ما أُرجّى فاليــوم حالي حـــال

(المحاورة)

عاين النّاظمون شعري ولا يذ هب فضل الفتى بلبس النضال

(الاستشهاد والاحتجاج)

هي آل للمــدح في مجــدك السا مــي وغيــرها لمــع آل

(التعطف)

آب يوم الهناء بالخير في ربـــ ـــعك يحكى نوالك المتوالي

(المضاعف)

فلك المدح دائماً ولشانيــ ـــك القطوعان منصلي ونصالي

(التطريز)

أعجز الواصفين فضلُك فاجعل شين شكري فيــه كشين بلال

(التلطف) (٦١).

هـ ـ خيال الظل:

خيال الظل: اسم يطلق على التمثيلية التي تستخدم الظلال في إبراز مشاهدها، وذلك باستخدام ستار من النسيج الأبيض، يوضع خلفه مصدر ضوئي، ويرفع اللاعب مجموعة من الدمى المصنوعة من الجلد أو الورق المقوى على هيئة أبطال التمثيلية، ويحركها بأصابعه المعقودة بخيوط رفيعة، فتنعكس ظلال هذه الدمى على الستار أمام المشاهدين.

وخيال الظل من ألوان التسلية، وتعد الصين المهد الأول لهذا الفن، ثم اتخذ طريقه إلى الشرق، وتدل الدلائل على أن مصر كانت أولى بلاد الشرق التي اقتبسته، ومنها عرف طريقه إلى تركية باسم (قراقوز)، ثم عرضته بلاد البلقان، ثم انتشر غرباً حتى شمال افريقية(٦٢).

أبدع هذا الفن في مصر محمد بن دانيال بن يوسف الخزاعي الموصلي، أصله من الموصل، نشأ وتوفي في القاهرة، يقول عنه الصفدي المؤرخ والأديب: « صاحب النظم الحلو والنثر العذب، والطباع الداخلة، والنكت الغريبة والنوادر العجيبة ».

وعُدّ من خلال كتابه: « طيف الخيال في معرفة خيال الظل » أول من كتب بالفصحى روايات « قراقوز »، وأول من ابتكر مسرح خيال الظل في مصر، وهو كتاب ذو رواية هزلية فيها كثير من المجون والفحش في الألفاظ.

أما في بلاد الشام؛ فإن ابن سودون(٨٦٨ هـ = ١٤٦٣م) هو أول من أحدث خيال الظل في دمشق، وهو علي بن سودون الجركسي البشبغاوي، أو اليشبغاوي القاهري الدمشقي، ولد وتعلم في القاهرة، ورحل إلى دمشق وتوفي فيها (63).

رابعاً – التراجم:

يقول المستشرق جيب: «يتركز الإنتاج الأكبر في عصر المماليك في مجال التأريخ ... إلا أن سورية ومصر تفردتا بسلسلة متتالية من علماء التاريخ المخلصين في

القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين = الثامن والتاسع الهجريين، حتى إنّ مجرد ذكر أسمائهم وأهم أعمالهم سيأخذ من وقتنا الكثير» (64).

فلقد كثرت المؤلفات في فن التاريخ في عصر المماليك، وفي فن التراجم خاصة أكثر من غيره، وبات ذلك سمة مميزة لعصر المماليك لاشتهار عدد من كتبه اشتهاراً خاصاً، وهي من المراجع المتداولة حتى يومنا هذا، ومنها على سبيل التمثيل فقط: كتاب أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان (ت ٦٨١هـ = ١٢٨٢م)، «وفيات الأعيان» الذي ترجم فيه لمشاهير أعيان علماء العصور الإسلامية(65). وكتاب أبي شامة المقدسي «الذيل على الروضتين» في تراجم القرنين السادس والسابع الهجريين = الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين (66). وألّف الطبيب أحمد بن القاسم بن خليفة الحكيم المعروف بابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ = ١٢٦٩م) كتاباً في تراجم الأطباء عبر العصور مع ذكر منجزاتهم، وسمّاه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»(67). ووضع الحافظ محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ = ١٣٤٨م) كتابه «تذكرة الحفاظ» في عدة مجلدات في تراجم رجال الحديث النبوي أو ما يسمى بطبقات الحفاظ (68).

ومن أشهر من كتب في تراجم الأعلام خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ = ١٣٦٢م) صاحب «الوافي بالوفيات»، وهو من أوفى كتب التراجم وأوسعها في المكتبة العربية الإسلامية، وهو في ثلاثين مجلداً تقريباً، ترجم فيه «للخلفاء الراشدين وأعيان الصحابة والتابعين، والملوك والأمراء، والقضاة والعمال والوزراء، والقرّاء والمحدثين والفقهاء، والمشايخ والصلحاء وأرباب العرفان والأولياء، والنحاة والأدباء والكتّاب والشعراء، والأطباء والحكماء والألبّاء والعقلاء، وأصحاب النحل والبدع والآراء، وأعيان كل فن اشتهر ممن أتقنه من الفضلاء من كل نجيب مجيد، ولبيب مفيد»(69).

ولا يقل كتابه الآخر «أعيان العصر وأعوان النصر» أهمية عن الوافي، وترجم فيه للأعلام الذين أدركهم أو لقيهم في حياته أو أخذ عنهم، أو كانوا في زمنه في جميع

أنحاء الخلافة الإسلامية، وهذا يعني أنه تناول سير الأعيان منذ عام ٦٩٦هـ = ١٢٩٦م، ولم يقتصر حديثه على الشعراء والأدباء والعلماء، بل تناول كل من كان له شأن، ولذلك نراه يترجم للسلاطين والأمراء على جميع مستوياتهم، ولقادة الجند ولخدم المساجد ودور العلم والقضاة، فضم هذا الكتاب أكثر من ألفي ترجمة بقليل(70).

وعاصر الصفدي محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن الكتبي (ت ٧٦٤هـ= ١٣٦٢م) و ذكر المؤرخون أنه جمع تاريخاً، والمقصود به كتابه «فوات الوفيات» والذي يذكر في مقدمته أنه جمعه ورتبه بعد أن أطلع على كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان، فوجد فيه نقصاً في تراجم بعض الفضلاء، فأضاف تراجم عديدة، وجعله في أربعة مجلدات(71).

وظهر في عصر المماليك مواضيع في فن التراجم جديدة لم تظهر قبل ذلك العصر، ومنها:

١ـ تراجم العميان:

أبدع خليل بن أيبك الصفدي كتاباً جديداً في موضوعه لم يسبقه إليه أحد عندما ترجم لمشاهير علماء الأمة العميان في كتاب خاص بذلك فقط سمَّاه «نكت الهميان في نكت العميان» وقال في أوله: «فأنا أذكر كل من وقع لي ذكره وهو أعمى، سواء وُلد أعمى أو طرأ عليه العمى بمرض أو غيره، فأسردهم على حروف المعجم ليسهل كشفه».

يقول محقق الكتاب أحمد زكي بك: « ولو لم يكن لهذا الكتاب من مزية أخرى سوى إرشادنا إلى أن العرب كانوا السابقين في اختراع الكتابة البارزة الخاصة بالعميان، لكفاه فضلاً وفخراً، وذلك أن أحد أفاضل العميان وهو برايل (Braille) خلّد اسمه، وشرّف قومه الفرنسيين باستنباط الأسلوب المنسوب إليه لتعليم العميان القراءة والكتابة، ولكن السابق السابق في هذا الميدان هو أحد أعلام الشرق علي بن أحمد زين

الدين أبو الحسن الحنبلي الآمدي، فهذا الشرقي العربي هو الذي يرجع له دون سـواه الفضل كل الفضل في اختراع الكتابة الخاصة بالعميان »(72) .

وهذا لا يعني انعدام المحاولات قبل الصفدي للتأليف في هذا المضمار، وإنما السبق يعود له بتخصيصه كتاباً بأكمله وبخصوصية عن العميان، فللجاحظ كتاب تخصص فيه في الحديث عن البرصان والعرجان والعميان والحولان (73).

٢ ـ تراجم علماء صعيد مصر:

قدّم جعفر بن ثعلب بن جعفر بن علي الأدفوي (ت ٧٤٨هـ = ١٣٤٧م) مؤرخ الصعيد الأول في فن التراجم كتابين، يعد الأول منهما من أهم كتب التراجم التخصصية حيث جمع فيه أخبار علماء صعيد مصر في عصره في مختلف مناطقه، ولم يترجم للأحياء منهم إلا لحاجة أو غرض خاص، وسمّاه «الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد»، وبلغت فيه التراجم (٥٩٤) ترجمة. وكان سبب تأليف هذا الكتاب طلب من شيخه أبو حيان الغرناطي، عندما حثّ الأدفوي أن يؤلف كتاباً يتحدث فيه عن علماء الصعيد المبرزين، ويدل ذلك على المكانة العلمية والأدبية التي احتلها الصعيد آنذاك؛ ولبى الأدفوي طلب شيخه وألف كتابه «الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد»(74).

٣ـ طبقات الحنفية:

وضع الفقيه عبد الوهاب بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي كتاب «طبقات الشافعية الكبرى» وترجم فيه لعلماء الشافعية حتى عصره(75).

وصنّف على شاكلته عبد الرحيم بن الحسن بن علي بن عمر الأسنوي (ت ٧٧٢هـ = ١٣٧٠م) المتقدم في علم الفقه أيضاً كتابه «طبقات الشافعية» ترجم فيه لمشاهير الشافعية في عدد من العصور(76).

واقتداء بعبد الوهاب السبكي وعبد الرحيم الأسنوي كان عمل إبراهيم بن علي ابن محمد بن فرحون اليعمري المالكي المدني (ت ٧٩٩هـ = ١٣٩٦م) المولود في المدينة المنورة، وقاضيها، وذلك حين وضع كتاباً لخدمة مذهبه المالكي سمّاه «الديباج المذهّب في معرفة أعيان علماء المذهب»(77).

واقتداء بعبد الوهاب السبكي وعبد الرحيم الأسنوي واليعمري الذين ترجم كل واحد منهما لعلماء مذهبه في كتاب تخصصي مفرد؛ توجه الفقيه الحنفي عبد القادر ابن محمد القرشي (ت ٧٧٥هـ = ١٣٧٣م) نحو خدمة مذهبه، فصنف أول كتاب في طبقات الحنفية على الإطلاق، وسمّاه «الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية» في عدة مجلدات، قال في مقدمته: «وأرباب المذاهب المتنوعة كلٌّ منهم أفرد أصحاب إمام مذهبه، ولم أر أحداً جمع طبقات أصحابنا، وهم أمم لا يحصون»، ورتبه على حروف المعجم مبتدئاً بترجمة أبي حنيفة النعمان مؤسس المذهب(78).

٤ـ التراجم العامة:

كتب في ذلك القاسم بن محمد علم الدين البرزالي (٧٣٩ هـ=١٣٣٩م)، الذي وُلد بدمشق و سمع من عشرات المشايخ، ورحل إلى بلدان عديدة كحلب وبعلبك ومصر، وحدّث وأفتى وألف كتاباً في التاريخ تابع فيه تاريخ أبي شامة، في ثمانية مجلدات، بلغ فيه إلى سنة ٧٣٨ هـ.

وعُد أول مؤرخ كتب في التراجم العامة على العصور، وذلك في كتابه « مختصر المائة السابعة »(٧٩).

٥ - السيرة النبوية:

توزعت كتب السير في اتجاهين، في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي السير الشخصية، فكثرت المؤلفات في كلا الاتجاهين، وظهرت كتب كثيرة في ذلك لا

مجال لذكرها هنا، ولكن الشيء الجديد في هذا المضمار؛ هو ما قدَّمه عبد الله بن علي ابن أحمد بن عبد الرحمن بن حديدة المصري (ت بعد عام ٧٧٩هـ = ١٣٧٧م)، إذ قدّم كتاباً جديداً في اختصاصه لم يسبقه إليه أحد فيما علمت، خصصه للحديث عن كتب الرسول صلى الله عليه وسلم ورسائله إلى ملوك الأرض العرب والعجم، سمَّاه «المصباح المضيء في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من العرب والعجم»(80).

٦ ـ الترجمة:

كان للعلاقات الواسعة للدولة مع مختلف شعوب العالم المعاصر لها ودولها أثره الواضح فقد تطلب ذلك إتقان لغات هذه الدول للقيام بالعملية الدبلوماسية من مراسلات واستلامات، وتدل المعاهدات الرسمية والمراسلات والاتفاقيات الكثيرة على ذلك؛ فقد أبرم المنصور قلاوون معاهدة رسمية مع الدولة البيزنطية عام ٦٨٠هـ = ١٢٨١م، ووصل كتاب الإمبراطور البيزنطي مدوناً باللغة الإغريقية، وترجم إلى العربية في الديوان المملوكي، وأعدّ السلطان المنصور قلاوون صيغة للرد على هذا الكتاب، فنتج عن ذلك علاقات دبلوماسية تخدم طموحات سياسية وعسكرية واقتصادية تعود بالمنفعة المشتركة على كلتا الدولتين(81)، والمعاهدات والمراسلات من هذا القبيل كانت كثيرة بين دولة المماليك وبين دول آسيا وإفريقيا وأوربة.

وكان يقوم بمهمة الترجمة من كان يُسمى بترجمان الدولة، وممن تولى هذه المهمة شيرزاد بن ممدود بن شيرزاد بن علي الرومي (ت ٧٠٧هـ = ١٣٠٧م) حيث عين ترجماناً للدولة للكتب التي ترد من بلاد العجم في سلطنة قطر، كان أبوه من بعلبك ثم تحول إلى دمشق ثم إلى بلاد الروم فأقام فيها نحو عشر سنين، ثم توجه إلى مصر وتوفي فيها(82).

ونجد الجديد في موضوع الترجمة في عصر المماليك في الجانب الآخر، الجانب الغربي، إذ نعثر على عدة نقولات وترجمات تدل على التأثر باللغة العربية، فقد اقتبس لويس التاسع (ت: ٦٦٩هـ = ١٢٧٠م) قائد الحملتين الصليبيتين السابعة والثامنة مصطلح (أميرال ــ أدميرال) من العربية، وهو لقب لقائد الأسطول البحري(83).

وعُدّ يوهانسن دي كبوا (ت: بعد ٦٧٧ هـ = ١٢٧٨م) ــ وهو يهودي متنصر من المستشرقين الأوائل ــ أول من ترجم كتاب كليلة ودمنة إلى اللاتينية، وهو أول كتاب من الحكايات والقصص العربية ترجم إلى اللغات الأوربية، فنقل إلى الإسبانية عام ٦٤٩هـ = ١٢٥١م، ثم إلى اللاتينية عن ترجمة عبرية، وترجمة يوهانسن هذا نقلها بعنوان «المرشد إلى الحياة الإنسانية»، ثم انتشرت في أوربة انتشاراً واسعاً، والكتاب في الأصل ألفه بالسنسكريتية الفيلسوف الهندي (البراهمي بيديا) بهدف تهذيب النفس وإصلاح الأخلاق والإرشاد إلى حسن السياسة، وجعله على ألسنة الحيوانات ليتسلى به عامة الناس، ثم نقل إلى الفارسية، ثم جاء عبد الله بن المقفع فنقله إلى العربية، ولم يلبث الأصلان الهندي والفارسي أن ضاعا، وبقيت النسخة العربية، ومنها انتقلت إلى سائر لغات العالم(84).

- الخاتمة:

إن التراث العربي الإسلامي في عصر المماليك بحاجة ماسة إلى من يكشف عنه وخاصة في أيامنا هذه، وهو بحاجة أشد إلى إظهار جوانبه المحاطة بسحب من الإبهام، فلا تزال طائفة من علماء ذلك العصر لم تعط حقها بالبحث و التنقيب – كما رأينا في هذا البحث –، وأقصد بحقها لا سير حياتها، بل دقائق الإبداعات والكشوفات العلمية التي تمت على يديها.

ولا تزال الكثير من مخطوطات ذلك العصر نائمة في السراديب والخزائن والدروج، بسبب تقصيرنا في إخراجها إلى النور، بينما انكب العالم الغربي على دراستها، إذ

تشير الدراسات الأخيرة أن ما حُقِّقَ من تراثنا المخطوط في عصر المماليك لا يزيد عن (٥ %) فقط من ما هو متروك من غير تحقيق، فهناك مثلاً مخطوطات الفلكي الدمشقي ابن الشاطر (من علماء العصر المملوكي = القرن السابع الهجري) مخترع الساعة الميكانيكة، هذه المخطوطات التي استفاد منها كوبرنيكوس في معظم اكتشافاته بل كان ينقل منها دون الإشارة إلى ابن الشاطر، كما تم التنبه في الآونة الأخيرة إلى مخطوطة تشكل كنزاً علمياً ثميناً، وهي مخطوطة « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » لابن فضل الله العمري (من علماء العصر المملوكي = القرن الثامن الهجري) وهي تقع في ثلاثين جزءاً مطولاً، وتضم من التراجم في مختلف الفنون والآداب الآلاف من علماء الإسلام النابغين.

وأمام هذه الغمامات يجب علينا أولاً أن نعترف بأن هناك مظالم في تدوين تاريخ العصر المملوكي ينبغي أن نوقفها، وأن نعيد كتابة هذا التاريخ في ضوء الفهم الحقيقي وفي ضوء الإنصاف والعدل، وربما يتسرب اليأس إلى الناس في صعوبة تصحيح تاريخ مزيف، ولكن نقول أن هناك عناصر صدق تفرض نفسها دائماً، وتأتي هذه العناصر في ثنايا الكلام، وعلى المؤرخ أن يلتقط هذه العناصر ويجعلها أساس بحثه، ففي إنصاف دولة المماليك في مصر والشام ــ موضوع مقالتنا ــ مثلاً لدينا الواقع الذي يكذب تحريفات المستشرقين عن ذلك العصر، ذلك الواقع الذي يصف انتصارات المماليك الكبرى على الصليبيين وتصفية وجودهم على الأرض العربية الإسلامية، ولدينا الواقع الذي يتحدث عن انتصاراتهم على المغول وبشكل خاص معركة عين جالوت التي أوقفت زحفهم، ولدينا إقرار من علماء الآثار بأن عصر المماليك هو العصر الذهبي للعمارة الإسلامية .

وعلمنا مؤخراً عن طريق المنصفين أن نجم الدين حسن الرماح أحد كيميائيّ العصر المملوكي (توفي ٦٩٦هـ = ١٢٩٥م)، هو أول من وصف في التاريخ تنقية نترات البوتاس من الشوائب وهي العملية الجوهرية في صناعة البارود والتي بدونها لا

ينفجر، كما أنه أورد العديد من وصفات مسحوق البارود ذات النسب الصحيحة للمسحوق المتفجر. وأنه أول من صنع الرعّادات (الطوربيدات) المزودة بمحركات صاروخية، حيث استطاع استخدام البارود القاذف كمادة دافعة للصواريخ فكان ينطلق كقذائف نارية قاصفة كالرعد، في حين نرى أن المثبت في كتب الغرب وأغلب كتب العرب والمسلمين أن اكتشاف مسحوق البارود المتفجر يعود لكل من العالمين الغربيين: ماركوس غريكوس، وروجر بيكون.

إلى غير ذلك من إنجازات ذلك العصر الفكرية والعلمية في كل العلوم النظرية والتطبيقية، ويكفي أن نذكر أعلاماً أعياناً عاشوا في كنف دولة المماليك، ومنهم: ابن خلدون، ابن قيم الجوزية، ابن مالك النحوي، ابن الشاطر الفلكي، عائلة السبكي، ابن النفيس، المقريزي، السيوطي، القلقشندي، النويري، الصفدي، الذهبي، السخاوي، ابن حجر العسقلاني ... وغيرهم كثير.

الحواشي

(١) انظر طقوش (محمد سهيل): **تاريخ المماليك في مصر والشام**، بيروت، دار النفائس، ط١، ١٩٩٧م، ص٨، ٩.

(٢) انظر موسوعة (**مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**) لابن فضل الله العمري، وموسوعة نهاية الأرب للنويري مثلاً.

(٣) بروكلمان (كارل): **تاريخ الشعوب الإسلامية**، تر: نبيه فارس، منير بعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٦٨م، ص٣٧١. والغرابة هنا في رؤية بروكلمان السلبية عن عصر المماليك أنه ناقض نفسه حين نشر مجلداً كاملاً من موسوعته تاريخ الأدب العربي يتعلق فقط بفهرسة مخطوطات وعلماء عصر المماليك!.

(٤) حتي (فيليب): **تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين**، تر: كمال اليازجي، بيروت، دار الثقافة، ١٩٨٣م، ص ١٩.

(٥) السبكي (عبد الوهاب بن علي): **طبقات الشافعية الكبرى**، تح: محمود الطناحي، عبد الفتاح الحلو، الجيزة، هجر للطباعة، ط٢، ١٩٩٢م، ج٨، ص ٢٠٩، وما بعد، الكتبي (محمد بن شاكر): فوات الوفيات، تح: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ج٢، ص ٣٥ وما بعد.

(٦) انظر السيوطي (عبد الرحمن): **الأشباه والنظائر**، تح: طه عبد الرؤوف، عماد البارودي، القاهرة، المكتبة التوفيقية، ١٩٩٥م، ص ٦ ــ ٩.

(٧) ابن عبد السلام (عبد العزيز): **القواعد الكبرى**، تح: نزيه حماد، عثمان ضميرية، دمشق، دار القلم، ط١، ٢٠٠٠م، ج١، ص ١٤، وانظر الأجزاء الأخرى. وانظر الأسنوي (عبد الرحيم): **طبقات الشافعية**، تح: كمال الحوت، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٧م، ج٢، ص ٣٥٢.

(٨) أباظه (نزار) وغيره: **موسوعة الأوائل والمبدعين**، دار المنبر، ج٥، ص ٨١١.

(٩) ابن قاضي شهبة (أبو بكر): **طبقات الشافعية** ، تح: عبد العليم خان، دار الندوة، بيروت، ١٩٨٧م، مج٢، ص ٣١٩ـ ٣٢٠، ابن حجر (أحمد بن علي): **إنباء الغمر بأبناء العمر**، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٨٦م، ج٣، ص ١٣٨ـ ١٤١، ابن العماد: (عبد الحي أحمد): **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تح: محمود الأرناؤوط، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، ط١، ١٩٩١م، مج٨، ص ٥٧٣.

(١٠) ابن العماد: المصدر المتقدم، مج٨، ص ٥٧٣.

(١١) انظر الزركشي (محمد بن بهادر): **البحر المحيط**، تح: عبد القادر العاني، الكويت، وزارة الأوقاف، ط٢، ١٩٩٢م، ج١، المقدمة، ص ٢٠ وانظر الكتاب.

(١٢) حاجي خليفة(مصطفى القسطنطني): **كشف الظنون**، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٢م، ج٦، ص ١٧٥. بروكلمان(كارل): **تاريخ الأدب العربي**، تر عبد الحليم نجار و آخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م، ج ٢، ص١٢.

(١٣) انظر الزركشي (محمد بن بهادر): **خبايا الزوايا**، تح: عبد القادر العاني، ط١، ١٩٨٢، ص ٢٤، وانظر الكتاب.

(١٤) المصدر المتقدم نفسه، المقدمة.

(١٥) الصفدي (خليل بن أيبك): **الوافي بالوفيات**، اعتناء هلموت ريتر، دار فرانز شتاينر، ط٢، ١٩٦٢م، ج٢، ص: ٢٧١، ٢٧٢، ابن العماد: المصدر المتقدم، مج٨، ص: ٢٧٨ـ ٢٩١.

(١٦) انظر ابن قيم الجوزية (محمد بن أبي بكر) **أحكام أهل الذمة**، تح: صبحي الصالح، بيروت، دار العلم للملايين، ط٢، ١٩٦١م، ج١، المقدمة، ص ٥ـ ٦، وانظر الكتاب بجزأيه.

(١٧) ابن قاضي شهبة: المصدر المتقدم، مج٢، ص ٢٥٠ـ ٢٥٢، السيوطي (عبد الرحمن): حسن المحاضرة، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٧م، مج٢، ص ٩٢، ٩٣.

(١٨) انظر الأسنوي (عبد الرحيم بن الحسن): **الكوكب الدري فيما يتخرج على الأصول النحوية من الفروع الفقهية**، تح: محمد حسن عواد، الأردن، عمان، دار عماد، ط١، ١٩٨٥م، المقدمة، ص ١٤٥، ١٤٦، وانظر الكتاب.

(١٩) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج١٨، ص٥٢٢، الكتبي: **فوات الوفيات**، ج٢، ص٣٥٢.

(٢٠) ابن العماد: **شذرات الذهب**، مج٧، ص٥٢٤.

(٢١) ابن شداد (محمد بن علي): **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام و الجزيرة**، تح: دومنيك سورديل، دمشق، المعهد الفرنسي، ١٩٥٣م، ج١، ق١، ص٢،١.

(٢٢) ابن شداد: **تاريخ الملك الظاهر**، اعتناء أحمد حطيط، بيروت، المعهد الألماني للأبحاث، ١٩٨٣م، ص٢٧٠.

(٢٣) أباظه: **موسوعة الأوائل**، ج ٥، ص٨٢٨ – ٨٣٠ .

(٢٤) الزرقاني (محمد عبد العظيم): **مناهل العرفان في علوم القرآن**، بيروت، مؤسسة التاريخ العربي، ج١، ص ١٦.

(٢٥) انظر ابن قيم الجوزية (محمد بن أبي بكر): **التبيان في أقسام القرآن**، تح: فواز زمرلي، بيروت، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٩٩٨م ، المقدمة، ص ١٨ـ ١٩، وانظر الكتاب. وانظر حاجي خليفة: **كشف الظنون**، ج٦، ص ١٥٨.

(٢٦) انظر القرافي (أحمد بن إدريس): **الاستغناء في الاستثناء**، تح: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٦م، المقدمة، ص ٥، وانظر الكتاب، وانظر ابن ابن تغري بردي (يوسف): **المنهل الصافي و المستوفي بعد الوافي**تح محمد أمين وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م، ج١، ص ٢٣٢ـ ٢٣٤، ابن فرحون(إبراهيم): **الديباج المذهّب في معرفة أعيان علماء المذهب**، تح: محمد الأحمدي، القاهرة، دار التراث، ج١، ص ٢٣٦ـ ٢٣٩.

(٢٧) السيوطي (عبد الرحمن): **تدريب الراوي**، تح: طارق عوض، الرياض، دار العاصمة، ٢٠٠٣م، ج١، ص ٤٣ ـ ٤٥، ٥٢، ٥٣.

(٢٨) انظر الزركشي: **اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة**، تح: محمد الصباغ، بيروت، المكتب الإسلامي، ط١، ١٩٩٦م، المقدمة، ص ٢٦- ٢٩، وانظر الكتاب ص ٢٣ وما بعد، حاجي خليفة: المصدر المتقدم، ج٦، ص ١٧٥.

(٢٩) انظر منصور (أحمد صبحي): **العقائد الدينية في مصر المملوكية بين الإسلام والتصوف**، الهيئة المصرية للكتاب، ٢٠٠٠م، ص٣٧- ٤١.

(٣٠) السيوطي حسن المحاضرة، مج١، ص ٤٢٨، ابن العماد : **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، مج٧، ص ٦٠٢-٦٠٥، المناوي (عبد الرؤوف): **الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية**، تح عبد الحميد حمدان، المكتبة الأزهرية، ج٢، ص ٦٢-٦٦، أباظة : موسوعة الأوائل والمبدعين، ج٥، ص ٨٢٧، ٨٢٨.

(٣١) المناوي: المصدر المتقدم، ج٢، ص ٥-١٥، ابن العماد: المصدر المتقدم، مج٧، ص ٦١١، ٦١٢، أباظة: المرجع المتقدم، ج٥، ص ٨٢٨.

(٣٢) السيوطي: المصدر المتقدم، مج١، ص ٤٢٦، ٤٢٧، المناوي: المصدر المتقدم، ج٢، ص ١٢٦ - ١٣٦، ابن العماد: المصدر المتقدم، مج٧، ص ٤٨١-٤٨٣، أباظة: المرجع المتقدم، ج٥، ص ٨٠٧، ٨٠٨.

(٣٣) كتابه المثنوي. أباظه: **موسوعة الأوائل**، ج ٥، ص٨٢٥ ،٨٢٦. كحالة (عمر): معجم المؤلفين، بيروت، مؤسسة الرسالةط١، ١٩٩٣م، ج ١، ص٥٠٠.

(٣٤) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج٣، ص ٤٠٧، ٤٠٨.

(٣٥) ابن حجر: **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، تح: محمد جاد الحق، مطبعة المدني، ط٢، ١٩٦٦م، ج٥، ص ٧١.

(٣٦) ابن مالك (محمد بن عبد الله): **شرح التسهيل**، تح: عبد الرحمن السيد، محمد بدوي المختون، الجيزة، هجر للطباعة، ط١، ١٩٩٠م، مقدمة التحقيق.

(٣٧) ابن عقيل (عبد الله): **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك**، تح: محيي الدين عبد الحميد،ج١، ص١٠ وما بعد.

(٣٨) السيوطي (عبد الرحمن): **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى، ط١، ١٩٦٤م ، ج١، ص ١٣١.

(٣٩) انظر ابن عقيل: **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك**، ج١، ص ٤٩٩، وانظر أباظة: موسوعة الأوائل والمبدعين، ج٥، ص ٨٢٢.

(٤٠) ابن حجر: **الدرر الكامنة**، ج٢، ص ٤١٦.

(٤١) انظر ابن هشام (عبد الله بن يوسف): **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، تح: مازن المبارك وعلي حمد الله وغيره، بيروت، دار الفكر، ط٥، ١٩٧٩م، المقدمة، ص ٦، وص ١٣ــ ١٦، أباظة: موسوعة الأوائل والمبدعين، ج٥، ص ٨٨١.

(٤٢) انظر ابن مالك: **إكمال الإعلام بتثليث الكلام**، تح: سعد الغامدي، جدة، مطبعة المدني، ط١، ١٩٨٤،ج١، ص ٦، ٤٦.

(٤٣) الذهبي (محمد بن أحمد): **تذكرة الحفاظ**، دار إحياء التراث العربي ، ج٤، ص: ١٤٧٠ ــ ١٤٧٤، الأسنوي: **طبقات الشافعية**، ج٢، ص: ٢٦٦، ٢٦٧، السبكي: **طبقات الشافعية الكبرى**: ج٨، ص: ٣٩٥ــ ٤٠٠.

(٤٤) النووي (يحيى بن شرف): **تهذيب الأسماء واللغات**، بيروت، دار الكتب العلمية ، ق١، ص ٣ــ ٥.

(٤٥) ابن حجر: **الدرر الكامنة**، ج٢، ص: ١٧٦، ١٧٧، ابن تغري بردي: **المنهل الصافي**، ج٢، ص: ٢٤٢ــ ٢٤٤، ابن قاضي شهبة: **طبقات الشافعية**، مج٢، ص: ٢٤١، ٢٤٢.

(٤٦) انظر الصفدي (خليل بن أيبك): **غوامض الصحاح**، تح: عبد الإله نبهان، بيروت، مكتبة لبنان، ط١، ١٩٩٦م، **المقدمة**، ص ٩، ٣٠، ٣١، وانظر الكتاب، وذكر هذا المعجم ابن خطيب الناصرية (علاء الدين): **الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب**، تح: أحمد حميد، أطروحة ماجستير، الجامعة اللبنانية، ٢٠٠٠م، ص ١٠٨.

(٤٧) الصفدي: **أعيان العصر وأعوان النصر**، تح: محمد أبو زيد وآخرون، بيروت، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٩٩٨م ، ج٥، ص ٢٧٣، ابن حجر: **الدرر الكامنة**، ج٥، ص ٣٢، السيوطي: **بغية الوعاة**، ج١، ص ٢٤٨.

(٤٨) انظر ابن منظور (جمال الدين محمد): **لسان العرب**، بيروت، دار صادر ط١، ١٩٩٧م، ج١، المقدمة، ص ٥، ٦، وانظر الكتاب.

(٤٩) الذهبي (محمد بن أحمد): **معجم شيوخ الذهبي**، تح: روحية السيوفي، بيروت، دار الكتب العلمية ط١، ١٩٩٠م، ص ٦١٣، ابن حجر: المصدر المتقدم، ج٥، ص ١٠٣، بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ج٦، ص ٦٦.

(٥٠) السمين الحلبي (أحمد بن يوسف): **عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ**، تح: محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٦م، ص ٣٩.

(٥١) ابن حجر: المصدر المتقدم، ج١، ص ٣٣٤، السيوطي: المصدر المتقدم، ج١، ص ٣٨٩، بروكلمان: المرجع المتقدم، ج٦، ص ٨٨، وانظر الفيومي (أحمد بن علي): **المصباح المنير**، تح: يوسف محمد، بيروت، المكتبة العصرية، ط٣، ١٩٩٩، ص ٦ وما بعد.

(٥٢) سلام (محمد زغلول): **الأدب في العصر المملوكي**، مصر، دار المعارف، ج٢، ص ٥.

(٥٣) ابن عبد الظاهر (محيي الدين): **تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور**، تح: مراد كامل، القاهرة، الشركة العربية، ط١، ١٩٦١م، المقدمة، ص ١٠ وما بعد، الكتبي: **فوات الوفيات**، ج٢، ص ١٧٩ــ١٩١، ابن حبيب (الحسن بن عمر): **تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه**، تح: محمد أمين، مصر، مطبعة دار الكتب، ج١، ص ١٦٤، القلقشندي (أحمد بن علي): **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، تح: محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٧م، ج٢، ص ٩٨.

(٥٤) أباظة: **موسوعة الأوائل**، ج ٥، ص٨٤١.

(٥٥) العمري (أحمد بن يحيى): **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، قطعة منه بعنوان: «مملكة مصر والشام والحجاز»، تح دوريتا كرافولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، ط١، ١٩٨٦م، ص ١٢٠.

(٥٦) انظر الصفدي (خليل): **كشف الحال في وصف الخال** ،تح عبد الرحمن العقيل، بيروت، الدار العربية للموسوعات،ط١، ٢٠٠٥م ، المقدمة، ص ٦، ١١، وانظر الكتاب. و انظر: تح عبد الرحمن العقيل، ص ٦٩-٧٠ وما بعد.

(٥٧ انظر عن كتب الصفدي المتقدمة وغيرها ابن حجر: **الدرر الكامنة**، ج٣، ص ٨٢ـــ ٨٤، ابن تغري بردي: **المنهل الصافي**، ج٥، ص ٢٤٢ ـــ ٢٤٤، حاجي خليفة: **كشف الظنون**، ج٥، ص ٣٥١، ٣٥٢.

(٥٨) ابن حجر: المصدر المتقدم، ج١، ص ٣٥٠ـــ ٣٥٢، السيوطي: **حسن المحاضرة**، مج١، ص ٤٦٦، ابن العماد: المصدر المتقدم، مج٨، ص ٤١٤، ٤١٥.

(٥٩) انظر ابن أبي حجلة: **سلوة الحزين في موت البنين**، تح: مخيمر صالح، عمَّان، دار الفيحاء، المقدمة، ص ٥، ٦، وانظر الكتاب.

(٦٠) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج٢، ص٤٧. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج١٥، ص ٣٥٦-٣٥٨. ابن العماد: **شذرات**، ج٧ ، ص٦٩٠.

(٦١) أباظه: موسوعة الأوائل، ج٥، ص ٨١٩، ٨٢٠ .

(٦٢) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج ٣، ص٥١- ٥٧. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج ٣، ص٣٣-٣٣٩. ابن حجر: **الدرر الكامنة**: ج٤، ص٥٤-٥٦. أباظه: موسوعة الأوائل، ج ٥، ٨٤٨، ٨٤٩. الزركلي(خير الدين): الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، ط١٢، ١٩٩٧م، ج ٦، ص١٢٠.

(٦٣) السخاوي (محمد بن عبد الرحمن): **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، بيروت، دار مكتبة الحياة، ج٥، ص٢٢٩. أباظه: **موسوعة الأوائل**، ج٥، ص٩٢٣، ٩٢٤. ابن العماد: **شذرات الذهب**، ج ٩، ص٤٥٥.

(64) Gibb (H.A.R :(Arabic Literature ,London, Oxfored, p146.

(٦٥)ابن كثير (الحافظ اسماعيل): **البداية والنهاية**، وثقه محمد معوض وغيره، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٤م، ج١٣، ص ٢٥٠، الكتبي: **فوات الوفيات**، ج١، ص ١١٠، ١١١، الأسنوي: **طبقات الشافعية**، ج١، ص ٢٣٨، ٢٣٩.

(٦٦) انظر أبو شامة: **الذيل على الروضتين**، تح: محمد الكوثري، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٩٤٧م، وانظر الكتبي: **فوات الوفيات**، ج٢، ص٢٧٠، الأسنوي: **طبقات الشافعية**، ج٢، ص ٣١.

(٦٧) ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم): **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تح: نزار رضا، بيروت، مكتبة الحياة الكتاب، وانظر حاجي خليفة: المصدر المتقدم، ج٢، ص ١١٨٥.

(٦٨) انظر الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج١، ص ٢٥.

(٦٩) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج١، ص ٥، ٦.

(٧٠) الصفدي: **أعيان العصر**، ج١، المقدمة، ص ١٧، وص ٣٨، ٣٩.

(٧١ الكتبي: **فوات الوفيات**، ج١، ص٤، ٩،١٠، ابن رافع: **الوفيات**، ج٢، ص ٢٦٣، ابن حجر: المصدر المتقدم، ج٤، ص ٧٢.

(٧٢) الصفدي: **نكت الهميان في نكت العميان**، ص ٨٧، وانظر عن الصفدي وكتبه المتقدمة وغيرها ابن رافع (تقي الدين أبي المعالي): **الوفيات**، تح: صالح عباس، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٢م، ج٢، ص ٢٦٨ـ ٢٧٠، ابن قاضي شهبة: المصدر المتقدم، مج٢، ص ٢٤١، ٢٤٢، ابن تغري بردي: **المنهل الصافي**، ج٥، ص ٢٤٢ـ ٢٤٤، ابن حجر: المصدر المتقدم، ج٢، ص ١٧٦، ١٧٧، ابن العماد: المصدر المتقدم، مج٨، ص ٣٤٣ .

(٧٣) انظر الجاحظ (عمرو بن بحر) **البرصان والعرجان والعميان والحولان**، تح: محمد موسى الخولي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٨٧.

(٧٤) الأدفوي: (جعفر بن ثعلب): **الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد**، تح: سعد حسن، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م، المقدمة والكتاب.

(٧٥) انظر السبكي: **طبقات الشافعية الكبرى**، ج١، المقدمة، ص ٥، وانظر الكتاب، ابن قاضي شهبة: المصدر المتقدم، مج٢، ص ٢٥٦ـــ ٢٥٨، ابن حجر: المصدر المتقدم، ج٣، ص ٣٩ـــ ٤١، ابن العماد: المصدر المتقدم، مج٨، ص ٣٧٨ـــ ٣٨٠.

(٧٦) انظر الأسنوي: طبقات الشافعية، ج١، المقدمة، ص ١٦، وانظر الكتاب، ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، مج٢، ص ٢٥٠ـــ ٢٥٢، ابن حجر: المصدر المتقدم، ج٢، ص ٤٦٣ـــ ٤٦٥.

(٧٧) انظر ابن فرحون: **الديباج المذهّب في معرفة أعيان علماء المذهب**. وانظر ابن حجر: المصدر المتقدم، ج١، ص ٤٩، ابن العماد: المصدر المتقدم، مج٨، ص ٦٠٨.

(٧٨) انظر القرشي (عبد القادر بن محمد): **الجواهر المضية في طبقات الحنفية**، تح: عبد الفتاح الحلو، الجيزة، هجر للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٩٣م، ج١، ص ٥ وما بعد، وانظر حاجي خليفة: المصدر المتقدم، ج١، ص ٦١٦، ٦١٧، أباظة: **موسوعة الأوائل والمبدعين**، ج٥، ص ٨٨٨. وذكر عنه حاجي خليفة أنه أول كتاب في طبقات الحنفية.

(٧٩) أباظه: **موسوعة الأوائل**، ج٥، ص٨٦٨. الزركلي: **الأعلام**، ج ٥، ص١٨٢. كحالة: معجم المؤلفين، ج ٢، ص٦٥٥. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج ٣، ص١٩٦–١٩٨، ج ٣، ص١٩٨. ابن حجر: **الدرر الكامنة**، ج٣، ص٣٢١– ٣٢٣. ابن العماد: **شذرات**، ج ٨، ص٢١٤–٢١٥.

(٨٠) انظر ابن حديدة (عبد الله بن علي): المصب**اح المضيء في كتب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من العرب والعجم**، بيروت، دار الندوة، ط١، ١٩٨٦م، حاجي خليفة: **كشف الظنون**، ج٢، ص ١٧١٠، بروكلمان: المرجع المتقدم، ج٦، ص ٢٧٧، ٢٧٨، كحالة: معجم المؤلفين، ج٢، ص ٢٩١.

(٨١) حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الكويت، مجلس النشر العلمي، الحولية الثالثة والعشرون، حياة الحجي: بعض الأبعاد الاقتصادية لسلطنة المماليك، ٢٠٠٣م، ص ٤٥ــ ٤٩، وانظر عن هذه المعاهدة ونصها ابن عبد الظاهر: **تشريف الأيام والعصور**، ص ٢٠٤ ــ ٢٠٩.

(٨٢) ابن حجر: **الدرر الكامنة**، ج٢، ص ٢٩٤، ٢٩٥.

(٨٣) أباظة: المرجع المتقدم، ج٥، ص ٨١٧، ٨١٨.

(٨٤) المرجع المتقدم نفسه، ج٥، ص ٨٣٠، ٨٣١.

المصادر والمراجع

- المصادر:

- ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح: نزار رضا، بيروت، مكتبة الحياة الكتاب.
- ابن أبي حجلة (أحمد): سلوة الحزين في موت البنين، تح: مخيمر صالح، عمَّان، دار الفيحاء.
- ابن العماد: (عبد الحي أحمد): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمود الأرناؤوط، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، ط١، ١٩٩١م .
- ابن تغري بردي (يوسف): المنهل الصافي و المستوفي بعد الوافي،تح محمد أمين وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م.
- ابن حبيب (الحسن بن عمر): تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تح: محمد أمين، مصر، مطبعة دار الكتب.
- ابن حجر (أحمد بن علي): إنباء الغمر بأبناء العمر، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٨٦م.
- ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تح: محمد جاد الحق، مطبعة المدني، ط٢، ١٩٦٦م.
- ابن حديدة (عبد الله بن علي): المصباح المضيء في كتب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من العرب والعجم، بيروت، دار الندوة، ط١، ١٩٨٦م.
- ابن خطيب الناصرية (علاء الدين): الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب، تح: أحمد حميد، أطروحة ماجستير،الجامعة اللبنانية، ٢٠٠٠م.
- ابن رافع (تقي الدين أبي المعالي): الوفيات، تح: صالح عباس، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٢م.

- ابن شداد (محمد بن علي): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام و الجزيرة، تح: دومنيك سورديل، دمشق، المعهد الفرنسي، ١٩٥٣م.
- ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، اعتناء أحمد حطيط، بيروت، المعهد الألماني للأبحاث، ١٩٨٣م.
- ابن عبد السلام (عبد العزيز): القواعد الكبرى، تح: نزيه حماد، عثمان ضميرية، دمشق، دار القلم، ط١، ٢٠٠٠م.
- ابن عبد الظاهر (محيي الدين): تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تح: مراد كامل، القاهرة، الشركة العربية، ط١، ١٩٦١م.
- ابن عقيل (عبد الله): شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تح: محيي الدين عبد الحميد.
- ابن فرحون(إبراهيم): الديباج المذهّب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح: محمد الأحمدي، القاهرة، دار التراث.
- ابن قاضي شهبة (أبو بكر): طبقات الشافعية ، تح: عبد العليم خان، دار الندوة، بيروت، ١٩٨٧م.
- ابن قيم الجوزية (محمد بن أبي بكر) أحكام أهل الذمة، تح: صبحي الصالح، بيروت، دار العلم للملايين، ط٢، ١٩٦١م.
- ابن قيم الجوزية: التبيان في أقسام القرآن، تح: فواز زمرلي، بيروت، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٩٩٨م.
- ابن كثير (الحافظ اسماعيل): البداية والنهاية، وثقه محمد معوض وغيره، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٤م.
- ابن مالك (محمد بن عبد الله): شرح التسهيل، تح: عبد الرحمن السيد، محمد بدوي المختون، الجيزة، هجر للطباعة، ط١، ١٩٩٠م.

- ابن مالك: إكمال الإعلام بتثليث الكلام، تح: سعد الغامدي، جدة، مطبعة المدني، ط١، ١٩٨٤.
- ابن منظور (جمال الدين محمد): لسان العرب، بيروت، دار صادر ط١، ١٩٩٧م.
- ابن هشام (عبد الله بن يوسف): مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح: مازن المبارك وعلي حمد الله وغيره، بيروت، دار الفكر، ط٥، ١٩٧٩م.
- أبو شامة (عبد الرحمن): الذيل على الروضتين، تح: محمد الكوثري، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٩٤٧م.
- الأدفوي: (جعفر بن ثعلب): الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تح: سعد حسن، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م.
- الأسنوي (عبد الرحيم بن الحسن): الكوكب الدري فيما يتخرج على الأصول النحوية من الفروع الفقهية، تح: محمد حسن عواد، الأردن، عمان، دار عماد، ط١، ١٩٨٥م.
- الأسنوي: طبقات الشافعية، تح: كمال الحوت، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٧م.
- الجاحظ (عمرو بن بحر) البرصان والعرجان والعميان والحولان، تح: محمد موسى الخولي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٨٧.
- حاجي خليفة(مصطفى القسطنطني): كشف الظنون، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٢م.
- الذهبي (محمد بن أحمد): معجم شيوخ الذهبي، تح: روحية السيوفي، بيروت، دار الكتب العلمية ط١، ١٩٩٠م.
- الزركشي (محمد بن بهادر): البحر المحيط، تح: عبد القادر العاني، الكويت، وزارة الأوقاف، ط٢، ١٩٩٢م.
- الزركشي: اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة، تح: محمد الصباغ، بيروت، المكتب الإسلامي، ط١، ١٩٩٦م.

- الزركشي: خبايا الزوايا، تح: عبد القادر العاني، ط١، ١٩٨٢.
- الزركلي(خير الدين): الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، ط١٢، ١٩٩٧م.
- السبكي (عبد الوهاب بن علي): طبقات الشافعية الكبرى، تح: محمود الطناحي، عبد الفتاح الحلو، الجيزة، هجر للطباعة، ط٢، ١٩٩٢م.
- السخاوي (محمد بن عبد الرحمن): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت، دار مكتبة الحياة.
- السمين الحلبي (أحمد بن يوسف): عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، تح: محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٦م.
- السيوطي (عبد الرحمن): تدريب الراوي، تح: طارق عوض، الرياض، دار العاصمة، ٢٠٠٣م.
- السيوطي: حسن المحاضرة، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٧م.
- السيوطي: الأشباه والنظائر، تح: طه عبد الرؤوف، عماد البارودي، القاهرة، المكتبة التوفيقية، ١٩٩٥م.
- السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى، ط١، ١٩٦٤م.
- الصفدي (خليل بن أيبك): الوافي بالوفيات، اعتناء هلموت ريتر، دار فرانز شتاينر، ط٢، ١٩٦٢م.
- الصفدي: غوامض الصحاح، تح: عبد الإله نبهان، بيروت، مكتبة لبنان، ط١، ١٩٩٦م.
- الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، تح: محمد أبو زيد وآخرون، بيروت، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٩٩٨م.
- الصفدي: كشف الحال في وصف الخال تح عبد الرحمن العقيل، بيروت، الدار العربية للموسوعات،ط١، ٢٠٠٥م.

- العمري (أحمد بن يحيى): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، قطعة منه بعنوان: « مملكة مصر والشام والحجاز »، تح دوريتا كرافولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، ط١، ١٩٨٦م.
- الفيومي (أحمد بن علي): المصباح المنير، تح: يوسف محمد، بيروت، المكتبة العصرية، ط٣، ١٩٩٩.
- القرافي (أحمد بن إدريس): الاستغناء في الاستثناء، تح: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٦م.
- القرشي (عبد القادر بن محمد): الجواهر المضية في طبقات الحنفية، تح: عبد الفتاح الحلو، الجيزة، هجر للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٩٣م.
- القلقشندي (أحمد بن علي): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تح: محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٧م.
- الكتبي (محمد بن شاكر): فوات الوفيات، تح: إحسان عباس، بيروت، دار صادر.
- المناوي (عبد الرؤوف): الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، تح عبد الحميد حمدان، المكتبة الأزهرية.
- النووي (يحيى): تهذيب الأسماء واللغات، بيروت، دار الكتب العلمية.

- المراجع العربية:

- أباظه (نزار) و غيره: موسوعة الأوائل والمبدعين، دار المنبر.
- حتي (فيليب): تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، تر: كمال اليازجي، بيروت، دار الثقافة، ١٩٨٣م.
- حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الكويت، مجلس النشر العلمي، الحولية الثالثة والعشرون، حياة الحجي: بعض الأبعاد الاقتصادية لسلطنة المماليك، ٢٠٠٣م.
- الزرقاني (محمد عبد العظيم): مناهل العرفان في علوم القرآن، بيروت، مؤسسة التاريخ العربي.

- سلام (محمد زغلول): الأدب في العصر المملوكي، مصر، دار المعارف.
- طقوش (محمد سهيل): تاريخ المماليك في مصر والشام، بيروت، دار النفائس، ط١، ١٩٩٧م.
- كحالة (عمر): معجم المؤلفين، بيروت، مؤسسة الرسالة ط١، ١٩٩٣م.
- منصور (أحمد صبحي): العقائد الدينية في مصر المملوكية بين الإسلام والتصوف، الهيئة المصرية للكتاب، ٢٠٠٠م.

- **المراجع الأجنبية:**

- بروكلمان (كارل): تاريخ الشعوب الإسلامية، تر: نبيه فارس، منير بعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٦٨م.
- بروكلمان(كارل): تاريخ الأدب العربي، تر عبد الحليم نجار و آخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م.
- Gibb (H.A.R :(Arabic Literature ,London, Oxfored.

مدى تطبيق القوانين المغولية (الوثنية) في السلطنة المملوكية

الدكتور نزار حسن
قسم القانون الخاص
كلية الحقوق – جامعة حلب

مقدمة

ذهب بعض المؤرخين وعدد من الباحثين إلى أن القوانين المغولية لعبت دوراً هاماً في النظم العامة للسلطنة المملوكية وعلى الأخص النظام القضائي، فقد ذكر ابن تغرى بردى تأثر الظاهر بيبرس في نظام حكمه بالياسة المغولية [١]، وأشار الصفدي إلى تطبيق الياسة من قبل أحد الأمراء في عصر الناصر محمد بن قلاوون[٢]، وأكد المقريزي على أن الحجّاب في العصر المملوكي قد طبقوا الياسة المغولية[٣]، وقد أكد البعض[٤] على أن المماليك قد طبقوا أحكام الياسة المغولية كلياً أو جزئياً في أحكامهم، حتى أن "Poliak" زعم بأنه "لم تكن الياسة تمثل القانون الجنائي والمدني والتجاري للمماليك فحسب، ولكن التنظيم العام للسلطنة المملوكية كان مبنياً على الياسة[٥]"، وذهب جانب من الباحثين إلى أن المماليك طبقوا الياسة المغولية في صدد المنازعات الاقطاعية[٦].

وفي مقابل ذلك يلاحظ أن العديد من المؤرخين المماليك لم يشيروا إلى تطبيق الياسة المغولية في السلطنة المملوكية فعندما تكلم "ابن إياس" عن تأثر بيبرس في سلطنته بملوك التتار من حيث ترتيب الوظائف[٧] لم يذكر تطبيق الياسة في السلطنة المملوكية،

ولما تكلم ابن بطوطة عن الياسة لم يذكر تطبيقها في مصر المملوكية[٨]، وعندما ذكر "العمري وابن كثير" أحكام الياسة لم يشيرا إلى تطبيقها في السلطنة المملوكية[٩]، ونفس الأمر نجده عند القلقشندي و الأسدي وابن خلدون وابن عرب شاه[١٠].

وقد أنكر البعض[١١] الأهمية التي أعطاها بعض المؤرخين والباحثين لتطبيق الياسة في السلطنة المملوكية كلياً أو جزئياً.

ولنتبين حقيقة هذه الآراء، ينبغي علينا دراسة أحكام ياسة جنكيزخان الكبيرة في المطلب الأول ثم نتحقق من تطبيق الياسة في السلطنة المملوكية في المطلب الثاني.

المطلب الأول

أحكام ياسة جنكيزخان الكبيرة

تمهيد وتقسيم :

تتطلب دراسة أحكام "ياسة جنكيزخان الكبيرة"، معرفة معاني الياسة، ثم بيان أحكام الياسة في المصادر الفارسية والمملوكية، ثم معرفة مدى دقة أحكام الياسة في المصادر المملوكية، وبعد ذلك نحاول معرفة ماهية "التورا" المنسوبة إلى "جنكيزخان" وأخيراً نبين الحكم الشرعي في الياسة المغولية .

الفرع الأول

معاني الياسة

قدّم ابن تغرى بردى تحليلاً لمعنى كلمة "الياسة" وصل بموجبه إلى أنها تعني "التراتيب الثلاثة "لأن جنكيزخان جعل ممالكه ثلاثة أقسام وزّعها بين أولاده الثلاثة"[١٢]، وقد رفض "Ayalon" هذا التفسير وأشار إلى أنه من ابتداع "ابن تغرى بردى"، وأوضح أن الياسة تعني " القانون أو الأمر الخاص بجنكيزخان أو أحد خلفائه القانات من ذريته، وقد تعني القانون أو العادة أو العرف عند المغول بشكل عام"[١٣]، ونرى أن " Ayalon "

محق في اعتراضه، لأن الياسة تعد في المقام الأول "مجموعة القوانين والأوامر التي ابتدعها جنكيزخان " وقد أطلق نفس التعبير على "الأوامر والقوانين التي تعود لخلفائه من ذريته[١٤]"، وقد أشار البعض إلى أنه " لما كان كتاب الياسة يشتمل على جزء كبير من الأحكام التي تتعلق بالجزاء والعقاب وغالباً ما يكون ذلك بإعدام الشخص المذنب، صار أحد معاني هذه الكلمة - الياسة - هو الموت أوالقتل[١٥]"، ولكن في دراستنا للياسة نقصد بها المعنى الضيق - أي الياسة الكبيرة - وهي "مجموعة الأوامر والقوانين التي ابتدعها جنكيزخان والتزم بها خلفاؤه من بعده " .

الفرع الثاني

أحكام الياسة الكبيرة في المصادر الفارسية [١٦]

يمكن تحديد أحكام الياسة الكبيرة في المصادر الفارسية بما يلي :

١- كل من يتصدى لقتال جنكيزخان، تكون عقوبته القضاء عليه وعلى أتباعه وأولاده وجنده وتُدمّر بلاده ونواحيه، وكل من ينقاد لأمره يصبح آمناً من عقابه[١٧] .

٢- الطاعة العمياء للقان، فإن ارتكب "أمير المائة ألف"خطأ بسيطاً وتوجد مسافة كبيرة بينه وبين القان، يُرسل إليه الأخير فارساً يعاقبه حسب الأوامر الصادرة له من القان

٣- لا يجوز لأي جندي أن يغير مكانه أو تبعيته، ولا يجوز للأمراء أن يقبلوا هؤلاء، ويُقتل الجندي المخالف أمام الملأ، وأما من آواه فإنه يعاقب وينكل به، ولا يجوز لأي شخص أن يَتستر على أميره أو قائده، فلا محاباة في الجيش ولا تمييز.[١٨]

٤- لا يجوز التعرض إلى أسرة القان المغولي، وتجري محاكمة المتعرضين وفق أحكام الياسة .

٥- يُنحى القان المغولي إذا أهمل أمور القانية ولم يكـن لائقـاً لتـصريف شـؤون الدولة.[١٩]

٦- ينتقل مقام الوالد بحكم الياسة إلى الولد الأصغر وذلك في مجال تولي السلطة[٢٠] .

٧- يتحمل جنود الجيش - كالرعية - جميع أصناف المؤن من الضرائب والأمـوال وترتيب الجياد للبريد وما يلزمها من علف حتى في زمـن الحـرب، وإذا أُلـزم الرجل بمهمة ولم يكن حاضراً تُلزم زوجته بأدائها .[٢١]

٨- المساواة الحقيقية بين أمراء الجيش، فإذا أحدث شخص ضرراً بآخر فلا يفرقـون بينهما ولا يقيمون اعتباراً للثروة أو المكانة التي يتمتع بها أحدهما .[٢٢]

٩-في حالة هرب بعض الحيوانات من حلقات القنص، يعاقب أمراء الألف والمائـة والعشرة على ذلك بضربهم بالعصا بل وكثيراً ما يقتلون، ويعاقب ويُؤدب من لم يستجب للنداء أو تقدّم أو قصَّر أو تأخر عما هو مرسوم له[٢٣]

١٠- البعد عن التعصب المذهبي والنظرة إلى جميع الطوائف على حد سواء وعـدم التفرقة بينها، فالناس متساوون جميعاً لا فرق بينهم[٢٤]

١١- القضاء على الألقاب الكثيرة ومظاهر التكلف التي كانت سائدة بـين الملـوك فيخص من يجلس العرش بلقب " قان " أو "خان" ولا يزيدون علـى ذلـك، أمـا أولاده وأخوته فينادون بأسمائهم فحسب، ولا يكتبون على أوامرهم الملكية ألقاباً، فلا فرق بين السلطان والعامي فيكتبون لُب القول ويتحررون من زوائد الألقـاب وحشو العبارات[٢٥]

١٢- تُجمع الفتيات الأبكار المرافقات للجيش ويختارون منهن مجموعة تُرسل للخان أو إلى أبناء الملوك، فينتقي منهن ما يروق له والباقي منهن يـسرحن بإحـسان، حيث يحولن إلى سيدات القصر يستخدمن منهن ما شئن ويهبن ما شئن .

١٣- وضع نظام لإحصاء السكان في البلاد المغلوبة وتحميلهم نفقات الجـيش ودور البريد والخراج والعلف وغيرها[٢٦].

١٤ - يُقتل الكذاب حتى يَعتَبِرْ به الآخرون، ويُقتل النمام مع الرخصة للقان في الإعفاء عنه[٢٧].

١٥- دية دم المسلم أربعون " بدرة " من الذهب، ودية دم الخطائي حمار[٢٨].

١٦- من سَحَرَ قُتل[٢٩].

١٧- إعفاء الأرامل واليتامى من المؤن والضرائب[٣٠].

ويجدر التنبيه إلى أن الأحكام السابقة هي مجرد أمثلة ذكرتها المصادر الفارسية من أحكام الياسة، ودليله قول الجويني في خاتمة فصله المتعلق بالياسة " ومثل هذه القوانين كثير وإثبات كل واحدٍ منها أمر يطول شرحه، فلهذا نكتفي بهذا القدر "[٣١]

ومن خلال الأحكام المعروضة آنفاً نستطيع تلمح السمات العامة للياسة في المصادر الفارسية : أ - الشدة في العقوبات حتى على الأفعال البسيطة، ب- الطاعة المطلقة للقان جـ- تنظيم الجيش تنظيماً صارماً، د - وضع بعض المبادئ العامة (مثل عدم التعصب والقضاء على الألقاب)، هـ - العقاب الشديد على بعض الأفعال المحرمة (مثل الكذب - النميمة - السحر) .

الفرع الثالث

أحكام الياسة الكبيرة في المصادر المملوكية

يمكن تحديد أحكام ياسة جنكيزخان الكبيرة في المصادر المملوكية بما يلي :

١- مَنْ زنى - سواء كان مُحصناً أو غير محصن - قُتِلْ، ٢- من لاط قُتل، ٣- من تعمد الكذب قُتل، ٤- من سَحَرَ قُتل، ٥- من تجسس على قوم قُتل، ٦-من دخل بين اثنين يختصمان فأعان أحدهما على الأخر قُتل، ٧- من أُعطي بضاعة وخسر ثم أعطي ثانية وخسر إلى الثالثة قُتل، ٨- من بال في الماء قُتل، ٩-من أطعم أسير قوم أو كساه أو سقاه بغير إذنهم قُتل، ١٠- من وجد هارباً أو أسيراً أو عبداً ولم يَرده قُتل، ١١- من وقع حمله أو قوسه في كرٍ أو فرٍ، ومرّ عليه من يتلوه بعده ولم ينزل

لمساعدته قُتل، ١٢- من ذبح كذبيحة المسلمين ذُبح، وكانوا يعتمدون في ذبح الحيوان أن تُكتف قوائمه ويُشق جوفه ويدخل أحدهم يده إلى قلبه ويمرسه حتى يموت أو يخرج قلبه[٣٢] ، ١٣- يُعزل القان في حال تغييره أو مخالفته لحكم من أحكام الياسة ويُعيّن غيره من أبناء جنكيزخان[٣٣]، ١٤-عدم جواز الهرب عند اللقاء بالعدو[٣٤]، ١٥-يقسم الناس حسب الياسة إلى أربعة أقسام : يار، دوشمن، أنشمند، طط، أي صديقهم وعدوهم والعالم والعاصي[٣٥]، ١٦- إذا حرَّم القان على أحد شيئاً فلا يحل له أن يأتيه إلى الممات، ومن لم يمض حكم الياسة ولم يعمل به قُتل ، ١٧ -من رعف وهو يأكل قُتل كائناً من كان ١٨ - كل من أحب امرأة بنتاً كانت أو غيرها، لا يمنع من التزوج بها ولو كان زبالاً والمرأة بنت ملك[٣٦]

وانطلاقاً من الأحكام السابقة يمكن أن نحدد الملامح العامة للياسة في المصادر المملوكية بالنقاط التالية : أ -الطابع العام للأحكام يجعلها قريبة الشبه بأحكام قانون عقابي أكثر من كونها قانوناً مدنياً، ب - الشدة في العقوبات وعدم تناسب الفعل المرتكب أي (المخالفة) مع العقاب الصارم، جـ- المخالفة الواضحة لكثير من أحكامها مع أحكام الشريعة الإسلامية .

الفرع الرابع

مدى دقة أحكام "الياسة الكبيرة" في المصادر المملوكية

على الرغم من تصريح المصادر المملوكية بأن مصدر أحكام الياسة التي أوردتها كان كتاب "جهانكشاي" لعطا ملك الجويني[٣٧]، فقد وجدنا أن كثيراً من الأحكام الموجودة في المصادر المملوكية لم ترد في كتاب "جهانكشاي" ويمكننا افتراض احتمالين يفسران هذا الأمر، أولهما اعتماد المصادر المملوكية على مصادر أخرى غير "جهانكشاي" في إيراد الأحكام غير الموجودة في الكتاب الأخير، وثانيهما : اعتماد المصادر المملوكية على روايات شفهية معاصرة في إيراد هذه الأحكام، ونرجح الاحتمال الثاني لسببين،

أولهما: أن المصادر المملوكية لم تذكر أنها اعتمدت على غير الجويني في أحكام الياسة، وثانيهما: وجود العديد من الأشخاص في العصر المملوكي لديهم اطلاع على أحكام الياسة كأيتمش المحمدي وأرقطاي الأشرفي[٣٨] .

وبترجيح هذا الاحتمال نلقي ظلالاً من الشك حول دقة بعض الأحكام الواردة في المصادر المملوكية، ولما كان المقام لا يتسع لتقديم العديد من الأمثلة سنحاول تقديم نموذج لحكم هام ورد في المصادر المملوكية ونُسب إلى " ياسة جنكيزخان الكبيرة " والمتعلق بتحريم الذبح حسب الشريعة الإسلامية وأن من ذبح حسب أحكام الشريعة الإسلامية يكون مصيره الذبح .

حيث أشار عدد من المؤرخين المماليك إلى أن المغول "كانوا يعتمدون في ذبح الحيوان أن تُكتف قوائمه ويُشق جوفه ويُدخل أحدهم يده إلى قلبه ويمرسه فركاً حتى يموت أو يخرجَ قلبه، ومن ذَبَحَ كذبيحة المسلمين ذُبِحْ[٣٩]"، وقد اعتبر المؤرخون السابقون أن هذا الحكم ورد في ياسة جنكيزخان الكبيرة وكان مرجعهم في هذا القول هو المؤرخ "عطاملك الجويني" .

ولكننا نرى أن تحريم الذبح حسب الشريعة الإسلامية والعقاب على هذا الفعل بالذبح لم يكن من ضمن أحكام ياسة جنكيزخان ويُستدل على هذا الرأي بالأمور التالية :

١- أشار" الجويني وَالهَمذاني" إلى أن المغول "أصدروا في بدء أمرهم قانوناً أو حكماً، بألا يذبح أي شخص الخراف والحيوانات الأخرى التي يُؤكل لحمها، بل تُشق صدورها وأكتافها حسب عرفهم[٤٠]" فلم يذكرا أن هذا الحكم له علاقة بالياسة أو بجنكيزخان، بل نسباه إلى المغول بشكل عام، وذلك على خلاف عادتهما عندما يريدان الإشارة إلى ورود حكم ما من ضمن أحكام الياسة، فينسبا الحكم إلى ياسة جنكيزخان ويميزانه عن غيره من الأحكام، ولم يعينا جزاء مخالفة هذا الحكم بالموت أو غيره.

٢- ذكر "الجويني والهمذاني" حادثة لها مغزاها ومفادها "أن رجلاً مسلماً في عهد – أُوكتاي قان بن جنكيزخان – اشترى خروفاً وهمَّ بذبحه داخل بيته، فرآه رجل من القبجاق فتعقبه وصعد فوق سطح منزله وبمجرد أن رآه يضع السكين على حلق الخروف هبط من السطح وقيد ذلك المسلم، ثم سُجِنَ المسلم في بلاط القان، فلما اطلع القان "أوكتاي" على ما حدث قال: إن هذا الرجل الفقير - أي المسلم – قد احترم القانون ولم يخالف قواعدنا، في حين أن هذا التركي خرق القانون، لأنه صعد فوق سطح منزله" وبهذا نجا المسلم وقتل القبجاقي[٤١]. فنجد في الواقعة الآنفة أن القان أوكتاي لم يجرّم فعل المسلم ويذبحه بل قال إنه "قد احترم القانون"، وقد يستنتج من الحادثة أن الأمر المحرم هو الذبح علانية، ولكن يقلل من أهمية هذا الاستنتاج ما سنذكره لاحقاً.

٣- أكد الجويني على أن "جغتاي بن جنكيزخان" كان يضع القوانين الدقيقة وعلى الناس أن ينفذوها بحذافيرها على عدم الذبح على الطريقة الإسلامية، وكانت قوانينه ولا سيما الذبح الشرعي موزعة على الأمصار ومعمولاً بها بدقة، حتى إنه لم يُعرف أن شخصاً ما بخراسان ذبح خروفاً بشكل علني كما أمر المسلمين بأكل لحم الميتة"[٤٢] حيث نجد أن الجويني صرح بأن واضع قوانين تحريم الذبح حسب الشريعة الإسلامية كان جغتاي وليس جنكيزخان في ياسته.

٤- ذكر" الهمذاني" حادثة مفادها "أن جماعة من التجار المسلمين قدموا إلى حضرة القان قوبيلاي (ت٦٩٣ هـ) ، فقدم لهم طعاماً على مائدته فلم يأكلوه ، فلما سألهم عن السبب أجابوا بأن هذا الطعام يعتبر ميتة في الشريعة الإسلامية، فغضب القان وأمر "بألا يذبح المسلمون وأهل الكتاب الأغنام من هذه اللحظة، وإنما يشقون صدورها وأكتافها جرياً على عادة المغول وكل من يذبح غنماً يذبح مثلها ويتصرفون في نسائه وأطفاله وأفراد أسرته وأمواله" وقد استمر هذا المنع سبع

سنوات أصدر بعدها نفس القان أمراً بإباحة ذلك بعد تحريمه نتيجة لنزوح تجار المسلمين وتضاؤل الخراج."[٤٣]

فيمكن الاستنتاج من هذه الحادثة بأن الذبح حسب الشريعة الإسلامية لم يكن محرماً قبل هذه الحادثة بدليل أمر القان "بتحريم ذبح الحيوانات من هذه اللحظة"، أو على الأقل لم يكن يعاقب عليه بالذبح، وقد أشار الهمذاني بأنهم ألزموا المسلمين وأهل الكتاب بشق صدور الحيوانات جرياً علىَ عادة المغول، ولم يقل جرياً على أحكام ياسة جنكيزخان، وهذا التحريم لم يكن دائماً بل اقتصر على سبع سنوات، وعلى هذا فيمكن القول بأن الذي قرر قاعدة "من ذَبَحَ كذبيحة المسلمين ذُبِحْ" هو قوبيلاي، وليس جنكيزخان في ياسته، وأن الأمر لم يكن قانوناً دائماً بل اقتصر على مدة محدودة.

وفي الحقيقة لم تكن الطريقة التي ذكرها المؤرخون في قتل الحيوانات (أي شق صدورها وأكتافها) هي الوحيدة التي كان المغول يقتلون الحيوانات بموجبها، فقد وجدت طريقة أخرى، وبموجبها كان التتار الوافدية زمن السلطان كتبغا يأكلون الحيوانات من غير ذبحها ولا نحرها، بل يُربط الفرس ويُضرب على وجهه حتى يموت ثم يؤكل[٤٤] .

وقد أشار (Ayalon) إلى أنه من غير المعقول أن يفرض المغول طريقتهم في قتل الحيوانات على غيرهم من الناس نظراً لتسامحهم الديني، وأنه إذا اعتبر "المقريزي والعمري " أن حكم تحريم الذبح حسب الشريعة الإسلامية من أحكام ياسة جنكيزخان فيكون عندئذٍ كل أعضاء العائلة المالكة ووجهاء المغول بالإضافة إلى القان نفسه قد انتهكوا الياسة لأنهم مارسوا طريقة ذبح الحيوانات في احتفالاتهم المقدسة، وأن هذا المنع قد عاش في الصين مدة قصيرة، وكان هذا المنع رسمياً فقط، وأن العقوبة القصوى في عهد جغتاي كانت المنع المؤقت الرسمي للذبح الإسلامي في منطقة معينة، وأن طريقة التتار في قتل الخيول لأكلها تظهر أنه حتى في وسط المغول لم يتم التقيد بالطريقة المتعارف عليها .[٤٥]

فنستنتج مما تقدم أن قاعدة تحريم الذبح حسب الشريعة الإسلامية لم ترد في أحكام ياسة جنكيزخان، وأن الذي شرَّعها في أول الأمر كان "جغتاي بن جنكيزخان" من غير تحديد للعقاب، وأنَّ الذي وضع المبدأ كاملاً أي "من ذَبَحَ كذبيحة المسلمين ذُبِحْ" كان "القان قوبيلاي" وكان التحريم لمدة محدودة فقط وليس كقاعدة عامة حتى في حكمه

الفرع الخامس

ماهية "التورا" المنسوبة إلى جنكيزخان

يَرِدُ في المصادر التاريخية مصطلحان لقانونين منسوبين لجنكيزخان هما "الياسة أو اليسق" و "التورا" وقد عرفنا ما هي الياسة، فبقي علينا التعريف "بالتورا" وهل هي شيء متميز عن الياسة أم هما مترادفان؟ والواقع أنه باستعراض النصوص يتضح أنهما شيئان متمايزان، فقد أشار الأسدي إلى أن "جنكيزخان وضع كتاباً مطولاً في درج طويل وسماه -التُرا- حلل فيه ما حرم الله، ووضع اليسق المشؤوم في الطالع المذموم[٤٦] فيتضح من كلام الأسدي أنهما شيئان مختلفان، وذكر ابن تغرى بردى أن "الظاهر بيبرس كان يسير على قاعدة ملوك التتار وغالب أحكام جنكيزخان من أمر "اليسق والتورا" واليسق هو الترتيب، أما التورا فهو المذهب باللغة التركية[٤٧]"، فيلاحظ نفس الأمر عند ابن تغرى بردى، وبعد أن ذكر "ابن عرب شاه" بعض الأحكام التي ابتدعها جنكيزخان قال "ولما فرغ من ترتيب هذه القواعد الملعونة، وقرر عليها الأحكام السلطانية والأمور الديوانية رفعت إلى خزائنه، واسمها بالمغلي "التورة" وتفسيرها الملة المأثورة"[٤٨]

وسنورد فيما يلي ما ذكره ابن عرب شاه من أحكام التورا المنسوبة لجنكيزخان:

١- يُقتل الزاني خنقاً وتكفي شهادة الواحد لإدانة المذنب.

٢- مَن سرق صُلب، فإن كانت السرقة من خيمة أو بيت شعر يُصلب السارق وتُقطع يداه إن كانت بالنقب، ويؤخذ كل ما للسارقين من مال وعين ويُسترق ما لهم من أولاد وينقل للسلطنة مالهم من طريف وتلاد[٤٩].

٣- أحقية دعوى من سبق سواء كَذبَ أو صدق.

٤- جواز استعباد الأحرار وتوارث الفلاح والآكار.

٥- توريث نكاح الزوجة لأقارب الزوج وتداولهم إياها فرداً بعد فرد، ولا تخرج عنهم وإلا زوجوها بمن شاءوا وأخذوا مهرها لهم .

٦- عدم وجود العدة الزوجية، وعدم انحصار الزوجات في عدد محدد .

٧- امتثال أمر السلطان على الفور من غير توان، والجثو بين يدي الحاكم على الركب وقت التحاكم[٥٠].

٨- مطالبة الجار بالجار ومعاقبة البريء بجريمة مرتكب الأوزار[٥١].

٩- عدم تقدم الوضيع على الشريف ولو كان ذا مال وجاه كثيف .

١٠- منع عفو الحاكم وإن عفا المظلوم عن الظالم .

١١- معاملة الخلق بالمروءة والكرم والإحسان، والكف عن الظلم والغارات إلا في طلب الثأر.[٥٢]

ومن خلال الأحكام السابقة يمكن أن نلاحظ ما يلي:

أ- إن غالب أحكام التورا لم يوردها المؤرخون كأحكام في ياسة جنكيزخان الكبيرة.

ب- وجود أحكام تجافي العدالة (كأحقية السابق بالإدعاء وعدم شخصية الجريمة).

جـ- عدم احترام حرية الإنسان (كجواز الاستعباد وتوارث الفلاحين).

د - عدم المحافظة على الأنساب وعدم احترام رغبة المرأة (كعدم وجود العدة وعدم تحديد عدد الزوجات و توريث نكاح الزوجة لأقارب الزوج).

هـ - احتواؤها على أحكام جنائية ومدنية جائرة.

الفرع السادس

الياسة الكبيرة في ميزان الشريعة الإسلامية

اتضح من خلال عرض أحكام الياسة المغولية مخالفة كثير من أحكامها لمبادئ وأحكام الشريعة الإسلامية، وقد أشار جمع من الفقهاء والمؤرخين إلى أن شـــريعة "الياســـة" المغولية تخالف في مبادئها أحكام الشريعة الإسلامية، فقد أكد ابن تيميـــة أن "شـــريعة جنكيزخان كُفرية، ومعلوم من دين الإسلام أن من جوَّز اتباع شريعة غير الإسلام فإنه كاف"[٥٣] وقد أفتى جمع من الفقهاء مثل "حافظ الدين محمد البـــزازي" و"عـــلاء الـــدين محمد البخاري" بكفر من يقدم قواعد الجنكيزخانية على الشريعة الإسلامية[٥٤]، وأشـــار القلقشندي إلى أنه "ربما وافق القليل منها (أي الياسة) الـــشريعة الإســـلامية وأكثرهـــا مخالف لها"[٥٥]، وأكد ابن كثير أن "من ترك الشرع المحكم وتحاكم إلـــى غيـــره مـــن الشرائع المنسوخة كفر، فكيف بمن تحاكم إلى الياسة وقدَّمها عليه؟ من فعل ذلك كَفَـــر بإجماع المسلمين"[٥٦] وأشار (ابن عرب شاه)، إلى أن "قواعد جنكيزخان الملعونة علـــى خلاف الشريعة الميمونة"[٥٧] وذلك بعد ذكره لأحكام التورا، ولا يمكن أن تدخل عقوبات الياسة ضمن مفهوم "التعزير الشرعي" للأسباب التالية:

١- من خصائص التعزير أنه غير مقدر سلفاً، وقدر العقوبة متروك بحسب حالة كل جريمة وبحسب الجاني، فللقاضي في اختيار العقوبة أن يدخل ظـــروف المـــتهم وشخصيته وظروف الجريمة، وله أن يختار لكـــل جريمـــة أو مجـــرم العقوبـــة الملائمة من مجموعة العقوبات التي شُرعت لعقاب الجرائم التعزيريـــة، ولـــه أن يغلظ العقوبة أو يخففها[٥٨]، بينما نجد أن عقوبات الياسة مقـــدرة ســـلفاً وبطريقـــة تحكمية، ولا توجد للقاضي حرية في تقدير العقوبة المناسبة ولـــيس باســـتطاعته تخفيف العقاب.

٢- إن إرادة ولي الأمر في تقرير العقوبات الزاجرة ليست مطلقة، بل إنها مقيدة بقواعد العدالة والتناسب بين الجريمة والعقاب[٥٩]، بينما نجد أن أكثر عقوبات الياسة غير متناسبة مع الجرم المقترف مثل "من بال في الماء قتل، ومن كذب قتل".

٣- أنَّ الباعث على تقرير العقوبة التعزيرية حماية المصالح الإسلامية المقررة لا حماية الأهواء والشهوات، وأن تكون المصلحة متفقة مع نصوص الشريعة ومبادئها العامة وروحها التشريعية[٦٠] بينما نجد أن الباعث على تقرير بعض العقوبات في الياسة مجرد الهوى والتشهي للقان نفسه مثل الحكم الذي يقضي بأن "من رعف وهو يأكل قتل" .

٤- إنّ الفقهاء الذين جوزوا القتل تعزيراً، قرروه في بعض الجرائم الخطيرة " كالمكثر من اللواط، والداعي إلى البدعة في الدين وغيرهما "، التي شرع في جنسها القتل، وتكرر اقتراف الجاني لها وليس بالإمكان دفع شَرِّهِ إلا بهذه الوسيلة، ومن الأئمة – كأبي حنيفة – من لم يجوزوا التعزير بالقتل[٦١]، فإن طبقنا هذه الشروط على بعض الأفعال التي عاقبت عليها الياسة بالقتل مثل "من بال في الماء قتل، من رعف قتل، من كذب أو نمَّ قتل وغيرها" لوجدنا افتقادها فيها وبالتالي يكون عقاب الياسة بالقتل على مثل هذه الأفعال مخالفاً للضوابط التي وضعها الفقهاء في تقرير عقوبة القتل على الأفعال المقررة.

ويتضح كذلك – وللوهلة الأولى – مخالفة أكثر أحكام "التورا" للشريعة الإسلامية مثل "عدم وجود العدة الزوجية، وجواز تعدد الزوجات المطلق، وأحقية السابق للدعوى في الحكم لصالحه".

المطلب الثاني

حقيقة تطبيق الياسة المغولية في السلطنة المملوكية

تمهيد وتقسيم:

ينبغي لمعرفة حقيقة تطبيق الياسة المغولية في السلطنة المملوكية (في سوريا ومصر) من عدمه، أو على الأقل حدود هذا التطبيق إذا وجد، التحقق من تطبيق بعض أحكام الياسة في السلطنة المملوكية، وتحري حقيقة تطبيق الظاهر بيبرس للياسة، وتقصي حقيقة تطبيق الياسة في عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون، والتأكد من الادعاء بتطبيق الحجاب للياسة، وتبين مدى تطبيق الياسة المغولية في المنازعات الإقطاعية.

الفرع الأول

مدى تطبيق بعض أحكام الياسة في السلطنة المملوكية

سوف نعرض على سبيل المثال حكمين وردا في الياسة المغولية لبيان مدى التقيد بهما في السلطنة المملوكية لأن المقام لا يسمح بعرض كافة الأحكام، ولنتحقق إن كانت الياسة قد طبقت فيها حقاً أم لا، وأول الحكمين هو العقاب على اللواط، وثانيهما: النهي عن تضخيم الألفاظ والألقاب.

أولاً – العقاب على اللواط:

ذكرت المصادر المملوكية أن من أحكام الياسة "من لاط قتل "[٦٢] أي عقاب اللواط بالقتل، ومن استعراض المصادر المملوكية نفسها، نجد أن عادة اللواط كانت منتشرة في النخبة المملوكية وغير معاقب عليها، والدليل على ذلك ما يلي:

١- أنكر الملك المغولي .(غازان) على رسول السلطان الناصر محمد بن قلاوون أن أمراء المماليك يتركون النساء ويستخدمون الشباب المرد[٦٣].

٢- اعترف شاب تركي يدعى "عُمير" بمباشرة العديد من أرباب الدولة والدواوين له، فأمر السلطان بنفيه إلى غزة وإقطاعه بها.

٣- كان الأمير أحمد بن السلطان الناصر محمد بن قلاوون يمارس اللواط فلم يعاقب، بل عوقب الملوط بهم.

٤- اشتهر في أيام الظاهر برقوق إتيان الذكور حتى تشبهت البغايا بالغلمان، لينفق سوق فسوقهن، وذلك لاشتهار برقوق بتقريب المماليك الحسان واتهامه وأمراءه بعمل الفاحشة بهم.[٦٤]

٥- كان يُرمى السلطان "الظاهر ططر" بمحبة الشباب.[٦٥]

أما حكم اللواط في الشريعة الإسلامية، فقد أشار ابن تيمية إلى أن حكمه بأن "يقتل الاثنان الأعلى والأسفل سواء كانا محصنين أو غير محصنين"[٦٦]

ثانياً -النهى عن تضخيم الألقاب والألفاظ:

ورد في المصادر الفارسية والمملوكية أن من أحكام الياسة النهي عن تضخيم الألقاب والألفاظ وأن يخاطب السلطان ومن دونه باسمه فقط[٦٧] فإذا طبقنا هذا الحكم على المعمول به في السلطنة المملوكية لوجدنا العكس تماماً، لأنه وجد فيها حرص شديد على تفخيم الألفاظ ووضع الألقاب، فقد كانت ألقاب السلطان على الشكل التالي: "السلطان السيد الأجل الملك الفلاني العالم المجاهد المرابط المثاغر المؤيد المظفر الشاهنشاه فلان الدين والدنيا، سلطان المسلمين، مُحي العدل في العالمين، ملك العرب والعجم والترك، ظل الله في أرضه، القائم بسنته وفرضه، اسكندر الزمان، مملّك أصحاب المنابر والأسرة والتيجان، واهب الأقاليم والأمصار، مبيد الطغاة والبغاة والكفار، حامي الحرمين الشريفين والقبلتين، جامع كلمة الإيمان، لواء العدل والإحسان، سيد ملوك الزمان ...الخ[٦٨]"، وكذلك وردت ألقاب الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري في منشور إقطاعي له على الشكل التالي:" المجلس العالي الأميري الأجلي

العالمي العضدي النصيري الذخري الظهيري عز الإسلام والمسلمين، شرف الأمراء في العالمين، ذخر الغزاة، لسان الدولة، سفير المملكة، عضد الملوك والسلاطين بيبرس الدوادار الملكي المنصوري الناصري[٦٩]"، وبالإضافة لذلك كان السلطان "الناصر" يدعو أمراءه وأرباب الولايات بأحسن أسمائهم وأجل ألقابهم[٧٠].

ومن خلال هذين المثالين نجد أن كثيراً من أحكام الياسة لم يطبق في السلطنة المملوكية، ويبقى الإدعاء بتطبيق أحكامها مفتقراً إلى الأدلة والشواهد التي تثبت ذلك.

الفرع الثاني

مدى تطبيق السلطان الظاهر بيبرس للياسة المغولية

أشار ابن تغرى بردى إلى أن الظاهر بيبرس كان يطبق أحكام الياسة المغولية في حكمه، فذكر أن "الظاهر بيبرس" كان يسير على قاعدة ملوك التتار وغالب أحكام جنكيزخان من أمر اليسق والتورا[٧١] "، بينما نرى أن الظاهر بيبرس لم يطبق الياسة المغولية أثناء سلطنته، ويُبنى هذا الرأي على الأسباب التالية:

أولاً – صرحت غالبية المصادر المملوكية بأن الظاهر بيبرس كان على قدر من الديانة، وأقيمت حرمة الشرع الشريف في حكمه حتى أنه تخاصم بنفسه إلى الشرع الحنيف، وكان بالجملة عوناً ونصراً للإسلام وأهله[٧٢]، فكيف لسلطانٍ على هذا الوصف من الديانة أن يطبق شريعة تتنافى أحكامها مع أحكام الشريعة الإسلامية؟

ثانياً – أشارت بعض المصادر إلى أن الظاهر بيبرس كان يسير في مملكته على نهج أستاذه "الصالح نجم الدين الأيوبي"، فقد ذكر ابن خلدون أن بيبرس "اقتدى أثار أستاذه الصالح نجم الدين أيوب"[٧٣]، وأشار ابن عبد الظاهر إلى أن بيبرس لما تسلم الحكم "شَرَعَ في إقامة الدولة الصالحية على ما كانت عليه من نواميس

ورسوم، وأقام مدة لا يهتم إلا بترتيب الأمور وإحياء الرسوم الصالحية"[٧٤]، ومن المعروف عن نجم الدين أيوب أنه كان يحب أهل الدين وعلماؤه.[٧٥]

ثالثاً - ذكر ابن عبد الظاهر أن (أبغا بن هولاكو) بعث رسالة للظاهر بيبرس سنة ٦٧٧هـ، وأشاد (أبغا) في هذه الرسالة بياسة جنكيزخان وقوانين التتر بطريقة الاستعلاء والتبجح فكان من ضمن جواب بيبرس على الرسالة العبارة التالية "ونحن اليوم الياساه التي لنا هي أعظم من ياساه جنكيزخان؟"[٧٦]، فإن كانت الياسة المغولية قد لعبت دوراً له أي أهمية في حكم بيبرس، فلا يمكن أن يتكلم بيبرس عن ياسة جنكيزخان بهذه الطريقة، بل يتوجب عليه أن يبجل جنكيزخان وياسته - وهذا لم يفعله -، فلذلك يوجد احتمالان في هذا الصدد كما أشار "Ayalon" الأول أن بيبرس استعمل تعبير "ياسة" في سياق كلامه لمجرد استعمال تعبير مشابه للذي استعمله (أبغا)، وهو يقصد الشريعة التي يطبقها المسلمون وهي القرآن والسنة، والاحتمال الثاني أنه كان للمماليك ياسة يتحاكمون بموجبها، وادعى بيبرس أنها أعظم من ياسة جنكيزخان، وبذلك ستكون هذه الياسة شيئاً مختلفاً تماماً عن ياسة جنكيزخان،[٧٧] ويبدو أن الاحتمال الأول هو الأرجح لأن الاحتمال الثاني لا تقوّيه المصادر المملوكية.

رابعاً - لما أرسل الظاهر بيبرس سنة٦٧٧هـ رسلاً للاجتماع بالقان المغولي "بركة"، أعطى أصحاب بركة الرسل معلومات عن طريقة الدخول إلى القان، وعن الممنوع والمسموح في بلاط القان وبلاده[٧٨] فلو كان بيبرس يسير في حكمه على قاعدة ملوك التتار - كما زعم ابن تغرى بردى - لما كان رسله بحاجة إلى تعليمهم كيفية الدخول على القان المغولي وأن يعرفوهم بالمحظور والمسموح في بلاده.

خامساً - ورد في إحدى الرسائل التي بعثها القان بركة المغولي للسلطان بيبرس، أن الأول تخلى عن تطبيق ياسة جنكيزخان[٧٩] وكأنه يزف إليه هذا الخبر ليدلل به

على صدق إسلامه، فلا يعقل أن يتخلى القان المغولي عن الياسة التي هي ميراث آبائه وقانون ملزم لديهم ويتبع تعاليم الشريعة الإسلامية، بينما يتبع السلطان المملوكي المسلم "بيبرس" الياسة التي هجرها القان المغولي نفسه.

وبتقييم رواية ابن تغرى بردى – وهو المؤرخ المملوكي المتأخر عن زمن بيبرس – نجد أنه لم تُدَّعم روايته بأي مؤرخ آخر، باستثناء السيوطي الذي نقل ما أورده حرفياً عن ابن تغرى بردى[80] ولكنه لم يصرح بأن بيبرس طبق الياسة المغولية كما فعل ابن تغرى بردى، ورواية السيوطي تفيد ضمناً أنه رغم معرفته الواسعة لم يعرف أي مؤرخ آخر نسب لبيبرس ما نسبه له ابن تغرى بردى، بالإضافة إلى أن المؤرخين المعاصرين لبيبرس أو القريبين من عصره " كابن عبد الظاهر واليونيني " لم يذكروا ما زعمه ابن تغرى بردى .[81]

أما بخصوص السبب الذي دعا ابن تغرى بردى لإبداء مثل هذا الزعم، فقد رأى "Ayalon" – وهو ما نميل إليه – أن الزهو الشديد الذي تميز به ابن تغرى بردى قاده إلى أن يقدم من حين لآخر آراء تنقصها الدقة والمرجعية وتفتقد للوجود، وأن ملاحظاته حول زمنه أدق من تعليقاته على الفترات المبكرة للسلطنة المملوكية.[82]

الفرع الثالث

مدى تطبيق الياسة المغولية في عصر السلطان الناصر محمد ابن قلاوون

إن الدليل الوحيد المعروف لتطبيق الياسة في السلطنة المملوكية يعود إلى ولاية الحكم الثالثة للناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩ – ٧٤١هـ)، عندما كانت علاقة الصداقة بين المغول والمماليك أقل أهمية بالنسبة للفترة المبكرة القصيرة في عصر (بيبرس)، ويتركز هذا الدليل حول أميرين مملوكيين اكتسبا قوة وتأثيراً خلال حكم الناصر وهما

(أوتامش أو أيتمش المحمدي أو الأشرفي، والأمير أرقطاي الأشرفي)، وسوف نناقش هذا الدليل بالنسبة للأميرين على التوالي:

أولاً – تطبيق الأمير أيتمش المحمدي (ت ٧٣٦ هـ) للياسة المغولية:

عرف الباحثون ما يخص هذا الأمير وتطبيقه للياسة عن طريق المؤرخين المتأخرين الذين اختصروا وحرّفوا النص الأصلي الذي أخذوا عنه، أما المؤرخ الذي نقلوا عنه – بالإشارة إليه أوعدمها – فهو "صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (٦٩٦-٧٦٤ هـ) "والذي كان معاصراً للأميرين "أيتمش وأرقطاي"، فقد قال الصفدي عن الأمير أيتمش المحمدي أو الأشرفي أنه كان" يحكم في بيت السلطان بين الخاصكية باليسق الذي قرره جنكيزخان، وكان يعرف سيرة جنكيزخان ويطالعها ويراجعها"[٨٣]، وعندما ذكر ابن تغرى بردى ترجمة أيتمش تحت اسم أرتمش حرَّف عبارة الصفدي على الشكل التالي بقوله" قال الشيخ صلاح الدين- يقصد الصفدي- وكان أرتمش يحكم بين السلطان وبين الخاصكية بالسياسة واليسق الذي قرره جنكيزخان ويطالعها ويراجعها"[٨٤]

فيلاحظ أن ابن تغرى بردى حرَّف عبارة الصفدي في موضعين هامين:

١- أشار الصفدي إلى أن أيتمش كان "يحكم في بيت السلطان بين الخاصكية باليسق الذي قرره جنكيزخان " بينما نقل ابن تغرى بردى العبارة السابقة على الشكل التالي "وكان يحكم بين السلطان وبين الخاصكية بالسياسة واليسق الذي قرره جنكيزخان"، فأصبح معنى العبارة مختلفاً بعد التحريف، بأن أيتمش كان يحكم بين السلطان وخاصكيته بالياسة، بينما صحيح العبارة يفيد بأن أيتمش كان يحكم بين خاصكية السلطان فحسب بموجب الياسة في بيت الأخير، أي أن السلطان نفسه لم يتحاكم بموجب الياسة.

٢- ذكر الصفدي أن "أيتمش" "كان يعرف سيرة جنكيزخان ويطالعها ويراجعها" بينما نقل ابن تغرى بردى العبارة على الشكل التالي "وكان يحكم بالسياسة واليسق الذي قرره جنكيزخان ويطالعها ويراجعها" فنجد أن المطالعة والمراجعة عند الصفدي وردت على سيرة جنكيزخان، بينما وردت عند ابن تغرى بردى على ياسة جنكيزخان، فبهذا التحريف أدخل ابن تغرى بردى الوهم بوجود نسخة للياسة المغولية في السلطنة المملوكية، وهذا غير حقيقي نتيجة للتحريف عن الصفدي[٨٥].

وأما بخصوص رواية الصفدي حول حكم أيتمش بين خاصكية (حاشية) السلطان الناصر محمد بن قلاوون بموجب الياسة المغولية فيرد عليها عدة ملاحظات:

أ- أجمعت المصادر المملوكية على ارتفاع منار الإسلام في أيام الناصر محمد وأنه كان يشاور القضاة في أموره ويرجع إلى ما يقولون، وأشارت إلى حرصه على أداء المناسك الدينية وبناء الجوامع واهتمامه بمعرفة متولي بعض الوظائف - كالمحتسب - بالشريعة الإسلامية[٨٦]، فهذا الحرص على إقامة الشريعة مع تخويل السلطان لأمير معين في الحكم على حاشيته بموجب تشريع يتعارض مع الشريعة الإسلامية، أمر يدعو للشك في إحدى المقولتين، ولما كانت المصادر مجمعة على حرص الناصر علي إقامة الشريعة الإسلامية، فإننا نميل إلى الشك في المقولة الأخرى.

ب- لم يذكر المؤرخان المعاصران للناصر محمد (ابن أيبك الدواداري وشمس الدين الشجاعي[٨٧]) الرواية التي قدمها الصفدي بالإضافة إلى أن بعض المؤرخين اللاحقين "كابن حجر العسقلاني" أغفل ذكر تطبيق الأمير أيتمش للياسة مع أنه ذكر معرفته بأحكامها [٨٨]، فهذا الإغفال وعدم الذكر يستوجب التوقف والنظر.

جـ- ذكر المقريزي حادثة تخص الأمير "أيتمش"، ولهذه الحادثة دلالة هامة في هذا الصدد ومفادها "أن الناصر محمد عندما بعث الأمير أيتمش إلى القان المغولي "بوسعيد" سنة ٧٢٢هـ، أراد القان إكرام الأمير "أيتمش" فقدم له خمراً فامتنع

أيتمش من شربه واعتذر للقان بأنه قد حج، فأعفاه القان من شربه[٨٩]"، فامتناع "أيتمش" من شرب الخمر مع القان المغولي يدل على تمكن الإسلام منه، مع أن شرب الخمر ليس محرماً في الياسة المغولية بل مسموح بشربه ثلاث مرات في الشهر[٩٠]، وكان كثير من القانات يحتسون الخمر، فكيف يطبق أيتمش الياسة المخالفة للشريعة الإسلامية مع حرصه على عدم مخالفة أحكام الأخيرة، لدرجة أنه لم يقبل مخالفتها بحضور القان المغولي نفسه، ولكن قد يقال بأن أيتمش كان يطبق الياسة قبل حجّته، فإن قبلنا هذا القول فستكون نتيجته أن تضيق الفترة الزمنية التي طبق أيتمش فيها الياسة على الخاصكية في الحدود الزمنية (٧٠٩-٧٢٢ هـ)[٩١].

ولكننا نميل بشكل عام إلى الشك في صحة الواقعة بناءً على الأسباب المتقدمة، وإن سلمنا بصحتها فسيكون هذا التطبيق على حاشية الناصر محمد فقط، وبما لا يخالف أحكام الشريعة الإسلامية نظراً لتمسك "أيتمش" بأحكامها، ولأن بعض المؤرخين أشاروا إلى أن بعض أحكام الياسة متوافقة مع أحكام الشريعة الإسلامية[٩٢] بالإضافة إلى أن واقع عدم معرفتنا الكاملة بأحكام الياسة ترجح احتمال وجود العديد من أحكامها التي لا تخالف الشريعة الإسلامية.

ثانياً -حقيقة تطبيق الأمير أرقطاي الأشرفي (ت٧٥٠هـ) للياسة المغولية:

أشار الصفدي إلى أنه "كان أرقطاي وأيتمش في اللسان التركي فصيحان، وكان يُرجع إليهما في الياسة التي هي بين الأتراك" [٩٣]، ونرى أن هذه العبارة لا تدل على أن أرقطاي كان يحكم بموجب الياسة المغولية بناءً على السببين التاليين:

١- إن عبارة "وكان يلجأ إليهما في الياسة التي هي بين الأتراك " قد جاءت بصيغة عامة[٩٤]، فقد تدل على الحكم بموجبها، وقد تدل على المعرفة العامة بهذه المدونة

دون الحكم بها، أي " كان يرجع إليهما من يُريد معرفة أحكامها لمعرفتهما بهـــا"، ونرجح أن قصد الصفدي في هذه العبارة بكلمة "الرجوع" هو لمجـــرد المعرفـــة والاطلاع وليس للتحاكم بموجبها، ويقوي ما نرجحه أن ابن حجر العسقلاني قـــال عن أرقطاي أنه كان "عارفاً بالسياسة – أي الياسة –[٩٥] "، ولم يقل أنه كان يحكـــم بالسياسة، وبالإضافة إلى أن ابن تغرى بردى أغفل ذكر معرفة أو تطبيق أرقطاي للياسة[٩٦].

٢- أشار ابن حجر إلى أن " الناصر محمد" أرسل أرقطاي مع تنكز نائـــب الـــشام، وأمر الأخير ألا يقطع أمراً دون أرقطاي الذي استمر يجلس إلى جانبـــه، فـــسلك تنكز النائب سبل الحرمة والناموس البالغ وكان مثابراً على عمل الحق ونـــصرة الشرع وكان فيه ديانة في الجملة"[٩٧]، فإن افترضنا أن أرقطاي كان يحكم بالياســـة فكيف تستقيم أحكامه مع أحكام النائب الذي كان مثـــابراً علـــى نـــصرة الـــشرع الحنيف، بالإضافة إلى أن المصادر لم تذكر حدوث خلاف بينهما في الحكم رغـــم أن المقريزي قال عن أرقطاي إنه "مِحْجَاج" [٩٨]، فنستنتج من ذلك أن أرقطاي كان متابعاً لتنكز في الحكم بموجب الشريعة وليس الياسة، وأن الأمر لا يتعدى مجرد معرفته بالياسة وباللغة المغولية، ويدل عليه كذلك أن أرقطاي لما تولى نيابة حلب (سنة ٧٤٦هـــ) أبطل الخمور والفجور وسُرَّ به الحلبيون سروراً عظيماً[٩٩]

الفرع الرابع

مدى تطبيق الحجّاب للياسة المغولية

ادعى "المقريزي" بأن الحجّاب في السلطنة المملوكية قد طبقوا في أحكـــامهم الياســـة المغولية، فقد ذكر أنه "كانت أحكام الحجاب أولاً يقال لها حكم السياسة، وهـــي لفظـــة شيطانية لا يعرف أكثر أهل زمننا اليوم أصلها ويتساهلون في التلفظ بها ويقولون :هذا الأمر مما لا يمشي في الأحكام الشرعية وإنما هو من حكم السياسة، ويحسبونه هينـــاً

وهو عند الله عظيم"[100] ثم أوضح المقصود بالسياسة التي طبقها الحجاب بقوله "وليس ما يقوله أهل زمننا في شيء من هذا، وإنما هي كلمة مُغلية أصلها "ياسة" فحرفها أهل مصر وزادوا بأولها سيناً فقالوا "سياسة" وأدخلوا عليها الألف واللام، فظن من لا علم عنده أنها كلمة عربية، وما الأمر فيها إلا ما قلت لك"[101] ثم ذكر أن الوافدية المغول – المهاجرون المغول اللاجئون إلى السلطنة – بعد أن فوضوا لقاضي القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية والأقضية الشرعية "احتاجوا في ذات أنفسهم إلى الرجوع لعادة جنكيزخان والاقتداء بحكم الياسة، فلذلك نصبوا الحاجب ليقضي بينهم فيما اختلفوا فيه من عاداتهم، والأخذ على يد قويهم وإنصاف الضعيف منه على مقتضى ما في الياسة"[102]، ولذلك سنحاول في البداية التحقق من صحة إدعاء المقريزي السابق، ثم نبحث في الأسباب التي دعته إلى هذا الإدعاء .

الفقرة الأولى

مدى صحة ادعاء المقريزي المتعلق بتطبيق الحجاب للياسة

نعتقد أن الحاجب المملوكي لم يكن يطبق في أحكامه الياسة المغولية، ويُبنى هذا الرأي على الأسانيد التالية :

أولاً: ننطلق في البداية من عبارات المقريزي نفسها، حيث يوجد اختلافاً في نطاق تطبيق الياسة من حيث الأشخاص أو الفئات المشمولة بتطبيق هذه المدونة عليهم، ففي مطلع الفصل تكلم عن أحكام الحجاب بشكل عام وأرجع جميعها إلى أحكام الياسة، مع العلم أن الحاجب المملوكي كان يحكم بين سائر أفراد الجيش وحتى بين العامة ثم أشار إلى احتياج "الوافدية المغول" للحكم عليهم وفق الياسة واضطلاع الحاجب بهذه المهمة، فنجد أنه أشمل أولاً حكم الحاجب سائر أفراد الجند والعامة ثم خصصها ثانية "بالوافدية المغول"، فإن كان للوافدية المغول – دون غيرهم من الوافدية– احتياج لتطبيق الياسة عليهم، فلا يوجد هذا المبرر

لدى غيرهم من فئات الجيش من الأجناس المختلفة، وكذلك بالنسبة للعامة، فهذا الاضطراب في كلام المقريزي يثير الشك في إحدى المقولتين أو في كلتيهما، بالإضافة إلى أن تبريره لاحتياج الوافدية المغول للحكم عليهم بموجب الياسة وهو الأخذ على يد قويهم وإنصاف الضعيف منه لم يكن مقنعاً، فلا نعتقد أن أحكام الشريعة الإسلامية قاصرة عن حماية الضعيف من ظلم القوي، ولو برَّره بأنه نوع من الحنين للماضي لكان أقرب إلى القبول.

ثانياً: إن المقريزي- حسب اطلاعنا - هو المؤرخ الوحيد من بين مؤرخي ومعاصري المماليك، الذي نسب للحاجب تطبيق الياسة المغولية، فلم يذكر بقية المؤرخين ذلك، فهل كانوا غافلين عن هذا التطبيق أم كانوا من جملة مَنْ "لا علم عنده" - حسب تعبير المقريزي السابق-، أم أنه ادعاء لا أساس له من الصحة ؟ وهذا الأخير هو ما نميل إليه.

ثالثاً: لم يذكر المقريزي أو غيره من المؤرخين مثالاً عملياً لحكم واحد قضى فيه الحاجب بموجب الياسة المغولية .

رابعاً: إن العديد من أمراء المماليك خُولوا سلطة الحكم بين المماليك وبين الناس أيضاً، بالإضافة للسلطان نفسه مثل نائب السلطنة والأستادار وأمير رأس نوبة وأتابك العسكر والدوادار ومقدم المماليك وأمير مجلس[١٠٣]، فلمَ خص المقريزي الحاجب أو حاجب الحجاب بتطبيق الياسة دون غيره من الأمراء الحاكمين[١٠٤]، على الرغم من أن الحاجب لا يختلف عنهم في الأصل أوالجنس، فالحاجب كان مملوكاً كغيره ورقّي إلى مرتبة أمير، ولا يختلف عن غيره من حيث الكفاءة ولا المقدرة، وعدد الحجاب ذوي الأصل المغولي - والذين قد يفترض فيهم المعرفة بالياسة -قليل جداً بالنسبة إلى الحجاب من بقية الأجناس، وقد أشار المقريزي نفسه إلى أنه "عَرَفَ النظر في المظالم منذ عهد الدولة التركية بديار مصر والشام - بحكم السياسة - وهو يرجع إلى نائب السلطنة وحاجب الحجاب ووالي

البلد ومتولي الحرب بالأعمال [١٠٥]"، فلِمَ لم يحكم بقية الأمـراء بالياسـة مثـل الحاجب على الرغم من عدم تميزه عنهم بأي شيء؟.

خامساً: وفي الحالة الوحيدة التي ذكر فيها تطبيق الياسة في السلطنة المملوكية والتـي ذكرها الصفدي بخصوص حكم "أيتمش" بين خاصكية السلطان الناصـر محمـد بموجب الياسة المغولية، لم تذكر المصادر أنه كان حاجبـاً أو تـولى منـصب الحاجب فيما سبق[١٠٦]، وينطبق نفس القول على "أرقطاي" الـذي كـان عارفـاً بالياسة[١٠٧].

سادساً: إن عدد الأمراء الذين صرحت المصادر بمعرفتهم بأحكام الياسة كـان قلـيلاً جداً مثل " أيتمش و أرقطاي" فكيف يطبق الحجاب أو غيرهم من الأمراء الياسة المغولية وغالبهم يجهل أحكامها، بالإضافة إلى عدم وجود نـسخة للياسـة فـي السلطنة المملوكية لكي يُحتَكَم إليها عند الاختلاف في بعض أحكامها.[١٠٨]

سابعاً: صرحت غالبية المصادر المملوكية بأن أغلـب الـسلاطين المماليـك كـانوا معظمين للشريعة، ويحبون العلماء والفقهاء ويؤدون الفروض والمناسك الدينية، وكان للبعض منهم معرفة بالفقه وفروعه، مثل المؤيد شيخ، والظـاهر جقمـق، والظاهر تمربغا الظاهري، والملك الـصالح إسـماعيل، والأشـرف برسـباي، والأشرف شعبان بن حسين[١٠٩] وغيرهم من السلاطين، وينطبق نفس القول على نواب السلطنة مثل الأمير الحاج أل ملك، والأمير سيف الدين أرغون الناصـري والأمير تنكز[١١٠] وغيرهم من النواب، فما دام عماد السلطنة بالسلاطين ونـوابهم وغالبهم كان يميل للشريعة الإسلامية لأنهم جلبوا أرقاء صـغاراً وشـبّوا فـي مصر، فلا يعقل أن يقبلوا بتطبيق شريعة تخـالف قواعـدها أحكـام الـشريعة الإسلامية.

ثامناً: أشرنا- فيما سبق - إلى حكم الفقهاء بكفر من قدّم أحكام الياسة علـى أحكـام الشريعة الإسلامية أو تحاكم بموجبها، كابن تيمية وابن كثير وغيرهما[١١١]، وقـد

جاء كلامهما عند ذكرهما لأحكام الياسة واعتقاد التتر في جنكيزخان، أي عند إيرادهما لأخبار جنكيزخان والتتر بشكل عام، وكان مناسبة رأيهما السابق بيان الحكم الشرعي العام في تطبيق الياسة من جهة وكذلك بيان حكم الشرع في القانات المغول الذين أسلموا ولم تزل تطبق الياسة في بلادهم[١١٢] من جهة أخرى، ومما يدعم النقطة الأخيرة إشارة ابن حجر العسقلاني إلى أن "تيمورلنك كان يقدم شريعة جنكيزخان ويجعلها أصلاً، ولذلك أفتى جمع بكفره مع أن شعائر الإسلام في بلاده ظاهرة"[١١٣]، فلو كانت الياسة مطبقة في السلطنة المملوكية – كما زعم بعض المؤرخين – لاعترض على تطبيقها الفقهاء والعلماء الأجلاء الذين لا يهادنون السلاطين ولهم صلابة في الدين أمثال النووي والعز بن عبد السلام وابن تيمية وسراج الدين البلقيني وابن حجر العسقلاني وغيرهم، فلم تذكر المصادر مثل هذا الاعتراض، ولَشَمِلَ حكم التكفير السابق السلاطين المماليك الذين زُعم أنهم قد طبقوا الياسة، ولم نجد كذلك اضطهاداً من السلاطين لمُكفّري الحاكم بالياسة المغولية، فيتبدى لنا احتمالان في هذا الصدد، أولهما: أن السلاطين المماليك قد طبقوا أو سمحوا بتطبيق الياسة في السلطنة، ولم يعترض أحد من الفقهاء والعلماء والقضاة على تطبيقها – وهذا ما نستبعده –، وثانيهما: أن الياسة لم تطبق في السلطنة المملوكية، ولذلك كان عدم اعتراض الفقهاء والعلماء نتيجة طبيعية لانعدام التطبيق[١١٤]، وهذا ما نرجحه للحقائق المشار إليها آنفاً ولثقتنا في فقهائنا وعلمائنا الأجلاء وفي ورعهم وجهادهم في الحق وعدم سكوتهم على الباطل.

الفقرة الثانية

الأسباب التي دعت المقريزي إلى الإدعاء بتطبيق الحاجب للياسة

إن أهم الأسباب التي دفعت المقريزي للادعاء بتطبيق الحاجب للياسة، هي تنامي سلطة الحجاب على حساب سلطة قضاة الشرع، فقد كان المقريزي قلقاً بشدة لأفول

سلطة القضاة ومنح الحجاب سلطة الحكم في الأمور الشرعية ويضاف إليه مسلك الحجاب الظالم وأحكامهم الجائرة، فانتهز المقريزي فرصة الميل الموجود عند المؤرخين في أيامه في تحريف مصطلح " الياسة " إلى " السياسة "، وزعم بتطبيق الحجاب للياسة من أجل بث الرعب عند الناس وإقناعهم بأن الحاجب يحاكمهم بمقتضى قانون وثني يتعارض مع الشريعة الإسلامية، فيكون نتيجة ذلك نفور العامة والخاصة من الحجاب وتقليص

سلطتهم القضائية[١١٥]، وسنتكلم عن هذين السببين على التوالي :

أولاً – تنامي سلطة الحجاب على حساب سلطة قضاة الشرع :

كان صاحب الحجبة في أوائل السلطنة المملوكية "ينصف من الأمراء والجند تارة بنفسه، وتارة بمشاورة النائب إن وجد وتارة بمشاورة السلطان، وإليه تقديم من يعرض ومن يرد، وعرض الجند وما ناسب ذلك، و أما مع عدم النيابة فهو المشار إليه في الباب والقائم مقام النواب في كثير من الأمور"[١١٦] وكان حكمه لايتعدى النظر في مخاصمات الأجناد واختلافهم في أمور الإقطاعات ونحو ذلك[١١٧]، ثم تطورت اختصاصات الحاجب بمرور الزمن لتشمل الحكم بين المدنيين ثم اتسع ليشمل السماح له بالحكم في الأمور الشرعية، وكانت أول خطوة في هذا التوسع سنة ٧٣٠ هـ، حيث كانت هذه السنة من دون نائب للناصر محمد بن قلاوون، فكان المتحدث في الجيوش وشكاوى الناس الأمير "سيف الدين ألماس الحاجب" الذي جلس في منزلة النيابة إلا أنه لم يسمَّ بالنائب ووقف الناس بين يديه[١١٨] وفي سلطنة الكامل شعبان ابن محمد عُين الأمير "شمس الدين أق سنقر" حاجباً بين الناس كما كان يحكم نائب السلطنة وعَين نفس السلطان في سنة ٧٤٦ هـ الأمير "بيغرا" حاجباً كبيراً ليحكم بين الناس وعين الأمير "رسلان بصل" حاجباً ثانياً مع "بيغرا" ورخص له الحكم بين الناس، وعندما انتهى حكم السلطان شعبان وخلفه أخوه المظفر حاجي عين الأمير "سيف الدين أرقطاي" نائباً للسلطنة، فعاد أمر الحجبة إلى عهدها القديم[١١٩]، واستمر

الحال على ذلك حتى رخَّص السلطان الصالح صالح بن محمد بن قلاوون سنة ٧٥٣ هـ للأمير الحاجب (سيف الدين جرجي) التحدث في أمر أرباب الديون وأن يفصلهم من غرمائهم بأحكام السياسة، وأشار المقريزي إلى أنه "لم يكن من عادة الحجاب فيما تقدم الحكم في الأمور الشرعية، فاستمروا على ذلك فيما بعد، ومن حينئذٍ صارت الحجاب بالقاهرة وبلاد الشام تتصدى للحكم بين الناس فيما كان من شأن القضاة الحكم فيه[١٢٠]"، وكان سبب السماح للحاجب (جرجي) في الحكم بالأمور الشرعية، شكوى تجار العجم سنة ٧٥٣ هـ من عدم استيفاء حقوقهم من تجار القاهرة لأنهم أثبتوا إعسارهم عند القاضي الحنفي، فأنكر السلطان على القاضي ذلك ومنعه من التحدث في أمر التجار المدينين وتولى الأمر الحاجب "جرجي" الذي أخرج المدينين السجناء وعاقبهم، وحصَّل للتجار العجم أموالهم، "وتمكن الحجاب من حينئذٍ من التحكم بالناس بما شاؤوا، وصاروا يحكمون في كل جليل وحقير من الناس سواء كان الحكم شرعياً أو سياسياً بزعمهم[١٢١]"، ومع ذلك قال ابن إياس عن الصالح صالح أنه كان "ديناً خيراً وكانت أيامه كلها عدل بين الرعية، وكان كثير الخير قليل الأذى[١٢٢]"

وقد حرص بعض السلاطين - كبرقوق - على مرور الشكوى أو التظلم على القاضي أو الحاجب، فكان يسأل المتظلم إن كان قد عرض قضيته على أي منهما، فإن كان جوابه بالنفي أمر بضربه وإخراجه، وإن كان جوابه بالإيجاب ومع ذلك تظلم بحجة عدم إنصافه في مظلمته، فيحكم عندئذٍ السلطان بينه وبين غريمه، وعلق ابن الفرات بأنه لم يعهد ذلك من ملك ممن قبله ممن أدرك أو سمع[١٢٣].

وقد وقع في بعض الحالات تصادم بين القضاة ونوابهم وبين الحجاب، رجحت في بعضها كفة القضاة وفي بعضها الأخر كفة الحجاب ورافقتها في بعض الأحيان محاولات من الدولة لتقليص صلاحيات الحجاب[١٢٤].

ويبدو أن اتساع اختصاصات الحاجب للحكم في الأمور الشرعية سنة ٧٥٣ هـ لم يكن شاملاً لجميع الأمور الشرعية، فمع ذلك بقي مجال يقتصر الحكم فيه على القضاة

حتى سنة ٧٩١ هـ، ومجاله الحكم بالحدود وقطع الأعضاء وجرائم القتل[١٢٥]، ودليله أن الأمير الكبير "الناصري" لما حكم بحقن دم "ابن سبع" سنة ٧٩١هـ بعد أن أُتهم بالكفر، علق المقريزي على هذه الحادثة بقوله " ولم يعهد قط أن أحداً من أمراء الترك ولا ملوكهم حكم في شيء من الأمور التي من عادة القضاة الحكم فيها[١٢٦] " .

وحقيقة وظيفة الحجابة أنها داخلة ضمن نظام ولاية المظالم، فقد أشار القلقشندي إلى أن موضوع الحجبة في العصر المملوكي هو التصدي للحكم في المظالم، وعندما تكلم عن ولاية المظالم أشار إلى أن " موضوعها قود المتظالمين إلى التناصف بالرهبة وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة، وهي شبيهة بالحجوبية الآن - أي في عصره - في هذا المعنى" [١٢٧] .

وهذا التوسع في اختصاصات الحجاب على حساب اختصاصات قضاة الشرع، أزعج المقريزي وأقلقه بأفول سلطة القضاة وهيبتهم وبزوغ نجم الحجاب وسيطرتهم، فجعله يعزو إلى الحجاب تطبيق شريعة وثنية كي يُنفر العامة والخاصة منهم ومن أحكامهم.

ثانياً - المسلك الظالم للحجاب في السلطنة المملوكية :

كان للمسلك العام للحجاب في السلطنة المملوكية الذي اتسم بالشدة والظلم والجور أثره في ادعاء المقريزي بأنهم يحكمون بالياسة، وقد اتفق المؤرخون المتأخرون - بالإضافة للمقريزي - في رأيهم بجهالة وظلم الحجاب في أيامهم [١٢٨]، فعندما تكلم المقريزي عن الحاجب في أيامه قال " وصار الحاجب اليوم اسماً لعدة جماعة من الأمراء ينتصبون للحكم بين الناس، لا لغرض بل لتضمين أبوابهم بمالٍ مقرر في كل يوم على رأس نوبة النقباء، وفيهم غير واحد ليس لهم على الإمرة إقطاع، وإنما يرتزقون من مظالم العباد، ونقيب الحاجب اليوم مع رذالة الحاجب وسفالته وتظاهره بالمنكر بما لم يعهد مثله يتظاهر به أطراف السوقة "[١٢٩].

ولما ذكر "ابن تغرى بردى" وضع الحجاب في سابق عهد السلطنة وما تردت إليه أوضاع الحجابة في زمنه، علق على ذلك بقوله "ما هذه الحرافيش التي يلونها من

الجهلة الفسقة" [١٣٠] ولما تكلم عن حاجب الحجاب الأمير "قاني باي" قال أنـــه "لا مـــن العلماء ولا من العقلاء" وفي ترجمته لحاجب الحجاب "قرقماس ت ٨٤٢هـــ" قال عنه أنه "باشر الحجوبية بحرمة زائدة وعظمة وبطش في الناس بحيث هابــه كــل أحــداً، وصار يخلط في حكوماته ما بين ظلم وعدل ولين وجبروت "[١٣١]، وذكر السخاوي أن حاجب الحجاب "تمر من محمود شاة" كان "جائراً في الأحكام متــساهلاً فـــي الـــدماء والأموال، قاسى منه الناس شدة"[١٣٢]، وقال عن حاجب حجاب حلب "طوغان العثمـــاني ت ٨٥٢هـــ" أنه "كان سفاكاً للدماء"[١٣٣]، وأشار ابن حجر العسقلاني إلى أن الحاجـــب "أقباي الكبير" كان "غشوماً ظلوماً"[١٣٤]، وذكر ابن ايبك الدواداري أن الحاجب "ألمـــاس" "كان فيه من الظلم والجور والعسف وعدم الإنصاف إلى مالا نهاية "[١٣٥]، وقد شـــارك الناس في العصر المملوكي المؤرخين في هذه النظرة للحجاب، فلما صُـــرِفَ حاجـــب الحجاب "قماري" عن مباشرة وظيفته سنة ٧٦٥ هـــ وأُخِذَ منه القضاء، استبشر بـــذلك كثير من الناس لكثرة ما كان يفتأت على الأحكام الشرعية[١٣٦].

وهكذا فقد اتسم مسلك غالبية الحجاب في العصر المملوكي بالظلم والعسف والجـــور، ولعل من أهم أسباب هذا المسلك هو تعيين الحجاب بالرشوة، وإلى هـــذا أشـــار ابـــن تغرى بردى بقوله "والذي يبذل المال لا بُدَ له من الظلم"[١٣٧]، بالإضافة إلى اتخاذ هـــذا المنصب وسيلة للارتزاق والإثراء السريع، وعلى الرغم من ذلك لم ينكر المؤرخـــون أن بعض الحجاب كانوا على دين ومشاركة في الفقه ومحبة للفقهـــاء وذوي ســـيرة حسنة[١٣٨]

ومن المهم في هذا الصدد أن نذكر تعليق "المقريزي" علـــى الحادثـــة التـــي وقعـــت سنة٧٨١هـــ والمتعلقة "باحتماء رجل بأحد نواب قاضي قـــضاة الحنفيـــة خوفـــاً مـــن الحاجب الذي اشتكى للسلطان من حماية النائب لهذا الرجل، فأمر السلطان بعزل نائب القاضي وضرب الرجل المحتمي"، فقد علق "المقريزي" على هذه الحادثـــة بمـــا يلـــي "فكان هذا من الحوادث التي لم تُعهد واتضع بها جانـــب القـــضاة، وانبـــسطت أيـــدي

الحجاب في الأحكام بما تهوى أنفسهم، وزين لهم شيطانهم بغير علم ولا دين يزعمهم"[١٣٩]، فنرى أن لهذه العبارة دلالة هامة، حيث تكشف الأسباب التي دعت المقريزي للادعاء بتطبيق االحجاب للياسة، وهي أن حنقه على الحجاب لم يكن مرده ظلمهم الناشئ عن تطبيقهم للياسة المغولية بل لظلمهم الناتج عن الحكم بالهوى والرغبة التي يُمليها عليهم الشيطان لجهل أغلبهم بالشريعة وأحكامها.

ويبقى لنا تساؤل في هذا المجال وهو، لماذا لم يعترض المؤرخون اللاحقون للمقريزي على هذا الإدعاء – على فرض أنه إدعاء كما نزعم -؟ ونعتقد أن السبب في ذلك هو أن المؤرخين اللاحقين شاركوا المقريزي في سخطهم على تصرفات الحجاب في زمانهم، فلذلك لم يعترضوا على كلامه ولكنهم في نفس الوقت لم يؤيدوه في ادعائه، وجعلوا من حسن نية المقريزي وغيرته على قضاة الشرع شفيعاً له من إنكارهم ما يدعيه.

ويطرح موضوع عرض المقريزي لأحكام "الياسة" دلالة معينة في مدى الاعتماد على أقواله وعلى الثقة والمصداقية في قبول بعض أحكامه، ويتفرع هذا الموضوع إلى شقين:

١- المصدر الحقيقي الذي اعتمد عليه المقريزي في عرض أحكام الياسة.

٢- طريقة عرض المقريزي لأحكام الياسة .

١- المصدر الحقيقي الذي اعتمد عليه المقريزي في عرض أحكام الياسة:

أورد المقريزي – قبل أن يشرع في ذكر محتويات الياسة – العبارة التالية: "أخبرني العبد الصالح الداعي إلى الله، أبو هاشم أحمد بن البرهان رحمه الله أنه رأى نسخة من الياسة بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد" ثم قال "ومن جملة ما شرعه جنكيزخان في الياسة أن مَنْ.... الخ "[١٤٠]، فلم يصرح المقريزي بأن "أبو هاشم أحمد بن البرهان

"هو مصدره في معرفة أحكام الياسة، ولكن طريقة عرضه للكلام تُوهم بذلك[١٤١]، ولكن الحقيقة أن مصدر معلوماته حول أحكام الياسة هو المؤرخ "ابن فضل الله العمري ٧٠٠ -٧٤٩هـ" في موسوعته الشهيرة "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" وبمقارنة النصوص التي أوردها المقريزي بخصوص أحكام الياسة مع ما يقابلها عند العمري، نجد أنها قد وردت بنفس النظام وبشكل متطابق تقريباً في المَقْطَعين، لدرجة أنه لا توجد فقرة واحدة في مقطع المقريزي لم يذكرها العمري، وهذا بمفرده دليل حاسم على اعتماد الأول على الثاني، وأن مقارنة كل فقرة عند المقريزي بما يقابلها عند العمري توضح شبه التطابق بين الفقرتين [١٤٢]، ولإثبات ذلك نورد جزءاً من نص العمري وما يقابله في نص المقريزي، فقد أشار العمري إلى أن من أحكام الياسة "أن مَنْ زنى قُتِلْ، سواء كان محصناً أو غير محصنٍ، ومن لاط قُتِلْ، ومن تعمد الكذب قُتِلْ، ومن سحر قُتِلْ، ومن تجسس على قوم قُتِلْ، ومن دخل بين اثنين يختصمان فأعان أحدهما قُتِلْ، ومن أُعطَى بضاعة وخسر ثم أعطي ثانية وخسر إلى الثالثة قُتِلْ .... "[١٤٣] وفي مقابل النص عند المقريزي "أن من جملة ما شرعه جنكيزخان في الياسة أن مَن زنى قُتِلْ، ولم يفرق بين المحصن وغير المحصن، ومن لاط قُتِلْ ومن تعمد الكذب أو سحر أو تجسس على أحد أو دخل بين اثنين وهما يختصمان وأعان أحدهما على الآخر قُتِلْ، ومن أعطي بضاعة فخسر فيها فإنه يُقتل بعد الثالثة ...الخ[١٤٤]" حيث نجد أن التطابق بين النصين شبه كامل، وذلك يعني أن المقريزي أغفل ذكر مصدر معلوماته حول الياسة ونسب هذه الأحكام لنفسه.

٢- طريقة عرض المقريزي لأحكام الياسة:

من الملاحظ أن المقريزي في عرضه لتلك الأحكام، خلط بين الأحكام التي تنسب للياسة، وتلك التي تنسب للعادات والأعراف المغولية، ونسب الجميع إلى أحكام الياسة،[١٤٥] فنجد أن (١٢ فقرة فقط) من الفقرات التي ذكرها المقريزي وهي (٢٤ فقرة) تتطابق مع رواية العمري حول أحكام الياسة، أما بقية الفقرات (١٢ فقرة) فقد

أدخلها "العمري" في نطاق عادات وآداب المغول وليس ضمن أحكام الياسة، بينما نسب "المقريزي" جميع الفقرات التي نسخها عن العمري إلى ياسة جنكيزخان، فتكون النتيجة أنه نسب لياسة جنكيزخان كثيراً من الأحكام التي لم توجد فيها[١٤٦].

فالذي نستفيده من هذا العرض، أنه يجب تحري الدقة في الاعتماد على بعض الأحكام والمعلومات التي يقدمها المقريزي[١٤٧] وأن اضطرابه في تقديم أحكام الياسة يدعم شكّنا في صحة ما يدعيه من تطبيق الحجاب للياسة المغولية.

الفرع الخامس

تقييم القول بتطبيق الياسة المغولية في المنازعات الإقطاعية

أشرنا فيما سبق إلى أن بعض الباحثين قد زعموا تطبيق الياسة المغولية على المنازعات الإقطاعية في العصر المملوكي، حيث ذهبت بعض الآراء إلى أن الأحكام القانونية التي كان يتم بموجبها الفصل في المنازعات الإقطاعية في العصر المملوكي هي أحكام المدونة المغولية التي وضعها جنكيزخان والمعروفة بـ"الياسة الكبيرة"، ومن القائلين بهذا الرأي "Poliak" الذي أكد في أكثر من موضع على أن "الدعاوى القضائية المتعلقة بالجنود والأمراء وإقطاعاتهم، لم يكن الحكم فيها منوط بقضاة الشرع، بل اضطلع بها الحجاب وحكموا فيها وفقاً للسياسة، وهي القوانين التي تعتمد على ياسة جنكيزخان الكبيرة[١٤٨]"، وذهب بعض الباحثين إلى أن "طوائف المماليك كانت تخضع في علاقتها المدنية وخاصة فيما يتعلق بالإقطاعات لأحكام اليساق أو الياسة المغولية وليس لأحكام الشريعة الإسلامية[١٤٩]".

ولكننا نعتقد أن الياسة المغولية لم تطبق في صدد المنازعات الإقطاعية، ويُبنى هذا الرأي على الأسانيد التالية:

أولاً: خلصنا من المناقشات السابقة إلى أن الياسة لم تطبق في السلطنة المملوكية بشكل عام، وينطبق عدم التطبيق على المنازعات الإقطاعية وغيرها من المنازعات الأخرى.

ثانياً: من خلال عرض أحكام الياسة - أو المعروف منها - في المصادر الفارسية والمملوكية، لم نجد حكماً واحداً يتعلق بالإقطاعات أو المنازعات الإقطاعية بشكل عام، بالإضافة إلى أن المصادر المملوكية لم تذكر حكماً واحداً في منازعة إقطاعية فُصِلَ فيها بموجب الياسة المغولية.

ثالثاً: من خلال بحثنا حول حقيقة تطبيق الحجاب للياسة، وصلنا لنتيجة مفادها أنهم لم يطبقوا الياسة وهذا ينفي ادعاء "Poliak" بتطبيق الحجاب للياسة على المنازعات الإقطاعية[١٥٠]، بالإضافة إلى أن مؤهلات الحاجب لم تكن تسمح له أحياناً بتولي وظيفة ناظر الجيوش - وهو المسؤول عن الإشراف على الإقطاعات في السلطنة - فلما عُزِلَ "فخر الدين ناظر الجيش" سنة ٧١١هـ، أشرف الحاجب وغيره على الديوان، فحدث الاختلاط والفوضى، فأعيد ناظر الجيوش المعزول إلى منصبه، وبَطُلَ إشراف الحاجب وغيره على الديوان[١٥١].

ولكن ما حقيقة السبب الذي دعا "Poliak" وغيره، إلى الإدعاء بتطبيق الحجاب للياسة على المنازعات الإقطاعية ؟

نعتقد أن السبب وراء هذا الإدعاء هو تحميل نصوص المقريزي في فصله المتعلق بـ "أحكام السياسة" أكثر مما تحتمل من الاستنتاج، حيث ذكر المقريزي في ذلك الفصل أن الوافدية المغول إلى السلطنة، بعد أن فوضوا لقاضي القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية والأقضية الشرعية "احتاجوا في ذات أنفسهم إلى الرجوع لعادة جنكيزخان، والاقتداء بحكم الياسة، فلذلك نصبوا الحاجب ليقضي بينهم فيما اختلفوا فيه من عاداتهم، والأخذ على يد قويهم وإنصاف الضعيف منه على مقتضى ما في الياسة، وجعلوا إليه مع ذلك النظر في قضايا الدواوين السلطانية عند الاختلاف في أمور

الإقطاعات لينفذ ما استقرت عليه أوضاع الديوان وقواعد الحساب، وكان من أجل القواعد وأفضلها "[١٥٢]

فيتضح من هذا النص أن مجال حكم الحاجب، شمل أمرين :

١- القضاء بين الوافدية المغول عند اختلافهم في عاداتهم بموجب الياسة المغولية[١٥٣].

٢- النظر في قضايا الدواوين السلطانية عند الاختلاف في أمور الإقطاعات بموجب "المستقر من أوضاع الديوان وقواعد الحساب"، ومما يؤكد هذا الفهم لمقصوده أنه وصف "أوضاع الديوان وقواعد الحساب المستقرة" بأنها "كانت من أَجَلِّ القواعد وأفضلها"، فلا يعقل أن يصف المقريزي أحكام الياسة - إن كانت قد طبقت فعلاً على المنازعات الإقطاعية - بهذا الوصف والإشادة لأنه اعتبر الياسة كما سبق أن أشرنا "لفظة شيطانية"

ويبدو أن مجرد ربط "المقريزي" بين حكم الحاجب على الوافدية المغول بموجب الياسة وبين نظره في المنازعات الإقطاعية، جعل بعض الباحثين ينسبون للحاجب تطبيق الياسة المغولية على كلا الأمرين .

وهكذا يتضح لنا أن الحاجب المملوكي لم يطبق الياسة على المنازعات الإقطاعية، بل كان ينفذ عليها "ما استقرت عليه أوضاع الديوان وقواعد الحساب".

خاتمة

نستطيع القول – في ختام البحث – أننا قد توصلنا إلى أهم النتائج التالية:

١- إن المصادر الفارسية هي المظان الأصلية لمعرفة أحكام القوانين المغوليه، وخاصة الياسة الكبيرة المنسوبة لجنكيز خان، وإن الأحكام الواردة في المصادر المملوكية بشأنها منقولة عن المصادر الفارسية.

٢- من مميزات أحكام الياسة الكبيرة في المصادر الفارسية الشدة في العقوبات ووضع بعض المبادئ العامة.

٣- يتبين من استقراء أحكام الياسة في المصادر المملوكية أنها من جهة أقرب إلى قانون جزائي منه إلى قانون مدني، ومن جهة أخرى تخالف في كثيرٍ من أحكامها مبادئ الشريعة الإسلامية.

٤- ألقينا ظلالاً من الشك – من خلال الدراسة التحليلية – حول دقة بعض الأحكام الواردة عن الياسة في المصادر المملوكية.

٥- وجدنا أن "التورا" هي مدونة قانونية متميزة عن الياسة، وأنها مخالفة كذلك لأحكام الشريعة الإسلامية.

٦- أجمع كثير من الفقهاء والمؤرخين أن الياسة الكبيرة تخالف الشريعة الإسلامية واعتبروها "شريعة وثنية".

٧- إن كثيراً من أحكام الياسة لم يطبق في السلطنة المملوكية، ويبقى الادعاء بتطبيقها مفتقراً إلى الأدلة والشواهد على ذلك.

٨- لم يطبق الظاهر بيبرس الياسة المغولية إبان سلطنته، وإن التطبيق اليتيم للياسة – حسب إحدى الروايات – كان في عهد السلطان محمد بن قلاوون من قبل أحد أمرائه (أيتمش المحمدي) في حدود الفترة الزمنية (٧٠٩-٧٢٢هـ) على حاشية هذا السلطان وبما لا يخالف أحكام الشريعة الإسلامية، ومع ذلك أوردنا عدد من الملاحظات على هذه الرواية.

٩- حللنا ادعاء "المقريزي" حول تطبيق الحجاب للياسة، وجدنا أنه غير صحيح، وقدمنا أسباب هذا الادعاء وبواعثه وأهمها تنامي سلطة الحجاب ومسلكهم الظالم.

١٠- اتضح لنا أن الحاجب المملوكي لم يطبق الياسة على المنازعات الاقطاعية، بل كان ينفذ فيها "أوضاع الديوان وقواعد الحساب" وهو ما أطلقنا عليه مصطلح "العرف الديواني".

المصادر والمراجع

1 – ابن تغرى بردى (جمال الدين يوسف، أبو المحاسن ٨١٣-٨٧٤هـ) – **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** – (١٦ جزءاً) –الجزء السابع – نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ١٩٢٩-١٩٥٦م – ص١٨٢ .

2 – الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك، ت ٧٦٤هـ) – **الوافي بالوفيات** – جـ٩ – بيروت – دار صادر، ومطابع الجمعية العلمية الملكية بعمان – ط٢ – ١٩٧١ – ١٩٧٩ (الأجزاء ٨-١٢) – ص٤٤٠.

3 – المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر ٧٦٦-٨٤٥هـ) – **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** – (ثلاثة أجزاء) – الجزء الثالث – القاهرة – دار التحرير للطباعة والنشر عن طبعة بولاق – ١٢٥٠هـ – ص٦٣.

4 – د. عبد المجيد محمد الحفناوي – **تاريخ القانون المصري – العصر الإسلامي** – بدون دار نشر ولا تاريخ – ص٢٨٧، د. السيد الباز العريني – **المغول** – دار النهضة العربية – بيروت – ١٩٦٧م – ص٦٢، د.زكي عبد المتعال – **تاريخ النظم السياسية والقانونية والاقتصادية** – القاهرة – مطبعة نوري – ١٩٣٥م – ص٣١٧ .

RaBie (Hassanein) - **the financial system of Egypt**. (564-721) (1169-1341) – Oxford University press – London – 1972 - pp30-31) .

د.حسنين ربيع – **النظام المالي في مصر** (٥٦٤-٧٢١هـ) (١١٦٩-١٣٤١م) – جامعة اكسفورد – لندن – ١٩٧٢ – ص٣٠-٣١ .

5 - Poliak (A.N) – (**the influence of chingiz – khans yasa upon the general organization of the mamluk state**) (B.S.O.A.S)-1940 - p862.

(بولياك (أ.ن) – **أثر ياسة جنكيزخان على التنظيم العام للدولة المملوكية** – ١٩٤٠ – ص٨٦٢).

6 - (Poliak (A.N) – **feudalism in Egypt, Syria, Palestine, and Lebanon (1250-1900)** , Oxford university press – London – 1972, p14).

(بولياك (أ.ن) – الاقطاعية في مصر، سورية، فلسطين، ولبنان – (١٢٥٠-١٩٠٠م) – جامعة اكسفورد – لندن – ١٩٧٢ – ص١٤).

(poliak (A.N) – some notes on the feudal system of the mamluks (Journal of the Royal Asiatic society) (J.R.A.S) – Londres – 1937 – p7)

(بولياك – بعض الملاحظات حول النظام الاقطاعي عند المماليك – ١٩٣٧ – ص٧).

(Poliak (A.N) – **Le caracter colonial de L'etat Mamelouk dans ses rapports Avec La horde D'or** – (Revue des études islamiques) (R.E.I) – 1935- p238).

د.حمدي عبد المنعم – **ديوان المظالم – نشأته وتطوره واختصاصه مقارناً بالنظم القضائية الحديثة** – دار الجيل – بيروت – ط٢ – ١٩٨٨م – ص١٨٩، د. عبد العزيز محمود عبد الدايم – **تأثيرات المغول الحضارية على دولة سلاطين المماليك** – مجلة المؤرخ المصري – جامعة القاهرة – كلية الآداب – قسم التاريخ – العدد الثالث – ك١ ١٩٨٩ – ص١٣٥، ١٣٦.

7 - ابن إياس (محمد بن أحمد – ت ٩٣٠هـ) – **بدائع الزهور في وقائع الدهور**- خمسة أجزاء – الجزء الأول – تحقيق محمد مصطفى – القاهرة – مركز تحقيق التراث – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٢-١٩٨٤ – ص٣٢٣-٣٢٤.

8 - ابن بطوطة (محمد بن عبد الله اللواتي الطنبجي ت ٧٧٩هـ) - رحلة ابن بطوطة المسماة "**تحفة النظار في غرائب الأمصار**" - بيروت - دار الكتب العلمية - ط٢ - ١٩٩٢م - ص ٣٨٧.

9 - العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيى ت ٧٤٩هـ) - **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** - الباب الثاني - مخطوطة رقم ٥٥٩ - معارف عامة - دار الكتب المصرية - ورقة ٢١٩-٢٢٣، ابن كثير (عماد الدين اسماعيل بن محمد القرشي الدمشقي ت ٧٧٤هـ) - **البداية والنهاية** - المجلدان ٧-٨ - ط١ - دار الفكر العربي - ١٩٩٢ - ص١١٨-١١٩.

10 - القلقشندي (أحمد بن علي بن أحمد، ت٨٢١هـ): **صبح الأعشى في صناعة الإنشا** - ١٤ جزء - (جـ ٤) - القاهرة - دار الكتب الخديوية - المطبعة الأميرية - ١٩١٣ -١٩١٩م - ص٣١٠، الأسدي (محمد بن محمد بن خليل، ت٨٥٤هـ) - **التيسير والاعتبار والاختبار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار** - تحقيق د. عبد القادر أحمد طليمات - دار الفكر العربي - ١٩٦٧ - ص٥٨، ابن خلدون المغربي (عبد الرحمن ت ٨٠٨هـ) تاريخ ابن خلدون المعروف بـ **(العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)** - المقدمة - تاريخ ابن خلدون الاسكندرية - بدون تاريخ - باقي الأجزاء - بيروت - دار الكتاب اللبناني - ١٩٨٣ - (مجلد ٥) - قسم ٤ -ص١١٢٠، ابن عرب شاه (أحمد بن محمد إبراهيم الدمشقي الحنفي العجمي، ٧٩١ - ٨٥٤ هـ) **فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء** - تحقيق د. حسن عاصي - ط١ - بيروت - ذار المواسم - ١٩٩٥ - ص ٤١٠-٤١١ .

11 – د. عبد المنعم ماجد – **نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر** – مكتبة الانجلو مصرية – ١٩٧٩م – ص٩٢-٩٣، د. عبد الخالق حسين محمد – **النظم القضائية بمصر في عصر سلاطين المماليك** – رسالة دكتوراة – جامعة القاهرة – كلية دار العلوم – ١٩٨١م – ص٤٠٩ .

Ayalon (D) – "The great yasa of chingiz –khan" , Are-examination (C2) , Almaqrizis passage on the yasa under the mamluks – outsider in the lands of Islam mamluks , mongols , and eunchs , London , 1988 – pp 139 – 142

ومن الملاحظ أن " Ayalon " كان يرى في البداية استناداً إلى رواية ابن تغرى بردى، أن بيبرس أدخل الياسة إلى السلطنة المملوكية وأدخل العديد من النظم والوظائف المغولية وأن الوظيفة الأساسية للحجاب كانت الحكم بين مماليك الأمراء وفقاً للياسة

(Ayalon (D) – studies on the structure of the mamluk army (B.S.O.A.S) XVI, 1, 1954 - P 66 ,68)

ولكنه بعد الدراسة المتعمقة للموضوع عدل عن رأيه الأول، وأنكر الأهمية المعطاة للياسة في السلطنة المملوكية .

12 – ابن تغرى بردى – النجوم الزاهرة – جـ ٧ – مرجع سابق – ص ١٨٢ – ١٨٣.

13 – (Ayalon (D) – **The great yasa of chingize khan , areexamination**, (Stvdia Islamica) , (S, I), XXIII , 1971 , p 138) .

(ديفيد أيلون – ياسة جنكيز خان الكبيرة – ١٩٧١ – ص١٣٨).

14 – ابن عبد الظاهر – (محي الدين عبد الله بن رشيد الدين ٦٢٠-٦٩٢هـ) – **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر** (بيبرس) – تحقيق عبد العزيز خويطر –

ط١ – الرياض – ١٩٧٦م – ص٣٤١، العيني (بدر الدين محمود بن أحمد، ٧٦١-٨٥٥هـ) – **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان** – أربعة أجزاء – (الجزء الرابع) – تحقيق د. محمد محمد أمين – الهيئة العامة المصرية للكتاب – ١٩٨٧-١٩٩١م – ص٢٨٣.

15 – د. فؤاد عبد المنعم الصياد – **المغول في التاريخ** – جـ ١، دار النهضة العربية للطباعة والنشر – بيروت – ١٩٧٠ م – ص ٣٣٨ .

16 – قسمنا أحكام الياسة بين المصادر الفارسية والمملوكية، لأن الأولى هي المصادر الأصيلة في هذا الموضوع حتى بالنسبة للمصادر المملوكية، ولأن الأخيرة ذكرت أحكاماً للياسة لم توجد في المصادر الفارسية، على الرغم من إشارتها إلى أن المصادر الفارسية هي مصدرها في الأحكام .

17 – د. السباعي محمد السباعي – **عطا ملك الجويني وكتابه جهان كشا** – القاهرة – دار الزهراء للنشر، سلسلة تاريخ المغول (١)، ١٩٩١ م – ص ٢٢٢، ٢٢٩، د. محمد التونجي – **تاريخ فاتح العالم جهان كشاي في تاريخ جنكيزخان وأعقابه حتى كيوك خان لعطا ملك الجويني** – المجلد الأول – ط ١ – دمشق – دار الملاح للطباعة والنشر، ١٩٨٥ م – ص ٦١ وقد اعتمدنا ترجمتين لكتاب "جهانكشاي" لأنه المرجع الأصيل الذي أخذت عنه باقي المصادر معلوماتها من جهة، ولأننا وجدنا في إحدى الترجمتين غموضاً ساعدت على إيضاحه الترجمة الأخرى .

18 – الجويني – جهان كشا – ترجمة د. السباعي – ص ٢٣٥ – ٢٣٦ .

19 – عبد الله بن فضل الله الشيرازي – **تاريخ وصاف** – جـ ٣ – ترجمة د. فاطمة نبهان عودة – **تاريخ وصاف ومكانته بين المصادر الفارسية في التاريخ**

الإسلامي- رسالة دكتوراة – جامعة عين شمس – كلية الآداب – قسم اللغة الفارسية وآدابها - ١٩٩١ م – ص ٤٠٣ .

20 – الجويني – جها نكشاي –جـ ٢ – ترجمة د.التـونجي – ص ١٨٥، – رشـيد الدين فضل الله الهمذاني – **جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيزخان من أوكتاي قان إلى تيمور قان)**، ترجمة د. فؤاد عبد المنعم الصياد – ط ١ – بيـروت دار النهضة العربية – ١٩٨٣ م – ص ١٩٩ .

21 – الجويني– جهان كشا – ترجمة د. السباعي – ص ٢٣٤ – ٢٣٥ .

22 – الجويني – جهان كشا – ترجمة د. السباعي– ص ٢٣٥ .

23 – الجويني – جهان كشا – ترجمة د. السباعي–ص ٢٣٢، وقد أدخلنا هذه الفقـرة ضمن أحكام الياسة رغم أنها مختصة بالصيد والقنص، لأن الجويني أوردها فـي فصل الياسة وتتضمن عقوبات تشابه في غلظتها عقوبات الياسة ولأنهـا متعلقـة بالجيش بشكل عام .

24 – الجويني – جهان كشا – ترجمة د. السباعي–ص ٢٣١ .

25 – الجويني – جهان كشا – ترجمة د. السباعي —ص ٢٣١ .

26 – الجويني – جهان كشا – ترجمة السباعي– ص٢٣٦–٢٣٧.

27 – الجويني – جهانكشاي – ترجمة د. التونجي – مجلد٢ –ص١٣١، رشيد الـدين الهمذاني – جامع التواريخ –ص٧٠.

28 – رشيد الدين الهمذاني – جامع التواريخ–ص٧٥.

29 – رشيد الدين الهمذاني – **جامع التواريخ**_ مجلد ٢ – جـ١ – (الإيلخانيون – تاريخ هولاكو)، نقله للعربية محمد صادق نشأت – محمد موسى هنداوي – د.فؤاد عبد المعطي الصياد، دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي وشركاه – ١٩٦٠م – ص٣١٧–٣١٨.

30 – الجويني – جهانكشاي – ترجمة د. التونجي – مجلد ٢– ص١٧٣.

31 – الجويني – جهان كشا – ترجمة د. السباعي– ص ٢٣٧ .

32 – البنود من ١–١٢ – العمري – مسالك الأبصار في ممالك الأمصار – الباب الثاني – مخطوطة رقم ٥٥٩ ورقة ٢٢٠، ابن كثير – البداية والنهاية – مجلد ١٣– ص١١٨–١١٩، القلقشندي – صبح الأعشى – جـ٤ –ص٣١١، المقريزي – الخطط – جـ ٣– ص٦١–٦٢.

33 – ابن بطوطة محمد بن عبد الله اللواتي الطنبجي – رحلة ابن بطوطة المسماة "تحفة النظار في غرائب الأمصار" – ط٢– ص٣٨٧.

34 – ابن العبري، غريغوريوس الملطي – **تاريخ مختصر الدول**_ طبع ووضع حواشيه الأب أنطون صالحاني اليسوعي – بيروت – المطبعة الكاثوليكية – ١٩٥٨ م – ص ٢٨٧ .

35 – ابن تيميه (أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام تقي الدين الحنبلي ٦٦١–٧٢٨هـ)– **مختصر الفتاوى المصرية**_ – اختصار بدر الدين محمد بن علي البعلي الشهير بابن اسباسبلا – مراجعة أحمد حمدي إمام – مطبعة المدني – القاهرة – ١٩٨٠ – ص ٤٩٩ – ٥٠٠ .

36 – محمد بن شاكر الكتبي – **فوات الوفيات والذيل عليها** –تحقيق د. إحسان عباس – بيروت – دار الثقافة – ١٩٧٣ م، ص ٣٠٢ – ٣٠٣، الصفدي – الوافي – جـ ١١ – ص ١٩٨ – ١٩٩ وقد كان قصد جنكيزخان من الحكم الأخير كما أشار الكتبي أن يتناكح المغول بشهوة شديدة ويتضاعف نسلهم ويكثر عددهم (الكتبي – فوات الوفيات– ص ٣٠٢)

37 – العمري – مسالك الأبصار — ورقة ٢١٩، القلقشندي – صبح الأعشى – جـ ٤–ص ٣١٠، ابن كثير – البداية والنهاية – جـ ١٣ –ص١١٨.

38 – الصفدي – الوافي بالوفيات – جـ ٨ – ص ٣٦١ – ٣٦٢، جـ ٩ – ص ٤٤٠ .

39 – العمري – مسالك الأبصار – باب٢– ورقة ٢٢٠، القلقشندي – صبح الأعشى – جـ٤– ص٣١١، ابن كثير – البداية والنهاية – جـ١٣– ص١١٩، المقريزي – الخطط – جـ٣– ص٦٢.

40 – الجويني – جهان كشا – ترجمة د. التونجي – مجلد ١– ص١٩٢، الهمذاني – جامع التواريخ – تاريخ خلفاء جنكيزخان – ص٧٤.

41 – الجويني – جهان كشا – ترجمة د. تونجي – مجلد ١ –ص ١٩٢ – ١٩٣، الهمذاني – المرجع السابق، ص ٧٤

42 – الجويني – جهان كشا – ترجمة التونجي – جـ ١– ص ٢٤٨.

43 – الهمذاني – جامع التواريخ – تاريخ خلفاء جنكيزخان – ص ٢٨٩ – ٢٩٠ .

44 – المقريزي– **السلوك لمعرفة دول الملوك** – الجزءان الأول والثاني – ستة أقسام – تحقيق د. محمد مصطفى زيادة – الجزءان الثالث والرابع (ستة أقسام) – تحقيق

د. سعيد عبد الفتاح عاشور، لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة – مطبعة دار الكتب المصرية ج١ ق ٣ – ص ٨١٢، ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ٧٣٥-٨٠٧هـ) – **تاريخ ابن الفرات** – مجلد ٨-٩ – تحقيق د. قسطنطين زريق، د. نجلا عز الدين – بيروت – منشورات كلية العلوم والآداب – الجامعة الأمريكية ببيروت – المطبعة الأمريكانية – ١٩٣٦-١٩٣٩، مجلد ٨ – ص ٢٠٤ – ٢٠٥ .

45 – Ayalon (D) – The great yasa .. Areexamination – op.cit – PP 118 – 120 .

46 – الأسدي – التيسير والاعتبار – ص٥٧-٥٨.

47 – ابن تغرى بردى – النجوم الزاهرة – جـ٧- ص١٨٢-١٨٣.

48 – ابن عرب شاه – فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء- ص٤١١-٤١٢.

49 – ابن عرب شاه – فاكهة الخلفاء –ص٤١٠، **عجائب المقدور في نوائب تيمور** – تحقيق أحمد فايز الحمصي – طـ ١ – بيروت – مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦م، ص٣٧٣.

50 – ابن عرب شاه – فاكهة الخلفاء –ص٤١٠-٤١١.

51 – ابن عرب شاه – فاكهة الخلفاء –ص٤١١، وقد ذكر ابن عبد الظاهر في رسالة "أبغا" إلى "بيبرس" سنة٦٦٧هـ ما يخالف هذا الحكم، فقد جاء في الرسالة "وكان في ياسا جنكيزخان أنه إذا أذنب الأب مايذنب الولد، ولايمسك الأخ بذنب أخيه الصغير" (ابن عبد الظاهر – الروض الزاهر –ص٣٤٠)، وهذا ما يؤكد أن أحكام الياسة مختلفة عن أحكام التورا .

52 – ابن عرب شاه – فاكهة الخلفاء- ص ٤١١ .

53 – ابن تيمية – مختصر الفتاوى المصرية -ص ٤٩٩ – ٥٠٠ .

54 – ابن عرب شاه – عجائب المقدور– ص ٤٥٥ .

55 – القلقشندي – صبح الأعشى – جـ ٤– ص ٣١٠ .

56 – ابن كثير – البداية والنهاية – جـ ١٣– ص ١١٩ .

57 – ابن عرب شاه – فاكهة الخلفاء – مرجع سابق – ص ٤١٢ .

58 – د. عبد العزيز عامر – **التعزير في الشريعة الإسلامية**– ط ٤ – دار الفكر العربي – ص ٦٩، د.أحمد فتحي بهنسي – **الحد والتعزير**_ مكتبة الوعي العربي – القاهرة، ص ٨٥، عبد القادر عودة – **التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي**_ جـ ١، دار التراث للطبع والنشر – ص١٢٦، الماوردي (علي بن محمد بن حبيب الشافعي ٣٧٠-٤٥٠هـ) – **الأحكام السلطانية والولايات الدينية** – ط١– القاهرة – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – ١٩٨٣ – ص ٢٠٤ – ابن قيم الجوزية (محمد بن أبي بكر الحنبلي ٦٩١ – ٧٥١هـ) – **الطرق الحكمية في السياسة الشرعية** –تحقيق د. محمد جميل غازي – جدة – مكتبة المدني – ١٩٧٧م – ص٢٦٥.

59 – الإمام محمد أبو زهرة – **الجريمة والعقوبة**_ دار الفكر العربي – ص ٨٥ – ٨٦، د.عامر – التعزير–ص ٢٩٥، محمد الزهري الغمراوي – **السراج الوهاج على متن المنهاج** – بيروت – دار المعرفة للطباعة والنشر – ١٣٣٧ هـ – هامش ص٥٣٥ .

60 – محمد أبو زهرة – الجريمة –ص ٨٥ – ٨٦، عودة – التشريع الإسلامي –ص ١٢٨ .

61 – د. عامر – التعزير – ص٣٠٥، ٣١١، ٣٢٣، د. بهنسي – الحد والتعزير – ص٩٤، ابن قيم الجوزية – الطرق الحكمية، ص٢٦٥-٢٦٦.

62 – العمري – مسالك الأبصار – ورقة ٢٢٠، ابن كثير – البداية والنهاية – جـ ١٣ – ص ١١٨ .

63 – ابن أيبك الدواداري (أبو بكر عبد الله ت٧٣٢هـ) – **الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر** – تحقيق هانس روبرت رويمر – القاهرة – المعهد الألماني للآثار – ١٩٦٠ – ص ٧٤.

64 – المقريزي – السلوك – جـ ٢ – ق ٢– ص ٣٨٦، ٤٦٧ – جـ ٣، ق ٢ – ص٦١٨.

65 – ابن تغرى بردى – النجوم الزاهرة – جـ ١٤ – ص ٢٠٩.

66 – ابن تيمية – **الجهاد** – جـ ١ – تحقيق د. عبد الرحمن عيرة – ط١ – بيروت – دار الجيل – ١٩٩١ – ص ٢٩٨ .

67 – جهان كشا – الجويني – ترجمة د. السباعي، ص ٢٣١، العمري – مسالك الأبصار – باب ٢ –ورقة ٢٢٠، المقريزي – الخطط – جـ ٣– ص ٦٢ .

68 – القلقشندي – صبح الأعشى – جـ٦ –ص١٢٣-١٢٥.

69 – بيبرس الدوادار المنصوري ت ٧٢٥ – **التحفة الملوكية في الدولة التركية** – تحقيق عبد الحميد حمدان – الدار المصرية اللبنانية – ط١ – ١٩٨٧ – ص١٠.

70 – المقريزي – السلوك – جـ٢، ق٢– ص٥٣٣.

71 – ابن تغرى بردى – النجوم الزاهرة – جـ٧ –ص١٨٢ .

72 – ابن عبد الظاهر – الروض الزاهر –ص٢٢٥، ٢٩٤، ٣٥٥، ابن شداد (عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم ت ٦٨٣ أو ٦٨٤هـ) – **تاريخ الملك الظاهر (بيبرس)** – تحقيق أحمد حطيط – بيروت – المعهد الألماني للأبحاث الشرقية – دار النشر – فرانز شتاينر فيسبادن– ١٩٨٣ – ص ٢٧٤، ٢٧٧، ابن إياس – بدائع الزهور – قسم ١، جزء ١، ص ٣٤٠ – ٣٤١، اليونيني (قطب الدين موسى بن محمد ت ٧٢٦هـ) – **ذيل مرآة الزمان**_ أربعة مجلدات، ط ١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية – حيدر أباد – الدكن – الهند – ١٩٥٤، ١٩٦١ – مجلد ٢ – ص ٢٥١ – ٢٥٢، ٣٥٣، زين الدين عمر ابن الوردي – (ت٧٥٠ هـ) – **تتمة المختصر في أخبار البشر**_ جـ ٢، المطبعة الوهبية – ١٢٨٥ هـ – ص ٢٤٥ .

73 – ابن خلدون – تاريخ ابن خلدون – مجلد ٥، قسم ٤، ص ٨٢٢ .

74 – ابن عبد الظاهر – الروض الزاهر –ص ٧١ .

75 – إبراهيم الحنبلي – **شفاء القلوب في مناقب بني أيوب**_ مخطوطة رقم ٢٤٠٣١ – مكتبة جامعة القاهرة – ورقة ١٠٥ .

76 – ابن عبد الظاهر – الروض الزاهر–ص ٧١، العيني – عقد الجمان – جـ ٢– ص٤٣ .

77 – Ayalon (D) – outsider in the lands , op. cit , P 130 .

78 – ابن عبد الظاهر – الروض الزاهر– ص ٢١٥ – ٢١٦، ابن أيبك الدواداري – **الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية** – – تحقيق أولرخ هارمان– القاهرة – مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه – ١٩٧١ – ص ٩٩ – ١٠٠ .

79 – ابن عبد الظاهر – الروض الزاهر –ص٢١٥-٢١٦.

80 – حيث قال السيوطي " وقال بعض المؤرخين لما تولى الظاهر بيبرس أحب أن يسلك في ملكه بالديار المصرية طريقة جنكيزخان ملك التتار ففعل ما أمكنه ورتب في سلطنته أشياء كثيرة لم تكن قبله بديار مصر، مثل ضرب البوقات وتجديد الوظائف" (السيوطي جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر ت ٩١١ – **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة** – مطبعة الموسوعات بمصر – بدون تاريخ – ص ١١٣) وهو نقل حرفي عما قاله ابن تغرى بردى في (النجوم الزاهرة – جـ ٦ – ص ٢٦٨)

81 – Ayalon – (D) – outsider in the lands , op.cit , P 129 .

82 – Ayalon (D) – outsider in the lands , op.cit , PP 130 – 131 .

ويلاحظ الزهد الشديد لابن تغرى بردى في العديد من المقاطع فلما خطأ (ابن تغرى بردى) قول (ابن حجر العسقلاني) في نسب السلطان الأشرف قال (وهو معذور فيما نقله لبعده عن معرفة اللغة التركية ومداخلة الأتراك) (النجوم الزاهرة – ج١٦ – ص٢٤٣-٢٤٤) وذكر في مقطع آخر فيما يخص المقريزي (ونحن أعرف بأحوال الملك الظاهر برقوق وابنه فرج من الشيخ المقريزي وإن كان هو الأسن) (النجوم الزاهرة – ج١١ – ص٢٩٤).

83 – الصفدي – الوافي – جـ ٩ –ص ٤٤ .

84 – ابن تغرى بردى – **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي** – الجزء الأول والثاني – تحقيق الدكتور محمد محمد أمين – الجزء الثالث – تحقيق – نبيل محمد عبد العزيز – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٤– ص٢٩٢ .

85 – وممن أشاروا إلى هذا التحريف "Ayalon" وعلق عليه أهمية كبيرة حول مدى دقة أو صحة المعلومات التي قدمها ابن تغرى بردى

Ayalon (D) – Outsider in the lands, op.cit,p136

ومن الجدير بالذكر أن ابن تغرى بردى قدم رواية أخرى في موضع آخر، فيها نقل صحيح عن الصفدي (المنهل الصافي – جـ٣ –ص١١٢) ولكن هذه الرواية الصحيحة لا تغير من واقع التحريف في الرواية الأخرى، وتشكل دليلاً على اضطراب ابن تغرى بردى في رواياته .

86 – ابن أيبك الدواداري – الدر الفاخر – ص٣٨٨، الشجاعي (شمس الدين) – **تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده** – تحقيق بربارة شيفر – نشر فرانز شتاينز فيسبادن – ١٩٧٨ – ص٧، ١١٥، ابن إياس – بدائع الزهور – جـ١، ق١ – ص٤٨٣، ٤٨٥، بيبرس المنصوري – التحفة الملوكية – ص٢١٠ .

87 – ابن أيبك الدواداري في كتابه " الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر " وشمس الدين الشجاعي في كتابه "تاريخ الملك الناصر " .

88 – ابن حجر العسقلاني (الحافظ شهاب الدين ت ٨٥٢هـ) – **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة** – جزءان – تحقيق محمد سيد جاد الحق – دار الكتب الحديثة – ١٩٦٦ ج١– ص٤٥٣ .

89 – المقريزي – **المقفى الكبير** – خمسة أجزاء – تحقيق محمد اليعلاوي – ط٢ – بيروت – دار الغرب الإسلامي – ١٩٦١ – ج٢ – ص٤٣١ .

90 – Lamb(Harold)– Genghis khan, the emperor of all men, New york-1927– pp 70 -71.

91 – حددنا الفترة الزمنية بحدود سنين (٧٠٩-٧٢٢هـ) لأن سنة ٧٠٩هـ هي بداية سلطنة الناصر محمد الثالثة التي أُمّر فيها أيتمش، وسنة ٧٢٢هـ هي سنة الحادثة التي ذكرها المقريزي لأيتمش مع القان المغولي، وليس تاريخ حجة أيتمش التي يمكن أن تكون في تاريخ أسبق .

92 – الجويني – جهان كشا – ترجمة السباعي –ص٢٣٠، العمري – مسالك الأبصار – باب ٢– ورقة ١٩، القلقشندي – صبح الأعشى – جـ٤ –ص٣١٠ .

93 – الصفدي – الوافي بالوفيات – جـ٨ –ص ٣٦١-٣٦٢ .

94 – وقد أشار "Ayalon" إلى نفس الأمر بقوله "إن هذه العبارة عامة فلا يستطاع استخلاص أي نتائج محددة منها "

Ayalon (D) - outsider – op.cit,p139.

95 – ابن حجر العسقلاني – الدرر الكامنة – جـ١ –ص٣٧٦ .

96 – ابن تغرى بردى – المنهل الصافي – جـ٢ –ص٣٢٨، النجوم الزاهرة – جـ١٠ – ص٢٤٤ .

97 – ابن حجر العسقلاني – الدرر الكامنة – جـ٢ –ص٥٨، ٦١.

98 – المقريزي – الخطط – جـ٢– ص٢١ .

99 – كامل بن حسين بن محمد الغزي – **نهر الذهب في تاريخ حلب** – جـ٣ – المطبعة المارونية بحلب – ١٩٢٦م – ص١٨٣ .

100 –101–102– المقريزي– الخطط – جـ٣ –ص٦١-٦٣ .

103 – القلقشندي – صبح الأعشى – جـ٤ –ص١٨، ٢٠، ٤١، المقريزي – السلوك – جـ٣، ق٣ –ص١٠٤٣، ابن تغرى بردى – النجوم الزاهرة – جـ٤–ص٣٩، ابن إياس – بدائع الزهور – جـ٢– ص١٤٦، ابن حجر العسقلاني – **إنباء الغمر بأبناء العمر** – ثلاثة أجزاء – تحقيق دكتور حسن حبشي – القاهرة – المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي – ١٩٦٩، ١٩٧٢ – ج٣ – ص٢٨١–٢٨٢.

104 – Ayalon (D) – Outsider – op.cit,p122.

105 – المقريزي – الخطط – جـ٣ –ص٣٩.

106 – الصفدي – الوافي بالوفيات – جـ٩ –ص٤٤٠، ابن تغرى بردى – المنهل الصافي – جـ٣ –ص١١٢–١١٣، جـ٢، ص٢٩١–٢٩٣، ابن حجر العسقلاني – الدرر الكامنة –جـ١ –ص٤٥٣.

107 – الصفدي – الوافي بالوفيات – جـ٨– ص٢٦١–٢٦٢، ابن حجر– الدرر الكامنة – جـ١– ص٣٦٧.

108 – زعم Poliak أن "أعضاء الطبقة العسكرية التركية كانوا ملمين بالياسة المعدّلة المكتوبة بالتركية بالأحرف العربية وليس النصوص المغولية الأصلية، ولا تختلف الياسة المملوكية كثيراً عن أصلها المغولي"

Poliak (A.N) – The influence of – BSOAS , op.cit , PP 863 – 864 .

وهذا زعم انفرد فيه بولياك، ولا تسنده المصادر المملوكية التي استقت معلوماتها حول أحكام الياسة من مرجع فارس (جهانكشاي) للجويني، فلو وجدت نسخة

لِلياسة في السلطنة المملوكية، لما احتاجت المصادر المملوكية الرجوع إلى كتاب " جهانكشاي " .

109 – السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ) – **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع** – القاهرة – مكتبة القدسي – ١١٥٥ – جـ٣ –ص ٣٠٩، ابن تغرى بردى – النجوم الزاهرة – ج ١٥ –ص ٤٥٧، جـ ١٦ – ص ٣٧٤، ابن إياس – بدائع الزهور – جـ ٢ – ص ١٨٩، ابن حبيب (بدر الدين حسن بن عمر بن الحسن ت ٧٧٩هـ) – **درة الإسلاك في دولة الأتراك** – جـ ٣ – – مخطوطة رقم ٢٢٩٦١ – مكتبة جامعة القاهرة – ورقة ٤٨٧، مع اقتناعنا بأن بعض المؤرخين قد بالغوا في مدح بعض السلاطين عن طريق إظهار تمسكهم بالإسلام وفروضه .

110 – الشجاعي – تاريخ الملك الناصر–ص ٢٥٤– ٢٥٥، ابن إياس– بدائع الزهور– جـ١، ق١– ص ٤٨٠، ابن حبيب– **تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه**– جـ٢ –تحقيق د.محمد محمد أمين –الهيئة المصرية العامة للكتاب– ١٩٨٢م – ص٢١٢ .

111 – ابن تيمية– مختصر الفتاوى– ص ٤٩٩– ٥٠٠، ابن كثير– البداية والنهاية – جـ ١٣ – ص١١٩ .

112 – ورد على سبيل المثال قول القلقشندي عند كلامه عن مملكة خوارزم والقبجاق من ممالك جنكيزخان حيث أشار بأن " أول من أسلم منهم بركة، وملوكهم مع ظهور الإسلام فيهم وإقرارهم بالشهادتين مخالفون لأحكامها في كثير من الأمور، واقفون مع ياسة جنكيزخان التي قررها لهم وقوف غيرهم من أتباعهم " (القلقشندي – صبح الأعشى – جـ ٤ –ص٤٧٤ – ٤٧٦)

113 – ابن حجر العسقلاني – إنباء الغمر – جـ ٢ – مرجع سابق – ص ٣٠٣، ابن عرب شاه – عجائب المقدور –ص ٤٥٥ .

114 – فإن سلمنا برواية الصفدي حول تطبيق أيتمش للياسة زمن الناصر محمد، فيكون تطبيقها جزئياً ولفترة محدودة على حاشية الناصر محمد بن قلاوون فحسب، وبما لا يخالف أحكام الشريعة الإسلامية، ويكون تطبيقها لا يتعارض مع الاحتمال الثاني لأن التطبيق المحدود مع عدم مخالفة الشريعة قد لا يستدعي اعتراض الفقهاء عليه .

115 – Ayalon (D) – outsider – op.cit , PP 126 – 127 .

116 – العمري – مسالك الأبصار – باب ٦– ص ١١٧ .

117 – المقريزي – الخطط – جـ ٣– ص ٦٠ .

118 – ابن أيبك الدواداري – الدر الفاخر –ص ٣٥٢، المقريزي – المقفى الكبير – جـ ٢– ص ٢٩٣ .

119 – المقريزي – الخطط – جـ ٣ –ص ٣٥ – ٦٣ – ٦٤، السلوك جـ ٢، ق ٢– ص٦٨٨، جـ٢، ق٣ – ص٦٨٤ .

120 – المقريزي – السلوك – جـ ٢، ق ٣– ص ٨٦٣ .

121 – المقريزي – الخطط – جـ ٣ –ص ٦١، ٦٤ .

122 – ابن إياس – بدائع الزهور – جـ ١، ق ١– ص ٥٥٢ – ٥٥٣ .

123 - الصيرفي (علي بن داوود الجوهري، ٨١٩-٩٠٠هـ) - **إنباء الهصر بأبناء العصر** - تحقيق د. حسن حبشي - دار الفكر العربي - القاهرة - ١٩٧٠م - ص ٤٠١، تاريخ ابن الفرات - مجلد ٩ - جـ ١ -ص ١٧ .

124 - شمس الدين، محمد بن طولون (ت ٩٥٣ هـ) - **قضاة دمشق - الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام** - تحقيق د. صلاح الدين المنجد - دمشق - المجمع العلمي العربي - ١٩٥٦ م - ص٢٥٩، ابن حجر - إنباء الغمر - جـ ١ -ص ١٩٤، المقريزي - السلوك - جـ ٤، ق ١ - ص ٥٣٠، ابن قاضي شهبة (تقي الدين أبو بكر بن أحمد ٧٣٩-٨٥١هـ) - تاريخ ابن قاضي شهبة - مجلد ١، ٢، ٣ - تحقيق عدنان درويش - المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية - دمشق - الجابي للطباعة والنشر - ١٩٩٤م - مجلد ٣ - ص ٢٩٦ .

125 - ابن تغرى بردى - النجوم الزاهرة - جـ ١٣- ص ١٦٩ - ١٧٠، ابن حجر العسقلاني - إنباء الغمر - جـ ٣- ص ٢٠١ .

126 - المقريزي - السلوك - جـ ٣، ق ٢ -ص ٦٣٧ .

127 - القلقشندي - صبح الأعشى - جـ ٣ -ص ٢٧٧، وذهب المقريزي لنفس الرأي (الخطط - جـ ٣ -ص ٣٩) .

128 - Ayalon (D) – outsider – op.cit , PP 126 – 127 .

129 - المقريزي - الخطط - جـ ٣- ص ٦١، ولمزيد من أقوال المقريزي التي تدل على ظلم الحجاب راجع (السلوك - جـ ٤، ق ١ - ص ٣٢٤، ٣٩٠ - ٣٩١) .

130 - ابن تغرى بردى - النجوم الزاهرة - جـ ١٦- ص ٧٥ .

131 - ابن تغرى بردى - النجوم الزاهرة - جـ ١٥ -ص ٤٦٧، ٥١١ .

132 - السخاوي - الضوء اللامع - جـ ٣ -ص ٤٢ .

133 - السخاوي - **التبر المسبوك في ذيل السلوك** - مكتبة الكليات الأزهرية - بدون تاريخ - ص ٢٤٢ .

134 - ابن حجر العسقلاني - إنباء الغمر - جـ ٢- ص ٤٣٧ .

135 - ابن أيبك الدواداري - الدر الفاخر -ص ٣٧٤ .

136 - ابن كثير - البداية والنهاية - مجلد ٧، جزء ١٤ -ص ٧٤٩ .

137 - ابن تغرى بردى - النجوم الزاهرة - جـ ١٦- ص ٣٣٢ .

138 - ابن حبيب الشافعي - درة الاسلاك - جـ ٣- ورقة ٤٩٩، ابن تغرى بردى - النجوم - جـ ١٥- ص٤٧٩، ٥٢٣، جـ ١٦ - ص ٦، المنهل الصافي، جـ ٣ - ص ٥١١، ابن حجر العسقلاني - الدرر الكامنة - جـ ٢ - ص ٤٩، ٥٣، جـ ٣ - ص ٢٩٨، جـ ٤ - ص ٣٥، إنباء الغمر، جـ ١، ص ١٤٤، ٣٦٣، السخاوي- التبر المسبوك - ص ٢٧٠، الضوء اللامع -جـ ٣- ص٢٨ .

139 - المقريزي - السلوك - جـ٣، ق١- ص٣٦٠-٣٦١ .

140 - المقريزي - الخطط - جـ٣ -ص٦١ .

141 - يتضح أن عبارة المقريزي بهذا الشكل قد تخلق الالتباس بخصوص مصدره حول أحكام الياسة من خلال إشارة البعض إلى أن المقريزي أورد تعاليم الياسة نقلاً عن نسخة وجدت في خزانة المدرسة المستنصرية ببغداد (د.حسن ابراهيم حسن- تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والاجتماعي - جـ٤، ط١- القاهرة - مكتبة النهضة العربية - ١٩٦٧م - ص١٣٦ .

142 - Ayalon (D) – the great yasa, (SI) – op.cit,p 105, 106.

المقريزي - الخطط - جـ٣ -ص٦١-٦٢ ، العمري - مسالك الأبصار - الباب الثاني- ورقة ٢٢٠-٢٢٢.

143 - العمري - مسالك الأبصار- ورقة ٢٢٠-٢٢٢.

144 - المقريزي - الخطط -جـ٣- ص٦١-٦٢.

145 - Ayalon (D) – op.cit, p108.

146 - العمري - مسالك الأبصار- ورقة ٢٢٠-٢٢٢، المقريزي - الخطط - جـ٣ -ص٦١-٦٢ وبذلك يكون كلام بارتولد في أن "أفضل عرض مفصل عن الياسة نجده لدى المقريزي " لا أساس له من الصحة (فاسيلي بارتولد - **تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي**- ترجمة صلاح الدين عثمان - الكويت - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب -١٩٨١م - ص١١٤.

147 - وقد أشار السخاوي إلى عدم دقة المقريزي في الرواية والنقل واشتمال بعض ما ذكره على التحريف والتصحيف بقوله "ولو سودت لك ما وقع لشيخ المؤرخين التقي المقريزي، لقضيت العجب وتجنبت لتصانيفه الطلب " (السخاوي - **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ**- تحقيق محمد عثمان الخشت - مكتبة ابن سينا - ١٩٨٩- ص٧٩).

148 - Poliak (A.N)- feudalism – op.cit, p14, Some notes – (JRAS), op. cit, p97, Le caractere (REI) op.cit, p238.

149 - د. حمدي عبد المنعم - ديوان المظالم - ص١٨٩، د.عبد العزيز عبد الدايم - تأثيرات المغول - ص١٣٥-١٣٦.

150 – بولياك – المراجع السابقة (نفس المراجع والصفحات) .

151 – ابن أيبك الدواداري – الدر الفاخر– ص٢٣٩ .

152 – المقريزي – الخطط – جـ٣ –ص٦٣ .

153 – مع أن المقريزي في أول الفصل أشمل نظر الحاجب بموجب الياسة جميع أحكامه على الوافدية المغول وغيرهم وهو ما نفيناه مجملاً .

المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية

الأستاذ الدكتور محمود عامر

قسم التاريخ

جامعة دمشق

عرّف معظم الباحثين بأن المصطلحات هي الوعــاء الــذي يحتــوي مــضموناً مــن المضامين، في حين عرفها آخرون بأنها رسالة ذات معنى تجسد الواقع أو هي صلاح وصلاحيات الكثير من الإصلاحات والألفاظ والتعــابير، ومهمــا تعــددت التعــاريف والمعاني، فالمصطلحات أس الألفاظ والتعابير، وفي مواقف كثيرة لا نــستطيع ضــبط معنى العبارة ولا فهمها إلا بالمصطلح الذي يوضح حيثيات هذه الألفــاظ والعبــارات، وبتعبير أكثر دقة اختزال لمعان كثيرة فمثلاً مشّرع يدلل على أنه وأمثالــه يــضعون القوانين الناظمة، أما لفظة العامة، فتفهم على أنها الطبقة الأدنى في المجتمع والأفقــر والأقل تعلماً، في حين مصطلح رأسمالية، وتعني الغنى والثقافة والآداب وما شــابهها من ألفاظ ومعان حسنة.

إن الحضارات اختُصرت من خلال التعابير والألفاظ، علماً بأن الحضارة الغربية لا تؤمن بوجود شريعة إلهية تنظم مختلف جوانب الحياة، ولهذا فإن مصطلح (الشارع) يعني الإنسان سواء في إطاره المدني أو في إطاره التشريعي و أن مصطلح العلمانية يعني الكثير من التعابير وذلك حسب فهم قارئها أو سامعها فالبعض يفسرها على أساس دنيوي أو عالمي وآخر يفسرها تفسيراً قانونياً واجتماعياً، في حين يذكر البعض

أن المسيحية كانت منذ نشأتها دينا لا دولة وأنها شريعة محبة لم تقدم للمجتمع مرجعية قانونية ولا نظاماً للحكم، بل هي رسالة كنسية خاصة بمملكة السماء ولا دور للقوى البشرية ولا السلطة الزمنية فيها وهكذا فإن الكثير من المصطلحات الغربية تسللت إلى القضاء الإسلامي وخاصة المصري، ولم تتمكن صيحة التحذير التي أطلقها رفاعة الطهطاوي من إيقاف هذا التسلل ، وتجسد عندما تمكن الانجليز من احتلال مصر سنة ١٨٨٢م.

ليس بالإمكان القول إن المصطلحات العثمانية قد تسللت إلى القضاء أو إلى العادات والتقاليد العربية والإسلامية، بل تشارك العثمانيون مع سكان الولايات العربية وبعض الولايات الأوروبية التي خضعت لسلطانهم، وقد استفاد العثمانيون من المصطلحات العربية كثيراً، فالدولة الإسلامية كانت للغير، نمطاً فريداً ومتميزاً، ويفيد المؤرخ التركي رضا نور أنّ المصطلحات توسعت كثيراً لدى العثمانيين لأن القرآن مدّ العربية بمعان كثيرة فسرها ابن رشد على أنها تأويل حين قال، إن التأويل إخراج دلالة اللفظ من دلالة الحقيقة إلى الدلالة المجازية من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب في التجوز، من تسمية الشيء، بشبيه أو بسببه أو لاحقه أو مقارنه....... الخ.

بالطبع لم تعتمد المصطلحات العثمانية التأويل ولا التدخل في الدين والسياسة، بل هي تعبير اتفق عليه من السلطات العثمانية كافة واعتمدته العامة تقليداً ثم غدا جزءاً منها، فعندما يقال إنكشارية يفهم العام والخاص إن المقصود بهذا المصطلح أو التعبير على أنها عسكر خاص بالعثمانيين، وقد أوجزت الحياة السياسية والعسكرية بمصطلحات عدة عممت على مختلف الولايات العثمانية. وعندما يقال الدفشرمه تعني نظام اخترعه العثمانيون لجمع الشبان المسيحيين بموجبه، ولهذا ونظراً لتكرار استخدام تلك المصطلحات فلقد أصبحت مفهومة من قبل الجميع بما فيها البلدان المسيحية التي تجمع الشبان منها، كذلك فإن الحرية ضد العبودية، والحر ضد العبد والرقيق. وكذلك مصطلح الشورى، ومن هذا المنطق ونظراً للوجود العثماني على الأرض العربية

والإسلامية فقد آثر البحث عرض نماذج من المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية، والقصد منها تعميم الفائدة وتقديم نوع من المعرفة التي تفردت بها الدولة العثمانية التي امتلكت ما يزيد عن ١٩٩٠٢٠٠٠كم وحكمت شعوباً وقبائل، ويؤمل من البحث أن يقدم لقراء التاريخ العثماني هذا المعلومات التي ترتبط بالإنسان العربي قبل غيره، لأن آثارها لا تزال ماثلة في الأذهان حتى يومنا الحاضر، ومن الصعوبة بشيء استعراض مجمل المصطلحات العثمانية ولكثرتها فقد تم اختيار بعض منها.

- أبدال: لقب يطلق أحياناً علي الدرويش المتجول ، كما يطلق أحياناً على رتبة أو درجة في الفرقة الصوفية .
- آبريزجي: مصطلح أطلق على المولويين المكلفين بالنظافة، وبشكل خاص على من يقوم بتنظيف دورات المياه.
- آبنامه: مصطلح يطلق على الشعر الذي يقال بمناسبة افتتاح مصدر مائي.
- أبهتلو: صاحب الأبهة، وهو مصطلح يطلق على هيئة العلماء.
- أتابك: مصطلح من الألقاب الرفيعة والسامية التي تطلق على الأمراء وتعني وصي أو رئيس الوزراء ،وقد كان مستخدماً في الدولة السلجوقية والمملوكية ، فأبطل العثمانيون استخدامه.

واستخدموا بدلاً منه آغا الإنكشارية.

- الإرادة: أمر سلطاني، بُدِئَ باستخدامه في عهد السلطان محمود الثاني سنة ١٨٣٢.
- الأراضي: اعتمدت الدولة العثمانية التقسيم المعتمد في الأراضي وقد قسمتها إلى خمسة أقسام.

١- أراضٍ أميرية: وهي الأراضي التي تملكها الدولة العثمانية وتمنحها لمن تشاء بموجب شروط مثل التيمار والزعامت والملك الخاص.

٢- أراضٍ متروكة: وهي المراعي والمحاصيل وما شابهها، وتكون ملكيتها للدولة، لكن الاستفادة من خيراتها ومحاصيلها يعود للنفع العام.
٣- أراضٍ مكتومة: مصطلح يطلق على الأراضي التي تملكها الدولة، نظراً لعدم وجود سجلات أو قيود حكومية بها.
٤- أراضٍ ملكية: أي تملك وهي التي تملَّكها أشخاص ويشرفون عليها بأنفسهم . وهو معفى من دفع العشر أو الخراج، أما إذا تولت الدولة مسؤولية الإشراف عليها فيطلق عليها مالكانه ديواني.
٥- أراضٍ وقفية: الوقف ذري أو خيري وقد بلغ عدد مساحة الأراضي الوقفية في الولايات الإسلامية مايزيد عن٧٠٠,٠٠٠ دونم وزع مردود تلك الأراضي على الأعمال الخيرية، ناهيك عن وقف البيوت والمزارع، وكان المسيحيون واليهود يقفون كالمسلمين. وقد تم التلاعب بأملاك الوقف لدرجة أن السلطان عبد الحميد الثاني ألغى الكثير من الوقف إلا الأوقاف التي تعود عوائدها على المدارس.

- آربا: نوع من الموازين المستخدمة قديماً، وكان يساوي نصف حبة ويوازي ميلغراماً ، وقيل أنه يساوي ٠,٠٥٩ غرام وقيل غير ذلك .

- الأردب: نوع من الموازين المستخدمة في مصر والحجاز ففي مصر يساوي مئة وعشرين أوقيه ويساوي تسعة أكيال استنبولية .

- الاردل: أطلقه العثمانيون على رومانيا وبخاصة مناطق العزبية معها، وقد ظلت تابعة للعثمانيين حتى توقيع معاهدة كارلوفيتنر سنة ١٦٩٩.

- أرسلان: أسد، وقد استبدلت فيما بعد بكلمة (أصلان) وتعني الأسد.

- أرسلان خانه: وتعني المكان الذي تربى فيه الأسود في القصر العثماني.

- اسكله: ميناء ،مرفأ،وقد كثر استخدامه في الدولة العثمانية.

- أسكي: قديم، أصيل، وأسكي، بائع الأوراق القديمة،وهي شائعة الاستخدام.
- إسهام: وهي السندات المالية التي عرضت للبيع لأول مرة استخدم في عهد السلطان مصطفى الثالث ١٧٥٧-١٧٧٤م وفيما بعد تم اعتماد هذا المصطلح حتى سنة ١٨٧٠م .
- إشارة عليه: إشارة تصدر عن السلطان لتحقيق رغبة ما أو تنفيذ عمل يرغبه.
- آصاف: مصطلح معتمد في الدولة العثمانية ويعادل رتبة الوزير.
- الأصناف: أصحاب الحرف اليدوية ،وكانوا في السابق يطلق عليهم الآخيه .
- الإعدادية: مدارس افتتحت سنة ١٨٨٣ في عهد السلطان عبد الحميد الثاني وهي تعادل المدارس الثانوية الحالية، وسميت بالإعدادية لأنها المرحلة الأخيرة للطلاب الراغبين بدخول الجامعات، وبعد المشروطية سميت سلطاني .
- آغا: مصطلح فارسي ويعني السيد ،اعتمده الأتراك لدلالات متعددة وخاصة في المجال العسكري .
- آغا الحرم: ويطلق على المخصيين ممن يعمل في قسم الحرملك (قسم النساء).
- آغا السراي: شيخ الحرم في المدينة المنورة الذي تعينه الدولة مدى الحياة.
- آغا باشا: يطلق على من كان من كبار ضباط الإنكشارية سابقاً.
- آغا بلوكي: مصطلح يطلق على من يسند إليه رئاسة المكتب في استانبول، وهو لقب متميز في الفرق الإنكشارية.
- آغا حقي: الضريبة التي تؤخذ من أصحاب الأراضي الموزعة بموجب نظام إقطاع الأراضي.

- آغا السلام: مسؤول عن المرافقة الخاصة بالصدر الأعظم أو ببعض الوزراء ،كما أنه مكلف بتنظيم القادمين للسلام على الصدر الأعظم .
- آغا علوفات: مصطلح يطلق على المبالغ المالية الكبيرة التي تتجاوز الرواتب المعتاد دفعها.
- آغوات العرض: مصطلح يطلق على الأشخاص من رتبة آغا ممن يحق له مفاتحة السلطان في موضوع ما.
- آغوات: ضباط، وقد أدى الأغوات في ولاية الجزائر دوراً إدارياً غير موفق.
- آغوات: مصطلح يتم تداوله في القصور العثمانية على من يعمل في القسم الحرملك.
- آغوات قطر: مصطلح يطلق على سبعة من آغوات الكبار من مسؤولي الإنكشارية .
- أفندي: لقب عثماني يطلق على رجال الدين وأرباب السلك العلمي.
- آقجه الإرسالية: وهي موارد نقدية سنوية تقدمها ولاية مصر إلى السلطان كمصروف خاص به، ولا يدخل الخزينة ولا يسجل في دفاترها.
- آقجه دوعمه: مبالغ مالية تدفع للعاملين في القصور السلطانية كبدل ملابس وما شابهها.
- آقجه طاس: مبلغ عام مخصص لكل فرد من أفراد الإنكشارية لصرفها عند الحاجة وشراء الاحتياجات المشتركة اللازمة للبلوك أو للأوجاق الواحد.
- أقجه: عملة عثمانية فضية تساوي ربع أو ثلث البارة، سكها العازي أورخان سنة ١٣٢٧م.

- أقجه جلبي: نوع من المسكوكات العثمانية المستخدمة وقد ظلت حتى عهد السلطان سليم الثاني (١٥٦٦-١٥٧٤) والأقجه العثمانية تساوي ٢,٥ أقجه جلبي .

- الأقنجي: مصطلح عسكري أطلق قبل تشكيل الإنكشارية على العناصر الخفيفة من الخيالة العثمانية ، وهم عادة يتمركزون قرب الحدود.

- ألاي: معناه موكب السلطان، وبالأصل هو مفرزة عسكرية مابين الكتيبة واللواء، وقد عدّ الالي الواحد يساوي ثلاث كتائب، وكل كتيبة تتكون من ثمانية أفواج، وكل خمسة أفواج يؤلفون ألاي، أما سلاح المدفعية فكل ستة بطاريات تؤلف ألاي.

- الالتزام: نظام يقضي بتقديم دخل مالي من المتعهدين للحكومة، ثم يجمعه هو كما يشاء وتسانده قوة حكومية لجمعه، وقد مارس الملنزمون الظلم حيث طبق في عهد السلطان أحمد الأول سنة ١٦٠٣ وألغي في عهد السلطان عبد المجيد سنة ١٨٥٦م.

- الإمارة: مصطلح يطلق على المؤسسات الخيرية المنتجة التي توزع منتجاتها على الفقراء والمحتاجين وطلاب العلم وهي تمتلك أوقافاً كثيرة تزيد في كل ولاية عن آلاف الدونمات أبطلها السلطان عبد الحميد نظراً للتلاعب الذي كان المشرفون عليها يتلاعبونه، وقد أبقى السلطان عبد الحميد المؤسسات الخيرية التي تقدم المساعدات لطلاب العلم والمعرفة .

- أمير الحج: الشخص المنتخب للإشراف على قافلة الحج المتجهة من استانبول أو غيرها من الولايات إلى مكة المكرمة، وهو قائده والمسؤول عن حمايته من انطلاقه حتى عودته.

- أمين الأغنام: وهو الشخص المكلف بتأمين حاجة استانبول من الأغنام ومسؤول عن تأمين حاجة المسافرين منْ لحوم الأغنام، كما يكلف بمنع التجار من احتكار

مادة اللحوم من الأغنام ويمنع رفع أسعارها رغبة منهم في استغلال موقف الدولة أو استغلال الأزمات التي تواجهها الدولة.

- أمين الخرج الخاص: وهو موظف مكلف بتحصيل واردات منسوبي القصر، كما يكلف بالأشراف على مشتريات القصر ويعاونه عدد من الموظفين .
- أمين الصرة: حامل الأموال الخاصة بالحرمين الشريفين .
- أمين النزول: مصطلح يطلق على الشخص المكلف بتأمين التموين اللازم ويضعه في الطريق الذي سوف تسلكه القوات العسكرية لدى قيامها بمهمة داخل الولاية أو خارجها.
- اندرون: يعني القسم الداخلي من أبواب قصر طوب قابي وبخاصة قسم السعادة ويشمل (غرفة العرض- الخزينة الهمايونية والمستودعات .
- الإنكشاري المقطوع: وهم الأشخاص الذين يلحقون بالإنكشارية دون راتب بغية الاستفادة من المميزات وبهذه الصورة تمكن المسلمون من اختراق نظام الدفشرمه، ومع مرور الزمن أصبحوا إنكشاريين حقيقيين يتقاضون رواتب.
- إنكشارية: جنود محترفون تُجمعهم الدولة من المسيحيين، بموجب نظام الدفشرمه.
- أوجاق: كانون، موقد، فصيل من الجند، مكان خاص بالخضروات في البستان.
- أوجي: مصطلح يطلق على كل شخص يرافق السلطان للصيد أويهتم بتربية طيور الصيد وحرصاً يجب أن يكون ممن يعمل بالقصر وجمعها أوجيلر.
- اوده: (اوضه) غرفه، رابطة، قاووش، أو شقة صغيرة، مكان تقيم فيه الإنكشارية.
- أوردي همايوني: جيش سلطاني ويطلق على القوات العثمانية (برية وبحرية)
- أورطة: فرقة من الجند.

- أورنيك: نموذج، مصطلح تركي كثير التداول.
- اوضه لك (اوده لق): مصطلح يطلق على الجارية التي تعمل بخدمة الغرفة بغرض الجماع.
- أوطاق: خيمة فخمة، صوان مزين، ما يشابهه بمكان الذي يقيم به السلطان أثناء ذهابه إلى الحرب.
- أوغلي: ابن وفي الفارسية يستخدم مصطلح زاده وتكتب بالواو بحسب التركي الحديث.
- اولاق: وهو الشخص المكلف بنقل الأخبار عبر مرحل من الدولة إلى مكان آخر وبتغيير ساعي البريد الذي ينتقل من شخص إلى آخر إلى أن يصل إلى المكان المقصود.
- أولو وزير: صدر أعظم (أي رئيس وزراء) أي الوزير الأول.
- آياق ديواني: مصطلح يطلق على الديوان الذي يشكل في ظروف طارئه.
- ايالت: إيالة أي مقاطعة أو محافظة أو إقليم واستبدلت بولاية .
- أيج أوغلان: أسرى الحرب من الغلمان المسيحيين الذين نشؤوا في دور الحكومة العثمانية .
- أيلاق: عاطل عن العمل.
- باب الباشا: وهو المقام الرسمي للصدر الأعظم وله عدة أسماء منها قصر الباشا، باب الآصفي باب الصدر وباب الوزير استمر حتى سنة ١٨٧٦ حيث ألغي من قبل السلطان عبد الحميد وسماه الباب العالي.

- باب السعاده: وهو الباب الثالث بالأندرون، وهو يفصل بين الأندرون (القسم الداخلي) والبيرون (القسم الخارجي) ثم أصبح يعرف بباب المابين لتوسطه مابين الباب الهمايوني مقر السلطان وباب عالي مقر الصدر الأعظم.

- باب السلام: وهو الباب الثاني من أبواب قصر الطوب قابي وهو يمثل مدخل القصر، وفيه يتم القاء القبض على الصدور العظام أو الوزراء إذا ثبت عليه خيانة أو عمل مشين، ويمنع مرور. أي شخصية مهما كان راكباً إلا السلطان وفيه يتلقى السلطان السلام من الحراس ومساعديه.

- الباب العالي: مقّر الصدر الأعظم الذي يضم مستشاره ورئيس الشورى ووزيري الداخلية.

- باب فتوى: مقام شيخ الإسلام ويسمى باب مشيخة، وكان شيخ الإسلام يمارس عمله في منزله حتى إلغاء الإنكشارية سنة ١٨٢٦ م، بعدها خصص له باب خاص به وبموظفيه.

- باب مراد: اسم من الأسماء القديمة التي أطلقت على مدينة استانبول.

- باج: كلمة فارسية الأصل تعني رسوم المبيعات على مختلف الأنواع، والرسوم المدفوعة أو الهدايا المقدمة من الشعب إلى السلطان.

- بادي شاه: أحد ألقاب السلطان ، السيد الأعظم.

- باره: نقد معدني ضرب في عهد السلطان مراد الرابع وزنها يزيد عن خمسة قراريط أبطل التعامل بها سنة ١٨٣٢ حيث سك نقد من نوع القرش، وكان القرش الواحد يساوي أربعين باره والباره الواحدة تساوي ثلاث أقجات والأقجة تساوي ثلاثة بول (طابع) .

- بارود خانه: مصنع البارود، ويعد بايزيد الثاني أول من أنشأ مصنعاً للباورد في استانبول في حي كاغد خانه،ثم انشئت مصانع البارود في مختلف الولايات، وفي عهد السلطان سليم الثالث عين ناظر على دار البارود، وحينما ألغيت الإنكشارية سنة ١٨٢٦ نقلت إلى نظارة المدفعية.
- البازركان: مسؤول عن شراء الأقمشة اللازمة للحرم السلطاني.
- بازركان باشي: يطلق على الخدم العاملين في السراي الهمايوني مهمتهم حفظ الألبسة القطنية الخاصة بالسلطان.
- باش: الأول، رئيس.
- باش إقبال: وهو مصطلح يمنح لثلاث من محظيات السلطان.
- باش بوزوق: نوع من العساكر غير النظامية التي تتطوع في أثناء الحرب تم تلحق بالجيش النظامي العثماني، وكان أشهر قائد فئة باش بوزوق محمد على باشا الذي توجه إلى مصر مع الفرقة الألبانية وبذكاء تخلص من طاهر باشا والوالي العثماني آنذاك خسروا باشا، وتمكن من الوصول إلى منصب والي مصر.
- باش جوقدار: رئيس فتيان القصر.
- باش كاتب: رئيس الكتاب أي رئيس الديوان.
- باش معماري: معلم معمار، يعني (رئيس المهندسين).
- باشا: في الأصل لقب كبير أمناء العائلات التركية. ثم أعطي لقباً للوزير والوالي ونائبيه.

- باشا كلمة معناها قدم الملك أو الشاه، ثم استخدمت كلقب لحكام الولايات، كذلك فقد أطلق هذا المصطلح على رتب متعدده عسكرية و مدنية، كما أطلق على العسكريين الحائزين على رتبة عليا كأمير لواء وفريق ومشير.
- باشا: الوزير الوالي ،نائب السلطان في ولاياته، ولاسيما بعد انقراض عصر البكلربكي سنة ١٥٨٧م.
- باشالق: ولاية. ويطلق على حاكمها المكلف من السلطان، لقب باشا.
- بجاقلي أسكي: مصطلح يطلق على قسم من عساكر اندرون القدماء العاملين في قسم الضيوف (سفرلي) كما كان يطلق على قدماء البلطجية.
- بجق جي: يطلق على الشخص الذي يقوم بتوزيع الأموال كصدقات من السلطان على الفقراء في الجامع الذي يصلي به السلطان، ويشترط أن يكون هذا الشخص من أفراد فوج السلحدار.
- بدركاه: يطلق هذا المصطلح على ألأفراد الذين يقبلون كمتدربين في أجاقات عجمي أو في أوجاقات قابي قول (عبيد الباب).
- بدل العشر: ضريبة سنوية تفرض على المباني الواقعة في الأراضي غير الزراعية.
- بدل جبلو: وهو صربية مفروضة وكان سابقاً يدفع كبدل للدولة مقابل تخلف الأفراد عن الحرب، وبعد مرور الزمن أصبحت ضريبة مفروضة من قبل الدولة على رعاياها.
- برغوت: كلمة تعني بيرقرش (أي قرش واحد) مصطلح أطلقه السوريون على القرش الفضي نظراً لصغره، ثم ضرب قرش فضي أكبر منه، وأطلق عليه برغوت كبير.

- بدل تيمار: ضريبة فرضت في سنة ١٧٣٧ م في عهد السلطان محمود الأول على ملتزمي الأراضي عن طريق الإقطاع .

- البشكجي باش: المكلف باستلام الهدايا التي ترفع لجلالة السلطان من الدول الأجنبية.

- بشلك: قطعة نقدية من ذات خمس أثمان القرش استخدمت في عهد السلطان أحمد الثالث ١٧٠٣-١٧٣٠ كبديل عن القرش، وقد سكت من الفضة بوزن ثمانية دراهم، في عهد السلطان محمود الثاني سميت بالجهادية، أما التي سكت في عهد عبد المجيد من نوع ربع مجيدية وسميت أيضاً بالجهادية.

- بشلو: مصطلح يطلق على العساكر التي تقوم بحفظ القلاع ويسمون بهذا الاسم لأنهم يتجمعون خمسة خمسة وينامون خمسة خمسة، كما يعملون كآداء للجيوش العثمانية وبعد ذلك تحولوا إلى مرتزقة.

- بشيك الآيي: وهو يعني الاحتفال بمناسبة مولد أحد أولاد السلطان حيث يتم صنع مهد من الفضة ، يوضع عند الباب الملاصق للديوان الهمايوني ويصحبه أحد الأغوات بهدف إيصاله إلى الحرم أو القصر، وهناك يقام احتفال يحضره كبار شخصيات الدولة والأمراء والأعيان، ويقدمون للمولود، الهدايا، ويسمى هذا احتفال المهد .

- بك: مصطلح تركي يطلق على كبار القادة والكاف هنا تلفظ ياءً وقد اعتمده العثمانيون كلقب لحاكم الولاية أو المقاطعة ولم يشع هذا المصطلح إلا بعد سيطرة الأتراك العثمانيين على البلاد العربية.

- بكجي: حارس، بكلكجي، مسؤول عن الأوراق التي تدون عليها الفرمانات السلطانية.

- بلطجي: جلاد، سياف.
- بلطجية: رسل، مبعوثين.
- بلوك: فرقة الجند .
- بنيجك: وهي كلمة فارسية تعني الخمس وقد اعتمدها الأتراك العثمانيون في أسرى الحرب.
- بيت الإمام: وهو كناية عن حبس خصص للنساء أصحاب السوابق وهو يقع في استانبول بالقرب من السليمانية.
- بيرق الحرب: العلم الإمبراطوري.
- بيرق: علم ،لواء ،راية.
- بيرقدار: حامل الراية ، أو حامل أعلام الإنكشارية الأوسط أو الفوج الذي نصفه أحمر ونصفه أصفر.
- بيرقدار التفكجية: حامل العلم الإمبراطوري.
- بيرون: كلمة فارسية وقد استخدمها العثمانيون للدلالة على التشكيلات الإدارية للقصر ، وهي تعني الخارج ، وأفراد بيرون القصر ستة أقسام:

١. طبقة العلماء
٢. طبقة الأمراء
٣. آغوات الركاب
٤. المتفرقون
٥. البلطجية
٦. الخدمات المتفرقة الأخرى

- بيك: تلفظ بي في الأصل لقب أبناء السلاطين الحائزين على لقب الباشوية وذريتهم. ثم استعمل لقباً لمعظم كبار الموظفين، الذين يكلفون بإدارة الولايات ويسمون وزراء الخارج.
- بيكلربكي: أمير أمراء "الرتبة الثانية من رتب الباشوية"، وتلفظ (بيلربي) لأن الكاف الفارسيه ياء.
- ترسانه: خزانه الأسلحة.
- ترسخانه: دار الأسلحة.
- ترسيم: احتياط، مراقبة.
- تفنكيجية: قناص، رماة،الجنود حملة البنادق(من تفنك: بارودة).
- تيمار: إقطاع أرضي يمنح لضباط السباهيه، ودخله لا يتجاوز ٩٩٩،١٩ أقجة.
- جادر: خيمة.
- جالق: مضطرب، متقاعد.
- جاويش: في الأصل حاجب. ثم استعملت للرقيب (رتبة عسكرية).
- جبخانه: مكان معدّ لحفظ الذخيرة والسلاح .
- جبه جي: فرقة مصلحي الأسلحة.
- الجردة: قافلة تحمل المؤن إلى الحجاج وتلقاهم في طريق عودتهم إلى دمشق.
- جفتلك: مزرعة، إقطاعية وفي ليبيا أطلق عليها ثواني، وقد تعتمد كوحدة قياسية للأراضي الزراعية التي تقدر بسبعين أو ثمانين ألف متر مربع بالنسبة للأراضي المنبتة، ومئة وخمسين ألف متر مربع للأراضي القاحلة.

- جفتلي: خادع، غشاش.
- جلبي: خواجه، سيد، جميل، وقد أطلق هذا اللقب على أبناء يلدرم بايزيد الأول.
- جوقدار: من غلمان القصر، رسول السلطان، موظف.
- حكمدار: حاكم، قائد الشرطة.
- جراخور: نوع من العساكر العثمانية، أنشئت مع قيام الدولة، وكانوا يؤدون الخدمات الخلفية وبخاصة بعد إنشاء الإنكشارية سنة ١٣٦٢ م .
- خاتون: سيدة متزوجة.
- خاقان: لقب من ألقاب السلطان، وهو لقب مغولي.
- خان: لقب الملوك والأمراء وأسياد الترك، كما يعني منزلاً للمسافرين والتجار.
- خانم: لقب السيدات عموماً وتلفظ (هانم).
- خديوي: لقب والي مصر، نائب السلطان،وقد منحه السلطان عبد العزيز إلى الخديوي إسماعيل.
- خرستيانه: مسيحي.
- خرّم: سعيد، مسرور لقب أطلق على زوجة السلطان سليمان القانوني وبالأصل اسمها (روكسلانا)
- خزنة مصر: الأموال التي ترسلها مصر للخزينة السلطانية .
- خزندار: أمين الخزانة أو أمين الصندوق، وهو مسؤول عن نفقات الحرم السلطاني.
- خستخانة: مصطلح تركي يطلق على المشافي.

- خسكي أو خصكي: وهو تعبير يطلق على من تقدم به السن في وظيفته وماشابهها، وتعني القديم.

- خط شريف: فرمان سلطان، مرسوم أو قرار يصدر بخط السلطان أو توقيعه وقد صدر شريف همايون خطي في عهد السلطان عبد المجيد سنة ١٨٥٦م وكان سابقاً قد أصدر فرماناً سمي كلخانه خطي وذلك سنة ١٨٣٩م ويجمع المؤرخون على أن السلطان أصدر ذلك بتوجيه فرنسي بريطاني لأنهما وقفا إلى جانبه ضد محمد علي باشا سنة ١٨ ٣٢ وضد روسيا في حرب القرم ١٨٥٣-١٨٥٦م.

- خواجه: مصطلح يطلق على المسيحيين ولاسيما التجار منهم.

- خوجه: معلم ،مدرس وتلفظ بالهاء.

- دربند: كلمة فارسية ، وتعني المحافظ على أمن المسافرين لدى عبورهم المضائق أو الوديان ، كما يطلق على العسس أو الدرك .

- الدالاتية: طائفة من الجند، أي طائفة المجانين.

- داماد: يطلق على صهر السلطان (سواء زوج أخت السلطان أو ابنة السلطان)، وبالعادة يختار من كبار العائلات أو من كبار المسؤولين في الدولة .

- درسخانة: مكان معّد للدراسة.

- دفتردار: رئيس المحاسبة ، المسؤول عن الإدارة المالية.

- الدوشمان: العدو.

- دولتلو: صاحب الدولة وهو لقب يطلق على الشخصيات الكبيرة.

- دوفشرمة: تعني الجمع ،القطف ، وقد طبق هذا النظام على الشبان المسيحيين.

- دونانمه: مصطلح يطلق على الأسطول البحري .

- ديكز: تلفظ(دينز) أي بحر.رئيس الوزراء.
- رصدخانة: مرصد ،مرقب.
- رفعتلو: صاحب الرفعة.يطلق على الصدر الأعظم أو مفتى الإسلام،الرواتب الخاصة التي يمنحها

السلطان.

- روزنامجي: محاسب.
- زرباوات: أشقياء.
- زرد خانة: مستودع الأسلحة.
- زلطة: عملة مغشوشة (٣٠) بارة.
- سالنامه: تقويم سنوي ، جريدة رسمية – اعتمدته الدولة منذ سنة ١٨٤٧م.
- سباهية: جنود الباب العالي من المشاة الإنكشارية ، أما مصطلح السباهية فيعني فرقة الخيالة.
- سر عسكر: قائد الجيش الأول برتبه مشير.
- سرايا: دار الحكومة قصر، في الولايات مقر الوالي، في إستانبول مقر السلطان .
- سرجي: ناقل البريد.
- سردار: قائد فرقة الجند ،أمير الجيش.
- سعاد تلو: صاحب السعادة، ويطلق على كبار الشخصيات.
- سلحدار: المشرف على مستودع الأسلحة.

- سلخور: مبعوث السلطان.
- السلمانية: من رتب العلماء الأتراك الرفيعة.
- سلاملك: يهو الاستقبال ،مضافة .
- سنجق: العلم اللواء، وأحياناً يطلق على السنجق المقسم تقسيماً إدارياً
- سنجقدار: حامل اللواء.
- شاهنشاه: لقب الجالس على العرش وتعني ملك الملوك.
- شربجية: من أكابر الانكشارية.
- شهبندر: لقب قنصل الدولة ويطلق على شيخ التجار.
- شهزاده: لقب ولّي العهد وأبناء السلاطين.
- شهشوار: ماهر جريء.
- شوبقجي: حامل قصبة التدخين عند بعض الأشخاص المرموقين.
- شورا دولت: مجلس الدولة ، مجلس الشورى.
- شوكتلو: من ألقاب السلطان ، صاحب الشوكة.
- صدر أعظم: لقب صاحب المقام الأول في الحكومة ، رئيس مجلس الوكلاء ووزراء الدولة.
- الصرة: أموال ترسل من الدولة لأشراف الحجاز.
- طابور: فرقة عسكرية ،كتيبة،فوج.
- طبنجه: مسدس من طراز قديم.

- طغراء: العلامة السلطانية"الختم السلطاني".
- طواشي: خادم حريم الباشا(ويشترط أن يكون مخصياً).
- طواشيه: الخصيان وكان يتم عملية خصي الأفارقة في مدينة دمياط المصرية من قبل اليهود.
- طوب: مدفع، وطوبجي ، مدفع.
- طوبال: أعرج.
- طوبجي: مدفعجي.
- عرض أوردو: معسكر،مركزتجمع العسكر.
- علوفة: مرتب شهري.
- قابجي: حاجب السلطان ، بواب دائرة في قصر السلطان.
- قادين: سيدة.
- قانون نامه: التشريع الذي وضعه سليمان القانوني محالاً وضع حد للمساوئ السابقة .
- قبجي التقرير: حامل فرمان السلطان بتقرير الولاية .
- قدرتلو: من ألقاب السلطان.
- قشلة: ثكنة عسكرية.
- القفا دار: الموظف الذي يسير خلف قافلة الحج.
- قلبق: لباس يوضع على الرأس.

- قناق: مضافة ، فندق المسافرين.
- كتاب: حامل بريد الحجاج إلى أقربائهم.
- كتبخانه: دار كتب.
- الكتخذا: وتعني صاحب البيت أو رب البيت يطلق على الشخصيات المرموقة ويطلقونه الترك على الوكيل المعتمد، وكان سابقاً وسيطاً مابين التجار والحكومة، ثم اعتمدته الدولة العثمانية بمعنى أمين إذا كان عمله بالخزانة واسمه بحسب عمله.
- كدك افندي: وهو مصطلح يطلق على الموظفين المسؤولين عن دفاتر الخزينة الداخلية، ومع مطلع القرن الثامن عشر وفي عهد السلطان أحمد الأول عين عليهم رئيساً سمي باش أفندي.
- كدك: وهو امتياز يمنح لتاجر أو صانع يحتكر مادة تجارية أو سلعة غذائية أما ماشابها فيمنح رخصة بما يقوم به. كما يطلق هذا المصطلح على العاملين في طائفة مهنية ثابتة لا يتغير كما يطلق على من يعمل لدى الحكومة أوفي العسكرية.
- كدكلى جارية: مصطلح يطلق على من تقبل في الوظيفة الشاغرة من جواري القصر السلطاني، وقد ترتقي من خلال هذه الوظيفة إلى نديمة من نديمات السلطان الاثنتي عشرة ولربما تغدو زوجة للسلطان إذا ماتت إحدى زوجاته.
- الكلار: كلمة يونانية الأصل اعتمدها الأتراك كمصطلح على غرفة مؤنة البيت أو الخزينة ، وموظف التموين في الدولة يطلق عليه الكلارجي.
- كول: مملوك. وكول مخمة (تعني بحيرة) وكوك: تعني السماء.
- الكيسه: وهو قطعة قماشية تخصص لوضع النقود فيها وقد اعتمدته الدولة كمصطلح مالي ضرائبي وقد اختلفت كمية النقود التي يعينها من الذهب إلى الفضة وحسب الوضع المالي للدولة .

وقد قسمت الكيسة إلى أقسام ثلاثة:

١ – كيسة مصرية وتساوي ٦٠٠ قرش مطبقة في مصر فقط

٢- كيسه الديوانية (مدينة عراقية) تعادل ٤١٦ قرشاً .

٣- كيسه عثمانية روميه تعادل ٥٠٠قرشاً.

- لالا: مربي أولاد العظام / مهذب، مؤدب.
- لاوند: طائفة من الجند.
- لغمجية: واضعو الألغام.
- مابين: الديوان الملكي أي باب مابين الباب العالي والباب الهمايوني ومخصص لنقل أوامر السلطان إلى الصدر الأعظم.
- متسلم: وكيل الباشا في إدارة شؤون الولاية.
- مجلة أحكام عدلية: أصدرها السلطان عبد العزيز وفي سنة ١٨٧٦ أصبحت أعدادها (١٦) مجلة ويذكر سرت أوغلو في مؤلفه أن المجلة احتوت على ٩٩ مادة فقهية مع بعض الأحاديث النبوية والقواعد الشرعية.
- مجلس الوالا: مجلس تدوين القوانين والأنظمة ، مجلس تأديب الموظفين.
- المجيدية: نوع من العملة ضربت في عهد السلطان عبد المجيد سنة ١٨٤٤م رائد التنظيمات وكانت المجيدية الواحدة تساوي عشرين قرشاً سك منه فئة العشرة قروش أي النصف والربع ويساوي خمسة قروش وهناك القرشان والقرش الواحد.
- مدرسة الخارج: وهي أولى مراحل التعليم الشرعي في الدولة العثمانية وهي قسمان ابتدائية الخارج وحركة الخارج .
- مرتزقة: مصطلح يطلق على من يتقاضى راتباً شهرياً أو سنوياً من الحكومة وهي العساكر التي حاربت بها الدولة العثمانية أعداءها قبل تأسيس الإنكشارية وكان هؤلاء العساكر قد أسروا أطفالاً صغاراً ربوا بين الأتراك والمشاة منهم يطلق عليهم بياده وبعد تأسيس الإنكشارية كلفوا بالخدمات كإقامة الجسور وقطع الأشجار وفتح الطرقات أمام الجيش.
- مسلمان: مُسلم،وهناك فرقة عسكرية تسمى المسلم.معين أو أن يقدم له معروض.

- ملا: عالم ، سيد(أصلها العربي مولي)من ملك خاص أو زعامة.
- مهردار: حامل الأختام.
- ناظر: وزير.
- نشانجي: صاحب التوقيع، القيم على خاتم السلطان والخارجية وباب همايون مقر السلطان.
- ويركو: ضريبة، خراج.
- ياور: مرافق، معاون.
- ياياباشي: رئيس الجند المشاة.
- يسق: ممنوع.
- يطقان: ساطور، سيف.
- يغما: غش، مكر، خداع، فوضى.
- يمق: أصحاب الحرف الذين يلتحقون بجند الإنكشارية، ويمكخانه مطعم.

مصطلحات متنوعة

- آرشين: وتعني ذراع، وهي وحدة قياسية استخدمت في مناطق الدولة العثمانية وبخاصة الولايات الشرقية منها، وهي على نوعين:

= نوع يستخدم في السوق ويساوي ٦٨سم.

= نوع يستخدمه البناؤون ويساوي ٧٥,٨ سم.

- آشاغي بلوك: وهو مصطلح يطلق على سرايا الغرباء من جيش القابي قول اليميني منه واليسري أي الذين يقفون على اليمين واليسار .
- اغا جراغى: مصطلح يطلق على العناصر المسجلين في فرقة الإنكشارية من المسلمين أو من غير المسلمين ممن لانسب لهم أو لا ينتسبون إلى أسر معروفة.

- آغا الحرم: يطلق على العناصر المخصية من الرجال العاملة في الأقسام الخاصة بالنساء من القصور السلطانية، وكان أكثرهم من الزنوج، وغالباً ما كان والي مصر يقدمهم كهدية للقصر السلطاني في اسطنبول.
- آنبارجي: مصطلح يطلق على أمناء المستودعات في السفن الشراعية، وكانت أعداد العاملين في عنابر السفن (آنبار) ١٠ إلى ٢٠ شخصاً ويسمى رئيسهم آنبارجي باشي (رئيس العنابر).
- آسدي: نقد هولندي عليه صورة الأسد، وأطلق عليه بالعثماني أرسلانلي، والقطعة منه تساوي ١٢٠ أقجة.
- إيالة: أكبر التقسيمات الإدارية المعتمدة في الدولة العثمانية ، وقسمت الإيالة إلى سناجق والسناجق إلى أقضية والأقضية إلى نواحٍ وقرى.
- باش باقي قولو: مصطلح يطلق على موظف تحصيل الضرائب بالمرتبة الأولى في التنظيم المالي العثماني. وسابقاً كان يطلق عليه (سر غلام باقي) وكان بإمكانه اتخاذ إجراءات قانونية بحق الأشخاص المعارضين لدفع الضرائب أو المتهربين من دفعها.
- باش بوغ: مصطلح يطلق على القائد الذي يشرف على الجيش في أثناء الحرب أو قائد الميليشيات .

تقويم وقائع: أول صحيفة عثمانية صدرت في٢/تشرين الثاني سنة ١٢٤٧ هـ ١٨٣١ م، بأمر من السلطان محمود الثاني،مهمتها الأخبار الداخلية والخارجية مع بعض اهتمامات الأخرى.

- الجباية: مصطلح خاص بالأوقاف وبدأ استخدامه في عهد بايزيد الثاني، ١٤٨١ - ١٥١٢ م ويعني إدارة واردات الأوقاف بعد تقسيمها بأسماء واقفيها مثل جباية قاسم باشا، وجباية غلطة ،ألغي بعد إنشاء نظارة الأوقاف

الحواشي والهوامش

للعلم أن هذه المصطلحات أخذت من مصادر ومراجع عدة من أبرزها:

١- دائرة المعارف الإسلامية التركية .

٢- خليل إينالجيك **تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار** ترجمة محمد الأرناؤوط . دار المدارس الإسلامي ببيروت ٢٠٠٢.

٣-سهيل صابان **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية** الرياض ١٤٢١-٢٠٠٠

٤-شمس الدين سامي **قاموس المصطلحات والأساليب العثماني** غير مترجم ثلاثة أجزاء طبع في استانبول ١٩٢٦ .

٥- مدحت سرت أوغلو **التاريخ العثماني المصور** غير مترجم استانبول ١٩٥٨م

٦-. محمد أحمد دهمان **معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي** دمشق ١٩٩٠

٧-. من قراءات ومطالعات متعددة لمؤلفين وشخصيات تاريخية متخصصة بالتاريخ العثماني.

الموقف الروسي من التدخل المصري في بلاد الشام (١٨٣١-١٨٤١م)

"قراءة جديدة في التدخل الدولي"

الدكتور غالب عبد أحمد العربيات الدكتور خالد حامد طاهر شنيكات

قسم العلوم الأساسية

كلية السلط للعلوم الإنسانية

جامعة البلقاء التطبيقية

الأردن

ملخص الدراسة:

تتناول هذه الدراسة الموقف الروسي من التدخل المصري في بلاد الشام (١٨٣١-١٨٤١م)، وذلك عندما سارعت روسية إلى عرض مساعدتها على السلطان العثماني محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩م)، بعبور السفن الحربية الروسية إلى مضيق البوسفور لحماية العاصمة استانبول من دخول قوات محمد علي باشا إليها وتوقيع اتفاقية كوتاهية في ٨ أيار (١٨٣٣م) بينهما، وقد أدى تعاظم النفوذ الروسي إلى تدخل

بريطانية وفرنسة لتسوية الخلاف بين السلطان ومحمد علي باشا، وبالتالي فقد أثمر التقارب بين السلطان العثماني وروسية عن توقيع اتفاقية هنكيار اسكلة سي في ٨ تموز (١٨٣٣م).

وتناولت الدراسة موقف روسية من هزيمة الجيش العثماني في معركة نزب (١٨٣٩م)، وكيفية تعاملها مع هذا الحدث في أعقاب تلك الهزيمة، بالإضافة إلى دراسة مؤتمر لندن (١٨٤٠م)، وما تمخض عنه من توصيات وقرارات وثيقة الصلة بالمسألة المصرية.

وأخيراً تم تناول تدخل القناصل الروس وتأثيرهم في شؤون الإدارة المصرية في بلاد الشام، مما أدى إلى إيجاد حالة من عدم الثقة بين هؤلاء القناصل من جهة، والإدارة المصرية من جهة أخرى.

وختمت الدراسة بأهم النتائج المتمثلة بإعلان روسية الوقوف إلى جانب الدولة العثمانية في مواجهة محمد علي باشا منذ بداية التدخل، ومستغلة في ذلك حاجة السلطان العثماني لطلب المساعدة الروسية بعد اعتذار بريطانية عن تقديم المساعدة له، الأمر الذي أدى إلى زيادة الدور الروسي في أرجاء الدولة العثمانية بعد توقيع اتفاقية هنكيار اسكلة سي، وإنجاح مؤتمر لندن لحل المسألة المصرية.

مقدمة:

ازداد تنافس الدول الأوروبية الكبرى خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، للحصول على مناطق نفوذ ضمن أراضي الدولة العثمانية، خاصة تلك المناطق ذات الأهمية الاستراتيجية، لتحقيق مصالحها، من هذه المناطق ولاية مصر في عهد محمد علي باشا الذي سعى إلى بناء دولة متقدمة، مستعيناً ببعض الدول الأوروبية، خاصة فرنسة، فقام بتجنيد جيش وفق أسس عصرية، وبناء أسطول بحري، وإقامة نظام إداري حديث، وأنشأ المدارس، وبنى المصانع، وعمل على تطوير الزراعة في مصر،

مستغلاً أوضاع الدولة العثمانية المتردية، وقام بتوجيه حملة عسكرية عام (١٨٣١م) باتجاه بلاد الشام بهدف ضمها إلى حكمه، وقد تجاوزت قواته برّ الأناضول حتى أصبحت على مشارف استانبول، مما دفع الدول الأوروبية إلى التحرك لوقف زحفه، بعد إقناعها للسلطان العثماني بضرورة قبول الأمر الواقع، وهاجسها الحقيقي خدمة مصالحها والمحافظة على مكاسبها. والاتفاق مع محمد علي باشا على ضرورة التوقف عن التقدم، والاكتفاء بالمناطق التي سيطر عليها، وعدم تهديد العاصمة العثمانية استانبول؛ لأن ذلك سيؤدي إلى الإخلال بمبدأ توازن القوى، ولذا فقد وجهت الدول الأوروبية إنذاراً إلى محمد علي تدعوه فيه للتراجع حتى حدود سورية الطبيعية.

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى إلقاء الضوء على الموقف الروسي، المعارض لمطامح محمد علي باشا، والداعم لموقف الدولة العثمانية، وبيان الموقف الروسي المؤيد لمحمد علي بمواجهة الدولة العثمانية، والإجراءات التي اتخذتها روسية لحماية الدولة العثمانية، ونتائج محادثاتها معها، وأثر ذلك على المسألة المصرية، والذي انتهى بتدخل القنصل الروسي في شؤون الإدارة المصرية، وما آلت إليه أوضاع الحكم المصري في بلاد الشام، وانتهى بخروجه منها عام (١٨٤١م).

العوامل الرئيسة للتدخل الروسي:

جاء تقدم القوات المصرية باتجاه بلاد الشام، ليكشف حقيقة موقف الدول الأوروبية المتباينة، إذ يتضح أن عوامل رئيسة بدأت تلعب دورها، والتي يمكن إجمالها بما يلي:

- ظهور أوروبا الجديدة بعد سقوط نابليون بونابرت، وقيام تجربة دستورية في فرنسة، على غرار التجربة الإنجليزية، مع تمسك فرنسة بسياسية التوسع الخارجية للحصول على المزيد من المكاسب.

- يقظة الشعور القومي لدى شعوب إقليم البلقان الصغيرة، التي أدت إلى استقلال دولة رومانية عام ١٨٢٠، المكونة من إقليمي الأفلاق والبغدان العثمانيين، بمساعدة روسية. ثم جاءت ثورة اليونان، وحصولها على الاستقلال بمساعدة الدول الأوروبية بما فيها روسية وفرنسة وبريطانية.
- تضارب السياسات الأوروبية تجاه الدولة العثمانية (المسألة الشرقية)، من التدخل الروسي.

عندما تقدمت القوات المصرية إلى بلاد الشام، لم يكن لدى بريطانية في البداية موقف واضح تجاهها، ذلك أنها منشغلة بأوضاعها الداخلية، وتعزيز استقرارها بما عرف بإصلاحاتها الداخلية، لكنها رغم ذلك حريصة في سياستها للمحافظة على الدولة العثمانية وأمنها، لمواجهة الأطماع الروسية المتمثلة بالوصول إلى المياه الدافئة(١)، يتضح ذلك من تباين الآراء بين أندرو كاننج السفير البريطاني في استانبول، الذي رأى ضرورة مساعدة الدولة العثمانية في محنتها هذه، بينما اتجه بالمرستون رئيس الوزراء إلى اتخاذ سياسة جريئة وخطيرة في آن معاً. فجعل بريطانية أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن تدع محمد علي باشا يؤسس دولة عربية قوية للوقوف ضد الأطماع الروسية في المنطقة. وإما أن تعمل بريطانية على استمرارية الدولة، لتبقى سداً في وجه الأطماع الروسية، وبالتالي الوقوف في وجه التهديدات المصرية(٢).

أما فرنسة فكانت منذ البداية تؤيد محمد علي باشا في مشروعه التوسعي في بلاد الشام، لأنها ترى فيه خدمة لمصالحها التجارية فيها(٣)، كما أنها تعمل من جانب آخر على احتواء الأمة بين السلطان العثماني وواليه على مصر، خشية من عواقب استيلاء الأخير على بلاد الشام والتوغل في الأناضول مما سيهدد الكيان العثماني ويفتح المجال أمام التدخل الروسي في شؤون الدولة العثمانية(٤).

أما الدولة العثمانية فكان جيشها الجديد ما زال فتياً بعد قضاء السلطان محمود الثاني (١٨٠٨- ١٩٣٧م) على الإنكشارية عام (١٨٢٦م)، كما أن الأسطول العثماني كان قد هزم من قبل الأساطيل الأوروبية إبان حرب اليونان في معركة نفارينو عام (١٨٢٧م)(٥).

مرّ الموقف الروسي تجاه الدولة العثمانية في تلك الفترة بمرحلتين: تتمثل المرحلة الأولى بمحاولة روسية زيادة نفوذها عبر تقطيع أوصال الدولة العثمانية، من خلال مساندة الحركات الثورية في البلقان. اتضح ذلك في موقفها من ثورة رومانية، وثورة اليونان، وما حصلت عليه روسية من امتيازات في المضائق بعد غزوها العسكري المباشر للدولة العثمانية، وإجبارها على توقيع معاهدة أدرنة عام ١٨٢٩م. أما المرحلة الثانية من السياسة الروسية من الدولة العثمانية فقد اتضحت بعد عام ١٨٢٩، إذ عمد نيقولا في ذلك العام إلى تشكيل لجنة من كبار الساسة الروس، مهمتها بحث نتائج انحلال الدولة العثمانية، فتوصلت تلك اللجنة إلى نتيجة مفادها ضرورة المحافظة على بقاء الدولة العثمانية موحدة، والسبب في ذلك يعود إلى قناعة اللجنة بأن استقلال أي ولاية عثمانية تعتبر خسارة للدولتين معاً. إن السياسة التي توصلت لها اللجنة جاءت بناءً على موقف رومانية، التي عمد ملكها ميلوش ابرينوفيتش (Milos Obrenovic) إلى استخدام روسية رأس حربة في صراعه مع الدولة العثمانية، ومن السياسة التي اتبعتها الدول الأوروبية في اليونان، بسبب تضارب المصالح، فقد أجبرت تلك الدول روسية على سحب قواتها من شبه جزيرة المورة، والمحافظة على استقلال اليونان، وعدم استبدال السيطرة العثمانية بالسيطرة الروسية(٦).

فبدأت روسية تراقب عن كثب ما يجري داخل الدولة العثمانية، ومحاولة استغلال الظروف للحصول على المزيد من المكاسب بالطرق السلمية، والعمل على تحجيم النفوذ الفرنسي في بلاد الشام خصوصاً، وأن فرنسة كانت تسعى في ذلك الوقت إلى تعميق نفوذها عن طريق سياسة التقارب والتعاون التي تتبعها مع الدولة العثمانية،

ومن هنا فلم تخف الدوائر السياسية البريطانية خوفها من أن تقوم روسية باستخدام شمال بلاد الشام كقاعدة للوصول إلى مناطق ما وراء القفقاس الروسية[٧].

الموقف الروسي منذ بداية الأزمة حتى توقيع اتفاقية هنكيار اسكلة سي:

تركت السيطرة المصرية على بلاد الشام آثاراً بعيدة المدى على علاقة الدول الأوروبية بالدولة العثمانية من جهة، وعلى أوضاع واليها محمد علي باشا من جهة أخرى[٨].

كما أن لرفض بريطانية تقديم المساعدة للدولة العثمانية في صراعها مع محمد علي باشا يصب في مصلحة روسية التي كانت تنظر إلى إمكانية حدوث تحالف روسي- عثماني لاحتواء الخطر المصري[٩].

وما إن استنجد السلطان العثماني منذ بداية الأزمة بالقوى الأوروبية، حتى سارع القيصر الروسي نيقولا الأول (Nicholas 1) (١٧٩٦-١٨٥٥م) إلى عرض مساعدته عليه لكن السلطان تردد في قبولها[١٠].

ولروسية مبرر في حماية أراضي الدولة العثمانية بموجب معاهدة أدريانوبل (Adrianople) التي عقدت بين الدولتين عام (١٨٢٩م)، والتي أعطت لروسية الحق في المحافظة على الدولة العثمانية ومنع أي تدخل خارجي في شؤونها[١١].

لقد عملت روسية على زيادة نفوذها في الدولة العثمانية والمحافظة عليها من أي خطر خارجي يتهددها لقربها من أراضيها، لاسيما أنها ترى أن وجود دولة ضعيفة أفضل لمصالحها.

قام قيصر روسية نيقولا الأول بإرسال الجنرال مورافييف (Muravieff) مبعوثه الخاص إلى استانبول للإعلام عن دعمه للدولة العثمانية ضد واليها المتمرد محمد علي باشا واعداً السلطان بتقديم المساعدة العسكرية لإيقاف تقدم الجيش المصري[١٢].

كان التحرك المصري شمالاً قد بدأ باحتلال قونية؛ الأمر الذي أسهم في زيادة فرص التدخل الروسي في الأزمة المصرية العثمانية لاسيما بعد استعداد روسية إرسال قوات إلى أراضي الدولة العثمانية لحمايتها من خطر التقدم المصري[١٣]. تباحث السفيران: الروسي، والفرنسي في استانبول حول الوضع الحرج الذي تمر به الدولة العثمانية واتفقا على إلزام محمد علي باشا بالصلح معها، وفي حال رفضه ذلك يتوجب على دولتيهما الوقوف إلى جانب الدولة العثمانية[١٤]. وقد اتخذ السلطان العثماني قراراً بالتعاون مع روسية وطلب مساعدتها له بسفن حربية شريطة أن تبقى في مضيق البوسفور[١٥].

وفي ١٣ كانون الثاني أرسل القيصر الروسي الجنرال موارفييف إلى الإسكندرية حاملاً رسالة تهديد شفوية لمحمد علي باشا مفادها: المطالبة بانسحابه من بلاد الشام، وتسليم أسطوله للسلطان العثماني، وتخفيض عدد أفراد جيشه إلى عشرين ألف رجل، وإلا فإن القوات الروسية ستكون بمواجهته إذا واصل تقدمه شمالاً باتجاه الأناضول، فوعد محمد علي باشا من جانبه بأن يقدم فروض الطاعة للسلطان، وأن يوقف القتال كدليل على حسن نيته[١٦].

شكّل الاتفاق العثماني الروسي الآنف الذكر حالة من القلق لدى كل من بريطانية وفرنسة، فاتفقا على منع روسية من التدخل بالشؤون العثمانية. وتوعدت بريطانية بإلغاء الاتفاق العثماني الروسي، فطلبت من روسية سحب سفنها الحربية من البحر الأبيض[١٧]. كما حاولت بريطانية وفرنسة إقناع النمسا بالوقوف لجانبهما، لكن الأخيرة فضلت أن تدعم موقف روسية المؤيد للدولة العثمانية[١٨].

ومع ازدياد الخوف والقلق لدى السلطان العثماني من نوايا إبراهيم باشا (وهو ابن محمد علي باشا بالتبني)، وإمكانية تقدمه باتجاه العاصمة العثمانية. أصبح من المنطق قبول العروض والمساعدات التي تقدمها روسية لها[١٩]، فأمر السلطان وزير خارجيته

محمد رشيد باشا في ٢١ كانون الثاني عام (١٨٣٣م)، أن يطلب من السفارة الروسية لدى استانبول المساعدة العسكرية وحماية العاصمة من التهديد المصري[٢٠].

جاء الانتصار الذي حققه إبراهيم باشا في كوتاهية في ٢ شباط ١٨٣٣، ليغضب روسية التي أعلنت عن احتجاجها على تلك التطورات العسكرية، والتي أسفرت عن احتلال قونيه، ورفضها الاعتراف بسياسة الأمر الواقع، لخشيتها من ضياع نفوذها المتزايد في استانبول[٢١].

يمكن القول إن الدبلوماسية الروسية والتحرك النشط الذي قامت به، كان ينبع من إدراكها لخطورة التحرك المصري باتجاه العاصمة استانبول وتهديدها للمصالح الروسية، مما يمنح فرنسة الفرصة لزيادة تدخلها في شؤون الدولة العثمانية، ومساندتها لمحمد علي باشا. ولذلك نجد أن روسية سارعت إلى عرض مساعدتها على الدولة العثمانية، واستعدت بإمداد السلطان العثماني بأسطول بحري لحماية الدولة العثمانية هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان حرص روسية عائداً إلى خوفها على مصالحها أولاً، وحرصها على عدم قبول السلطان بالأمر الواقع، وتنفيذ المطالب المصرية، التي تشكل خطراً على النفوذ الروسي في الدولة العثمانية[٢٢].

لقد كان محمد علي باشا مدركاً لحقيقة الموقف الروسي وهيمنة القيصر نيقولا الأول على السلطان العثماني محمود الثاني، غير أنه كان يراهن على مساندة فرنسة وبريطانية له[٢٣].

بعد معركة كوتاهية بعث الباب العالي في ٣ شباط (١٨٣٣م)، مذكرة إلى بوتنييف (Boutenieff) القائم بالأعمال الروسي في استانبول، يطلب فيها إرسال قوات برية من ملدافيا عبر استانبول، وبناء على هذا الطلب، صدرت الأوامر من قيصر روسية، بنقل أربعة عشر ألف جندي روسي، كانوا موجودين في أوديسا، ليتم نقلهم وتركيزهم في منطقة البوسفور[٢٣].

كما قام السفير الروسي لدى استانبول بمقابلة المسؤولين العسكريين العثمانيين، في مبنى وزارة الدفاع العثمانية، وطلب منهم الموافقة على عبور السفن الروسية والملاحة، بموجب أمر رسمي صادر من السلطان العثماني[٢٥].

رأى دي بروجلي (DeBroglie) وزير الخارجية الفرنسي في الرسالة التي بعث بها إلى دي فارين (Devarrenne) سفير بلاده إلى استانبول: أن الدولة العثمانية ستمحى من الوجود إذا دخل الجيش الروسي أراضي الدولة العثمانية، ويضيف وزير الخارجية الفرنسي في رسالته: (وإذا أعطيت الحرية للأسطول الروسي للتحرك في الدردنيل والبوسفور؛ فإن الدول الأوروبية لن تقف مكتوفة الأيدي أمام هذه الوضع). لكن ما حدث كان عكس ذلك، إذ سرعان ما انتشر الجيش الروسي، بحجة قيام محمد علي باشا بتهديدها[٢٦].

كما طلب السلطان العثماني محمود الثاني بتعجيل المساعدة البرية والبحرية الروسية من أجل إخضاع محمد علي باشا وابنه إبراهيم باشا [٢٧]، واقترح أحد مستشاري السلطان ما يدعم ذلك بضرورة طلب المعونة البحرية الروسية؛ نظراً لأن الخطر المباشر الذي يهدد العاصمة استانبول قد اختفى الآن. وتوصل السلطان إلى استنتاج مفاده أن لا شيء سوى المساعدة الروسية يمكن أن تمنع دمار إمبراطوريته، وطلب إرسال أسطول روسي إلى البوسفور، بالإضافة إلى ثلاثين ألف رجل يمثلون قوة بحرية لحماية العاصمة العثمانية[٢٨].

تتابع قدوم القوات الروسية إلى استانبول خلال شهري آذار ونيسان، وفي ٥ نيسان (١٨٣٣م)، دخل الأسطول الروسي في ميناء بيوكويري، وأنزل إلى الأستانة كتيبة مؤلفة من خمسة آلاف جندي[٢٩]. فتولى الجنرال مورافييف قيادة القوات البرية بعد عودته من الإسكندرية، بينما تولى الأدميرال لازاروف قيادة القوات البحرية، ثم وصل

في شهر أيار الجنرال الياور كونت أولوف، ليتسلم القيادة المشتركة الروسية، ويحصل على صلاحيات استثنائية[٣٠].

أصبح السلطان العثماني يشعر بالقوة نتيجة قدوم القوات الروسية، فطلب من محمد علي باشا عودة جيشه وإبرام معاهدة سلام معه، وفي حال تحقيق ذلك تتعهد الدولة العثمانية بمغادرة الأسطول الروسي من البوسفور[٣١].

كما استشعرت بريطانية وفرنسة خطورة قدوم القوات الروسية وتمركزها في المضائق، فاتفقا على ضرورة تحجيم النفوذ الروسي في الدولة العثمانية، حماية لمصالحها فيها، بالإضافة إلى ضرورة وقف زحف قوات إبراهيم باشا، فطلبنا من محمد علي باشا الانسحاب من المناطق التي سيطر عليها[٣٢].

ويمكن القول إن السياسة الروسية نجحت في اللحظة الأخيرة، بالحفاظ على الدولة العثمانية وعدم سقوطها بيد القوات المصرية[٣٣]. كما أن روسية بدأت تضغط باتجاه الحصول على المزيد من المكاسب السياسية، وإظهار نفسها بمظهر الحريص والمدافع عن الدولة العثمانية الضعيفة أمام محمد علي باشا، لذا نجدها بدأت تعمل على إقناع السلطان العثماني بضرورة تمتين العلاقات الروسية – العثمانية، وأنها هي الدولة الصديقة الوحيدة للدولة العثمانية من بين الدول الأوروبية، وأنها هي القوة الوحيدة التي قدمت لها العون العسكري.

تدخلت بريطانية وفرنسة لتسوية الخلاف بين السلطان وواليه، نتيجة تعاظم النفوذ الروسي في الدولة العثمانية، وما يشكله من مخاطر على مصالحهما. كما أدرك محمد علي باشا خطورة الوضع الجديد، وأنه سيصبح في خطر، إذا لم يقبل الوساطة التي أسفرت عن توقيع اتفاقية كوتاهية في ٨ أيار (١٨٣٣م)[٣٤].

وجاء في هذه الاتفاقية: أن يتخلى المصريون عن إقليم الأناضول وتنسحب جيوشهم إلى ما وراء جبال طوروس، وأن تعطي لمحمد علي باشا ولاية مصر طيلة حياته.

ويتم تعيينه والياً على ولايات الشام الأربع: (عكا، وطرابلس، وحلب، ودمشق)، بالإضافة إلى جزيرة كريت وأن يُعين إبراهيم باشا والياً على أضنة(٣٥).

وعلى الرغم من توقيع صلح كوتاهية، فإن القوات الروسية رفضت الانسحاب من المضائق إلا بعد أن حصلت على المزيد من التنازلات، فقد تابعت روسية دبلوماسيتها الضاغطة على الدولة العثمانية للحصول على مزيد من المكاسب، فقد وصل المبعوث الروسي أورلوف (Orloff)من قبل نيقولا الأول في محاولة منه لإقناع السلطان بضرورة تمتين العلاقات الروسية العثمانية، بحجة أن روسية هي الصديقة الوحيدة للدولة العثمانية دون غيرها من الدول الأوروبية، وأنها الوحيدة التي قدمت لها العون العسكري في مواجهتها لقوات محمد علي باشا(٣٦). وأثمرت المفاوضات بين الجانبين عن توقيع اتفاقية هنكيار اسكلة سي(٣٧) في ٨ تموز (١٨٣٣م)، وفيها التزمت كل دولة بمساعدة الأخرى إذا تعرضت لخطر خارجي أو داخلي(٣٨).

واشترطت روسية في آخر بنود المعاهدة ما يلي: (إن الدولة العثمانية غير ملزمة بإرسال إمدادات عسكرية إليها في حالة وقوع الحرب على إحداهما، واكتفائها بإرسال إنذارات عسكرية بإقفال مضيق الدرنيل أمام أساطيل الدول المحاربة لروسية)(٣٩).

وبعد التوقيع على المعاهدة بثلاثة أيام، غادرت القوات الروسية المضائق عائدة إلى بلادها، وبدأت الدبلوماسية الروسية تسعى لتعزيز موقفها داخل الدولة العثمانية وتطبيق اتفاقية هنكيار اسكلة سي(٤٠).

أصبح التحالف الروسي العثماني في هنكيار اسكلة سي يقلق بريطانية، الأمر الذي جعل بالميرستون (Palmerston) وزير خارجيتها يصرح أن روسية والنمسا كانتا تخططان لاقتسام الدولة العثمانية، وأن بريطانية وفرنسة ستعارضان هذا المشروع وستمنعانه حتى لو اضطررنا إلى استخدام القوة العسكرية. وفي ٧ آب (١٨٣٣م)،

بعث وزير الخارجية البريطاني بالميرستون (Palmerston) مذكرة احتجاج ضد التحالف الروسي العثماني داعياً إلى إلغاء اتفاقية هنكيار اسكلة سي(٤١).

وفي ٨ أيلول (١٨٣٣م)، وقعت اتفاقية "مونشنجرانز" (Munchengratz) بين روسية والنمسا ونصت على قيام الدولتين بالمحافظة على كيان الدولة العثمانية، وبقاء الأسرة العثمانية الحاكمة على حالها، وكذلك مواجهة أي تهديد خارجي تتعرض له الدولة العثمانية(٤٢)، وعبَّر بالميرستون في واحد من خطاباته أمام حكومته أن اتفاقية "مونشنجرانز"، هي محاولة روسية نمساوية لاقتسام الدولة العثمانية، وأن بريطانية وفرنسة ستعارضان هذه الاتفاقية(٤٣).

وخلاصة القول إن التقارب الروسي العثماني جاء ليدق ناقوس الخطر بالنسبة لبريطانية ومصالحها في المنطقة، وخوفها من تهديد طرق مواصلاتها إلى الهند، وهذا ما يبرر عدم سماحها لأي دولة أوروبية أن تشكل خطراً على مصالحها، بل واتهام كل من يتحالف مع الدولة العثمانية لمحاولة التأثير على المصالح البريطانية، وهذا يقدم لنا تفسيراً لأسباب وجود تحالف بريطاني – فرنسي، حماية لمصالحهما في وجه أي تهديد لهما داخل كيان الدولة العثمانية، وممارستها للضغط الدبلوماسي والسياسي على محمد علي باشا تارة، والتهديد باستخدام القوة ضده إذا لزم الأمر تارة أخرى.

موقف روسية من هزيمة الجيش العثماني في معركة نزب (١٨٣٩م):

تطورت الأمور بعد توقيع معاهدة كوتاهية بشكل كبير، ذلك أن كل طرف من الأطراف الموقعة عليه، لم يرَ فيها إلا هدنة مؤقتة، من الممكن أن تستأنف بعدها الحرب في أي لحظة. وهذا ما حدث بالفعل؛ إذ عمل المصريون على تعزيز تحصيناتهم العسكرية في بلاد الشام استعداداً للمعركة القادمة. كما أن السلطان العثماني أصبح في موقف أقوى من ذي قبل؛ فقد استطاع إخماد الثورات التي قام بها الأكراد في شرق الأناضول، واستطاع إعداد جيش أكثر قوة، وبناء أسطول حربي

بمساعدة بريطانية[٤٤]. كما أن السلطان العثماني تمكن من الحصول على دعم عسكري من قبل روسية بموجب معاهدة هنيكار اسكلة سي التي أثبتت للدولة العثمانية أنها الوحيدة القادرة على حمايتها. بعد أن رفعت روسية حالة التأهب العسكري في البحر الأسود[٤٥]. ولعب السفير الروسي لدى استانبول الدور الأكبر في تحريض السلطان على إعلان الحرب على قوات محمد علي باشا، هادفاً بذلك إلى دفع العثمانيين لطلب العون والمساعدة العسكرية من روسية[٤٦]. وبذلك تهيأت الظروف للتطورات الجديدة[٤٧].

فوقعت في ٢٤ حزيران (١٨٣٩م) معركة نزب التي كان النصر فيها حليفاً للقوات المصرية، وتوفي السلطان العثماني دون أن يعلم نتيجة المعركة[٤٨]. وخشيت كل من بريطانية وفرنسة عواقب هذا النصر، الذي قد يؤدي إلى قدوم الأسطول الروسي مباشرة إلى استانبول مرة أخرى، وحاولوا إقناع السلطان العثماني الجديد عبد المجيد الثاني (١٨٣٩- ١٨٦٠م) لعقد اتفاق مع محمد علي باشا لكنّ ذلك كان بلا جدوى[٤٩]. كما خشيت روسية أن تقع المضائق بيد القوات العسكرية المصرية وحلفائها الغربيين. وهذا سيؤدي إلى القضاء على آمال روسية بالوصول إلى المياه الدافئة، بل وتضييق الخناق عليها لتعود متقوقعة على نفسها كما كانت قبل عهد بطرس الأكبر.

لقد أدركت الدول الأوروبية خطورة النصر المصري، إذ إن الطرق أصبحت سالكة أمام إبراهيم باشا بمتابعة سيره إلى استانبول. كما خشيت تلك الدول من اتخاذ روسية خطوات مماثلة لتلك التي أقدمت عليها من قبل، لذلك نجد أن الدول الأوروبية بدأت الضغط على محمد علي باشا طالبة منه إيقاف تقدم قواته وأن لا يتجاوز جبال طوروس[٥٠]. فقد رابط الأسطولان البريطاني والفرنسي قبالة المضائق، خشية دخول الأسطول الروسي إلى استانبول ثانية، وأعطي قائد الأسطول البريطاني في شرقي البحر المتوسط الأميرال ستوبفورد (Stopfprs) الأمر بعدم التدخل إلا إذا وصلته

أخبار دخول الأسطول الروسي إلى البوسفور، على الرغم من نزول الجيش الروسي في استانبول[٥١].

كما خشيت روسية من تطور الموقف محلياً، ومن قيام حركات عصيان وثورات في استانبول، ورأت في حركة محمد علي باشا خروجاً على الشرعية التي يمثلها السلطان العثماني عبد المجيد الثاني. كما رأت في هذا النصر، تفوقاً لسياسة فرنسة ومصالحا في الشرق[٥٢].

ويمكن القول إن التقدم الذي حققه جيش محمد علي باشا على الدولة العثمانية في نزب قد جعل روسية بشكل خاص والدول الأوروبية بشكل عام تتخوف من هذا الانتصار، وتخشى من وقوع المضائق في قبضة محمد علي باشا، مما يشكل خطراً على مصالحها في الدولة العثمانية. كما أن روسية تعمل للحيلولة دون قيام دولة قوية على حدودها الجنوبية تسير ضمن الركب الغربي، تستطيع أن تشكل خطراً حقيقياً على أطماعها التوسعية نحو المياه الدافئة في الجنوب، وتتصدى لسياستها في البلقان، مما يعني فتح صفحة جديدة من الصراع المرير الذي عاشته روسية مع الدولة العثمانية عندما كانت الأخيرة في أوج قوتها وعظمتها.

لذلك أدى تطور الأوضاع بعد معركة نزب في ٢٨ تموز (١٨٣٩م)، إلى اجتماع سفراء كل من بريطانية وفرنسة والنمسا وروسية وبروسية في استانبول، وقيامهم بتوجيه مذكرة إلى السلطان العثماني عبد المجيد الثاني طلبوا منه بموجبها أن لا يقر شيئاً في أمر المسألة المصرية إلا بعد اطلاعهم عليه، ولقيت هذه المذكرة قبولاً لدى السلطان والباب العالي، نظراً للدعم القوي الذي بدأ يشعر به السلطان من جانب الدول الأوروبية مجتمعة بمواجهة التهديد المصري[٥٣].

كما قدم القيصر الروسي نيقولا الأول مقترحات لبالميرستون وزير الخارجية البريطاني من خلال مبعوثه برينيور (Brinnur) تبلورت حول ضرورة إغلاق

المضائق أمام السفن الحربية كلها، وتقييد محمد علي باشا في الحكم الوراثي لمصر وولايات بلاد الشام، وأن روسية تسير يداً بيد مع بريطانية لحل نهائي بشأن المسألة المصرية(٥٤).

وكان سفيرا كل من بريطانية والنمسا لدى استانبول قد اقترحا إعادة بلاد الشام إلى حكم الدولة العثمانية، وعارضه في هذا الرأسي سفيرا فرنسة وروسية مطالبين أن يمنح محمد علي باشا حكم مصر وولايات الشام الأربع: (دمشق، وحلب، وكطرابلس، وصيدا)، بينما انحاز سفير روسية إلى الرأي الأول(٥٥).

في ١٩ أيلول (١٨٣٩م)، جرت محادثات فرنسية اشتركت فيها روسية حول المسألة المصرية، وهنا يظهر الخلاف بين بريطانية وفرنسة حول الموقف من التسوية، فقد كان من رأي بريطانية القضاء على محمد علي باشا، نظراً لما يشكله من خطر على طرق مواصلاتها إلى الهند خاصة في حالة سيطرة فرنسة عليه. أما فرنسة فكانت ترى بقاء محمد علي باشا في حكم مصر، مع تبعيته الاسمية للدولة العثمانية. وقد تم تبليغ الدولة العثمانية بفحوى المحادثات(٥٦).

وفي ١٩ تشرين الأول (١٨٣٩م) عقد اجتماع في لندن بين مستشار السفارة الروسية ومبعوث الخارجية الروسية من جهة، مع بالميرستون وزير الشؤون الخارجية البريطاني من جهة أخرى، لبحث الموقف الحقيقي للحكومتين الروسية والبريطانية من المسألة المصرية، وبشأن سحب قوات محمد علي باشا من المناطق التي سيطرت عليها مؤخراً(٥٧).

وفي ٢٧ تشرين الأول (١٨٣٩م) اجتمع سفراء الدول الأوروبية الخمس التي لها صلة وثيقة بالمسألة المصرية في استانبول وهي: روسية، وبريطانية، وفرنسة، والنمسا، وبروسية وقد تمخض الاجتماع عن مجموعة اقتراحات، منها:

١. عقد مؤتمر خاص بالمسألة المصرية – العثمانية.

٢. توجيه إنذار رسمي للقوات المصرية بالانسحاب من المناطق المسيطر عليها بعد المعركة الأخيرة، لأن وجود هذه القوات قد تجاوز كل الأسباب لبقائها في الولايات العثمانية[٦٨].

وفي ٢٤ نيسان (١٨٤٠م) أكد وزير الخارجية الروسي الكونت نيسلورد (Nesselorde) ضرورة انسحاب قوات محمد علي باشا مقابل منحه ولاية مصر[٦٩]، وقد لقي هذا التصريح معارضة محمد علي باشا، الذي أكد على البقاء في بلاد الشام وضمها لحكمه.

مؤتمر لندن (١٥ تموز ١٨٤٠م):

بتاريخ ١٧ كانون الثاني (١٨٤٠م)، تسربت معلومات تفيد بأن الدولة العثمانية ستكون مجبرة على القبول بتطبيق معاهدة هنيكار اسكلة سي، وطلب النجدة من روسية، إذا ما عقد اتفاق تعاون بين فرنسة ومحمد علي باشا بمواجهة الدولة العثمانية[٦٠].

وجرت مباحثات بين كل من: بريطانية، والنمسا، وروسية، وبروسية والدولة العثمانية، بصياغة معاهدة لندن؛ لإنهاء التهديدات المصرية على الدولة العثمانية وبمشاركة فرنسة إذا ما رغبت في ذلك[٦١].

وفي ١٥ تموز سنة (١٨٤٠م) تم عقد معاهدة لندن التي تضمنت عدداً من القرارات والشروط، ومن أبرزها: إلزام محمد علي باشا بإعادة المناطق التي سيطر عليها من الدولة العثمانية في التدخل الأخير، والإبقاء على القسم الجنوبي من سورية ما عدا عكا، وأن يكون لبريطانية والنمسا الحق في محاصرة موانئ سورية بمساعدة بعض من سكان سورية، وعدم السماح لمن يريد الدخول في طاعة المصريين على حساب الدولة العثمانية وعدم السماح لمراكب روسية وبريطانية والنمسا حق الدخول إلى البوسفور لحماية استانبول إذا ما تقدمت إليها العساكر المصرية، وأن لا يكون لإحدى

الدول الحق بإدخال مراكبها إلى البوسفور ما دامت استانبول غير مهـددة، وأن يلـزم مندوبو الدول التوقيع على المعاهدة في مدة لا تزيد على شهرين[٦٢].

واتفقت الأطراف المشاركة في المؤتمر على مساندة السلطان العثماني عبـد المجيـد الثاني إذا لم يقبل محمد علي باشا بالشروط المفروضة عليه[٦٣].

وفي ١٦ تموز (١٨٤٠م) بعث بالميرستون رسالة إلى سفير بلاده لدى فيينـا بوفيـل (Beauvale) بيّن له فيها أن لدى بريطانية قوة بحرية كبيرة في البحر الأبيض سـيتم تحركها لخدمة أغراض التحالف، والضغط على محمد علـي باشـا لقبـول شـروط الاتفاقية، بدأت عملية حشد كبيرة بين سكان بلاد الشام، لإرغام القوات المصرية على الانصياع للمواقف الدولية، فقدم أسطول بريطاني نمساوي ليـرابط قبالـة شـواطئ بيروت، وقام بقصفها وإنزال قوات عثمانية فيها؟. جاء هذا التطور ليجعل بلاد الـشام تهب ضد إبراهيم باشا والقوات المصرية، ثم تحرك الأسطول باتجاه عكا التي دمرهـا بغضون ثلاثة أيام، وهنا أدرك محمد علي باشا وابنه أن خطوط مواصلاته الخلفية قد أصبحت مهددة، وأن لا أمل له بالبقاء في بلاد الشام، بل إن مصر قد أصـبحت فـي خطر، فعجل بالانسحاب، وهنا تجرأ السلطان العثماني ليصدر فرمان خلع محمد علي باشا للمرة الرابعة[٦٤].

أعلن محمد علي باشا رفضه شروط معاهدة لندن مؤكداً عدم إذعانه لرغبة التحـالف الأوروبي[٦٥]، وفي تلك الأثناء أتم محمد علي باشا استعداداته الحربيـة تحـسباً لأي طارئ في وقت ساءت فيه الأوضاع الداخلية، فقد هوجمت صيدا مـن قبـل القـوات البريطانية وتمكنت من إسقاطها، وكذلك إسقاط طرابلس في ٢٠ أيلول (١٨٤٠م)[٦٦]، وتابع الحلفاء تقدمهم باتجاه بيروت، إذ استسلمت لقـوات الحلفـاء ودخلتهـا القـوات العثمانية[٦٧].

وفي ٤ تشرين الثاني (١٨٤٠م)، سقطت عكا بأيدي الحلفاء، وأدى سقوطها إلى انتهاء الوجود المصري في بلاد الشام(٦٨).

وأمام هذا الواقع المضطرب، اضطر محمد علي باشا إلى عقد اتفاقية مع القائد البحري البريطاني نابيير (Napier) في تشرين الثاني (١٨٤٠م) تعهّد بموجبها بإجلاء قواته عن إيالات الشام جميعها، وإعادة الأسطول العثماني إلى الدولة العثمانية مقابل منحه الحكم الوراثي على مصر(٦٩).

واجتمع ممثلوا الدول الأوروبية الأربع: (بريطانية، وروسية، والنمسا، وبروسية) في مقر السفارة البريطانية لدى استانبول، وأبدوا فيها التزامهم بمسلك جماعي من جهة السلطان العثماني، وطلبوا منه منح محمد علي باشا حكماً وراثياً في مصر(٧٠).

وبعد القضاء على آمال محمد علي باشا في بلاد الشام أصبح المهمة الأساسية للدبلوماسية البريطانية في الشرق تقوم على تحجيم النفوذ الروسي في الدولة العثمانية. حيث دعت بريطانية الدول العظمى إلى عقد اجتماع لها في لندن، وعقدت اتفاقية حول المضائق شاركت فيه إنجلترا وروسية، وحرم على القوات الأجنبية عبور منطقة المضائق خلال أوقات السلم وحصر مسألة السماح لهذه القوات بالعبور خلال أوقات الحرب بالسلطان العثماني.

وبذلك فقدت روسية إمكانية حل مشكلة الأمن على حدودها الجنوبية بمفردها وخسرت كافة الامتيازات التي كانت قد حصلت عليها بموجب اتفاقية هنكيلر اسكلة سي في وقت ازداد فيه النفوذ الإنجليزي في الدولة العثمانية وفي بلاد الشام.

وفي ١٣ تموز (١٨٤١م)، تم إلغاء معاهدة هنكيلر اسكلة سي مع روسية، وتم استبدالها بمعاهدة البوسفور التي وقعت في استانبول وتنص على أن يصبح مضيق البحر الأسود والبحر الأبيض تحت سيطرة الدولة العثمانية، ولا يسمح للسفن الحربية باجتيازها والمرور منها وإليها(٧١) وتم دعوة فرنسة للدخول في التحالف الأوروبي.

وعقدت اتفاقية لندن الثانية في ١٣ تموز (١٨٤١م) بين بريطانية وفرنسة، والنمسا، وبروسية، وبموجبها استردت الدولة العثمانية بلاد الشام وكريت والجزيرة العربية، وتم تثبيت محمد علي باشا في باشوية وراثية في مصر تحت سيادة السلطان العثماني، واتفقت القوى المجتمعة على إغلاق البوسفور والدردنيل أمام السفن الحربية الأجنبية كافة ما دامت الإمبراطورية بالعثمانية في سلام[٧٢].

تدخل القناصل في شؤون الإدارة المصرية:

تمتع الأجانب بالحرية الدينية في فترة الحكم المصري في بلاد الشام[٧٣]، حيث سعت الإدارة المصرية إلى الظهور بمظهر المتسامح مع الجاليات الأوروبية تجنباً للاصطدام مع دولها[٧٤]، كما سمحت الإدارة المصرية بإنشاء قنصليات أوروبية في كل من بيروت، ودمشق، بالإضافة إلى حلب، واللاذقية[٧٥]. حتى إن القناصل الأوربيين طالبوا الإدارة المصرية السماح لهم بامتلاك الأراضي خلافاً لأحكام قانون الأراضي العثماني، لكن هذا الطلب قوبل فوراً بالرفض من قبل الإدارة المصرية.

كما أعطي القناصل ميزة الحصول على منح الحماية لمن يريد من أهالي بلاد الشام الاحتماء في ظل أحدهم، فقد استطاع أصحاب الحمايات أن يحصلوا على امتيازات متعددة مثل: الحصول على جواز سفر أجنبي، وتم إعفاؤهم من التجنيد الإجباري والضرائب والرسوم الجمركية. وكان لكل قنصل الحق في توفير الحماية ما بين ثمانية إلى عشرة أشخاص[٧٦]. ثم زاد القناصل في عدد الأشخاص الذين يوفرون لهم الحماية وبلغ عددهم ما بين خمسة عشر إلى خمسين شخصاً، مما أضر بمصالح المصريين الذين اضطروا أمام هذا الواقع إلى تحديد عدد الحمايات لكل قنصل[٧٧]، كما أساء القناصل استخدام نظام الحماية، وقاموا ببيعها لمن يدفع أكثر، وحاول أصحاب الزوارق البحرية التي تعمل ما بين يافا واللاذقية، الحصول على حماية القناصل للتهرب من مهام النقل البحري المصري بسبب صعوبة العمل فيها[٧٨].

كما مُنحَت الحماية للحرفيين ومعلمي البناء والنجارة وصانعي الفخار وعناصر البريد[(٧٩)]، وبلغ نفوذ وسطوة القناصل وحيازتهم إقطاعيات خاصة يديرونها لحسابهم، وأصبحوا وكلاء لبعض الجنود السباهية المقيمين خارج البلاد في قراهم (إقطاعياتهم) الواقعة ضمن منطقة نفوذ الحكومة المصرية[(٨٠)].

ويمكن القول: إن الدول الأوروبية من خلال قناصلها بدؤوا التدخل في كل صغيرة وكبيرة، لعرقلة سير الإدارة العثمانية وإظهارها بمظهر العاجز أمام رعاياها، وأساؤوا استخدام نظام الحماية، كما أن العناصر المحلية التي حظيت بالحماية بدأت تشكل عبئاً على الإدارة المصرية، من خلال التهرب من التجنيد الإجباري، وعدم دفع الضرائب والرسوم المترتبة عليهم، مما أضر بالخزينة المصرية، التي هي بحاجة ماسة لها.

فقد التزم يوسف مازولية وكيل القنصل الروسي في اللاذقية ثمانية قرى، منها: قرية اسطاموا بمبلغ ألفين وستمائة قرش*، وقرية حميم بألف قرش، وقرية بصراما بألف قرش، وبدأ بإعمار بيوت مستجدة وعددها ستة عشر بيتاً، وترميم عشرة بيوت من قرية اسطامو بمبلغ خمسة آلاف وثمانمئة وخمسة وخمسين قرشاً، وعمل على إعمار بيوت مستجدة في حميم بتكلفة قدرها ألف وخمسمائة واثنان وسبعون قرشاً، فبلغت جملة المصاريف التي ادعى بها الملتزم سبعة آلاف وسبعة عشر قرشاً[(٨١)].

وعلى الرغم من هذه التجاوزات، فقد اشتكى القناصل من بعض المضايقات التي كانوا يتعرضون لها، هم ومن يدخل تحت حمايتهم، طالبين من الإدارة المصرية عدم تكرارها. فقد أشار وكيل القنصل الروسي في بيروت من خلال أحد تقاريره المؤرخ في (١٢٥٠هـ/١٨٣٤م) إلى قيام جنود الإدارة المصرية بالقبض على كل من صادفوه في طريقهم من الشبان والشيوخ، بحجة التجنيد الإجباري، كما قُبض على قواسي** القناصل وضرب بعضهم الآخر، وأخذوا إلى الحبس ومنهم قواس دولة

روسية الذي قبض عليه في السوق، والذي ضرب دون رحمة وأخذت منه خمسة غازيات*** وثمانية قروش وحبس مع قواسي سائر القناصل(٨٢).

ونتيجة لذلك طلب القناصل الأوروبيون استثناء الحاصلين على الحماية من التراجمة والتجار والكُتاب والخدم والسماسرة من التجنيد الإجباري(٨٣). وكانت الإدارة المصرية تراقب تحركات القناصل الأجانب وتصرفاتهم نتيجة زيادة تدخلهم في شؤون الإدارة المصرية(٨٤).

ومجمل القول: إن القناصل تدخلوا في شؤون الإدارة المصرية بقصد إضعافها، وإثبات عدم مقدرتها على إدارة شؤون الحكم في بلاد الشام آنذاك، ولذلك؛ فإن العلاقة بين الإدارة المصرية والقناصل كان يشوبها الشك وعدم الثقة بين الجانبين؛ الأمر الذي كان يخدم الدولة العثمانية بشكل كبير إذ كانت تسعى لإنهاء الحكم المصري في بلاد الشام.

الخاتمة:

شكل العقد الثالث من القرن التاسع عشر مرحلة جديدة في تاريخ العلاقات العثمانية المصرية التي توجت بضم محمد علي باشا لبلاد الشام وحكمها في ظل متغيرات دولية ومحلية أسهمت في نجاح حملته تلك التي استمرت حتى عام (١٨٤١م). وقد استنجد السلطان العثماني بالقوى الأوروبية طالباً مساعدتها ضد القوات المصرية الزاحفة باتجاه بلاد الشام والأناضول منذ بداية عام (١٨٣٢م)، رغم إدراكه لمآرب تلك الدول وزيادة تدخلها في شؤون الدولة العثمانية، وفي الوقت الذي أرسل فيه السلطان مبعوثيه إلى عواصم تلك الدول، لإقناعهم بخطورة محمد علي باشا وأطماعه في الدولة العثمانية وأنه خارج على السلطة الشرعية، فقد عملت الدولة العثمانية على إثارة القلاقل والدسائس ضد الإدارة المصرية في بلاد الشام. كما دعمت الدولة العثمانية، الثورات التي قامت ضد المصريين في بلاد الشام، مستغلة ما أحدثه إبراهيم

باشا من تغيرات في الأوضاع الاجتماعية، وتسامحه مع أهل الذمة، وما أعطاه للقناصل الأجانب من امتيازات، فضلاً عن الضرائب الباهظة التي فرضها، وإدخاله لنظام التجنيد الإجباري الذي لم يألفه سكان بلاد الشام خلال الفترات السابقة.

كما عملت الدولة العثمانية على إظهار الحكم المصري بمظهر من يهدد المصالح الأوروبية وبالذات المصالح البريطانية خاصة التجارية منها، لذلك عملت على معارضتها لفكرة احتكاره للتجارة في بلاد الشام وكان بداية تحركها بالفرمان السلطاني الذي صدر سنة (١٨٣٥م) ضد محمد علي باشا مطالبة إياه بترك الحرية الكاملة للتجار الأوربيين بالاتجار بالحرير وخاصة البريطانيين.

وكان لهزيمة الجيش العثماني في نزب سنة (١٨٣٩م) المبرر الكافي لتدخل الدول الأوروبية لجانب السلطان سياسياً، وطالبته بالانسحاب من المناطق التي سيطر عليها وحل الأزمة المصرية العثمانية سلمياً، وأنذرته بالوقوف ضده إن رفض المصالحة مع السلطان.

ونجحت الدبلوماسية العثمانية في كسب مواقف الدول الأوروبية لجانبها في هذا الصراع. وتغيير موقف فرنسة التي كانت تؤيد محمد علي باشا في مشروعه، فعملت على إجباره لقبول مقررات مؤتمر لندن (١٨٤٠م)، وتعهده بسحب قواته من بلاد الشام مع نهاية (١٨٤٠م) لتعود بلاد الشام ثانية إلى حظيرة الدولة العثمانية.

نتائج الدراسة:

١- إفصاح روسية العلني عن موقفها الصريح بالوقوف إلى جانب الدولة العثمانية، بمواجهة محمد علي باشا منذ بداية التدخل المصري في بلاد الشام.

٢- اضطرار السلطان العثماني محمود الثاني إلى طلب المساعدة الروسية بعد اعتذار بريطانية له عن تقديم مساعدتها، ودخول الأسطول البحري الروسي للمياه العثمانية، لحمايتها من تقدم القوات المصرية باتجاهها.

٣- كان عقد اتفاقية هنكيار اسكلة سي بين روسية والدولة العثمانية فرصة لزيادة تدخلها في شؤونها الداخلية، وإعطائها الحق في حماية الدولة العثمانية إذا ما تعرضت لخطر خارجي.

٤- إسهام روسية في إنجاح مؤتمر لندن عام (١٨٤٠م)، ووقوفها إلى جانب دول الحلفاء لحل المسألة المصرية، وإجبار محمد علي باشا على الانسحاب من المناطق التي سيطر عليها.

٥- أدى تدخل القناصل في شؤون الإدارة المصرية في بلاد الشام إلى التأثير على سير عملها وإرباكها.

الهوامش

(١) علي حسون، **العثمانيون والروس**، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٩٨٢م، ص ٤٦-٤٧؛ Adward Barker, Syria and Eygept under The Last five sultas of Turkey, Vol. 2, (New York: The Princeton University library, 1973), p. 178.

(٢) .F.0.78, Vol. 226, From Palmerstone To Campbell, 7 January 1833.

(٣) جوزيف حجار، **أوروبا ومصير الشرق العربي، حرب الاستعمار على محمد علي باشا والنهضة العربية**، ترجمة بطرس الحلاق وماجد نعمة، مراجعة حسن فخر، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٦م، ص ٦٢

(٤) محمد عبد الستار البدري، **المواجهة المصرية الأوروبية في عهد محمد علي باشا**، القاهرة، دار الشروق، ٢٠٠١م، ص ١٠٦.

(٥) عبد الكريم رافق، **العرب والعثمانيون** ١٥١٦-١٩١٦مم، دمشق د. ن، ١٩٧٤م، ص ٤٠٣-٤٠٤؛ علي يوسف البلخي، **الموقف الدولي من احتلال محمد علي باشا لبلاد الشام (١٨٣١-١٨٤٠م) من خلال الوثائق العثمانية**، مجلة دراسات تاريخية، دمشق، جامعة دمشق، ١٩٨٥م، ص ٢٠٠.

(٦) جرانت، أ. ج، وهرولد تمبرلي، **أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين**، ترجمة بهاء فهمي، مراجعة أحمد عزت عبد الكريم، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٨٥م، ص ٣٤٢.

(٧) محمد حبيب صالح، **الدبلوماسية الروسية في مصر وبلاد الشام خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر**، مجلة دراسات تاريخية، العدد ٦٧-٦٨، دمشق، جامعة دمشق، كانون الثاني – حزيران، ١٩٩٩م) ص ٢٢٠.

(٨) البلخي، **الموقف الدولي**، ص ٢٠٦-٢٠٧.

(٩) البدري، **الموجهة المصرية الأوروبية**، ص ١٠٥.

(١٠) Marriott, The Eastern Question, an Historical study in European diplomacy .(Oxford: 1940), p. 32.

(١١) سليمان الغنام، **قراءة جديدة لسياسة محمد علـــي باشـــا التوســعية ١٨١١-١٨٤٠م**، جدة، دار تهامة، ١٩٨٠م، ص ٩١-٩٢.

(١٢) خط همايون، دوسيه رقم ٣٦٥، وثيقة عثمانية رقم ٢٠١٩٦، بتـــاريخ ٢٩ ذي الحجة ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م.

(١٣) صالح، **الدبلوماسية الروسية**، ص ٢١٨-٢١٩.

(١٤) خط همايون، دفتر رقم ٣٦٥، وثيقة عثمانية رقـــم ٢٠١٩٢، بتـــاريخ ٢٩ ذي الحجة ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م.

(١٥) عبد الرحمن شرف، **تاريخ دولة عثمانية**، مجلد١، استانبول، مطبعـــة ســـي، ١٨٩٨م، ص ٤٠٥.

(١٦) F.0.7 8, Vol. 231, Parker To ministry foreign, 17, Janu,1833.

(١٧) خط همايون، دوسيه رقم ٣٦٠، وثيقة عثمانية رقم ٢٠٠٥٧، بتـــاريخ ٢٩ ذي الحجة ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م.

(١٨) آمال السبكي، **أوروبا في القرن التاسع عشر**، (فرنسة في مئة عام)، مكتبـــة النهضة، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ٢٠٧-٢٠٨؛ حجار، مرجع سابق، ص ٦٩.

(١٩) Douin George, la mission du Baron de Boislecomte, L'Egypte et'la syrieen 1833 (Societe' Royalede Geographie d'Egypte, n: d),l,p.l6.

(٢٠) Parker, Syria and Egypt under The last five sultans of Turkey, vol.2 (Newyork:1973),p.l91.

(٢١) D.d.c, 1831-1834, Tome22, N74, Ie Baron de varenne au Amehemet Ali pacha, Ie 31 janvier 1833, p. 169.

(٢٢) السبكي، **أوروبا في القرن التاسع عشر**، ص ٢٠٨-٢١٠.

(٢٣) جورج خوري، **المصالح الاستعمارية البريطانية والحفاظ على الإمبراطورية العثمانية**، مجلة دراسات تاريخية، العددان ٤١-٤٢، دمشق، جامعة دمشق، ١٩٩٢م، ص ٩٧.

(٢٤) خط همايون، دفتر رقم ٣٦٥، وثيقة عثمانية رقم ٢٠١٩٢، بتاريخ ٢٩ ذي الحجة ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م.

(٢٥) D.d.c, Tome 22, 1831-1834, due de BroGlie au Baron de Bois, Paris, Ie 3 avril 1833,p. 278.

(٢٦) D.d.c, 1831-1834, Tome 22, N74 Ie Baron de varenne au A mehemet Ali pacha , Ie 31 janvier 1833.

(٢٧) D.d.c, 1831-1834, Tome 22, Le 19 Fevrier, 1833, p 184.

(٢٨) Is maiL, Documents diplomatiQues, Tome 23, N73, Le Baron de varrenne au due de BroGlieJe 14 Fevrier 1833,p. 167.

(٢٩) حجار، مرجع سابق، ص ٧٣.

(٣٠) صالح، **الدبلوماسية الروسية**، ص ٢٣٠.

(٣١) Marriott, Op.Cit, p.234; Frederick Stanley, Rod key, The Turco-Egyption Question in the Relations of England, Frans and Russia (1832-1841) , (Newyork.-Russell) , 1972, p.21.

(٣٢) F.0.78, vol .227, from Campbell To Palmerston.lg April 1833.

(٣٣) صالح، مرجع سابق، ص ٢٣٠.

(٣٤) Marriott, Op.Cit, p.234-235.

(٣٥) Is mail,D.d.c(1831-1834), Tome 23, au Roussin au BroGlie, le mai 1833.

(٣٦) عبد الرؤوف سنو، **العلاقات الروسية العثمانية (١٦١٧-١٨٧٨م)**، مجلة

تاريخ العرب والعالم، العددان ٧٤-٧٦، بيروت، دار النشر العربية، ١٩٨٤، ص ٥٦.

(٣٧) قرية على البوسفور لجهة آسية مقابل طرابيا عقد فيها السلطان محمود الثاني محالفة دفاعية هجومية. انظر: فريد الخازن، **مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سورية ولبنان** من سنة (١٨٤٠-١٩١٠م)، ج٢، بيروت، دار الرائد، ١٩٨٣م، ص ٣٥.

(٣٨) Rod key, Op.Cit, p. 29.

(٣٩) شرف، مرجع سابق، ص ٤٠٥.

(٤٠) Hurewitz, Diplomacy in The near and middle east, A documentary Record (1535 -1914), vol.1, (London: '1956),p. 107.

(٤١) F.O. 78, vol. 220, Palmerston to The suplime port, 26 August 1833

(٤٢) Hurewitz, Op.Cit, vol. 1, p . 107.

(٤٣) F.0.78, vol. 226, from Palmerston To William Temple, October 1833; Ibid, vol . 223, from Ponson by To Palmerston,3November 1833.

(٤٤) صالح، مرجع سابق، ص ٣٢٨.

(٤٥) David urquhart, The spirit of The East, vol..1 (London 83 8),p .172

(٤٦) F.O .78, vol .354, From Ponson by To Palmerston,27 January .1839

(٤٧) البلخي، **الموقف الدولي**، ص ٢٠٩-٢١٠.

(٤٨) Barker, vol. 2, p. 236.

(٤٩) Ibid, vol .2 ,p .236

(٥٠) Is mail, Document DiplomatiQues,(1839-1841), Tome 25, N 124,

Le marechal soult au Baron Roussin Le 17 juin 1839,p .252.

(٥١) Ibid, Tome 25, N 41, Le Baron Roussin au marchal Soult, Le 30 juin 1839, p. 282

(٥٢) Bullard.Op. Cit,p.35.

(٥٣) السبكي، **أوروبا في القرن التاسع عشر**، ص ٢١١؛ Hurewitz, Op. cit, vol. 1, p . 113.

(٥٤) Marriott, Op. Cit, p . 239.

(٥٥) إرادة داخلية، المسألة المصرية، دوسيه رقم ٢، وثيقة رقم ٣١، استانبول، ١٢٥٥هـ،١٨٣٩م.

(٥٦) F.O. 78, vol 375, From Palmerston To Campbell, 18 December 1839.

(٥٧) إرادة ممتازة، دوسيه رقم ١، وثيقة رقم ٢٠، استانبول، ١٠ شعبان ١٢٥٥هـ/ ١٩ تشرين أول ١٨٣٩م.

(٥٨) المصدر السابق، سجل رقم ١، وثيقة رقم ٢١، ١٩ شعبان ١٢٥٥هـ/٢٧ تشرين الأول ١٨٣٩م؛ أما البحر الأبيض، فهو غير البحر الأبيض المتوسط الذي نعرفه.

(٥٩) المصدر السابق سجل رقم١ ، ٢١ ذي الحجة ١٢٥٥هـ/ ٢٤ شباط ١٨٤٠م.

(٦٠) Is mail, Documents DiplomatiQues,(1839-1841), Tome 25,N 21, Le comte de pontois au marchal soult Le 17 fevrier 1840, p .157 .

(٦١) F.O . 78, vol. 390,From Beauvale To Palmerston, 6 April 1840

(٦٢) Hurewitz, Op. Cit, vol. 1, p . 120.

(٦٣) شرف، مرجع سابق، م٢، ص ٤٠٩-٤١٠.

(٦٤) جرانت، مرجع سابق، ص ٣٤٨-٣٤٩.

(٦٥) البلخي، مرجع سابق، ص ٢١٤.

(٦٦) إرادة ممتازة، دوسيه رقم ٣، وثيقة رقم ٨٦، استانبول، ١٣ رجب ١٢٥٦هـ/ ١١ أيلول ١٨٤٠م. هلا سليمان، **أثر الحملة المصرية على بلاد الشام ١٨٣٠-١٨٤٠م، ولاية طرابلس نموذجاً**، طرابلس، المؤسسة الحديثة للكتاب، ٢٠٠٠م، ص ٤٢٢.

(٦٧) مؤلف مجهول، أحد كتاب الحكومة الدمشقيين، **مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا في سورية**، عني بنشرها وتعليق حواشيها الخوري قسطنطين الباشا، تحقيق أحمد غسان سبانو، دمشق، دار قتيبة، ١٩٨١م، ص ١٢٨.

(٦٨) حجار، مرجع سابق، ص ٢٠٧.

(٦٩) Is mail, Documents Diplomatiques, Tome 25, N 22, Guizot au comte de pontois, Le Decembre, 1840, p . 425.

(٧٠) Is mail, Documents Diplomatiques, Tome 25, Le Comte de pontois au m. Guizot Le 17 Decembre 1840.

(٧١) إرادة ممتازة، ملف رقم ٩، وثيقة رقم ٢٢٧، بتاريخ ٨ رجب ١٢٥٧هـ/ ٢٧ تموز ١٨٤١م. شرف، مرجع سابق، م١، ص ٤١٠.

(٧٢) Marriott, Op.Cit, p. 244.

(٧٣) F.O. 78, vol. 257, From Campbell To Palmerston, 18 April 1835.

(٧٤) محافظ عابدين، محفظة رقم ٢٣١، صورة الترجمة العربية للوثيقة العثمانية رقم ١٣٠، عابدين، بتاريخ ٢٩ رجب ١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م.

(٧٥) محافظ الأبحاث رقم ٧٥، محفظة رقم ٢٥٠، ترجمة الوثيقة العثمانية رقم ٥/٥١٩، بيروت، ٢٥ ذي القعدة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م، مصدر سابق؛ محفظة رقم ٢٥٥، صورة المرفق العربي للوثيقة العثمانية رقم ٢٥/١٦٩ بتاريخ ٢ شوال

عام ١٢٥٢هـ/١٨٣٦م؛ **الأوامر السلطانية لولاية دمشق**، سجل ٣٧، وثيقة رقم ١٣٨، ١٢٦٤هـ/١٨٤٧م.

(٧٦) هنري غيز، **بيروت ولبنان منذ قرن ونصف القرن**، ج١، بيروت، دار المكشوف، ١٩٤٩م، ص ١٠٢؛ نوفل نعمة الله نوفل، م١، بيروت، المطبعة الأدبية، ١٨٨٣م، ص ٥٢٩.

(٧٧) نحافظ عابدين، مصدر سابق محفظة رقم ٢١٨، ٥ جمادى الأولى، ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م.

(٧٨) المصدر السابق، محفظة رقم ٢٤٨، وثيقة رقم ١٣، ٥ جمادى الأولى ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م.

(٧٩) نفسه، محفظة رقم ٢١٨، وثيقة رقم ١٣، ٥ جمادى الأولى ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م.

(٨٠) نفسه، محفظة رقم ٢٥٣، ترجمة الوثيقة العثمانية قم ٢٠١، ١٢٥٢هـ/١٨٣٦م.

* الغرش: كلمة لاتينية وهو نوعان: صاغ ويساوي أربعين بارة والرائج يساوي عشر بارات. انظر: محمود عامر، المكاييل والأوزان والنقود، دمشق، مطبعة ابن حيان، ١٩٩٧، ص ٩٠.

(٨١) محفظة رقم ٢٥٥، صورة المرفق العربي للوثيقة العثمانية، رقم ٢٥/١٦٩ شوال ١٢٥٢هـ/١٨٣٦م.

** القواس: هو الشخص الذي يخدم القناصل والأجانب، ويرافقه أينما ذهب. انظر: نوفل، مصدر سابق، ج١، ص ٥٢٧.

*** الغازية: تعادل ٢١ قرشاً حسب تداولها في دمشق خلال فترة الدراسة. انظر:

يوسف نعيسة، **المرجع في وثائق تاريخية عن الشام في أثناء حملة محمد علي باشا**، دمشق د. ن، ٢٠٠٣-٢٠٠٤، ص ٥٠٥.

(٨٢) محافظ الأبحاث رقم ٧٥، مصدر سابق، ترجمة الوثيقة العثمانية رقم ٥١٩/ ٢، ٥ ذي الحجة ١٢٥٠هـ/أ/ ١٨٣٢م.

(٨٣) المصدر السابق، صورة الوثيقة المترجمة رقم ٢٣/١٣٠، ٢٧ تموز ١٨٣٦م.

(٨٤) حجار، مرجع سابق، ص ١١٧-١١٨.

دراسة لبعض مغالطات المصادر التاريخية وتناقضاتها
((تحفة الزائر ومآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر))
أنموذجاً للدراسة

الدكتورة بشرى خيربك
جامعة دمشق

١ – تمهيد

((التاريخ ضمير الأمة الواعي، وان دراسة تاريخ أي أمة إنما ينتهي بالدارس إلى كشف الغطاء عن محتويات هذا الضمير، فإذا تيسر له ذلك اتضح له من الماضي ما قد يفسر الحاضر كلياً، أو قد يقتصر التفسير على شيء جزئي وفي الحالتين يلقي درس الماضي أضواء على الماضي))[١] لذلك من المهم دراسة هذا التاريخ وبحثه وكتابته بشكل غير تقليدي وإخضاعه للتجريح والتفسير والتحليل والنقد قبل أن يدرس في المدارس والمعاهد، وقبل أن يقدم للمختصين وللمثقفين على السواء، وينبغي أن يتم ذلك بطريقة وافية دقيقة صحيحة، بقدر ما في طاقة المؤرخين من جهد وصدق وأمانة وعدل وذكاء وإحساس وذوق، على أن يكون هدفهم الحقيقة التاريخية بقدر المستطاع[٢] لأن الحقيقة التاريخية سواء كانت ايجابية أم سلبية فهي الدرس والعبرة التي تتعلم منها الشعوب كي تتجنب الذل في مسيرتها نحو التطور والرقي.

وتزداد أهمية التاريخ كعبرة ودرس بازدياد أهمية الموضوع، وأخص بالذكر في هذا المجال الدراسات التاريخية التي تتناول حياة أشخاص كانوا فاعلين في المرحلة الزمنية التي عاصروها، وأصبحوا من أهم الرموز في التاريخ العربي، مثل الأمير عبد القادر الجزائري ١٨١٧ - ١٨٨٣ م، الذي تعددت الكتابات حوله على اعتبار أنه أبرز وجوه المقاومة الجزائرية، لأن جهاده ضد فرنسة لم يكن رد فعل عفوي أو محلي، بل كان رد فعل واع يعكس روح أمة أرادت التحرر من الاستعمار. وقد أدرك الأمير بوضوح ضرورة هذه الأمة وشروط وجودها. وسبب إدراكه أنه كان زعيماً من طراز مختلف وجديد لم تعرفه الجزائر من قبل، فالأمير لم يكن وريث زعامة سياسية أو إدارية أو عسكرية أو إقطاعية، إنما كان وريث دار علم ومعرفة وعراقة نسب، فهو ينتسب إلى الأدارسة الذين حكموا المغرب العربي ما يقرب من مائتي عام ٧٨٨ -٩٥٨م [٣].

وعلى الرغم من سيرة هذا الأمير الجهادية بأشكالها المختلفة، سواء في وطنه الأم الذي شهد ولادته - أي الجزائر - أو في مدينة دمشق التي ضمت جسده مروراً برحلته في دار هجرته، فقد تناولته بعض الدراسات بشكل غير منهجي، وأطلقت عليه أحكاماً كان عليها التمحيص والتدقيق فيها، ودراستها ضمن ظروفها التاريخية، وهذا مبرر كتابة هذا البحث الذي لن يتناول هذه الدراسات المغرضة أو تكرار ما كتب عنها، وإنما دراسة بعض المقتطفات من مصدر قد يعتبر من أهم المصادر حول سيرة الأمير ومقاومته وهو((تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر))[٤] لمؤلفه محمد باشا بن الأمير عبد القادر الجزائري الحسني١٨٣٩-١٨٦١م[٥].

٢- أهم المصادر التي تناولت حياة الأمير:

كثيرة هي الدراسات التي تناولت حياة الأمير عبد القادر الجزائري، غير أن هذه الدراسات سواء منها العربية أم الأجنبية لم تغط حياة الأمير بشكل واف، حتى

الفرنسيين الذين اهتموا بالأمير ولاسيما بعد خروجه من الجزائر ١٨٤٧ م، والذين يملكون الكثير من الوثائق عن حياته وعلاقاته ومجالات تفكيره، ((لم يكتبوا عنه إلا أشياء متفرقة موجهة ترمي في الغالب إلى إثبات تفوقهم من ناحية وتخدير الجزائريين بإثبات صداقة الأمير للفرنسيين بعد حربه لهم من ناحية أخرى))[٦]. ومن أهم هذه الدراسات ما كتبه ((اسكندر بيلمار)) تحت عنوان ((عبد القادر: حياته السياسية والعسكرية)) وبيلمار كان مترجماً وعلى صلة بحياة الأمير، وقد وضع كتبه متأثراً بتدخل الأمير في أحداث الشام ١٨٦٠م ونشره في باريس عام ١٨٦٣م. ولم يتناول بيلمار سوى الجانب السياسي والعسكري من حياة الأمير.

ويأتي بعد ذلك كتاب الكولونيل ((بول ازان)) الذي ظهر سنة ١٩٢٥م وهو كتاب فيه الكثير من التحليل والاجتهاد الشخصي في تفسير النصوص، ولكن يؤخذ على المؤلف أنه كرجل عسكري أراد أن يثبت المكانة العالية لقواد الجيش الفرنسي لأنهم كانوا يحاربون خصماً عنيداً، أيضاً فان كتاب ((ازان)) سار في خط واضح سار عليه معظم الكتاب الفرنسيين وهو أن الأمير قد أصبح بعد سنة ١٨٤٧م صديقاً وفياً للفرنسيين. ورغم تغطية ((ازان)) لكل حياة الأمير، فانه مثل بيلمار ركز على الجوانب السياسية والعسكرية من حياة الأمير. أما باقي الأعمال مثل ما كتبه ((ليون روش)) تحت عنوان ((اثنتان وثلاثون سنة عبر الإسلام)) وقد صدر في باريس في جزئين عام ١٨٨٤ – ١٨٨٥م. والجنرال ((دوما)) الذي خلف عدداً من الوثائق المهمة عن الأمير. ورغم عدم جمعها في كتاب واحد فقد استفاد منها بيلمار، واستعار منه تشرشل – دون أن يشير إلى ذلك – واستخدمها ازان[٧] وغير ذلك مما كتبه الضباط والقناصل والمترجمين الفرنسيين الذين شغلوا لدى الأمير مناصب معينة، فإن كتاباتهم تدخل في الانطباعات الشخصية والأحداث الشاملة أكثر من كونها أعمالاً متكاملة عن حياة الأمير[٨].

وتأتي ترجمة شارل هنري تشرشل للأمير كعمل جامع لعدة جوانب ايجابية افتقــرت إليها الأعمال الأخرى سواء كانت عربية أم فرنسية، ولكن كما كتاب بيلمار فقد وقــف تشرشل في كتابه عند حوادث سنة ١٨٦٤م لتظل تسع عشرة سنة من حيــاة الأميـــر مجهولة[٩]. ولم يصدر عملاً انكليزياً عاماً بعد الذي أصـــدره تـــشرشل ســـوى كتـــاب ((بلانت)) الذي ظهر عقب الحرب العالمية الثانية تحت عنوان ((صقر الصحراء: عبد القادر الجزائري والاحتلال الفرنسي للجزائر)) والذي صدر سنة ١٩٤٧ م في لنـــدن، وكما ذكر ((بلانت)) فانه لم يأت بجديد وأن اعتماده كان كبيراً على تـــشرشل وأيـــضاً على أهم الأعمال الفرنسية التي وضعت عن الأمير[١٠].

لم تحظ حياة الأمير بدراسة وافية لكل جوانب حياته من قبل معاصـــريه رغـــم تعـــدد الدراسات الأجنبية التي تناولته، وفي الكتابات الأخرى لا نكاد نجد عن الأمير((سوى الالتزام العاطفي نحوه، إعجاباً ببطولاته الشخصية أو بمواقفه السياسية. أمـــا الـــروح العلمية والمجردة والمناقشة الهادئة لدور الأمير سواء في الجزائـــر أو خارجهـــا فـــلا وجود له بالعربية أيضاً))[١١]. وبالنسبة للترجمة التي وضعها الأمير ((محمد بـــن عبـــد القادر)) تحت عنوان ((تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر)) فهـــي كما ذكر الدكتور أبو القاسم سعد الله ((.. فإنها ليست خالية من العيوب الأساسية. ذلك أن افتقارها إلى المنهج، واحتواءها على المبالغات وأسلوبها العاطفي تنزع عنها صفة الترجمة الشخصية الجادة، بالإضافة إلى اعتماد الأمير على نقول غير منظمـــة مـــن الكتب الأجنبية....))[١٢] التي قد يكون بعضها مغرضاً فأوقعـــت المؤلـــف بمغالطـــات تاريخية ليس بقصد الإساءة إلى والده طبعاً، وإنما لعدم دراسته هذه المصادر دراســـة نقدية واعية في مرحلة تاريخية كانت فيها الدول الاستعمارية بشكل عام وليس فرنسة فقط تدعم استعمارها المسلح للجزائر باستعمار ثقافي مدروس وممنهج.

ورغم كل ما سبق ذكره فإن كتاب الأمير محمد ((تحفة الزائر في تاريخ الأمير عبد القادر)) يبقى من أهم المصادر التي تناولت حياة الأمير لأسباب عدة أهمها: أن مؤلف

الكتاب هو ابن الأمير عبد القادر، وهذا ما يجعل الباحثين يثقون بكل معلومة قد وردت في الترجمة دون دراسة أو تمحيص لقناعتهم بمصداقية كل ما ورد دون أن يخطر ببال العديد من الباحثين أن المؤلف قد اعتمد عند تأليفه الكتاب على مصادر غربية لم يقم بدراستها بدقة، ولكن لا يمنع ذلك من القول أن كتاب ((تحفة الزائر في تاريخ الأمير عبد القادر)) كتاب مهم خاصة فيما يتعلق بتفاصيل مقاومة الأمير عبد القادر للفرنسيين في الجزائر بين عامي ١٨٣٠م و١٨٤٧م [١٣]، وأيضاً فيما يتعلق بحياة الأمير في دمشق.

وما سبق ذكره من نقد ليس فيه تجن على المؤلف لأن من شرح وعلق على كتاب ((تحفة الزائر)) الدكتور ممدوح حقي عندما نشره عام ١٩٦٤ م ذكر أن المؤلف قد سجل في كتاب ((تحفة الزائر في تاريخ الأمير عبد القادر تاريخ حياة والده الأمير عبد القادر.... تسجيلاً يكاد يكون يومياً. وسرد فيه رسائله ورسائل سواه ممن لهم أدنى تعلّق به فما مرت به حادثه، حتى استوفاها بحثاً. وأشبعها نقلاً فهو – بهذا المعنى – ليس كتاباً في التاريخ، كما نفهمه نحن أبناء هذا القرن من المثقفين ثقافة عصرية عالية، بل كتاب في سيرة الرجل، وقصة متحدّث عادي، لم يناقش حادثاً مبالغاً فيه. أو يتعرض لقصةٍ مستغربة بالتمحيص. أو يلم الموضوع لما علمياً. أو ينظر إليه بمنظار موضوعي إلا عرضاً وفي القليل النادر، وبصورة سطحية جداً)) [١٤].

ويضيف ممدوح حقي ((ولهذا لن نحاسبه، على نظرته الضيقة الخاطئة، في بعض المفاهيم التاريخية، أو تقصيره، في فهم الأسباب السياسية والاقتصادية لتجيّش فرنسة الجهود العسكرية، ضد الجزائر. ولن نؤاخذه في تهاونه بغربلة الأنباء والأحداث، أو جهله بربط الأسباب بالنتائج، فذلك أمر، لا يدخل في حساب كتب السيرة، ولا في طريقتها)) [١٥].

وكما يذكر مؤلف ((تحفة الزائر في تاريخ الأمير عبد القادر)) فإن كتابه قد تعرض للسرقة حيث ((... سطت عليه يد من لا بارك الله بأصله ونسله وسرقته عمداً من حرز مثله..... ثم شمرت عن ساعد الاجتهاد. لجمع ما تفرق من المواد بعد أن فقد منها الأكثر وبقي من المسودة مالا يُذكر فجاء مطابقاً للأصل..))[١٦]. ولكن لم يذكر لماذا تمت السرقة ولا من سرقها ؟ وتَرك الموضوع يجلله الغموض والتساؤلات، ولا يستطيع أحد كشف الغطاء عن هذا السر سوى أقرب الناس إليه، وكما ذكرت الأميرة بديعة الحسني الجزائري ، حفيدة الأميرة زينب ابنة الأمير عبد القادر[١٧] أن جدتها وباقي أخوالها كانوا يقيمون إلى جوار المؤلف في حي العمارة، ودورَهم في ذلك الحي كانت متلاصقة، وكأنها دار واحدة، وكانت تعرف وبالتواتر أن الكتاب لم يُسرق فقط وإنما حُرق أيضاً والعائلة تعرف من قام بذلك ولماذا، والنار لم تأتِ على كامل الكتاب.

وكما تذكر الأميرة بديعة فإن أخوة المؤلف فرحوا عندما عرفوا أن أخاهم محمد باشا يؤلف كتاباً مهماً، ولكن بعد أن اطلعوا عليه، وقرؤوا ما كُتبَ حول قرار الأمير بإنهاء الجهاد والهجرة والطريقة التي عرض الفكرة فيها ((.. وألقينا السلاح إلى الفرنسيين..... ألخ)) [١٨] وقع خلاف بين المؤلف الأمير محمد باشا وإخوته فقرروا إحراق الكتاب، وأستغل أحدهم غياب المؤلف فأرسل أحد خدمه إلى غرفة أخيه محمد وجلب المسودة ليحرقوها قبل أن تصل إلى المطبعة، ولكن بقي بعض الأوراق منها، لذلك قال المؤلف في مقدمة الكتاب ((ذهب الكثير ولم يبق سوى القليل))[١٩]، وعندما عاد المؤلف لإعادة تأليف الكتاب عاد وكرر ذكر ما كان قد ذكره في المسودة الأولى عن إلقاء والده الأمير عبد القادر السلاح واستسلامه.

ولكن تهاون المؤلف في غربلة الأنباء والأحداث، لا تمنع من دراسة بعض المقتطفات مما جاء في هذا المصدر المهم، وأهمها الظروف التي أحاطت بإنهاء الأمير عبد القادر مرحلة الجهاد وخروجه من الجزائر عام ١٨٤٧ م، وهل كان المؤلف محمد

باشا قادراً على فهم المعطيات التي أحاطت بهذه الهجرة وهو طفل في السابعة من عمره والتي كان سرده لأحداثها سبب سرقة الكتاب وحرقه من قبل أقاربه الذين وجدوا في ما سُرد تجنياً على الأمير. وأيضاً مناقشة رأي الأمير حول تعليم المرأة القراءة والكتابة.

٣- لمحة عن حياة الأمير عبد القادر الجزائري الجهادية:

ولد الأمير عبد القادر الجزائري[٢٠] في وهران عام ١٨٠٨ م، وقد ظهرت براعته كشاب مجاهد منذ أن قام والده محي الدين بهجمات على وهران ضد الفرنسيين، وفي ٢٤ تشرين الثاني من عام ١٨٣٢ م، بويع عبد القادر كأمير وزعيم للمجاهدين وكان عمره أربعاً وعشرين عاماً، وتمت البيعة لعبد القادر من أجل جهاد الفرنسيين، ومن أجل إنقاذ البلاد من الفوضى والفتن وجمع الكلمة، وقد لقب آنذاك بناصر الدين، وكانت حكومة الأمير تختلف اختلافاً بيّناً عن الحكومة الجزائرية التركية السابقة، فالأمير لم يُنصب حاكماً بفرمان من سلطة أو سلطان خارج الجزائر، بل تلقى بيعة رضا من سكان ملوا الفوضى، وخافوا من خطر الاحتلال الأجنبي لذلك فإن البيعة بمثابة وضع الثقة التامة بشخص الأمير وتفويضه تفويضاً عاماً بالتصرف لإنقاذ البلاد من الفوضى والاحتلال[٢١].

وبين عامي ١٨٣٢ – ١٩٣٧ م تمكن الأمير من قيادة الجهاد ضد الفرنسيين ببراعة ووقّع خلالها مع فرنسة معاهدتي ديميشيل ١٨٣٤م، وتافنه ١٨٣٧م[٢٢] بغرض كسب الوقت لاستكمال أسباب تنظيم وتوطيد جبهته الداخلية لإنهاء الأساس الأول الذي ترتكز عليه حربه ضد الفرنسيين. ومعاهدة تافنه التي لم يَسرِ العمل بها سوى سنتين وخمسة أشهر تعتبر حلقة هامة في تاريخ الجزائر لسببين أولهما: أنها النص الوحيد المعترف به من الحكومة الفرنسية كاتفاق رسمي بينه[٢٣] وبين حكومة جزائرية في عهد الاحتلال.

وثانيهما: لأن نصوص المعاهدة كانت مثار جدل بين الطرفين. أضف إلى ما تقدم أن السنتين اللتين تبعتا معاهدة تافنة قد أتاحتا للأمير التفرغ لمقاومة عصيان القبائل والطرق الصوفية، إضافة إلى بسط سيطرته على ثلثي الجزائر بحيث أصبح الفرنسيون[٢٤] محصورين في وهران والجزائر وفي جزء من بيلكيه قسنطينه، غير أن هذه المعاهدة قد تصدعت بسبب إصرار الفرنسيين السيطرة على قسنطينه إلى جانب توسع الأمير نفسه نحو هذه البيلكية التي كبد فيها الأمير عبد القادر الفرنسيين خسائر فادحة، بعد أن دحرهم عن مناطق كثيرة. مما دفع بعض النواب الفرنسيين للقول عام ١٨٤١م: ((إن افريقية هي الخراب أثناء السلم والضعف أثناء الحرب، إن افريقية شر وجنون....))[٢٥]. ولكن بانتهاء أزمة محمد علي في بلاد الشام أواخر ١٨٤٠ م تمكنت فرنسة من تركيز جهودها في الجزائر وعينت الجنرال بيجو الذي تعهد باحتلال الجزائر كلها وأعلن أن ((...الاحتلال الناقص وهم، إن احتلال الجزائر خطأ ولكن ما دمتم ترغبون فيه فينبغي أن تعملوه بقوة...))[٢٦].

تمكن بيجو من محاربة القبائل المناصرة لعبد القادر، وبإتباعه سياسة الأرض المحروقة (دمر – احرق – انهب) تمت له السيطرة على ٥/٦ من أراض الأمير عام ١٨٤١م إضافة إلى سيطرته على قلاع الأمير ومستودعاته ومعظم جيشه النظامي مما اضطر الأمير اللجوء إلى المغرب حيث لقي الدعم والتأييد[٢٧]، ولكن اتفاق طنجة بين فرنسة والسلطان المغربي سنة ١٨٤٤ م واعتبار الأمير خارجاً عن القانون في المغرب فرض على الأمير العودة إلى الجزائر، حيث أحرز عدة انتصارات على الفرنسيين الذين اشتد ضغطهم عليه مرة أخرى مما اضطره للجوء إلى المغرب. ولكن انكلترا التي كانت تخشى تدخلاً فرنسياً جديداً في المغرب، تدخلت لدى السلطان المغربي وذكرته أنه اعتبار الأمير خارجاً عن القانون، وبدأت الإشاعات تتهم الأمير بأنه يرغب في إنشاء دولة مستقلة في الريف وأنه يسعى لخلع السلطان.

لم يعلن عبد القادر نفسه رئيس دولة تسمى الجزائر، بل اعتبر حكومته من الناحية القانونية تابعة لسيادة سلطان مراكش الذي كان يتمتع بهيبة تقليدية في شمال أفريقيا، وكان يؤكد دائماً على هذه التبعية في مراسلاته التي كان يطلب فيها أسلحة من البريطانيين بواسطة قنصلهم في طنجة[٢٨]. ورغم ذلك فقد صمم السلطان عبد الرحمن على إخراج عبد القادر من بلاده بالقوة، فوجه جيشاً كبيراً بقيادة اثنين من أبنائه لطرد عبد القادر أو القبض عليه رغم احتجاج الكثيرين من علماء فاس، وقد خسر عبد القادر أول معركة دارت مع الجيش المراكشي في ١٥ ديسمبر ١٨٤٧ م. واعتماداً على ما ذكر صاحب كتاب ((تحفة الزائر)) فقد شعر الأمير أنه لم يعد هناك أمل في المقاومة ففضل ((الاستسلام)) للفرنسيين بشرط السماح له بالسفر إلى الإسكندرية أو عكا، وهذا ما ذُكر في مجمل المصادر والمراجع، فوافق الجنرال الفرنسي لامورسيير الخبير بالشؤون الجزائرية، والدوق دومال حاكم الجزائر الذي حل محل الجنرال بيجو منذ تشرين أول ١٨٤٧م على طلب الأمير. وكان بيجو قد ترك منصبه لخلافه مع حكومته التي لم تؤيده في متابعة الحرب ضد الأمير وأسره[٢٩]. أما الدوق دومال وهو من أسرة لوي فيليب المالكة، فكان يرغب فعلاً في احترام كلمته، غير أن المعارضة في فرنسة كانت بلغت ذروة قوتها قبيل سقوط الملكية. واحتجت -أي المعارضة- بأن عبد القادر إن ذهب إلى مصر فإنه سيصبح أخطر مما لو ترك طليقاً في الصحراء[٣٠].

ومن مرسى ((جامع الغزوات)) قرب الحدود المغربية حيث المكان الذي سلم الأمير نفسه، اتجه إلى سفينة أحموده لتنقله إلى طولون تمهيداً لنقله إلى عكا أو الإسكندرية كما طلب الأمير. إلا أن نظام الملكية سقط في باريس وحلت محله حكومة الجمهورية الثانية التي نكصت الوعود التي كان عبد القادر قد وعد بها، وأعتبر الأمير ومن معه أسرى، وأودعوا قلعة (باو)، ثم نقلوا إلى قصر قديم أقل صلاحية للإقامة في مدينة (امبواز) في حوض (اللوار) في فرنسة ، حيث عانى الكثير من التضييق والإهانة

حتى عام ١٨٥٢م، وعندما انتقلت السلطة إلى نابليون الثالث أطلق سراح الأمير سنة ١٨٥٢م، وطُلب من الأمير أن يتخذ من فرنسة وطناً ثانياً له، ولكن الأمير رفض ورحل إلى الشرق براتب من الحكومة الفرنسية.

وكانت محطة الأمير الأولى في استنبول حيث التقى السلطان العثماني عبد المجيد خان ١٨٣٩-١٨٦١م وعدد من السفراء الأجانب، إلا أنه فضل الإقامة في مدينة بورسه (بورصه) لتاريخها العريق ومناظرها الخلابة ومعالمها الأثرية، ولكنه لم يبق فيها طويلاً نتيجة الهزات الأرضية التي كانت تضرب المنطقة من حين لآخر، فانتقل إلى دمشق عام ١٨٥٥ م بتفويض من السلطان العثماني، وفيها تفرغ للقراءة والفقه والحديث. وفي دمشق سُجل للأمير أهم المواقف الإنسانية وهي تصديه عام ١٨٦٠م للأحداث المفجعة التي حصلت في دمشق[٣١]، والتي دافع فيها عبد القادر عن المسيحيين بكل غيرة ومروءة وتمدن، حتى أن السلطان العثماني عبد المجيد كافأه بإرسال كتاب تفخيم واحترام مع النيشان (الوسام) المجيدي من الرتبة الأولى ((بل وتواردت عليه كتابات بقية الملوك مع النياشين ذوات الفخر والقدر.))[٣٢]مما أعطى الأمير مكانة عالمية كأحد أهم رجالات العصر.

زار الأمير العديد من مدن المشرق وألف العديد من الكتب وكانت وفاته بدمشق في عام ١٨٨٣م، ودفن بجوار الشيخ محي الدين ابن عربي. ومنذ سنوات قليلة تم ترميم بيت الأمير الواقع في ضاحية دمر غرب دمشق والذي كان مصيفاً للأمير في ((الربوة)) على ضفاف نهر بردى، ليكون أحد المعالم السياحية في سورية. ولم يكن هذا القصر المنزل الوحيد للأمير ولم يكن محل إقامته الدائم، فمن المعروف أن منزله هو الذي منحته إياه السلطات العثمانية بـ ((حارة النقيب)) في حي العمارة بدمشق القديمة.

٤- نهاية كفاح الأمير في الجزائر:

تعرضت الجزائر بعد نقض معاهدة التافنه التي عُقدت عام ١٨٣٧م إلى حرب إبادة من قبل المستعمر الفرنسي استخدمت فيها كل أساليب الحرب الوحشية للقضاء على كل مقاومة في الجزائر، ولم يأت عام ١٨٤٢م إلا وقد سقطت كل المراكز والمدن التابعة للأمير عبد القادر، فجمع الأمير وقتذاك أنصاره في شبه مدينة متنقلة كان مسرح نشاطها في الإغارة على الفرنسيين مابين جبال الأطلسي وحافة الصحراء، لذلك كان هم الفرنسيين العثور على مدينة الأمير المتنقلة أو ((الزماله)) كما كانت تعرف آنذاك [٣٣]، وقد كاد الدوق ((دومال)) أن يقبض على الأمير قرب ((بوغاز)) إحدى الواحات جنوبي وهران لولا أن أنقذه فرسه السريع، غير أن عدداً كبيراً من جنود الأمير النظاميين وبعض أقاربه والعديد من المدنيين قد وقعوا في الأسر.

فكر الأمير بأن البقاء في الجزائر قد أصبح مستحيلاً بعد الذي حصل له، ولكن ذلك لم يدفعه لقبول عرض الجنرال ((بيجو)) بأن يسلم نفسه رغم وعده إياه بمعاش محترم وحرية الإقامة في الأستانة، إنما آثر الأمير الالتجاء إلى مراكش حيث ينتظر فيها قليلاً، ومن ثم يستأنف المقاومة عندما تتاح له الفرصة، ودليل ذلك مراسلته للحكومة البريطانية والتركية مستنجداً بهما ضد الفرنسيين [٣٤].

حاول الأمير أن يستثير الرأي العام المغربي، رغم إدراكه للحرج الذي سوف يشكله للسلطان إذا ما اضطر إلى إعلان حرب رسمية على الفرنسيين، ولكن الرأي العام المغربي بنفسه دفع مولاي عبد الرحمن إلى حرب واسعة النطاق مع الفرنسيين، بسبب احتلال الجنرال ((بيجو)) أثناء تتبعه للأمير ((لالا مغنيه)) وهي إحدى أهم النقاط الإستراتيجية على الحدود المراكشية [٣٥]. غير أن فرنسة كانت قد وجهت تحذيراً إلى السلطات المغربية بوجوب التخلي عن مساعدة الأمير وسحب قواته من وجده مرفقة تحذيرها بتوجيه قوة بحرية إلى المياه المغربية أحرجت موقف السلطان المغربي تجاه

الأمير ولكنه بنفس الوقت أبدى استعداده للتفاوض مع الفرنسيين الذين كانوا قد شرعوا في التدخل العسكري في عددٍ من المناطق المغربية، ولكن تصدى انكلترا لفرنسة أجبر الجنرال ((بيجو)) إلى التوقف، وقبل السلطان في اتفاق طنجه سنة ١٨٤٤ م اعتبار الأمير خارجاً عن القانون في المغرب وملاحقته وحجزه في أحد الموانئ المغربية حتى يتبنى الطرفان باتفاق بينهما الوسائل الكفيلة بمنعه من العودة إلى السلاح[٣٦].

عاد الأمير مضطراً إلى الجزائر، التي كانت تشهد العديد من الثورات في وجه وحشية المستعمر، وبدأ بدوره يستعيد قوته التي فقدها ليتابع بدوره المقاومة في تافنة وأحرز عدة انتصارات في معركة الغزوات وسيدي موسى، ولكن ((بيجو)) سيّر ثماني فرق لمطاردة الأمير، وعندما اشتد الضغط عليه اضطر مرة ثانية للجوء إلى المغرب، ولكن انكلترا التي كانت تخشى تدخلاً فرنسياً جديداً في المغرب تدخلت لدى السلطان وذكرته أنه اعتبر الأمير خارجاً عن القانون، ولما شعر الأمير أنه لم يعد هناك أمل في المقاومة فضّل الهجرة إلى المشرق لتتداعى الأحداث بعد ذلك كما سَبق وذكر[٣٧].

٥- دراسة بعض الأفكار التي أوردها الأمير محمد في ترجمته لوالده:

تناول المؤلف في كتابه ((تحفة الزائر في تاريخ الأمير عبد القادر))- وهنا سأستخدم المفردات التي استخدمها المؤلف ثم أقوم بدراستها – وبالتفصيل الأحداث التي أحاطت بإنهاء الأمير عبد القادر لجهاده العسكري بعد أن استشار مجلسه الحربي، ثم كيف ((سَلّمَ)) نفسه ولكن من خلال شروط محرره، ومن ضمن الشروط طلبَ الأمير ((أن يحملوه مع جميع عائلته إلى عكا أو الإسكندرية))[٣٨].

لم يستسلم عبد القادر ((بل كان يعتبر أن المسلم ملزم بالهجرة إذا لم يتمكن من التصرف كمسلم في المنطقة التي يحتلها العدو...)) [٣٩]. والمسلم إذا أحاطت به الأحداث من كل جانب وأصبح محاصراً ومهدداً بحياته وكرامته ودينه جازت له الهجرة الشرعية، كما فعل رسول الله (ص) حينما حوصر وهُدد بحياته وأمر مسلمي

مكة بالهجرة إلى الحبشة. فالأمير عبد القادر عقد اتفاقاً رسمياً مع عدوه بطلب عدم منعه من الهجرة إلى عكا، والأمير لم يذكر كلمة هجرة لأنهم لا يفهموها بالمفهوم الشرعي الذي يقصده، فخاطبهم بمفاهيمهم، بل ذكر لهم أن طلباته هي طلب استئمان زمني[٤٠].

((والمستأمن شرعاً: هو الحربي الذي دخل دار الإسلام بأمان دون نية الاستيطان بها والإقامة فيها بصفة مستمرة، بل يكون قصده إقامة مدة معلومة لا تزيد على سنة))[٤١]، واكتفى الأمير بطلب باخرة تنقله مع عائلته إلى عكا أو الإسكندرية بعد وقف الحرب، والأسباب التي دعته لذلك هي المعارك بين قواته وبين قوات إسلامية في الجوار الشقيق، التي حولت مجرى المعارك والمقاومة ضد المحتل، وقرر وقف الحرب ثم طلب باخرة وطلبه هذا كان خاضعاً للقبول أو الرفض من طرف العدو الفرنسي، ولكن العدو رّحب بقراره ووافق على طلباته وهي أولاً: وقف الحرب. وثانياً: عدم منع من يريد مرافقته. وثالثاً: عدم التنكيل بأنصاره في الجزائر بعد خروجه.

أيضاً ما ينافي فكرة استسلام الأمير نجدها في نهاية الصفحة ٥٢٧ من كتاب ((تحفة الزائر في تاريخ الأمير عبد القادر)) عندما ذكر المؤلف رسالة والده الأمير لوزير الحرب لامورسيير بقوله: ((لما تقّلد الجنرال ((لامورسيير)) وزارة الحرب، واتصل خبره بالأمير وهو في (بو) سُرّ بذلك ظناً منه أنه يوفي بعهده. فكتب إليه: يهنئه ويذكره بالميثاق، والقيام بواجب الوفاء. وفي جملة ما كتبه الأمير عبد القادر: ((.. إن كثيراً من لا إلمام لهم بما وقع، بيني وبينك، يعتقدون: أنك غلبتني في الحرب. وأجبرتني على التسليم، وإلقاء السلاح. لكَ أن توضح لهم القضية. وتوقفهم على ما جهلوه من أمرنا – وبذلك تجد منهم من يسعفك. ويأخذ بيدك، في الوفاء بعهدك، الذي هو في الحقيقة عهد دولة فرنسة ، بل الشعب كله، لكونك كنتَ – وقتئذ – رئيس جيوشهم، ونائب ملكهم، في كل ما تجريه. وبالجملة، فإن وفيتم، فإنكم تنالون فخراً كبيراً، بين الأمم والدول. وإن نقضتم وأخلفتم، فلا شك أنكم مرتكبون – في ذلك –

أمراً شنيعاً يسقط به قدركم ويقبح بارتكابه ذكركم، في العالم كله. حُرر في سابع شعبان سنة خمس وستين ومائتين (١٢٦٥) والسابع والعشرين من يونيو(حزيران) سنة تسع وأربعين وثمانمائة (١٨٤٩)[٤٢])).

وكما يذكر صاحب تحفة الزائر: ((... فحرك هذا المكتوب، ((دي لامورسيير)) سواكن الإحن فأمر بنقل الأمير من بو إلى ((امبواز)).... وبعد وصوله إلى امبواز، جاء أمر وزير الحرب ((دي لامورسيير)) للموكلين بهم: أن لا يكون للأمير، ولا لأحد من رفاقه، علاقة مع أحد، من الخارج لا لسانية ولا قلميه...))[٤٣]. تُرى أليس فيما ذكره المؤلف تناقضاً لما تم ذكره في صفحة ٤٩٩ عندما أورد نتيجة اجتماعه مع مجلسه الحربي وإقرارهم التسليم إلى الفرنسيين.

أيضاً مما يُعزز الرأي بأن الأمير لم ((يستسلم)) لأنه وصل إلى حد عدم قدرته على الجهاد حتى الموت - وإنما لظروف تلك المرحلة التي فرضت عليه وقف القتال- ما أورده صاحب ((تحفة الزائر)) وأيضاً ما أورده شارل هنري تشرشل من لوم مجلس النواب الفرنسي للجنرال لامورسيير في قبوله تسليم الأمير وخطأه في ختم الشروط التي اشترطها الأمير عليه - أي على لاموسيير - وضرورة جعل الأمير أسير حرب ورد الجنرال على المجلس بالقول: ((إن هذا اللوم الشديد وقع عليَ، بجنحي للسلم، في موضعٍ، يجب فيه الحرب، بزعمكم !! وأنا أتحقق: أني لو ركبت الخطر، بالزحف على عبد القادر، ما رجعت إلا بخيمته وسجادته !! وإنه ليذهب إلى الصحراء، بحيث لا يمكنني أن أصل إليه. وهذا، أكد عندي، من أن يقع في يدي لأن عبد القادر، ذو صلابة في دينه، مشتهر: بالصدق والأمانة في وطنه، شديد التمسك بمبادئه. وهذا، الأمر الأوحد، والسبب الأعظم الداعي لاجتماع القلوب عليه. وإن مبدأه الفريد: وهو الذي شهره في جميع الجهات. ولاشك أن الظفر الذي حصل للرجل، الذي حاربناه، في وقائعه، هو ثمرة ما قررناه. ومن كان هذا شأنه وسيره، فلا بد وأن يحدث خطراً عظيماً، إن تُرك في بلاده. وأظن أني ما سلكت، إلا جادة الصواب

ومـــع هذا فأرجعوه إلى محله، مع القوة التي كانت معه فقط. وأمسكوه عنوة !! وأنا، والحاكم العام ما قبلنا تسليمه إلا على شـــروطه، إلا أننـــا اخترنـــا: راحـــة فرنـــسة، وعساكرها التي أضنكها التعب، وكثرة المصارف من غير طائل نحصل عليـــه، مـــن جهة الأمير، والقبض عليه. فسكتوا، وانفض المجلس. فأقام الأمير في امبواز...))[٤٤].

ومن جملة المغالطات التي وردت في ((تحفة الزائر)) المطبوع عام ١٩٠٣م وتم حذفه من طبعة ١٩٦٤م، ما وضع تحت عنوان: ((ذكر توجه الأمير إلى باريس ولطـــائف أخباره وما هبت به نسائم رحلته المعطرة بنفحات أثاره)) في صفحة ٣٩ من الجـــزء الثاني حيث يذكر ((... غير أنني لما كنت في امبواز قبل سفري هذا عزمت على أن أجدد عهدي الذي أعطيته للجنرال لاموريس وأفعل ذلك باختياري.. إنما المتكلم بـــين أيديكم... بعد أن نلت إحسانكم الذي لا ينسى وأنا عاجز عن مقابلته بالشكر والثناء أن أخون وأفعل شيئاً ينافي المعروف كيف والمعروف رباط معلق بأعناق أهل المـــروءة هذا مع كوني قد شاهدت عظم دولة فرنسة وقوة عساكرها وكثـــرة غناهـــا واتـــساع مملكتها فمن ذا الذي يخطر بباله من العقلاء أن يقاومها ويقاتلها هذا ليس بممكن إلا لله الواحد القهار الذي قدمها وملكها الأفاق والأقطار وبعد هذا فإني أؤمل من كـــرمكم أن تجعلوني في عدد من تحبهم وتنظر إليهم بعين الرأفة سواء كنت بعيداً عنكم أو قريبـــاً منكم...)) [٤٥].

إن ما ذكر لا يقبل لعدة أسباب أهمها:

١- يدل على اعتراف بجهل الأمير عبد القادر بقوة فرنسة التي استمر في مقاومتهـــا سبعة عشر عاماً، أجرى خلالها اتفاقات هدنة معها، استطاع فيها الأميـــر عبـــد القادر أن يأخذ من فرنسة اعترافها باستقلاله، ولو ضمنياً، في وقت لم تتمكن فيه فرنسة من الحصول على الاعتراف بسيادتها على الجزائر رغم كل محاولاتها[٤٦].

٢- يدل هذا الكلام على جهل الأمير بمساحة فرنسة البلد المحتل لبلاده، وأنه لو كان عالماً بذلك لما حاربها وكأن الموضوع شخصي بينه وبين عدوه، وحين عفت عنه وأكرمته وأحسنت إليه نسي الماضي. هل يقبل هذا الكلام وبلاده ما تزال تحت سيطرة المحتل. ثم كيف وهو المسلم المتدين يقر بأن الله قدّم فرنسة على غيرها من الأمم وملكّها الآفاق.

٣- لم يذكر المؤلف ما هو مصدره لهذه المعلومات، أضف إلى ذلك إن ما ذكر ينسي القارئ كل صفة حسنه سبق وكتبت عن الأمير في الكتاب، لذلك كما يبدو سبب حذفها من الطبعة التي نُشرت عام ١٩٦٤م.

٦ - رأي الأمير في تعليم المرأة:

أيضاً مما يثير الجدل في كتاب ((تحفة الزائر..)) ما ذكر من أجوبة الأمير على أسئلة دوماس الفرنسة وي وهو جنرال من قواد الجنود الفرنسية الذين كلفوا بمحاربة الأمير عبد القادر في الجزائر، وكان قد عين أثناء هدنة تافنه وكيلاً لفرنسة بـ ((أم عسكر)) وتعلم اللسان العربي واطلع على حياة أهل الجزائر فكتب أسئلة تتعلق بذلك وبعثها إلى الأمير وطلب الجواب عنها، وهذه الأجوبة تحتاج إلى الكثير من النقد والدراسة، وكمثال عنها سؤال الجنرال دوماس حول أهمية التعليم للمرأة، وجواب الأمير الذي تضمن ما معناه من أن شرع الإسلام قد نهى عن تعليم النساء الكتابة بحجة أن المرأة قد لا يمكنها لقاء من تهوى فتكتب له فتكون الكتابة سبباً للفتنة[٤٧].

ترى كيف يمكن ذكر المؤلف لهذه الحادثة في الوقت الذي كانت أخواته، أي بنات الأمير عبد القادر وجدته أي والدة الأمير تعرف الكتابة. أيضاً أليس من المعروف عن الأمير اهتمامه بالعلم وأنه بنى مدينة متنقلة من الخيام ((زماله)) وكانت مزوده بمكتبة تحوي آلاف المخطوطات المحمولة على ظهور البغال، فهل يمكن لنا تسفيه الأمير

بمناقشة رأيه بتعليم المرأة وهو المسلم التقي الذي يعرف موقف الدين من العلم، وليس للرجال فقط بل لكل مسلم ومسلمة.

٧- الخاتمة:

وأخيراً هل يمكن اعتبار توجيه منفى الأمير إلى فرنسة وإبقائه محاصراً في أحد قصورها إلا نوعاً من تشويه سيرة كفاح هذا المجاهد؟. ففرنسة لم تقضِ عليه في وقت كانت قادرة على ذلك، كي لا تجعل منه بطلاً، ويصبح دمه منارة لغيره من المجاهدين. أيضاً فمن خلال إبقائه بأحد قصور فرنسة يُخيل لها أنها قادرة أن تطفئ نار المقاومة في الجزائر وتزرع اليأس في نفوس الناشئة، لأن رمزهم قد فاوضَ واتفق مع الفرنسيين بل وأقر بفضل فرنسة عليه، بل وتفضيلها أيضاً على باقي الأمم، إضافة إلى ذلك فإن إبقاءه في فرنسة يعيش في أحد قصورها لهو أكبر دعاية للجزائريين لإيقاف الكفاح ضد الاحتلال الفرنسي. وما أورده الأمير محمد من ترجمة عن والده لم يعط هذا المجاهد الثائر حقه، بل أورد بعض الأفكار المنقولة من مصادر غربية، وفيها الكثير من المغالطات التي تخدم المستعمر الذي لا ينظر إلى الثوار كأبطال ومقاومين وإنما مجموعات خارجة عن قوانينهم وعليهم ترويضها والنيل منها. لذلك فإن تكرار المصادر الغربية لكلمة ((استسلام)) بدل اتفاق وتفاوض يجعل من مقاومة الأمير عملاً غير مشروع.

ولكن رغم كل المحاولات الاستعمارية لتشويه سيرة الأمير عبد القادر فقد تناول العديد من الباحثين حياته بكل تفاصيلها وألقوا الضوء على مفاصلها، بل وكثرت الندوات والمؤتمرات والرسائل التي جعلت من دراسة حياة الأمير بكل جوانبها المحور الأساسي لها[٤٨].

وإن ما ورد من دراسة لبعض المقتطفات من كتاب ((تحفة الزائر)) ما هي إلا دعوة للباحثين للاجتهاد في دراسة تاريخنا العربي سواء ما كتب من قبل العرب أو

الأجانب، لأن الاستعمار لجأ إلى إحاطة سيطرته العسكرية بسيطرة ثقافية تضمن لـــه طول البقاء من جهة وتوسيع مناطق نفوذه من جهة أخرى، والأمير عبد القادر لـــيس إلا واحداً ممن طالته هذه الكتابات بالتشويه وعلى وجه الخـــصوص الـــسنوات التـــي عاشها بعد انتهاء مقاومته المسلحة. ولكن أهم ما يمكن قوله هو ما ذكره أبـــو القاســـم سعد الله عن الأمير عبد القادر بأن ((.. اسمه ونضاله القديم ومواقفه قد ظلت مـــورداً ينهل منه المقاومون الجزائريون كما ظلت قوة معنوية تحفز إرادتهم وتساعدهم علـــى شق الطريق))[٤٩].

الهوامش

١- نقولا زيادة، **التاريخ ضروبه وأبعاده**، جامعة اليرموك، الأردن،١٩٩٢م، ص٧٧.

٢- حسن عثمان، **منهج البحث التاريخي**، الطبعة الثالثة، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٧٠، ص ١٧.

٣- امتد حكم الأدارسة ببلاد المغرب من السوس إلى مدينة وهران، وكانت حاضرة ملكهم مدينة فاس ثم البصرة ببلاد المغرب الأقصى، وقد زال ملكهم بعد أن حكموا قرنين وثلاث سنين. حسن إبراهيم حسن، **تاريخ الإسلام السياسي والديني والاجتماعي**، ٤ أجزاء، طبعة رابعة، مصر، ١٩٥٨، ج٣، ص.ص ١٦٢-١٦٧.

٤- تم طباعة كتاب تحفة الزائر عام ١٩٠٣م في الإسكندرية في مصر في جزءان في مجلد واحد، وفي عام ١٩٦٤م شرح وعلق ممدوح حقي على الكتاب ونشره بعد أن حذف بعض المقاطع لذلك فقد اعتمدت على الطبعتين.

٥- المولود في ((القيطنة)) بضواحي مدينة معسكر من ايالة وهران الجزائر، وهي مزرعة عائلته مقر أجداده، منح رتبة الباشوية من السلطان العثماني ولكن لم يعرف عنه أنه استلم منصباً حكومياً كأخوته انما كان يمارس الإشراف على أعمال زراعية في مزرعته في ((دير بحدل)) في غوطة دمشق، وهو صاحب كتاب ((تحفة الزائر في أخبار الأمير عبد القادر)) وكتاب ((صافينات الجياد)).. للتفصيل:عدد من الأساتذة، **معجم أعلام الجزائريين في القرن التاسع عشر والعشرين**، منشورات تاريخية وفلسفية، جزآن، جامعة منتوري، قسنطينة، طبعة أولى، ٢٠٠٢ م، جزء ١، ص.ص ٢٢٤-٢٢٦.

٦- شارل هنري تشرشل، **حياة الأمير عبد القادر**، ترجمة وقدم له وعلق عليه الدكتور أبو القاسم سعد الله، طبعة ثانية، الجزائر، ١٩٨٢، ص ٧.

٧- كان دوما قنصلاً لفرنسة في معسكر إثر معاهدة التافنه (١٨٣٧-١٨٣٩) ثم مرافقاً للأمير في قلعة لامالق، وله عدة تأليف. كما تولى إدارة الشؤون العربية في الجزائر.

٨- تعتبر وثائق دوماس Daumas عن الأمير هامة جداً، ولكنها لم تجمع في كتاب واحد، وقد استفاد منها بيلمار، واستعار بعضها هنري تشرشل ((دون ذكره بالاسم)) واستخدمها ازان وقد كان ((دوما)) قنصلاً لفرنسة في معسكر اثر معاهدة تافنه (١٨٣٧-١٨٣٩ م) ثم مرافقاً للأمير في قلعة لا مالق، وله عدة تآليف، كما تولى ادارة الشؤون العربية في الجزائر.

٩- حول سبب دراسة شارل هنري تشرشل للأمير عبد القادر الجزائري والطريقة التي تناول فيها هذه الدراسة: **المصدر السابق**، ص.ص ١٠-١٦.

١٠- **المصدر السابق**، ص٩

١١- **المصدر السابق**، ص ٨.

١٢- **المصدر السابق**.

١٣- قام الدكتور أبو القاسم سعد الله بجامعة الجزائر بدراسة مقارنة لنسختين مخطوطتين لكتاب تحفة الزائر ضمنها الطريقة التي عثر بها أبو القاسم على المخطوط ودراسة لحياة المؤلف محمد بن الأمير عبد القادر والظروف التي أحاطت بتأليف تحفة الزائر وأهم مصادر هذا الكتاب، ثم مقارنة بين المخطوطتين التي عثر عليهما ولكن لم يتطرق لدراسة المعلومات الواردة في المخطوط. أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وآراء تاريخ الجزائر**، ٣ أجزاء، دار المغرب الإسلامي، بيروت، الجزء ٢، ص.ص ١١٥-١٤٢.

١٤- محمد بن عبد القادر الجزائري، **تحفة الزائر في تاريخ الأمير عبد القادر**، شرح وتعليق ممدوح حقي، دار اليقظة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٤ م، ص - ز-

١٥- **المصدر السابق**، ص: ح.

١٦-محمد بن عبد القادر الجزائري، **تحفة الزائر..**، شرح وتعليـــق ممـــدوح حقـــي. ص.ح

١٧- أجريت عدة حوارات معها عن حياة الأمير محمد صاحب كتاب تحفة الزائـــر، وقصت علي ما تم ذكره في الأعلى.

١٨- للتفصيل: العودة إلى **هامش ٤٢** من البحث.

١٩- محمد بن عبد القادر، **المصدر السابق**، ص: ح

٢٠- حول نسب الأمير ونشأته وتعليمه: **مذكرات الأمير عبد القادر، سيرة ذاتية** كتبها في السجن سنة ١٨٤٩م، تنشر لأول مرة، تحقيق: محمد الصغير بناني، محفوظ سماتي، محمد الصالح ألجون، طبعـــة خاصـــة، وزارة المجاهـــدين، الجزائـــر، ٢٠٠٨، ص.ص ٤٦-٦١.

٢١-محمد خير فارس، **تاريخ الجزائر الحـــديث**، طبعـــة ثانيـــة، بيـــروت، ١٩٧٩، ص٢٤١.

٢٢- **المرجع السابق**، ص.ص ٢٣٥-٢٤٠.

٢٣-صلاح العقاد، **المغرب العربي دراسة في تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصرة**، القاهرة، ١٩٨٠، ص ١٠٦.

٢٤-بدأ تكوين عبد القادر لدولته عام ١٨٣٢ م، التي وصلت إلى أقصى اتساع لها لها سنة ١٨٣٩م، حاول الأمير خلال هذه الفترة إلغاء القبيلـــة كأســـاس للوحـــدات الإدارية في دولته، ولكن الوقت لم يتح له كي يتوسع في هذا الاتجـــاه. فـــارس، **تاريخ الجزائر....**، ص.ص ٢٤١-٢٤٨.

٢٥-فارس، **تاريخ الجزائر**، ص ٢٥١.

٢٦- Ch. A. Julien: **Histoire De I ’ Agerie Contemporaine**, Paris , 1964 , P. 155.

٢٧-قاصري محمد السعيد، **العلاقات بين الأمير عبد القادر والسلطان عبد الرحمن من ١٨٣٣- ١٨٤٧**، ندوة علمية من تنظيم فرقة البحث: أثار السياسة الاستيطانية في المجتمع الجزائري ١٨٣٠ - ١٩٦٢، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، الجزائر، ٢٠٠٢م، ص ١٧١.

٢٨-العقاد، **المغرب العربي...**، ص ١١٠.

٢٩- تشرشل، **حياة الأمير عبد القادر**، ص ٢٤٧.

٣٠-العقاد، **المغرب العربي...**، ص ١٢١.

٣١-نظم المتعصبون من المسلمين مذبحة مسيحية بعلم من السلطات العسكرية العثمانية وحتى بمساهمة الجنود الأتراك، فقتلوا وأحرقوا الكنائس والمدارس التبشيرية، واستمرت المذبحة ثلاثة أيام ولولا موقف الأمير عبد القادر الجزائري الذي دافع بشجاعة عن المسيحيين، ووضع قصره تحت تصرف ضحايا التعصب لكانت الأمور قد أخذت مجرى في غاية الخطورة. فلاديمير لوتسكي، **تاريخ الأقطار العربية الحديث**، الطبعة التاسعة، بيروت، ٢٠٠٧، ص١٥١.

٣٢- عبد الرزاق البيطار، **حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر**، تحقيق: محمد بهجة البيطار، ٣أجزاء، مطبوعات المجمع العلمي بدمشق،١٩٦٣م،ج٢، ص٨٩٧.

٣٣-برونو إتيين، **عبد القادر الجزائري**، ترجمة: المهندس ميشيل خوري، طبعة ثانية، الجزائر، ٢٠٠١، ص.ص ٢٠١-٢٢٣.

٣٤-لوتسكي، **تاريخ الأقطار العربية**، ص.ص ١٩٤-١٩٦.

٣٥- Ch. **Julien**: P. 194.

٣٦-فارس، **تاريخ الجزائر الحديث**، ص ٢٥٧.

٣٧-العودة إلى صفحة ٨، أيضاً: تشرشل، حياة الأمير...، ص.ص ٢٤٢-٢٩٦.

٣٨-محمد بن عبد القادر، **تحفة الزائر**، ص ٤٩٩.

٣٩- إتيين، **عبد القادر الجزائري**، ص. ص: ٢٢٦-٢٢٩.

٤٠-وهذا ما ذكره شارل هنري تشرشل في كتابه **حياة الأمير**، ص ٢٤٦. للمزيد : تقي الدين الحصني، **منتخبات تواريخ دمشق**، ١٩٣٥، ص ٧٤٠.

٤١-السيد سابق، **فقه السنة**، ٣ مجلدات، دار الفكر، دمشق، ج٣، ص ١٣٨.

٤٢- النص منقول حرفياً دون إجراء أي تصحيح فيه، محمد بن عبد القادر، **تحفة الزائر**، ص ٥٢٧. للمزيد: عندما هوجم لامورسيير في مجلس النواب لعدم أسره الأمير قال: إن اتهاماً وجه إلي لأنني دخلت في مفاوضات بدل مواصلة الهجوم ؟ كنت سأسر قافلته كنت سأقوم بغارة لا أكثر.أما هو وفرسانه فيكونون قد انطلقوا إلى الصحراء. تشرشل، **حياة الأمير**، ص٢٤٧.

٤٣- محمد عبد القادر، **تحفة الزائر...**، نشر ١٩٦٤، ص ٥٢٨.

٤٤-محمد عبد القادر، **تحفة الزائر**، ١٩٦٤، ص ٥٢٨. أيضاً أورد شارل هنري تشرشل نفس الفكرة. للمزيد: تشرشل،**حياة الأمير**، ص ٢٤٧.

٤٥-محمد بن عبد القادر، **تحفة الزائر**، طبعة ١٩٠٣ م، ج٢، ص ٤١.

٤٦- للتفصيل: **تشرشل، الأمير عبد القادر**، ص ١٧.

٤٧-للمزيد عن هذه الأسئلة والأجوبة: محمد بن عبد القادر، **تحفة الزائر**، نشر١٩٠٣م. ج١، ص.ص ١٦١-١٨٥.

٤٨-مؤخراً منحت مؤسسة (الأوسيمي) السويسرية، الغير رسمية، جائزتها السنوية الثالثة في التسامح إلى اسم الأمير عبد القادر الجزائري تقديراً لدوره كأحد أبرز مؤسس القانون الإنساني الدولي وحقوق الإنسان، وتسلم الجائزة حفيد الأمير السفير إدريس الجزائري مندوب الجزائر الدائم لدى الأمم المتحدة الذي أبرز في كلمته فكر الأمير ودوره في الجهاد ضد الاحتلال الفرنسي للجزائر، وفي وضع اللبنات الأساسية للجزائر الحديثة. وركز على جوانب مختلفة من حياة الأمير الراحل كرجل دولة وعالم دين وشاعر وفارس.

٤٩-تشرشل، **حياة الأمير عبد القادر**، ص ٣٥.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية:

١- البيطار: عبد الرزاق، **حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر**، تحقيق: محمد بهجة البيطار، ٣ أجزاء، مطبوعات المجمع العلمي بدمشق، ١٩٦٣م، ج٢.

٢- تشرشل: شارل هنري، **حياة الأمير عبد القادر**، ترجمة وقدم له وعلق عليه الدكتور أبو القاسم سعد الله، طبعة ثانية، الجزائر، ١٩٨٢، ص ٧.

٣- الحصني: تقي الدين، **منتخبات تواريخ دمشق**، ١٩٣٥.

٤- الجزائري: محمد بن عبد القادر، **تحفة الزائر في تاريخ الأمير عبد القادر، الإسكندرية مصر، ١٩٠٣، جزءان في مجلد واحد.**

٥- الجزائري: محمد بن عبد القادر، **تحفة الزائر في تاريخ الأمير عبد القادر**، شرح وتعليق ممدوح حقي، دار اليقظة العربية، بيروت، الطبعة الثانية،١٣٨٤ هـ/١٩٦٤م.

٦- **مذكرات الأمير عبد القادر، سيرة ذاتية** كتبها في السجن سنة ١٨٤٩م، تنشر لأول مرة، تحقيق: محمد الصغير بناني، محفوظ سماتي، محمد الصالح ألجون، طبعة خاصة وزارة المجاهدين، الجزائر، ٢٠٠٨.

ثانياً: المراجع العربية:

١- زيادة: نقولا، **التاريخ ضروبه وأبعاده**، جامعة اليرموك، الأردن، ١٩٩٢ م.

٢- سابق: السيد، **فقه السنة**، ٣ مجلدات، دار الفكر، دمشق، ج٣.

٣- سعد الله: أبو القاسم، **أبحاث وآراء تاريخ الجزائر**،٣ أجزاء، دار المغرب الإسلامي، بيروت، الجزء ٢.

٤- عثمان: حسن، **منهج البحث التاريخي**، الطبعة الثالثة، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٧٠.

٥- العقاد: صلاح، **المغرب العربي دراسة في تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصرة**، القاهرة، ١٩٨٠.

٦- فارس: محمد خير، **تاريخ الجزائر الحديث**، طبعة ثانية، بيروت، ١٩٧٩، ص٢٤١

٧- عدد من الأساتذة، **معجم أعلام الجزائريين في القرن التاسع عشر والعشرين**، منشورات تاريخية وفلسفية، جزآن، جامعة منتوري، قسنطينة، طبعة أولى، ٢٠٠٢ م.

ثالثاً: المراجع المعربة:

١- إتيين: برونو، **عبد القادر الجزائري**، ترجمة: المهندس ميشيل خوري، طبعة ثانية.

٢- لوتسكي: فلاديمير، **تاريخ الأقطار العربية الحديث**، الطبعة التاسعة، بيروت،٢٠٠٧،

الجزائر، ٢٠٠١.

رابعاً: الندوات العلمية:

١- السعيد: قاصري محمد، **العلاقات بين الأمير عبد القادر والسلطان عبد الرحمن من ١٨٣٣- ١٨٤٧**، ندوة علمية من تنظيم فرقة البحث: أثار السياسة الاستيطانية في المجتمع الجزائري ١٨٣٠ - ١٩٦٢، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، الجزائر، ٢٠٠٢م.

خامساً: المراجع الأجنبية:

1- Ch. A. Julien: **Histoire De I ’ Agerie Contemporaine** , Paris , 1964.

معاهدة السلام المصرية – "الإسرائيلية" عام ١٩٧٩ وأثرها على دور مصر الإقليمي

الدكتور حسين السيد حسين

كلية العلوم السياسية

مقدمة:

مضى ثلاثون عاماً على توقيع اتفاقات الصلح المصرية "الإسرائيلية" (اتفاقيتي كامب ديفيد لعام ١٩٧٨، ومعاهدة السلام المصرية – "الإسرائيلية" لعام ١٩٧٩) وما يزال الجدل قائماً حولها في الوطن العربي بين مؤيد، يرى فيها خطوة جريئة بالاتجاه الصحيح لحل معضلة الصراع العربي "الإسرائيلي" وتحقيق السلام بين العرب و"إسرائيل"*، وبين معارض يرى فيها خطوة خلّفت نتائج وتداعيات كارثية على الأمة العربية عامة والقضية الفلسطينية خاصة وأضافت تعقيدات جديدة للصراع العربي "الإسرائيلي". ومما لا شك فيه أن حدثاً بهذا المستوى وتسوية سلمية بين متحاربين لفترة طويلة من الزمن. من المؤكد أن يكون له أثاراً على المستويين العربي و"الإسرائيلي" وكثير منها لم يكن متوقعاً، ومن الطبيعي أن لا يجد المرء توافقاً في الآراء بين الباحثين حول هذه الاتفاقات (١).

وعلى الرغم من استمرار تمسك مصر بنهج التفاوض والخط الذي رسمته "كامب ديفيد" كخيار وحيد للتوصل إلى سلام في المنطقة. إلا أن "إسرائيل" ما تزال ترفض

الاعتراف بالحقوق العربية، وتضرب عرض الحائط بجميع قرارات الشرعية الدولية التي تنص على تلك الحقوق. وبما أن هذه الاتفاقات في كامب ديفيد، لم تأخذ بعين الاعتبار شمولية الحل وعدالته والوضوح فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية التي هي جوهر الصراع العربي "الإسرائيلي"، لذلك لم تكن هذه الاتفاقات سوى صدى للماضي ونادراً ما ينظر إليها على أنها إنموذجاً أو خطة عمل متكاملة لحل الصراع العربي "الإسرائيلي". فضلاً عن أن تجربة العقود الماضية أوحت بالتأكيد بعدم جدوى محاولة التنبوء بالمستقبل في منطقة متقلبة الأحوال مثقلة بالقضايا المعقدة والصراعات مثل منطقة "الشرق الأوسط" ** (٢).

لذلك من الأهمية بمكان دراسة وتحليل اتفاقات الصلح المصرية "الإسرائيلية" في كامب ديفيد، وما طرأ على دور مصر في أعقابها، وما ترتب عليها من نتائج وتداعيات على الوطن العربي، وفهم جميع التغييرات والتفاعلات التي أثرت على سياسات وسلوك القوى العربية التي ما تزال في حالة حرب مع "إسرائيل" وتبحث عن الأساليب والطرق المختلفة للوصول إلى حل عادل وشامل بعيداً عن نهج "كامب ديفيد". وإن عدم اكتشاف "إسرائيل" وإلى جانبها الولايات المتحدة الأمريكية الصعوبات الماثلة في ترجمة دور القوة العسكرية ومحاولة تحويلها إلى مكاسب سياسية، لا تزيد الصراع العربي "الإسرائيلي" إلا تعقيداً وتشابكاً وتجعل السلام بعيد المنال (٣).

من هنا نرى أن صمود سوريا والمقاومة اللبنانية والفلسطينية أمام همجية "إسرائيل" ومراوغة قادتها والتصدي لجميع أشكال الضغوط الغربية وبخاصة الأمريكية، وتتويج ذلك بإرغام المقاومة اللبنانية القوات "الإسرائيلية" على الانسحاب من جنوب لبنان عام ٢٠٠٠ – باستثناء مزارع شبعا – دون قيد أو شرط وانتصارها في حرب عام ٢٠٠٦، والصمود الباسل للمقاومة الفلسطينية أمام العدوان "الإسرائيلي" على غزة عام ٢٠٠٨ / ٢٠٠٩، ليس إلا تأكيداً لدور المقاومة وأهميتها في الصراع العربي "الإسرائيلي" وعدم جدوى الاستمرار في انتهاج سياسة القوة العسكرية وفلسفتها

واعتماد أسس ومبادئ بعيدة عن الشمولية والعدل في حل الصراع العربي "الإسرائيلي" كما جرى في "كامب ديفيد". وقد بات من المؤكد، أن قيام الولايات المتحدة الأمريكية بتركيز جهودها على صنع سلام منفرد بين مصر و"إسرائيل" والبناء عليه دون الأخذ بعين الاعتبار حقوق الأطراف العربية الأخرى وبخاصة حقوق الشعب الفلسطيني لم يبعد المنطقة عن السلام وحسب بل أضاف صعوبات وتعقيدات أخرى في المنطقة عمقت الصراع بين العرب و"إسرائيل" بدلاً من إضعافه، الأمر الذي بينه بريماكوف أحد الروس البارزين بتحليل الصراع في "الشرق الأوسط" بالقول: إن الولايات المتحدة الأمريكية انتهجت سياسة ثابتة هدفت من ورائها تفتيت البلدان العربية وعزل السوفييت وإبعادهم عن المساهمة في المفاوضات مما جعل "لإسرائيل" اليد العليا على العرب (٤).

وبما أن جُل اهتمام الباحثين بداية قد وجه لدراسة اتفاقيتي كامب ديفيد لعام ١٩٧٨ وما ترتب عليها من ردود الأفعال على جميع المستويات، لذلك كان من الطبيعي أن لا تأخذ معاهدة السلام المصرية "الإسرائيلية" حقها من الدرس والتمحيص فضلاً عما يترتب عليها من نتائج إيجابية في مصلحة "إسرائيل" ما تزال آثارها قائمة طالما بقي الصراع العربي "الإسرائيلي" مستمراً وبصورة أعقد وأعنف مما كانت عليه الصورة في الماضي.

من هنا تبرز أهمية البحث في الجوانب السياسية للمعاهدة التي نرى أنه لم يسلط عليها الضوء بشكل كاف في دراسات سابقة وضرورة البحث والتأمل في الظروف التي قادت مصر إلى هذه الخطوة المحفوفة بالمخاطر وتقديم رؤية سياسية لأحكامها ونصوصها، ومن ثم الإجابة عن السؤال المهم حول التداعيات والنتائج التي أسفرت عنها، أملين أن تشكل هذه الدراسة إضافة معرفية لهذا الحدث الهام في التاريخ المعاصر للأمة العربية.

أولاً – جذور اتفاقات الصلح المصرية "الإسرائيلية" المنفردة وعوامل ظهورها:

بعد نكسة حزيران لعام ١٩٦٧ واحتلال "إسرائيل" لأراضٍ عربية جديدة، أصبحت أكثر تعنتاً وابتعاداً عن الالتزام بقرارات الشرعية، وبخاصة قرار مجلس الأمن رقم /٢٤٢/ لعام ١٩٦٧ القاضي بانسحاب "إسرائيل" من جميع الأراضي العربية المحتلة (٥). من هنا بدأ الصراع العربي "الإسرائيلي" في الظروف الجديدة أكثر حدة وعمقاً وتعقيداً وتشابكاً وذلك لجملة من الأسباب من أهمها:

١- الخلل الكبير في ميزان القوة بين العرب و"إسرائيل".

٢- ضعف مستوى الضغط الدولي على "إسرائيل" رغم ارتكابها العدوان على الدول العربية وخرقها لميثاق الأمم المتحدة والقانون الدولي.

٣- الفرق الواضح بين حجم الدعم الدولي الذي يقدمه الغرب "لإسرائيل" وفي مقدمته الولايات المتحدة الأمريكية وبين الدعم الذي تحصل عليه الدول العربية.

وبما أن القرار /٢٤٢/ لم يأت تحت الفصل السابع بإجبار "إسرائيل" على الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة، ونظراً لعدم موافقة الدول العربية على القرار كونه ينص صراحة على الاعتراف "بإسرائيل"، فقد شجع الأخيرة على ضم الأرض وبناء المستعمرات فيها، والعمل على تهويدها وتغيير معالمها مخالفة بذلك قرارات الشرعية الدولية والقانون الدولي. وعلى الرغم من موافقة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر والملك حسين في وقت لاحق على القرار، /٢٤٢/ وقبوله كأساس للتفاوض بواسطة الأمم المتحدة، إلا أن الرفض "الإسرائيلي" للانسحاب الكامل وعدم الاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني قد أدى وقتئذ إلى توقف المفاوضات وفشل مهمة المبعوث الدولي (يارنيغ). وكان رد فعل مصر القيام بحرب استنزاف استمرت خلال

عامي ١٩٦٩ – ١٩٧٠، وعلى الرغم من إبداء بعض المرونة فيما يتعلق بالانسحاب من سيناء في أعقاب استجابة مصر لمبادرة(روجزر) لوقف الحرب، إلا أن رفضها للانسحاب من الضفة الغربية والجولان لم يدفع بمصر باتجاه الحل المنفرد مع "إسرائيل" (٦).

ولكن انتقال الأوضاع العربية من سيئ إلى أسوأ بسبب الصدامات الدامية بين المقاومة الفلسطينية والنظام الأردني في نهاية عام ١٩٧٠ ثم وفاة عبد الناصر، الذي شكل غيابه فراغاً سياسياً كبيراً ليس لمصر وحسب بل للوطن العربي، قاد لانكفاء البلدان العربية على نفسها وانشغال كل بلد بشؤونه وهمومه. وعلى خلفية الوضع الإقليمي والرفض "الإسرائيلي" للتسوية الشاملة، وفي ظل الانفراج الدولي وبوادر التقارب بين الاتحاد السوفيتي(السابق) والولايات المتحدة، لم يعد تحقيق تسوية للصراع العربي "الإسرائيلي" بالنسبة لهذه الأخيرة شغلها الشاغل بقدر ما كانت تسعى لتجميد الوضع السياسي في المنطقة لدفع العرب للاقتناع بمسألتين:

الأولى – أنه يستحيل مع مرور الوقت وازدياد قوة الردع "الإسرائيلية" استعادة الأراضي العربية المحتلة بالحرب.

الثانية – ضرورة تحول العرب جميعاً شطر الولايات المتحدة بوصفها الدولة الوحيدة المتمكنة في الحصول على تنازلات "إسرائيلية" (٧).

وهنا يتبادر للذهن السؤال التالي: هل كان لهذا الوضع الإقليمي والدولي أثره على تفكير الرئيس الراحل أنور السادات للانكفاء بمصر والتوجه نحو سياسة الخلاص الفردي كي ينوء بمصر عن المتاعب والأعباء المترتبة عليها بسبب الصراع مع "إسرائيل"، أم أنه كان ميالاً لتفضيل المصالح القطرية المصرية على المصالح العربية العليا، مما دفع بمصر للانسلاخ عن الإجماع والتوافق العربيين بشأن الصراع مع "إسرائيل". وربما كان المنطق الفعلي لهذا الموقف التماس سلام منفصل مع "إسرائيل"

(٨)، حيث قام السادات بعد تسلمه السلطة فعلياً في مصر عام ١٩٧١ بتنفيذ سلسلة من السياسات خلقت قطيعة مع العهد الناصري ونهجه القومي التحرري وغيرت التوجه السياسي العام لمصر ودورها الرائد في المحيطين العربي والدولي، وقد كان على رأس تلك السياسات ما عرف بـ "**بسياسة الانفتاح**" على جميع المستويات، الانفتاح على الغرب عموماً والولايات المتحدة خصوصاً (٩). وما أُخذ على هذه السياسة اتجاهها نحو تفكيك الجبهة الوطنية الداخلية بانفتاح باتجاهين في آن واحد، انفتاح سياسي على الفئات الإسلامية والرجعية والقوى الاجتماعية ذات التوجه الغربي بشكل عام والتي كان يجمعها قاسم مشترك هو معاداة الناصرية وانفتاح اقتصادي يسعى لاسترضاء القطاع الخاص و(الكومبرادور) ليخلق بيئة سياسية مناسبة وسند اجتماعي اقتصادي يدعمه في السعي نحو ترتيبات للصلح مع الدولة الصهيونية، حلم القيادة الكومبرادورية في مصر (١٠). وكل ذلك ترافق بتصريحات للسادات في أكثر من مناسبة أن ٩٩% من أوراق حل مشكلة "الشرق الأوسط" هي بيد الولايات المتحدة الأمريكية. في الوقت نفسه ازداد تهجمه على الاتحاد السوفيتي السابق ومنهجه، وقام بطرد الخبراء السوفيت عام ١٩٧٢، رغم الجهود التي بذلها السوفيت سواء في تعويض ما خسرته مصر جراء عدوان حزيران من عتاد وأسلحة دون مقابل، أو تقديمهم لأسلحة حديثة كان لها أثرها الفَّعال والإيجابي في حرب الاستنزاف وفي حرب تشرين التحريرية عام ١٩٧٣.

حقيقة إن هذه السياسات التي سار عليها السادات ليس لها من تفسير سوى أنها تنم عن رغبة ضمنية في التوصل إلى صلح منفرد مع "إسرائيل"، والعمل على خلق مناخ سياسي على المستويين الداخلي والدولي للسير في ركاب الولايات المتحدة لتجد له الحل في صراعه مع "إسرائيل" بأي ثمن، الأمر الذي تبين من سلوكه بعد اندلاع حرب تشرين التحريرية، فقد بعث برسالة إلى كيسنجر في بداية الحرب (٧ تشرين الأول) تتضمن أن مصر (لا تنوي توسيع مدى أو عمق العمليات الحالية على الجبهة

المصرية) ويعلق محمد حسنين هيكل على الرسالة بالقول، كانت خطأ على مستوى مأساوي فقد جاءت في ذروة الانتصارات العربية وصيغت بطريقة غير مبررة وغير متناسبة مع حجم ما تحقق بالسلاح على رقعة ميدان القتال (١١). وبالفعل لم يكن هناك اتفاق محدد بدقة تلتزم به الأطراف العربية حول الهدف العسكري المطلوب تحقيقه على كل جبهة من جبهات القتال (١٢).

على أي حال إن حرب تشرين التحريرية لعام ١٩٧٣ لم تكن سوى أحد أهم المتغيرات على الساحتين الإقليمية والدولية التي تركت أبعد الأثر على الصراع العربي "الإسرائيلي"، فصورة العرب المهزومين في حزيران أمام "إسرائيل" قد تلاشت تقريباً في نظر العالم، وجاءت تلك الحرب لترسم لنا لوحة أكثر وضوحاً في مصلحة العرب من حيث دورهم وموقعهم على المسرح السياسي والعسكري في "الشرق الأوسط". وبدون شك تعد هذه الحرب أول مواجهة عسكرية فعلية بين العرب و"إسرائيل"، تركت بصمات إيجابية، وأكدت على أن العرب في حال تعاونهم وتضامنهم واستثمار إمكاناتهم بشكل معقول يستطيعون الانتصار على "إسرائيل"، وخلق ظروف سياسية ومناخ إقليمي ودولي لمصلحتهم في الصراع معها، الأمر الذي انعكس في سعي الدول الكبرى للتأكيد على أهمية السلام في "الشرق الأوسط" وضرورته لأمن واستقرار العالم حين اجتازت كلا الدولتين العظميين أزمة في العلاقات بسبب الحرب وهذا مما جعلهما يشعران بمزيد من الحاجة إلى حل الصراع في "الشرق الأوسط" (١٣)، فضلاً عن عوامل أخرى وراء شعورهما هذا لا مجال لذكرها هنا.

ولكن ما جرى من أخطاء إستراتيجية تكتيكية أثناء المعارك على المستويين السياسي والعسكري (١٤)، بالإضافة إلى سلوك السادات المدان والمتمثل في تراجعه قبل تحقيق أهداف الحرب التي سبق الاتفاق عليها مع السوريين حسب رواية رئيس أركانه سعد الدين الشاذلي، وفي إجرائه المفاوضات مع الدولتين العظميين لإيقاف الحرب، ثم قبوله وقف إطلاق النار وأمور حيوية أخرى، أكدت أنه لم يحفل بالتشاور مع حلفائه

السوريين الجادين، على عكسه في الالتزام بمخطط الحرب الموضوع ناهيك عن عدم أخذ مصالحهم بالحسبان (١٥). ثم كان ما كان من تضمين قرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨ فقرة تقول ببدء المفاوضات فوراً وفي وقت واحد مع وقف إطلاق النار، ويبدو أن ذلك فهم على أن تجري مفاوضات مباشرة من خلال وساطة الدولتين. وقد تم عقد اتفاقيتين تحت خيمة الأمم المتحدة لفض الاشتباك بين القوات المتحاربة، الأولى كانت على الجبهة المصرية في كانون الثاني لعام ١٩٧٤. والثانية على الجبهة السورية في نهاية أيار لعام ١٩٧٤ وذلك بعد حرب استنزاف أشعلتها القوات السورية ما بين آذار وأيار من العام نفسه لتحسين مواقعها (١٦).

وهنا من المفيد الإشارة إلى أن كيسنجر خلال جولاته المكوكية في "الشرق الأوسط" لوقف الحرب والتمهيد للتسوية استطاع الحصول على تعهدات شفهية من السادات في مصلحة "إسرائيل" والغرب حتى قبل توقيع فض الاشتباك الأول. ومن هذه التعهدات توسط السادات لدى الدول العربية النفطية برفع حظر تصدير النفط، وتطهير القناة وإعدادها للملاحة. ولاختبار حقيقة فك الحصار البحري عن باب المندب فقد عبرته سفينة "إسرائيلية" بمرافقة مدمرتين أمريكيتين من الجنوب إلى الشمال حتى ميناء إيلات. وكان أن تحسنت العلاقات المصرية الأمريكية تحسناً مضطرداً، فجرى إعادة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين في شباط ١٩٧٤، كما أعلن وزراء النفط العرب الذين اجتمعوا في فيينا الشهر التالي من العام نفسه قرارهم برفع الحظر المفروض على تصدير النفط إلى الولايات المتحدة الأمريكية (١٧). إلى جانب ذلك توصل كيسنجر في أيلول ١٩٧٥ إلى اتفاق ثاني لفض الاشتباك بين مصر و"إسرائيل" وذلك خارج إطار الأمم المتحدة وبدون المشاركة السوفيتية، وقد تضمن هذا الاتفاق بنتيجة مساعي (كيسنجر) مع السادات جوانب سياسية أكدت على المفاوضات واتباع الطرق السلمية فقط في حل الصراع العربي "الإسرائيلي"، وأرست الأسس والمبادئ لصلح منفرد بين الطرفين (١٨).

وهكذا بمجرد التوقيع على هذه الاتفاقية المعروفة بـ (اتفاقية سيناء) أصبح واضحاً أن لشريكي حرب تشرين رؤية مختلفة في إدارة الصراع مع "إسرائيل" وآليات تحقيق السلام. وهنا في هذا السياق من الموضوعية القول: إن الرئيس الراحل حافظ الأسد عندما دخل حرب تشرين إلى جانب السادات كان مؤمنا بضرورتها وأهميتها ليس بهدف تحريك أزمة "الشرق الأوسط" على أبعد تقدير، كما كان الأمر يدور في رأس السادات، بل تحقيق هدف أبعد من ذلك هو محاولة تغيير البيئة السياسية الإقليمية ما أمكن وذلك من خلال حشد كل الإمكانات والطاقات العربية، وهي متوفرة، للاستمرار في الحرب والتأكيد على جدية العرب باسترجاع حقوقهم كاملة. في الوقت نفسه إن المفاوضات التي جرت بين مصر و"إسرائيل" بعد اتفاقية سيناء قد وصلت إلى طريق مسدود بسبب المواقف "الإسرائيلية" المتطرفة تجاه الحقوق العربية عامة والمصرية خاصة، مما دفع السادات لزيارة القدس ليؤكد للعالم أنه يريد السلام مع "إسرائيل" وتحت وهم إحراج المسؤولين فيها.

لقد كانت زيارة السادات "لإسرائيل" مفاجئة لغالبية الحكام العرب ولكنها بالنسبة "للإسرائيليين" كانت متوقعة نظراً للاتصالات غير المباشرة التي قام بها السادات مع "الإسرائيليين" عن طريق ملك المغرب والرئيس الروماني (شاوشيسكو) اللذين كان لمساعيهما دور في جلب الطرفين لطاولة المفاوضات (١٩). ولم يكن غريباً أن يفاجأ الشارع المصري والعربي بتلك الزيارة لكن الأغرب أن يفاجأ بها الفريق السياسي المحيط بالسادات، حتى أن وزير خارجيته إسماعيل فهمي قد قدم استقالته لعدم قناعته بمثل هذه الخطوة غير المبررة لرئيس أكبر دولة عربية (٢٠). وفي خطابه أمام الكنيست أوضح السادات مفهوم مصر للسلام عندما أشار إلى نقطتين: **الأولى** وهي إنهاء حالة الحرب في المنطقة، وهذه غطت معظم فقرات الخطاب، و**الثانية** قبول التعايش السلمي بين العرب و"الإسرائيليين" عندما يتم الانسحاب الكامل من الأراضي العربية المحتلة بما فيها القدس، فضلاً عن اعتباره القضية الفلسطينية جوهر الصراع

عندما قال: " وبكل صدق أقول لكم إن السلام لا يمكن أن يتحقق بغير فلسطين. وأنه لخطأ جسيم لا يعلم مداه أحد أن نغض الطرف عن تلك القضية أو ننحيها جانباً.... إنني أقول لكم إنه لا طائل من وراء عدم الاعتراف بالشعب الفلسطيني وحقوقه في إقامة دولته وفي العودة"(٢١).

والتساؤل الذي يطرح نفسه هنا لماذا حرص السادات في خطابه هذا أن يحدد الموقف المصري من السلام، ولم يثبت ذلك في اتفاقية سيناء بعد سنتين. أما المفارقة الكبرى فكانت رد بيغن على خطاب السادات، فقد أعاد الأول كل مواقفه المعروفة بالتشدد. لأنه أحس أن السادات ينتظر عرضاً "إسرائيلياً" ما يقدم له كهدية تقديراً لمبادرته (٢٢). وعاد السادات إلى القاهرة دون أن يحمل معه أي جديد سوى قبول بيغن دعوته لزيارة مصر ومواصلة الحوار. ولم يكد يحط رحاله على أرض مصر حتى ثارت مناقشات حامية بين المثقفين في مصر تركزت حول محوريين أساسيين:

الأول: تمثل بالاتجاه القومي العروبي الذي لم يكن عليه صعباً، نقد أفكار المحور الآخر و مهاجمتها. و لم تنقصه الحجج في مناصرته للعروبة و علاقة مصر بالعرب، فهناك الثقافة و اللغة و القيم المشتركة و المزايا الاقتصادية للوحدات الدولية الكبيرة و التهديد "الإسرائيلي" للأمن القومي المصري سواء مع العرب أو بدونهم (٢٣).

الثاني: اتفق مفكروه وهم أقلية على أن مصر هي جزء من الحضارة الأوروبية خاصة والغربية عموماً وأن العرب ما زالوا بدواً غير قادرين على إدراك أن السلام تعبير عن السلوك المتحضر للسياسة العالمية، من ناحية، والتقاء بين حضارتين عظيمتين قديمتين، من ناحية أخرى. وما على المصريين إلا الالتزام بالحياد في مجال السياسة العالمية بصفة عامة والسياسة العربية "الإسرائيلية" بصفة خاصة، كما ينبغي على مصر أن تركز اهتمامها على التنمية الاقتصادية والاجتماعية مثل ما تفعل جميع الشعوب المتحضرة، وكان من ممثلي هذا المحور عدد من مثقفي مصر القلة:

توفيق الحكيم، نجيب محفوظ، لويس عوض. وقد حظيت أفكار هؤلاء بمباركة السادات وحزبه ولقيت التأكيد الكامل من جانب السلطة (٢٤)، مما يؤكد الخلفية السياسية العملية لهذا التوجه في تجاهل أصحابها لحقائق التاريخ والجغرافية وكل العلوم المعنية.

و قد تركت الحوارات بين هذين التيارين أثرها البالغ على الرأي العام المصري، وهنا بالإمكان الإشارة إلى فترتين متميزتين لخط سير هذه الحوارات، الأولى بدأت مع زيارة السادات "لإسرائيل" وربما قبل ذلك و استمرت حتى منتصف عام ١٩٨٢، وتميزت بتغلب الدعوة التي ترفض انتماء مصر "للعالم العربي". في حين أن الفترة الثانية بدأت من منتصف عام ١٩٨٢ويمكن اعتبارها ما زالت حتى الآن، وقد ساد فيها التأكيد على عروبة مصر وارتباط مصالحها "بالعالم العربي"،الذي أكدته الاستقصاءات والاستبيانات التي قامت بسبر الرأي العام المصري. وأن الفترة الأولى لم تكن سوى حالة عابرة تمثلت بأزمة هوية عند البعض. ثم جاءت اعتداءات "إسرائيل" على العرب – ضرب المفاعل النووي العراقي عام ١٩٨١، الحملة العسكرية "الإسرائيلية" على لبنان عام ١٩٨٢، اغتيال قياديين في منظمة التحرير الفلسطينية – لتشكل حداً فاصلاً في عملية إعادة مصر انتماء وهوية للصف العربي وضرورة توحيدها مع "العالم العربي" وقضاياه. وقد أشارت إحدى دراسات الرأي التي أجريت في مصر عام ١٩٨٥ إلى أن ٧٣,٧% من الشعب المصري يؤيد الوحدة مع دولة عربية أخرى(٢٥).

حقيقة إن زيارة السادات "لإسرائيل"، لا يمكن أن نجد لها تفسيراً سوى أن المفاوضات المصرية "الإسرائيلية" التي جاءت في أعقاب اتفاقية سيناء، قد وصلت إلى طريق مسدود، ولم يجد السادات أمامه من حل سوى تقديم تنازل آخر وكانت المبادرة – التي عكست إما بساطة أو عدم دراية في العمل السياسي لدى السادات أو تواضع في فهم طبيعة وجوهر العلاقات الدولية الأمر الذي أشير إليه في أكثر من موضع في كتب

ومذكرات وزيري خارجية مصر – فهمي وكامل – وكذلك محمود رياض أمين عام الجامعة العربية وجميعهم استقالوا من مناصبهم لقناعتهم بعدم جدوى العمل السياسي والدبلوماسي إلى جانب السادات.

حاولت مصر بعد ذلك عقد مؤتمر (مينا هاوس)، فوجهت الدعوات للأقطار العربية المعنية: سورية والأردن ولبنان ومنظمة التحرير الفلسطينية، ولرئاستي مؤتمر جنيف: الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، ولكن لم يحضره سوى ممثلين عن مصر و"إسرائيل" والولايات المتحدة، مما يعني عدم قناعة الأطراف الأخرى بجدوى المؤتمر. الأمر الذي دفع السادات للاجتماع ببيغن في الإسماعيلية وتشكيل لجنتين إحداهما عسكرية والأخرى سياسية. وإذا كانت الأولى قد حققت بعض التقدم في مجال الترتيبات العسكرية بين مصر و"إسرائيل"، فإن الثانية لم تتوصل إلى شيء مهم في المسائل الجوهرية للصراع العربي "الإسرائيلي" مما دفع الوفد المصري للانسحاب من المفاوضات (٢٦).

وهكذا لم يبق أمام السادات للخروج من المأزق سوى اللجوء إلى الرئيس الأمريكي كارتر لنجدته، وبالفعل وجهت الدعوة للسادات للاجتماع بكارتر في "كامب ديفيد"، وفي أوائل شباط ١٩٧٨ التقى الرئيس كارتر بالسادات وبدأا اجتماعهما بلقاء ثنائي وكان ذلك تقليداً طارئاً جرى استحداثه في تلك الظروف لإخفاء تفاصيل المفاوضات عن الوفد المصري وعن الرأي العام المصري والعربي، بعد ذلك أمضى السادات ثلاثة أيام كرسها للالتقاء بزعماء اليهود والحركة الصهيونية في الولايات المتحدة على أمل أن يقوم هؤلاء بالضغط على بيغن لتليين مواقفه من السلام، ولكن عندما زارت هذه الشخصيات "إسرائيل" لاستطلاع موقفها في ضوء مبادرة السادات السلمية، لم يجد بيغن أية صعوبة في عرض موقف حكومته وإقناعهم بوجهة نظره المتضمنة النقاط الآتية (٢٧).

١- إن السادات جاء إلى القدس وهو يعرف ما هو برنامج حكومة "إسرائيل"، وهو يعرف ما يمكن أن يحصل عليه بالحد الأقصى.

٢- إنه يريد - أي بيغن - أن يوضح للسادات تماماً أن الاتفاق معه، لن يكون إلا اتفاقاً مصرياً "إسرائيليا " - حلاً منفرداً.

٣- إن السادات بعد زيارته إلى القدس هو الذي سيكون في عجله من أمره وليس نحن - حسب تعبير بيغن - وإنه بهذه المبادرة فتح الطريق أمام اتفاق مصري "إسرائيلي" ولن يكن له أي حق تجاوز ذلك. كما بُين بيغن أن الرئيس الأمريكي هو الذي أيضاً سيكون في عجلة من أمره، وإن موقف "إسرائيل" لن يتأثر بجدول أعمال الرئيس الأمريكي الانتخابي لأن مستقبل أرض "إسرائيل" ليس بنداً مطروحاً في الانتخابات الأمريكية، إنما هو أمر يتقرر هنا حسب تعبيره (٢٨). في ظل هذه الظروف عرضت فكرة اجتماع الأطراف الثلاثة - مصر و"إسرائيل" والولايات المتحدة- على مستوى القمة في "كامب ديفيد"، من قبل نائب الرئيس الأمريكي (والتر منديل) الذي كان وقتئذ في زيارة للقاهرة وبالطبع رحَّب السادات بالفكرة، واعتبرها فرصة أخرى - كالغريق الذي يتعلق بقشة - لمتابعة مسيرة التفاوض التي بدأها مع "الإسرائيليين".

وهكذا التقت في "كامب ديفيد" وفود كل من مصر و"إسرائيل" والولايات المتحدة، وبدأت المحادثات في الخامس من أيلول ١٩٧٨، وبعد اثني عشر يوماً من المحادثات توصل المجتمعون إلى اتفاقات تم التوقيع عليها من قبل الرؤساء الثلاثة: السادات وبيغن وكارتر. وقد عرفت باتفاقات "كامب ديفيد"، ونظمت على وثيقتين: الأولى جاءت تحت عنوان: " إطار العمل للسلام في الشرق الأوسط " وقد تضمنت أسساً ومبادئ ارتأتها الأطراف المتفاوضة لحل الصراع العربي "الإسرائيلي". والسؤال الذي يبرز هنا: لماذا كان "الإسرائيليون" حريصين على طرح الموضوع الفلسطيني بالذات

في إطار العمل؟ ولماذا تم التوقيع على اتفاق تكميلي حول "الحكم الذاتي"، وألحق بمعاهدة السلام المصرية – "الإسرائيلية" رغم عدم مشاركة الفلسطينيين في هذا الاتفاق؟ الجواب بكل بساطة هو أن "الإسرائيليين" أرادوا تثبيت عدة نقاط في مصلحتهم أهمها:

١- أن الضفة الغربية هي أرض "إسرائيلية" والفلسطينيون هم عرب "إسرائيل".

٢- لا يمكن للفلسطينيين ممارسة سلطة على الأراضي الفلسطينية أكثر من إدارة ذاتية لشؤونهم أما الأمن والسيادة فهما "لإسرائيل" فقط.

٣- لا لحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني ولا للدولة الفلسطينية.

أما الوثيقة الثانية فكان عنوانها: " إطار العمل من أجل عقد معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل "، ولدى مراجعة وتدقيق هذه الوثيقة، يلاحظ أنها كانت أكثر وضوحاً وتحديداً من الوثيقة الأولى، وقد أشارت الوثيقة إلى أن مصر و"إسرائيل" توافقا من أجل تحقيق السلام بينهما على التفاوض بحسن نية وبهدف توقيع معاهدة سلام بينهما في غضون ثلاثة شهور من توقيع هذا الإطار. وبالفعل جرى التفاوض بين الوفود الثلاثة وتم التوقيع على المعاهدة في كامب ديفيد خلال الفترة المحددة.

خلاصة: إن هذا الإطار الذي وقعه الرؤساء الثلاثة بالنيابة عن العرب عامة والفلسطينيين خاصة كان في مصلحة الإسرائيليين الأمر الذي أكدته ردود الفعل الإسرائيلية في أعقاب التوقيع على الوثائق، فالمدقق في تصريحات المسؤولين الإسرائيليين يلاحظ مباركتهم وتأييدهم لهذه الاتفاقات (٢٩).

ثانياً – معاهدة السلام المصرية – "الإسرائيلية" عام ١٩٧٩:

حررت هذه المعاهدة في واشنطن في ٢٦ آذار ١٩٧٩، ووقع عليها كل من الرئيس أنور السادات عن حكومة مصر العربية ومناحم بيغن عن حكومة "إسرائيل" والشاهد

جيمي كارتر رئيس الولايات المتحدة الأمريكية. وقد احتوت المعاهدة على ديباجة أشارت إلى اقتناع كل من الطرفين مصر و"إسرائيل" بالضرورة الماسة لإقامة سلام عادل ودائم وشامل في"الشرق الأوسط "وفقاً لقراري مجلس الأمن رقم / ٢٤٢ / و / ٣٣٨ / والتزامهما بإطار العمل للسلام في "الشرق الأوسط" المتفق عليه في كامب ديفيد (الوثيقة الأولى والثانية لعام ١٩٧٨) الذي اعتمد أن يكون أساساً للسلام. كما دعت المعاهدة الأطراف الأخرى في الصراع للاشتراك في عملية السلام.

اشتملت المعاهدة على تسعة مواد وألحق بها بعض الوثائق الأخرى وهي:

١ - محضر متفق عليه لتفسير المواد من / ١ - ٦ / من المعاهدة.

٢ - خطاب من رئيس الولايات المتحدة الأمريكي لرئيس الوزراء بشأن تنفيذ المعاهدة.

٣ - خطابات متبادلة بين الرئيس الأمريكي ورئيس الوزراء "الإسرائيلي" بشأن تبادل السفراء بين مصر ودولة "إسرائيل" أما الملاحق فقد كانت ثلاثة: **الأول:** بروتوكول خاص بالانسحاب "الإسرائيلي" من سيناء ويحتوي على تسعة مواد وألحق به ملحق رقم (١) خاص بتنظيم الانسحاب وثلاث خرائط تتعلق بمراحل الانسحاب والحدود.

والثاني: يتضمن خريطة الحدود الدولية بين مصر و"إسرائيل"، أما **الثالث:** فهو البروتوكول المتعلق بالعلاقات بين الطرفين ويحتوي على ثمانية مواد.

إلى جانب ذلك أدرج مع المعاهدة الاتفاق التكميلي الخاص " بالحكم الذاتي الكامل " في الضفة الغربية وغزة الموقع عليه أيضاً في ٢٦ آذار ١٩٧٩، وجاء على شكل رسالة موجهة إلى الرئيس كارتر من الرئيسين أنور السادات ومناحيم بيغن للتأكيد على اشتراك الولايات المتحدة اشتراكاً كاملاً في كافة مراحل المفاوضات في المستقبل ولنا وقفة تحليلية عند هذه المعاهدة.

تعرضنا للمعاهدة من حيث المحتوى أما من حيث التحليل فإننا سنتوقف عند الجوانب السياسية لمواد المعاهدة وملاحقها الأمر الذي تقتضيه خطة البحث وهدفه. أما الجوانب القانونية والعسكرية فيمكن التطرق إليها في حال الضرورة، بالإضافة إلى ذلك نرى من الأهمية بمكان التوقف على الضمانات الأمريكية المقطوعة "لإسرائيل" في مذكرة التفاهم التي قابلتها الحكومة المصرية بالرفض والاستنكار لأنها جاءت تلبية للمصالح "الإسرائيلية" بالمطلق ولا تتناقض مع العلاقات المصرية الأمريكية وحسب بل مع السيادة الوطنية المصرية. حقيقة أن معاهدة السلام المصرية – "الإسرائيلية" تطرقت لقضايا عدة ومسائل تهم الجانب المصري و"الإسرائيلي" إلا أنه ما يهمنا بالدرجة الأولى المسائل ذات الطابع السياسي التي ستحدد مستقبل العلاقات بين مصر و"إسرائيل" وانعكاساتها على علاقات مصر بالوطن العربي ونتائج ذلك على الصراع العربي "الإسرائيلي" وعملية السلام التي زعمت الأطراف انطلاقتها في المنطقة.

وفي بحثنا لهذه المسائل ذات الطابع السياسي نبدأ بما يخص إنهاء حالة الحرب بين الطرفين المصري و"الإسرائيلي":

١- إنهاء حالة الحرب بين الطرفين:

نصت المادة الأولى من المعاهدة على العبارة الآتية: " تنتهي حالة الحرب بين الطرفين ويُقام السلام بينهما عند تبادل وثائق التصديق على المعاهدة "، وما أن تم تبادل هذه الوثائق في أيار ١٩٧٩ فإن حالة الحرب بينهما قد انتهت رسمياً وعملياً وترتب عليها العديد من الآثار في الفقه القانوني الدولي أهمها ما يلي (٣٠):

أ- أن جميع التصرفات التي كان يبررها قانون الحرب تعتبر غير مشروعة فلا يجوز احتلال الأراضي أو الاستيلاء عليها بشكل ما أو أسر سفن وغيرها وإذا ما تجاهلت قوات أحد الطرفين هذه الأمور فإن ما أخذ يجب أن يُرد ويجب دفع التعويضات في حال التسبب بخسائر.

ب- إنهاء الآثار المترتبة على قيام حالة الحرب كقطع علاقات دبلوماسية أو إنهاء عمل معاهدات أو قطعها والتخلي عن الأقاليم المحتلة وتبادل الأسرى وغيرها.

وبما أن "إسرائيل" لم تكن موجودة على الخارطة السياسية في المشرق العربي عند إعلان مصر والدول العربية الحرب عليها حين قيامها عام ١٩٤٨، لذلك عنيت المعاهدة عناية فائقة بالاعتراف "بإسرائيل" وبتقرير حقوق الدولة لها لذلك فقد ضمت المادة الثالثة من الاتفاقية فقرة تبين الآثار المترتبة على إنهاء حالة الحرب بين مصر و"إسرائيل" فجاءت تنص على الأمور الآتية:

يطبق الطرفان فيما بينهما أحكام ميثاق الأمم المتحدة ومبادئ القانون الدولي التي تحكم العلاقات بين الدول وقت السلم وبخاصة (٣١):

أ- إقرار الطرفين في أن يحترم كل منهما حق الآخر بالسيادة والاستقلال وأن يعيش بسلام داخل حدود آمنة ومعترف بها.

ب- يتعهد الطرفان بالامتناع عن التهديد باستخدام القوة على نحو مباشر أو غير مباشر وبحل كافة المنازعات بالوسائل والطرق السليمة.

أما الفقرة الأخرى من هذه المادة فقد عنيت بمواجهة حركات الانتفاضة الشعبية من الجماعات الفلسطينية أو غيرها التي توجه ضد "إسرائيل" ووضعت على مصر بالذات التزاماً يعتبر نتيجة طبيعية لإنهاء الحرب فنصت الفقرة على أن:

"يتعهد كل طرف بأن يكفل عدم صدور فعل من أفعال الحرب أو الأعمال العدوانية أو أفعال العنف أو التهديد بها من داخل أراضيه أو بواسطة قوات خاصة خاضعة لسيطرته أو مرابطة على أراضيه ضد السكان أو المواطنين أو الممتلكات الخاصة بالطرف الآخر. كما يتعهد كل طرف بالامتناع عن التنظيم أو التحريض أو الإثارة أو المساعدة أو الاشتراك في فعل من أفعال الحرب العدوانية أو النشاط الهدام أو

أفعال العنف الموجهة ضد الطرف الآخر في أي مكان، كما يتعهد بأن يكفل تقديم مرتكبي هذه الأفعال للمحاكمة ".

نستنتج مما ورد سابقاً أن هذه النصوص لم يعد الهدف منها هو إنهاء حالة الحرب بين الدولتين وحسب، بل أدخلت مصر في تحالف مع "إسرائيل" لوضع حد لجميع الأعمال المعادية للأخيرة مهما كان نوعها أو مستواها في الوقت الذي لم تُنجز فيه بعد معاهدات أخرى مع البلدان العربية تضمن السلام العادل والشامل بين العرب و"إسرائيل". وهكذا نرى أن هذه الفقرات جاءت لمصلحة "إسرائيل" ومتناقضة مع المصلحة الوطنية والقومية لمصر من حيث الشكل والمضمون.

٢- قيام علاقات طبيعية بين الطرفين:

أكدت وثيقتا كامب ديفيد على ضرورة تجاوز العلاقات العربية "الإسرائيلية" مرحلة السلم السلبي إلى السلم الإيجابي الذي يستند إلى قيام تعاون وثيق في مختلف المجالات بين العرب و"إسرائيل". وجاءت معاهدة الصلح لتوضح بشكل مفصل وأدق العلاقات الطبيعية وجوهرها بين مصر و"إسرائيل". فقد أوردت الفقرة الثالثة من المادة(٣) في المعاهدة الحكم الأساسي بهذا الصدد عندما ذكرت أنه "يتفق الطرفان على أن العلاقات الطبيعية التي ستقام بينهما ستتضمن الاعتراف الكامل والعلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والثقافية وإنهاء المقاطعة الاقتصادية والحواجز المتميزة المفروضة ضد حرية الأفراد وانتقالهم وتبادل السلع". كما يتعهد كل طرف بأن يكفل تمتع مواطني الطرف الآخر الخاضعين للاختصاص القضائي بكافة الضمانات القانونية. ويوضح البروتوكول الملحق بهذه المعاهدة (الملحق الثالث) الطريقة التي يتعهد الطرفان بمقتضاها التوصل إلى إقامة هذه العلاقات وذلك بالتوازي مع تنفيذ الأحكام الأخرى لهذه المعاهدة." أما الأحكام الأخرى التي ترتبط بها إقامة العلاقات هي الانسحاب المرحلي الذي سيتم على فترات تمتد نحو تسعة شهور من تاريخ تبادل

وثائق التصديق على المعاهدة. فالمادة الأولى من البروتوكول تقول: "يتفق الطرفان على إقامة علاقات دبلوماسية وقنصلية وتبادل السفراء عقب الانسحاب المرحلي".

أما العلاقات الاقتصادية والتجارية فقد أوردتها المادة الثالثة من البروتوكول وهي تضع على الطرفين التزامين هما (٣٢):

الأول: يتصل بإزالة جميع الحواجز ذات الطابع التمييزي القائمة في وجه العلاقات الاقتصادية العادية وإنهاء المقاطعة الاقتصادية لأي منهما عقب إتمام الانسحاب المرحلي. **أما الثاني:** فيأتي في موعد لا يتجاوز ستة أشهر من إتمام الانسحاب المرحلي ويتضمن الدخول في مفاوضات لعقد اتفاق تجاري يستهدف إعادة العلاقات الاقتصادية ذات النفع المتبادل بينهما. وقد جاء بالمحضر المتفق عليه لتفسير بعض المواد والملاحق أن الطرفين قد اتفقا على أن العلاقات الاقتصادية سوف تشمل مبيعات تجارية عادية من البترول من مصر إلى "إسرائيل" وأن يكون من حق هذه الأخيرة الكامل التقدم بعطاءات لشراء البترول المصري الأصل، وأن تنظر مصر والشركات التي لها حق استثمار بترولها في العطاءات المقدمة من "إســـــرائيل" على نفس الأسس والشروط المطبقة على مقدمي العطاءات الآخرين لشراء البترول.

وأشارت المادة الثالثة أيضاً إلى إقامة العلاقات الثقافية. وعقد اتفاق ثقافي في موعد لا يتجاوز ستة أشهر بعد إتمام الانسحاب المرحلي. وجاء النص في المادة الرابعة من البرتوكول على حرية التنقل للمواطنين والسيارات وحرية دخول الأماكن ذات القيمة الدينية والتاريخية. أما المادة السادسة منه فكانت أحكامها حول النقل بمختلف أنواعه، فقد اتفق الطرفان على دخول مفاوضات في موعد لا يتجاوز ستة شهور حول طرق المواصلات البرية والحديدية والمقصود هنا سكة حديد الحجاز. كما اُتفق على إقامة طريق بري يربط مصر و"إسرائيل" والأردن بالقرب من إيلات، ولم ينس البروتوكول جميع وسائل الاتصالات الأخرى من تلفون وبريد ولا سلكي وراديو ونقل تلفزيوني

وغيره. وبإتمام الانسحاب المرحلي سيسمح كل طرف بالدخول غير الممنوع عادة إلى موانئه لسفن وبضائع الطرف الآخر وكذلك للسفن والبضائع المتجهة إلى الطرف الآخر أو القادمة منه بنفس الشروط المطبقة، وقد حرص البروتوكول على السماح بالمرور في قناة السويس عقب تبادل وثائق التصديق على المعاهدة وليس بعد إتمام الانسحاب المرحلي (٣٣).

واضح مما سبق أن مصر اكتفت لتطبيع العلاقات المختلفة مع "إسرائيل" بالانسحاب المرحلي الذي سيشمل جزءاً من سيناء فقط وهو: خط العريش – رأس محمد، علماً أن الانسحاب النهائي من سيناء إلى ما وراء الحدود الدولية سوف يتأخر إلى ثلاث سنوات. وكان من الأفضل لمصر أن يسير التطبيع بالتوازي مع المراحل المختلفة للانسحاب حتى تنتظر "إسرائيل" مقابلاً مستمراً لمراحل انسحابها بدلاً من أن تعطي مصر كل شيء بعد تسعة أشهر ولا يبقى لديها بعد ذلك ما تعطيه "لإسرائيل"، هذا جانب، من جانب آخر عبرت النصوص عن ضرورة قيام العلاقات الطبيعية واتخاذها شكل اتفاقات ثنائية وهذه مسألة غير مألوفة في النظام الدولي والعلاقات الدولية، وقد تفسر على أنها تعني الالتزام من جانب مصر، الأمر الذي يجعلها تنطوي على حق قد لا يسمح به السير العادي للأمور أو العلاقات التي ظلت محكومة بعداء شديد بين الطرفين لفترة طويلة.

٣ – الانسحاب من سيناء:

توجد فقرة في ديباجية إطار العمل للسلام في "الشرق الأوسط" تنص على ما يلي:

"إن الأطراف مصممة على التوصل إلى تسوية عادلة وشاملة ومعمرة لصراع "الشرق الأوسط" عن طريق عقد معاهدات سلام تقوم على قراري مجلس الأمن /٢٤٢/ و/٣٣٨/ بكل فقراتهما، والتأكيد على البند الأول في القرار /٢٤٢/ المتضمن مبدأ الانسحاب من الأراضي التي احتلت في النزاع الأخير" أي عدوان ١٩٦٧. وبالإضافة

إلى أن وثائق "كامب ديفيد" تناولت جميع المبادئ الأخرى التي تتضمنها معاهدات السلام، كالاعتراف بدولة "إسرائيل" وإلغاء جميع أشكال مقاطعتها والسماح بالعبور أو المرور البريء*** وغيره من قناة السويس ومضائق تيران، إلا أن من المآخذ التي وجهت لاتفاقيتي كامب ديفيد هي خلوها من نص صريح يقول بالانسحاب الكامل والشامل من جميع الأراضي العربية المحتلة، أو أن تشترط مصر في المعاهدة مسألة التطبيع بالانسحاب الكامل والشامل من جميع الأراضي العربية التي احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧ وليس الانسحاب من سيناء فقط.

وأما ما يتصل بالعلاقات المصرية "الإسرائيلية" نجد أن إطار العمل للسلام وكذلك المعاهدة قد أخذت بالانسحاب الكامل من سيناء. ففي إطار العمل لعقد معاهدة سلام بين مصر و"إسرائيل"، اتفق الطرفان ممارسة مصر لسيادتها الكاملة على المنطقة التي تمتد إلى الحدود المعترف بها دولياً بين مصر وفلسطين تحت الانتداب. وانسحاب القوات "الإسرائيلية" من سيناء تنفيذاً للمادة الأولى من معاهدة الصلح التي تقول: " تسحب "إسرائيل" كافة قواتها والمدنيين من سيناء إلى ما وراء الحدود الدولية، وكما ورد في البروتوكول الملحق بالمعاهدة أنه تستأنف مصر سيادتها الكاملة على سيناء، وأكدت نفس المعنى المادة الثانية بالمعاهدة. وقد تضمن المحضر المتفق عليه نصاً في الفقرة الثانية من المادة الأولى يقــول: باستئناف مصر لممارسة السيادة الكاملة لكل منطقة بمجرد انسحاب "إسرائيل" منها، ويبدو المقصود هنا هو وقف ممارسة السيادة بالنسبة للأجزاء التي لم يتم الانسحاب منها بعد فالاستفادة من البترول مثلاً من سيناء لا يتم إلا بعد انسحاب "إسرائيل" من تلك المنطقة المتواجدة فيها(٣٤).. ونظراً لتقييد مصر لسيادتها على سيناء بالنواحي العسكرية نرى أن الوثائق قسمت سيناء إلى عدد من مناطق مختلفة اختلفت كل منطقة فيها بالتواجد العسكري. أما ما يجمع بين هذه المناطق فهو أنها محدودة السلاح والقوات، فضلاً عن وجود منطقة عازلة وترتيبات أمن خاصة بالجانب المصري (٣٥).

وفي البروتوكول الخاص بالانسحاب تضمنت المادة الأولى أسس الانسحاب، فقررت أن " تقوم "إسرائيل" بإتمام سحب كافة قواتها من سيناء في موعد لا يتجاوز ثلاث سنوات من تاريخ تبادل وثائق التصديق على المعاهدة، ويتم الانسحاب على مرحلتين:

الأولى: انسحاب مرحلي حتى شرق خط العريش – رأس محمد – وذلك خلال تسعة أشهر من تاريخ تبادل الوثائق. **والثانية**: انسحاب نهائي إلى ما وراء الحدود الدولية في مدة لا تتجاوز ثلاث سنوات من تاريخ تبادل وثائق المعاهدة. هذا وقد تم تشكيل لجنة مصرية "إسرائيلية" مشتركة مهمتها وضع الخطة والجداول الزمنية وتحل تلقائياً عقب إتمام الانسحاب النهائي والشامل والكامل من سيناء.

والحقيقة أن انسحاب القوات "الإسرائيلية" بالكامل كما ورد في نصوص المعاهدة لا يعني بالضرورة ممارسة مصر لسيادتها كاملة وغير منقوصة على سيناء، إذ أن مصر وكما تشير وأشارت الوقائع لم تمارس حتى اليوم سيادة كاملة من النواحي العسكرية في سيناء.

وأما ما يتعلق بالحدود بين مصر و"إسرائيل" فهي الحدود الدولية المعترف بها، وكما هو موضح في الخارطة – الملحق الثاني في المعاهدة، هنا رغم أن هذه الحدود قد وصُفت في أطار الحدود بين مصر و"إسرائيل" فقط إلا أن مصر كانت حريصة بتحفظها وبحيث لا ينص أو يفسر مثل هذا النص وضع قطاع غزة (٣٥).

٤ـ الضمانات الأمنية:

تتعلق هذه الضمانات من جهة بتواجد قوات للأمم المتحدة في المنطقة العازلة بين الطرفين، كما تتصل من جهة أخرى بضمانات تتحملها الولايات المتحدة الأمريكية لضمان تنفيذ الاتفاقية ومحاسبة من يخل بأحكامها، ولنا وقفة للتعرف على كل من هذه الضمانات.

أ- قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام:

ذكر ملحق المعاهدة رقم (١) (البروتوكول الخاص بالانسحاب من سيناء) أن الطرفين يطلبان من الأمم المتحدة توافر قوات تابعة لها وهي على نوعين: الأول لحفظ السلام والثاني للإشراف على تنفيذ بنود الملحق في هذا البروتوكول، أي أن هذه القوات تقوم ببذل كل الجهود لمنع أي خرق لأحكام البروتوكول، وبالتالي عليها القيام بمهام مراقبة وحفظ السلام وضمان حرية المرور في مضيق تيران وقناة السويس وفقاً للمادة الخامسة من المعاهدة التي أقرت للسفن "الإسرائيلية" بالمرور الحر في قناة السويس ومداخلها، كما جعلت من مضيق تيران وخليج العقبة ممرات دولية مائية مفتوحة دون عائق لجميع الدول. ومن المهام أيضاً التحقق من تنفيذ الانسحاب للقوات "الإسرائيلية" والترتيبات في سيناء بعد تنفيذ الانسحاب المرحلي والنهائي وكذلك الإشراف على نزع السلاح وتحديده في مناطق سيناء وتسيير دوريات لإبلاغ الأطراف المعنية بالخروقات أو التحقيق فيها (٣٦).

وأهم ما يلفت النظر في الوضع القانوني لهذه القوات، ما نصت عليه المادة الرابعة من النظام المقرر لهذه القوات وهو: " لا يجوز للأطراف سحب هذه القوات إلا بموافقة مجلس الأمن بما في ذلك التصويت الإيجابي للأعضاء الخمسة الدائمين في المجلس "، ويلاحظ أن هذا النص يقرب قوات السلام إلى قوات الردع حيث يجعلها النظام مفروضة على الأطراف وبخاصة الطرف المصري (٣٧).

ب- الضمانات الأمريكية:

ظل الموقف "الإسرائيلي" منذ بداية المفاوضات في "كامب ديفيد" وحتى نهايتها متمسكاً بأهمية وضرورة أن تضع الولايات المتحدة الأمريكية كل ثقلها إلى جانب "إسرائيل" من أجل ضمان أمنها وسلامة أراضيها. بل إن تصريحات المسؤولين "الإسرائيليين" كانت تعكس على الدوام الحاجة الملحة إلى الضمانات الأمريكية لكل ما خط في

الاتفاقات من التزامات على الجانب المصري، فضلاً عن هوسها بالحدود الآمنة مع الدول العربية. ومما لا شك فيه أن "إسرائيل" منذ تاريخ وجودها في المشرق العربي كانت تلجأ باستمرار إلى قوى كبرى للحصول منها على دعم سياسي ومعنوي وتأمين حجم أكبر من المساعدات.

من هنا لم تكتف "إسرائيل" بموجب معاهدة السلام لا بقوات الأمم المتحدة وقوامها الأمريكي ولا بتحديد القوات المصرية وحجم تسليحها ونزع السلاح من جزء كبير من سيناء المتاخم لحدودها، بل أكدت على أهمية ارتباطها بالولايات المتحدة التي تمدها بشتى أنواع الدعم والمساعدة من أبسط وسائل العيش إلى أقوى وأخطر وأحدث أنواع الأسلحة، وضرورة قيامها بحضانة وحماية الالتزامات المصرية واتخاذ جميع التدابير اللازمة لذلك. إلى جانب ذلك العمل على حمل دول العالم للاعتراف بالمعاهدة واتباع سياسة دولية تكون في خدمة المصالح "الإسرائيلية".

ولمعرفة طبيعة الضمانات الأمريكية وأهدافها يمكن تقسيمها إلى نوعين: الأول ورد في صلب اتفاقات الصلح المصرية "الإسرائيلية"، أما الثاني فقد نصت عليه " مذكرة التفاهم " التي تم توقيعها بين الولايات المتحدة و"إسرائيل" مباشرة بعد التوقيع على المعاهدة. بالنسبة للنوع **الأول**، أولى الضمانات التي اضطلعت بها الولايات المتحدة هو اشتراكها المباشر في المفاوضات، وقيامها بالتوقيع كشاهد على جميع الوثائق التي أُبرمت بين مصر و"إسرائيل"، ولم يقتصر دورها عند هذه الحدود بل جاء على شكل التزامات واضحة وصريحة تلتزم بها الولايات المتحدة عليها في الخطابين اللذين وجههما الرئيس الأمريكي كارتر إلى كل من السادات وبيغن، ولم يعترض عليهما أحد، ومما لا شك فيه أن هذه الضمانات لها نفس القوة التي تتمتع بها معاهدة السلام وملحقاتها. ومنها،على سبيل المثال لا الحصر، اتخاذ الولايات المتحدة التدابير التي تراها مناسبة لضمان تحقيق الالتزام بالمعاهدة، والقيام بأعمال الاستطلاع الجوي بناء على طلب أحد الأطراف – الطرف "الإسرائيلي" – وحلول الولايات المتحدة محل

مجلس الأمن بتشكيل قوة تقوم بمهام قوات الأمم المتحدة في حال تعذر وصول مجلس الأمن إلى قرار بهذا الخصوص (٣٨).

أما النوع **الثاني** من الضمانات فقد نصت عليه مذكرة التفاهم بين حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ودولة "إسرائيل"، التي أضافت إلى الإجراءات السابقة إجراءات أخرى، هدفها تدعيم أمن وموقع "إسرائيل" في "الشرق الأوسط". وفي مقدمة هذه الإجراءات تقديم الولايات المتحدة التأييد اللازم والمناسب "لإسرائيل" عندما ترى هذه الأخيرة أن مصر قامت بخرق المعاهدة وذلك بفرض حصار عليها أو منعها من استخدام الممرات المائية الدولية أو هددت أمنها. ومما لا شك فيه أن إسراع الولايات المتحدة في تأييد "إسرائيل" سياسياً وعسكرياً والوقوف إلى جانبها بمجرد ادعائها بخرق المعاهدة الأمر الذي لا يثير القلق في مصر وحسب بل في جميع البلدان العربية مما يهدد الأمن والسلام الدوليين(٣٩).

لقد ورد في المذكرة فقرة محددة بصدد حقوق الملاحة والمرور الجوي فوق مضائق تيران وخليج العقبة، وهذه الفقرة لا يقصد بها مصر فقط بل البلدان العربية الأخرى التي لم تقر بعد بأن خليج العقبة خليج دولي تتمتع فيه "إسرائيل" بحق الملاحة والعبور الجوي. من هنا أن هذه الضمانات لا تمس سيادة مصر الوطنية وحسب بل سيادة الدول العربية المجاورة الأردن والسعودية. مسألة أخرى، وهي أن الولايات المتحدة، سوف تعارض أو تصوت إذا استلزم الأمر ضد أي إجراء أو قرار يتخذ في الأمم المتحدة أو مجلس الأمن يمكن أن يكون له من وجهة نظرها آثار سلبية على معاهدة السلام المصرية "الإسرائيلية"، فضلاً عن أن هذا التفاهم تضمن الإشارة للبترول كأهمية حيوية خاصة بالنسبة لاحتياجات "إسرائيل" منه(٤٠).

إن الولايات المتحدة بتأكيدها على هذه الضمانات والالتزامات بلا ريب أساءت إلى علاقاتها مع مصر، فبدلاً أن تقف من البلدين على مسافة واحدة أكدت وبما لا يدع

مجالاً للشك الانحياز المطلق إلى جانب "إسرائيل"، مما دفع برئيس وزراء مصر وقتئذ مصطفى خليل توجيه خطابين إلى وزير الخارجية الأمريكية أدان فيهما ما جاء في مذكرة التفاهم، واعتبرها باطلة وغير شرعية ولا يترتب عليها أي آثار بالنسبة لمصر وهي غير ملزمة بها، والحقيقة أن موقف مصر هذا يتفق مع القانون الدولي بعدم الالتزام بأي تعهدات لم تكن مصر طرفاً فيها (٤١).

مما سبق نستنتج أن هذه الضمانات التي وضعتها الولايات المتحدة الأمريكية لتنفيذ المعاهدة انطلقت بالأساس من المصالح "الإسرائيلية" فقط وإن ما جرى هو إخضاع جوانب معينة من العلاقات المصرية الأمريكية إلى عوامل خارجة عن نطاق هذه العلاقات وإرجاعها لطرف ثالث هو "إسرائيل".

٥ – مشروعية المعاهدة:

إن البحث في مشروعية المعاهدة يتطلب الإجابة على نقطتين: **الأولى** تتعلق بمدى توافق النصوص من حيث الشكل والمضمون مع دستور البلاد والنقطة **الثانية** هي تعارض المعاهدة مع القانون الدولي، وسنقف قليلاً عند كل منهما.

أ- مخالفة المعاهدة من حيث الشكل والمضمون للدستور المصري:

نصت المادة /١٥١/ من الدستور المصري على أن: رئيس الجمهورية يبرم المعاهدات، ويبلغها مجلس الشعب مشفوعة بما يناسب من البيان، وتكون لها قوة القانون بعد إبرامها والتصديق عليها ونشرها. على أن معاهدات الصلح والتحالف والتجارة والملاحة أو التي تتعلق بحدود السيادة، أو تحمّل خزانة الدولة شيئاً من النفقات غير الواردة في الموازنة، تجب موافقة مجلس الشعب عليها. معنى ذلك أن المشرع ميَّز بين نوعين من المعاهدات، **الأول:** ويشمل المعاهدات السيادية ومنها معاهدة الصلح، ويشترط المشرع في هذا النوع موافقة مجلس الشعب عليها، **والثاني:**

يندرج فيه المعاهدات غير السيادية، ويخول الدستور رئيس الجمهورية إبرامهـا ثـم إبلاغها مجلس الشعب.

إن تفسير المادة الآنفة الذكر يقول: إن رئيس الجمهورية لا يملك حق إبرام المعاهدات السيادية، وما يملكه فقط هو إجراء المفاوضات والتوصل إلى مـشروع صـياغة ثـم يتعين عليه طرح المشروع على مجلس الشعب في صورة مشروع قانون لمناقـشته، وللمجلس الحق في الموافقة أو التعديل أو الرفض. ولكن الرئيس السادات لـم يلتـزم بأحكام الدستور في شأن معاهدة السلام المصرية "الإسرائيلية". فقـد انفـرد بـإجراء المفاوضات ثم التوقيع على المعاهدة وإبرامها قبل أن يحصل علـى موافقـة مجلـس الشعب، وفي النهاية إن عرض المعاهدة على المجلس لم يكن سوى من باب تحـصيل الحاصل وبطريقة شكلية(٤٢). أي أن رئيس الجمهورية قام بـالتوقـيـع عليها في / ٢٦ / آذار ثم أصدر قراراً جمهورياً برقم (١٥٣) في / ٥ / نيسان من العـام نفـسه بموافقة الرئيس على المعاهدة وذلك قبل عرض المعاهدة على مجلس الشعب. وبهـذا يكون السادات قد خالف الدستور واغتصب حق مجلس الشعب بإصداره قرار الموافقة على المعاهدة قبل إقرارها في مجلس الشعب (٤٣) أما قرار مجلس الشعب بالموافقـة على قرار لجنته المشكلة لهذا الغرض فقد ورد بالصيغة التالية:" واللجنة إذ توافق على قرار رئيس الجمهورية رقم/ ١٥٣/ بشأن الموافقة على المعاهدة وملحقاتها ترجو مـن المجلس الموافقة، وقد وافق المجلس على رأي اللجنة وهذا معناه أن موافقة المجلس لم تنصرف إلى المعاهدة ذاتها كما يستوجب الدستور بـل وافـق علـى قـرار رئـيس الجمهورية بالموافقة على المعاهدة. وتلى ذلك الاستفتاء على المعاهدة خلافاً لما جرت عليه العادة في مثل هذه الحالات، الأمر الذي يثير كثيراً من التساؤلات ومنها:

كيف يوافق الشعب على المعاهدة وعلى حل المجلس الذي وافق عليها في نفس الوقت؟ وهل كان حل المجلس وقتئذ له ضروراته التي ارتآها رئيس الجمهورية ؟ حقيقـة إن

الإجابة لا تحمل سوى معنى واحداً هو أن هذه العملية برمتها كانت مسرحية لجأ إليها السادات لتغطية اختراقه الفاضح للدستور والشرعية في مصر.

أما ما يتعلق بمخالفة المعاهدة للدستور من حيث الموضوع فنرى أن المادة الأولى من الدستور المصري نصت على أن "الشعب المصري جزء من الأمة العربية يعمل على تحقيق وحدتها الشاملة". وبما أن الأمة العربية وقعت في عدة حروب مع"الإسرائيليين" منذ قيام دولتهم عام ١٩٤٨ يرى كثير من القانونيين أن الجزء وهو مصر لا يملك الحق في التصرف عن الكل بعقد أية معاهدة وبالتالي بعقد صلح منفرد مع العدو الصهيوني، الأمر الذي يعد خروجاً على المصلحة القومية العليا للأمة العربية. فضلاً عن أن بعض نصوص المعاهدة لم تخل في مضمونها من تفريط في السيادة الوطنية واختراق خطير لسيادة مصر على أراضيها ومياهها وأجوائها الإقليميين، فالمادتين (٦٨ و٧٩) من الدستور المصري تنص على أن: الدفاع عن الوطن وأرضه واجب مقدس" وتوجب على رئيس الجمهورية أن يقسم على " الحفاظ على استقلال الوطن وسلامة أراضيه، وجاءت المادة (٧٧) عقوبات تقول: " يعاقب بالأشغال الشاقة المؤبدة كل شخص كلف بالمفاوضة مع حكومة أجنبية في شأن من شؤون الدولة فتعمد إجراء المفاوضات في غير مصلحتها. "ولعل استقالة بعض الدبلوماسيين المصريين أثناء التفاوض مع "الإسرائيليين" في كامب ديفيد وبعدها واعتراضهم على التنازلات التي كان الرئيس السادات يقدمها "للإسرائيليين" هي الدليل على الأضرار التي لحقت بمصالح مصر الوطنية والقومية. وإذا سلمنا أن مصر استعادت سيناء من الاحتلال "الإسرائيلي"، لكنها بموجب أحكام المعاهدة عادت منزوعة السلاح ومنقوصة السيادة، ففي حين اتخذت إجراءات أمنية مشددة على الجانب المصري، تشمل نزع سلاح منطقة واسعة من سيناء، وارتداد حدود مصر التي يمكن الدفاع عنها إلى الغرب نحو /١٥٠/ كم بعيداً عن حدود مصر الدولية، لم تتخذ مثل هذه الإجراءات على الجانب "الإسرائيلي" واقتصرت على شريط رمزي لا يتجاوز عرضه /٣/ كم على الحدود

"الإسرائيلية" المصرية، بالإضافة إلى القوات المتعددة الجنسيات التي اقتصر أفرادها على الجنود الأمريكيين المتواجدة في سيناء إلى جانب تحويل المطارات العسكرية المصرية في سيناء إلى مطارات مدنية مع السماح للطائرات "الإسرائيلية" استخدامها.

أما المسألة الأخرى التي تعد من المسائل الخطيرة في اختراق السيادة المصرية فهي ما نصت عليه الفقرة (٢) من المادة الخامسة من المعاهدة باعتبار مضيق تيران وخليج العقبة من الممرات المائية الدولية المفتوحة لجميع الدول دون عائق أو إيقاف لحرية الملاحة أو العبور الجوي: "يحترم الطرفان حق كل منهما في الملاحة والعبور الجوي من وإلى أراضيه عبر مضيق تيران وخليج العقبة".

ولو عدنا إلى حقائق التاريخ والجغرافيا لتأكد لنا أنه لم يكن "لإسرائيل" وجود على خليج العقبة حتى إخلاء القوات الأردنية منطقة " بير قطار " وبلدة "أم رشراش" واحتلالهما من قبل القوات "الإسرائيلية" في آذار١٩٤٩ وذلك قبل التوقيع على اتفاقية الهدنة "الإسرائيلية" الأردنية في نيسان١٩٤٩، ومنذ ذلك التاريخ حتى إبرام معاهدة السلام كانت الحكومة المصرية تصر على أن خليج العقبة خليج داخلي ومياهه إقليمية مغلقة تخضع للسيادة المصرية والسعودية والأردنية وإن وجود "إسرائيل" في إيلات هو وجود واقعي عسكري لا يبرر قانوناً ادعاءها باستخدام الخليج طالما كانت "إسرائيل" في حالة حرب مع الدول المتشاطئة في الخليج. وإن مضيق تيران هو جزء من المياه الإقليمية لمصر ولا يمكن اعتباره مضيقاً دولياً لأنه لا يصل بين بحرين عامين أولاً، ولم يسبق أن جرى التعامل على استخدامه للملاحة الدولية ثانياً(٤٤). وعليه فمصر طبقت الإجراءات الكفيلة بإخضاع المرور في الخليج لسلطتها ولم تتمكن "إسرائيل" من كف مصر عن هذه السلطة وفشلت في استصدار قرار من الأمم المتحدة عام١٩٥٤ بمنحها حق الملاحة في الخليج، ولم تجد سبيلاً إلى ذلك إلا باستخدام القوة في العدوان الثلاثي على مصر عام١٩٥٦، حيث وافقت مصر على مرابطة قوات دولية لضمان حرية المرور في خليج العقبة بعد أن أعيد

فتح مضيق تيران لسفن جميع الدول بما فيها "إسرائيل" إلا أن مصر أعادت سيطرتها على الخليج بعد أن طلبت من القوات الدولية الانسحاب في أيار١٩٦٧، وأغلقت مضيق تيران في وجه السفن "الإسرائيلية". ولكن ما أن اندلعت حرب حزيران حتى احتلت "إسرائيل" الساحل الغربي من المضيق والخليج وكذلك شبه جزيرة سيناء، وفرضت سيطرتها بالقوة على الملاحة في المياه الإقليمية المصرية المحاذية لساحل شبه الجزيرة، وقد تغيّر الحال بعد إبرام معاهدة السلام المصرية "الإسرائيلية" من احتلال فعلي غير قانوني للسواحل المصرية المطلة على الخليج إلى اعتراف قانوني بحق "إسرائيل" باستخدام المياه الإقليمية لمرور السفن المتجهة إلى إيلات تنفيذاً للمادة(٥) من الفقرة الثانية من معاهدة السلام.

حقيقة، إن هذه المادة من المعاهدات قدمت "لإسرائيل" أكثر مما كانت تطمح إليه، فاتفاقية جنيف لعام ١٩٥٨ حول البحار الإقليمية والمنطقة الملاصقة، المادة / ١٦ / الفقرة الرابعة، ألزمت الدول الموقعة عليها بعدم إيقاف المرور البريء*** للسفن الأجنبية عبر المضائق التي تستخدم للملاحة الدولية، بينما بقي العبور عبر البحر الداخلي خاضعاً للمرور البريء الذي يمكن إيقافه إذا تعارض مع أمن الدولة وسيادتها وسلامتها. وهكذا فإن معاهدة السلام لم تكتف بما جاء باتفاقية جنيف المذكورة، بل اعتبرت مضيق تيران وخليج العقبة من الممرات الدولية المفتوحة لجميع الدول وسلبت منها صفة المياه الإقليمية التي أكدها الواقع التاريخي والجغرافي والقانوني، ومنحت فيها حرية الملاحة "لإسرائيل" من بين الدول الأخرى دون عائق أو إيقاف لهذه الحركة قياساً على البحار الحرة، وبذلك تنازلت مصر عن حقها المضمون في القانون الدولي في السيطرة على مياهها الإقليمية. وهذا باختصار مفاده أن جميع المحظورات التي أقرها القانون الدولي العام لحماية أمن وسلامة الدول الساحلية في مياهها الإقليمية في ظل مفهوم "المرور البريء" قد أباحتها المادة الخامسة من معاهدة السلام المصرية "الإسرائيلية" في ظل مفهوم حرية الملاحة في مضيق تيران وخليج العقبة(٤٥).

إلى جانب ذلك منحت معاهدة السلام "إسرائيل" حق العبور الجوي، مع العلم أنه لا يوجد في القانون الدولي اليوم ما يضمن للدول حق المرور الجوي البريء فوق المياه الإقليمية للدول الأجنبية دون موافقة الدولة المعينة، فكيف إذا كان هذا المرور غير برئ. ولكن الطرف المصري منح "إسرائيل" حقوقاً في مياهه الإقليمية وأجوائه الفضائية في خليج العقبة ومضيق تيران وحرية مطلقة وغير مقيدة بأية قيود وضعها القانون الدولي لحماية الدول الساحلية. وتأكيداً لذلك تجاهلت المعاهدة إلزام السفن المارة والطائرات بأية واجبات ولم تحدد حقوق وسلطات مصر عليها باعتبارها الدولة الساحلية، حتى أنها لم تتطرق لإلزام الغواصات على سبيل المثال بالعوم فوق سطح البحر حين مرورها في المياه الإقليمية المصرية، كما تفرض قواعد القانون الدولي في حال المرور البريء. هذا وقد تأكدت نية الجانب المصري في منح "إسرائيل" أكثر مما يتضمنه المرور البريء من حقوق في خليج العقبة ومضيق تيران، حين التزم بالمادة الثامنة من الملحق(٣) للمعاهدة وذلك بضمان المرور البريء طبقاً لقواعد القانون الدولي في المياه الإقليمية الأخرى دون الإخلال بنص المادة الخامسة من المعاهدة، وبالتالي لا ينظر للمادة الثامنة في الملحق(٣) على أنها تفسير للمادة الخامسة من المعاهدة بل إضافة لها(٤٦). فضلاً عن ذلك فإن معاهدة السلام لم تأت لا من قريب ولا من بعيد على حقوق العرب الآخرين، أي الدول المتشاطئة في الخليج مع مصر وهي الأردن والسعودية، وهذا لا يعني بحال من الأحوال أن ترتب المعاهدة التزامات على الغير إلا برضائه.

ب- تعارض المعاهدة مع ميثاق الأمم المتحدة والمضمون العام للقانون الدولي:

إن إعطاء مصر لنفسها الحق بالتفاوض نيابة عن الشعب الفلسطيني وممثله الوحيد منظمة التحرير الفلسطينية والتوقيع على "إطار العمل للسلام في الشرق الأوسط" و

"الاتفاق التكميلي للحكم الذاتي" في الضفة الغربية والقطاع يعد مخالفة صريحة لأحد المبادئ الهامة لميثاق الأمم المتحدة المبدأ الذي ينص على حق الشعوب في تقرير مصيرها. ولا يمكن اعتباره إلا خرقاً وانتهاكاً فاضحاً للقانون الدولي لأنه تفاوض عن الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني التي نصت عليها قرارات الشرعية الدولية. فالصيغة التي توصل إليها الطرفان، المصري و"الإسرائيلي" حول الحكم الذاتي لم تنص بشكل واضح وصريح على حق الفلسطينيين في أرضهم وفقاً لقرارات الأمم المتحدة وفي مقدمتها قرار التقسيم ١٨١ لعام١٩٤٧ الأمر الذي يمكن اعتباره تكريساً للاحتلال "الإسرائيلي" للأراضي الفلسطينية وإضفاء شرعية قانونية على الواقع المفروض على الشعب الفلسطيني بقوة السلاح. بالإضافة إلى ذلك إغفال حق الفلسطينيين بالعودة إلى ديارهم لأن إطار العمل للسلام في "الشرق الأوسط" عني بأولئك النازحين أثناء حرب عام ١٩٦٧ فقط.

إلى جانب ذلك أهدرت وثائق كامب ديفيد مبدءاً أساسياً من مبادئ القانون الدولي وهو مبدأ عدم شرعية الاستيلاء على أراضي الغير بالقوة. بالإضافة إلى قرارات الشرعية الدولية الصادرة فيما بعد بهذا الشأن والتي تنص على الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة، إن إطار العمل للسلام أتاح "لإسرائيل" الاحتفاظ بقواتها العسكرية في المناطق المشمولة بالحكم الذاتي، وإعادة تمركز هذه القوات في مواقع أمنية محددة. كما تجاهلت هذه الوثائق قرار "إسرائيل" بضم القدس العربية واستمرارها في بناء المستوطنات الأمر الذي يجعل انسحاب "إسرائيل" من الأراضي المحتلة مسألة معقدة. إن ما تضمنته معاهدة السلام من نصوص تمس بالسيادة الوطنية المصرية سواء كان ذلك على الأرض أو في المياه الإقليمية أو الأجواء المصرية جعل منها أنموذجاً صارخاً للمعاهدات الدولية غير المتكافئة التي تجافي العدل ولا تحقق السلام الذي يحمل الديمومة والاستمرار(٤٨).

نستنتج مما سبق أن ما ورد من أحكام في وثائق الصلح المصرية "الإسرائيلية" هي أحكام تتناقض مع قرارات الشرعية الدولية وتتعارض مع ميثاق الأمم المتحدة وروح القانون الدولي.

ثالثاً – نتائج معاهدة السلام المصرية "الإسرائيلية" وأثرها على السلام ودور مصر الإقليمي:

مما لا شك فيه كان لاتفاقات الصلح المصرية "الإسرائيلية" نتائج مباشرة وغير مباشرة على جميع الأطراف التي شاركت في إنجاز هذه الاتفاقات وهي: "إسرائيل" والولايات المتحدة ومصر، وعلى جميع الصعد الإستراتيجية وبالأخص السياسية والعسكرية، ولدى تحليلنا لنتائج تلك الاتفاقات، سنتعرف على ما خلقته من آثار سلبية وتداعيات شتى على مصر أولاً وعلى جميع الأطراف العربية الأخرى في الصراع العربي "الإسرائيلي" ثانياً، والتي تبين أن حقيقة السلام التي زعم أطراف كامب ديفيد أنهم توصلوا إليها هي في واقع الحال ليست سوى حقيقة غائبة، والسلام في الشرق الأوسط ما زال سراباً وبعيد المنال، لأن" إسرائيل" لا تريد إلا استسلام العرب، وليس لديها نوايا بتطبيق كل ما له علاقة قريبة أو بعيدة باستحقاقات السلام الحقيقي العادل والشامل.

١ – النتائج المباشرة بالنسبة "لإسرائيل" وتأثيرها على دور مصر القومي:

يظهر في سياق الصراع العربي "الإسرائيلي" أن الهدف الإستراتيجي الذي ما فتئت "إسرائيل" تسعى إليه منذ وجودها في منطقة المشرق العربي هو الاعتراف بوجودها من قبل جميع الدول العربية، وقد بررت هذه الدول عدم اعترافها بها، ليس لأنها في حالة حرب معها فقط، بل لأنها بالأساس قامت على أسس غير صحيحة وغير عادلة،

وهي حرمان الشعب الفلسطيني من حقه في تقرير المصير، وتجريده من كل حقوقه بالقوة والعدوان. كما لجأت لاستعمال القوة في التوسع على حساب أراضي الدول العربية حتى تجبرها على الاعتراف بها وهذا ما جرى بعد عدوان حزيران عام١٩٦٧. وبعد صدور قرار مجلس الأمن رقم /٢٤٢/ لعام١٩٦٧ الذي تضمن مبدأ الانسحاب مقابل الاعتراف قد قبلت بعض الدول العربية في بداية الأمر هذا القرار بشرط عدم المساس بحقوق الشعب الفلسطيني، إلا أن "إسرائيل" لم تنصاع لا لهذا القرار ولا لغيره من قرارات الشرعية الدولية، بالرغم من أن شعوب البلدان العربية بما فيها الشعب المصري يعتبر حقوق الفلسطينيين مبدءاً غير قابل للنقاش أو المساومة. إلا أن اتفاقات الصلح التي اعترفت مصر بموجبها بدولة "إسرائيل" جعلت هذا الاعتراف منحة تحصل عليها "إسرائيل" دون مقابل اللهم إلا عودة سيناء شكلياً للسيادة المصرية وهكذا وبنتيجة اعتراف مصر "بإسرائيل" وإنهاء حالة الحرب معها فقد ترتب الآتي:(٤٩)

آ- الاعتراف بحق "اسرائيل" في السيادة والاستقلال السياسي، وعد أية مواجهة عسكرية تقوم بها مصر ضد "اسرائيل" تعاقب عليها من الناحية القانونية معناه تحييد أكبر دولة عربية مجاورة "لإسرائيل"، علماً أن باقي الدول العربية ما تزال في حرب معها، وبالتالي فالأمر لم يتعلق بمنع مصر من ممارسة الحقوق التي يمنحها القانون الدولي للمتحاربين طيلة استمرار حالة الحرب، كالمقاطعة الاقتصادية والتجارية والسياسية وغيرها وحسب، بل بإجبارها على تطبيع العلاقات مما أدى إلى فتح ثغرة كبيرة في المقاطعة العربية "الإسرائيلية"، وفتح المجال أمام "إسرائيل" لإقامة علاقات اقتصادية مع دول كانت تقاطع "إسرائيل" تعاطفاً مع العرب أو شركات خوفاً من المقاطعة العربية. إذن بإبرام الصلح بين مصر و"إسرائيل" تخلت الأولى عن هذه الحقوق وما تزال "إسرائيل" في حالة حرب مع باقي الدول العربية هذا من ناحية، من ناحية أخرى حققت "إسرائيل" ما

كانت تطالب به وهو تجزئة التسوية، فهي لم تدخر وسعاً في سبيل إبرام تسوية مع الأطراف العربية التي ترى فيها خطراً وإرجاء اتفاق تفاهم مع الأطراف الأخرى بهدف أن تكون هذه التسوية وسيلة لتجزئة الصف العربي، واستيعاب الأطراف الأضعف بدلاً من أن تتعامل معها جميعاً كأطراف متكافئة متضامنة. وبطبيعة الحال فإن هذا المنهج يشكل خطراً، لا لأنه لن يزيل أسباب الصراع بين جميع الأطراف المتنازعة ولا يضمن الاستقرار للمنطقة، بل على العكس لأنه يهدد التسوية ذاتها ويحمل في طياته أسباباً قوية لتجدد الصراع. وإذا كانت مفاوضات "إسرائيل" مع أكبر دولة عربية في المواجهة بهذا الشكل، فكيف تكون النتائج عندما تتفاوض مع باقي الدول العربية فرادى؟

ب- كان لإنهاء مصر التزاماتها المترتبة على عضويتها في الجامعة العربية واتفاقية الدفاع المشترك، كما نصت عليه المادتان الثالثة والسادسة من معاهدة السلام، أثر سلبي كبير على دورها القومي في الصراع العربي "الإسرائيلي"، ففي اللحظة التي تباشر "إسرائيل" عدوانها على بلد عربي، فإن مصر لا يحق لها مد يد العون أو المساعدة له لأن التزاماتها مع "إسرائيل" تعلو على التزاماتها بالدفاع المشترك مع الدول العربية، فضلاً عن ذلك ضمنت المعاهدة التزام مصر بمنع أي نشاط تقوم به المقاومة الفلسطينية ضد "إسرائيل" سواء كان ذلك بشكل مباشر أو غير مباشر والتعهد بمنع تقديم أي دعم للمقاومة وهذا ما تضمنته الفقرة الثانية من المادة(٣) من المعاهدة، وهكذا بالإمكان الاستنتاج أن المعاهدة لم تؤد إلى احتجاب مصر وغيابها فقط عن المسرح السياسي العربي وحسب، بل قادت إلى تحجيم دورها وتقزيمه لدرجة كبيرة في الصراع العربي "الإسرائيلي" وبخاصة في الموقف من حقوق الشعب العربي الفلسطيني.

جـ - أما المكاسب الاستراتيجية التي تحققت "لإسرائيل" بموجب المعاهدة فالواقع أنها لم تكن تحلم بها في يوم من الأيام، فقد كان إخراج مصر من ساحة المواجهة

العسكرية هدفاً ماثلاً على الدوام أمام مخططي الإستراتيجية العسكرية "الإسرائيلية" ومنفذيها السياسيين والعسكريين، طوال مراحل الصراع العربي "الإسرائيلي" حتى معاهدة السلام، التي تم بموجبها إنشاء منطقة عازلة في سيناء يزيد عرضها عن ١٥٠كم، فضلاً عن تخفيض السلاح كما ونوعاً في الخمسين كم الأخرى المتبقية غرب سيناء، فضلاً عن مرابطة قوات متعددة الجنسيات وقوات حفظ السلام ووضع محطات إنذار على الجانب المصري يديرها أمريكيون، في حين لم تكن الترتيبات نفسها على الجبهة في الجانب "الإسرائيلي"، مما يعني تأمين الحدود الجنوبية "لإسرائيل"، وتقليص العبء العسكري عليها(٥٠) وبالتالي منع مصر في أي حال من الأحوال من القيام بأي دور داعم أو مساند للشعب الفلسطيني سواء في الضفة الغربية أو غزة، الأمر الذي عبر عنه (زئيف شيف) المحلل العسكري "الإسرائيلي" بقوله: إذا كان على هيئة الأركان "الإسرائيلية" في السابق أن تخطط لتوزيع قوات متساوية إلى حد ما على الجبهات القتالية مع العرب فإن الجبهة الجنوبية لا تحتاج إلى ذلك الحجم المفترض تواجده على الجبهة الشمالية الشرقية وهذا وضع مريح للجيش "الإسرائيلي" وله مدلول أمني يتمثل في التقليص الجوهري للخطر العسكري الذي يواجه "إسرائيل"(٥١).

إلى جانب هذه المطالب السياسة والعسكرية تحقق "لإسرائيل" مكاسب أخرى عظيمة الشأن في الجانب الاستراتيجي وهي(٥٢):

1- صعوبات أمام أقطار الوطن العربي في المغرب للمشاركة بسرعة وفعَّالية في أي حرب عربية "إسرائيلية" جديدة، بمعنى أنه لم يعد أمام هذه البلدان سوى سلوك الطرق الجوية أو البحرية للوصول إلى أي جبهة مع "إسرائيل" مع كل ما تحمله هذه الطرق من مخاطر.

2- إن المرور الجوي والملاحة البحرية في مضيق خليج العقبة قلل من خطورة أي حصار بحري لمضيق باب المندب الاستراتيجي الذي أغلق في حرب عام ١٩٧٣ من قبل القوات المصرية، فضلاً عن توفير إمكانيات أكبر لمناورات القوات "الإسرائيلية" البرية وحرية أفضل للطيران والملاحة البحرية في البحرين الأحمر والمتوسط، وذلك على حساب البحرية والطيران المصري والعربي.

3 - أصبح بإمكان "إسرائيل" توجيه قواتها الجوية أو البحرية لضرب أهداف في السودان أو في المغرب العربي، لم تكن متوفرة كما كان الحال قبل إبرام المعاهدة، وما تناقلته وكالات الأنباء مؤخراً عن قيام "إسرائيل" بضرب شحنات أسلحة بعد حرب غزة كانت تأتي لحماس عبر البحر الأحمر إلا تأكيداً على ذلك.

4- حصول "إسرائيل" على مساعدة ودعم سياسي وعسكري واقتصادي من الولايات المتحدة الأمريكية بصورة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الصراع العربي "الإسرائيلي" مما مكنها من مضاعفة قدراتها وإمكاناتها لتشديد الضغوط على بقية أطراف الصراع الأخرى أكثر من ذي قبل.

٢- النتائج المباشرة بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية:

حققت الولايات المتحدة الأمريكية بموجب المعاهدة مكاسب هامة غير مسبوقة في تاريخ المنطقة من أولى هذه النتائج إبعاد السوفييت كطرف أساسي في التوازن الدولي والمشاركة في التسوية السياسية للصراع العربي "الإسرائيلي"، مما جعل مجرد إبرام الاتفاقات بحد ذاته مكسباً سياسياً كبيراً لسياسة الولايات المتحدة في المنطقة، فبعد أن كانت في بدء المفاوضات تقوم بدور الوسيط غدت فيما بعد ليست شاهداً مشاركاً في التوقيع على المعاهدة بل أكثر من شاهد، وربما بصورة غير مباشرة غدت كطرف في المعاهدة لأنها أصبحت ضامناً لتنفيذ المعاهدة من طرفيها، وقد نشأ ذلك عن تفاهمات ليست من المعاهدة شكلاً وإنما بين الولايات المتحدة وبين كل طرف على حده. ثاني

هذه النتائج أن الدبلوماسية الأمريكية، التي سارت المفاوضات تحت رعايتها، انتهت إلى معاهدة أقرب ما تكون إلى الحلف، وهذا ما أجمع عليه أغلبية المدققين القانونيين والسياسيين، معتبرين أن هذه الاتفاقات لا تتضمن سلماً ولا هي تسوية عادلة وشاملة وليست حلاً للنزاع في المنطقة على أساس القرارين / ٢٤٢ / و / ٣٨٨ /، وإنما هي نواة حلف جديد ذي طابع هجومي عدواني على الأمة العربية(**٥٣**).

وعلى الرغم من أن النصوص المنشورة لهذه الاتفاقات لا تشير صراحة إلى هذا الحلف وخاصة في جوانبه العسكرية، إلا أن ما كشفته بعض المصادر تشير إلى جوانب سرية تؤكد بجلاء أن الولايات المتحدة قد استطاعت استبدال مشروع (روجز) المتواضع بمشروع (كسينجر) الطموح الذي حقق فوائد سياسية جمة يمكن ملاحظتها في الأمور الآتية:

أ- إخراج المفاوضات من أرضية قرار مجلس الأمن رقم (٢٤٢) إلى أرضية مقررات كامب ديفيد.

ب- الاستئثار بالنظام المصري معزولاً، فدخل في الحلف شريكاً ضعيفاً بعد أن كان طرفاً أساسياً وقوياً من خلال التضامن العربي.

جـ - عودة الولايات المتحدة عسكرياً للمنطقة بحجم أكبر مما كان عليه الوضع قبل المعاهدة.

وقد نشرت مجلة "أفريكازي" في عددها الصادر في نيسان١٩٧٩ برقم(١٨٥) نصوص اتفاقات سرية بين الرؤساء الثلاث: السادات وبيغن وكارتر بعد إبرام معاهدة السلام تتضمن برنامج عمل على المحاور الثلاثة الآتية(**٥٤**):

الأول: محور يقوم بوضع وتنفيذ سياسات تهدف إلى تحطيم الجبهة المعارضة للصلح، فضلاً عن خلق خلافات في المنطقة تحول دون ترتيب ما عرف بالجبهة

الشرقية وذلك بتوتير العلاقات بين سوريا والعراق وسوريا والأردن،ومنع أي تقارب إيراني عراقي، وتدعيم الجناح المؤيد للاتفاقات في العائلة السعودية.

والثاني: العمل على إقناع الملك حسين بأن سورية ومنظمة التحرير تتآمران عليه، وقيام مصر بإجراءات لشل منظمة التحرير الفلسطينية والضغط على الفلسطينيين المعارضين للحكم الذاتي.

الثالث: التزام الولايات المتحدة بضمان واحترام تطبيق الاتفاقات، وإقناع الجهات العربية بأن أي محاولة لتغيير الوضع سيضطر أمريكا للتدخل بقواتها العسكرية. فضلاً عن أي مس ببترول المنطقة يعد مساً ليس بمصالحها وحسب بل بمصالح الغرب عموماً.

مما سبق يتبين أن المعاهدة جعلت من مصر قاعدة استراتيجية جديدة للولايات المتحدة في منطقة "الشرق الأوسط" وأصبحت مصر نقطة الارتكاز في الحفاظ على مصالحها، الأمر الذي أكده السادات في خطابه بمجلس الشعب في أعقاب التوقيع على المعاهدة، عندما قال: لو تعرضت أية دولة من دول الخليج العربي لاعتداء أجنبي فإنني سوف أطلب التدخل الأمريكي فوراً(٥٥).

إذن فالتنسيق الأمني والعسكري لمصر و"إسرائيل" مع الولايات المتحدة، قد أدى إلى إنشاء نظام استراتيجي أمني جديد في منطقة "الشرق الأوسط"، شكلت مصر و"إسرائيل" أحد طرفيه المحليين الرئيسيين في مواجهة قوى التحرر العربية، مما أكسب الاستراتيجية العسكرية الأمريكية نمطاً سياسياً دولياً وقدرات مادية ومعنوية ضخمة لم تتوفر لها من قبل على هذا النحو من الشمول والقوة والاتساع. وقد بينت الوقائع أن هذا النمط من التعاون قد دخل طور العمل عندما تم إنشاء قوات التدخل السريع التي حددت لها مهمة حماية منابع النفط في الخليج، كما وضح بإجراء مناورات عسكرية مشتركة بصفة دورية بين القوات المصرية والأمريكية وبذلك ازداد

عدد القوات الأمريكية المتواجدة في المنطقة، سواء كان بشكل قواعد ثابتة، أو قوات تدخل سريع، أو على شكل تقديم خدمات إلى القوات الأمريكية أو العكس(٥٦).

إن المكاسب الاستراتيجية التي تحققت "لإسرائيل" والولايات المتحدة بموجب اتفاقات الصلح دفعت بالأكاديمي المصري المعروف أنور عبد الملك أن يصف باختصار معاهدة السلام المصرية"الإسرائيلية" بالعبارات الآتية: "إن ٢٦،آذار يوم التوقيع على معاهدة السلام، يمثل قبل كل شيء التأسيس الثاني لدولة "إسرائيل" ونهاية "الرفض العربي" على حد تعبير اثنين من كبار المفكرين الصهاينة التقدميين الليبراليين، إذ هو يضفي الشرعية على الدولة العنصرية ويكسب قدسية وحرمة لسيطرتها العسكرية على أرض فلسطين وعدة أقطار عربية، ومعناه إنكار كامل لمجرى التاريخ الحديث والمعاصر للأمة العربية، ويمثل يوم٢٦ آذار في المقام الثاني إنشاء حلف عسكري جديد تحت السيطرة الرسمية للإمبريالية الأمريكية والهيمنة الفعَّالة بقيادة الإمبريالية الصهيونية العنصرية في وقت يتداعى فيه الحلف المركزي (الناتو) تحت ضربات الثورة الوطنية الإيرانية، وحلف جنوب شرق آسيا الذي تفكك أثر انتصار الثورة الاشتراكية في الصين وفيتنام، ولا يعكس هذا اليوم واقعاً للسلام لدى الأمة العربية بحال من الأحوال"(٥٧).

ولم يكن أنور عبد الملك هو الوحيد الذي وصل لهذا الاستنتاج، بل إن غالبية الدارسين لاتفاقات الصلح المصرية "الإسرائيلية" استنتجوا أن هذه الاتفاقات قد أقامت في المنطقة حلفاً عسكرياً سياسياً ذا طابع هجومي، موجهاً ضد شعوب المنطقة ومصالحها ولحماية نظم سياسية واقتصادية تتطابق مصالحها مع مصالح الإمبريالية الأمريكية وتتعارض مع مصالح وشعوب المنطقة. والخلاصة: هل هذا سلام سعت إليه مصر أم أنه استسلام بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى لإرادة "إسرائيل" والولايات المتحدة ومخططاتها في "الشرق الأوسط"؟.

٣- الضغط "الإسرائيلي" الأمريكي على المقاومة الفلسطينية للسير على نهج كامب ديفيد:

مما لاشك فيه أن الضغط "لإسرائيلي" الأمريكي على الفلسطينيين بدأ يتعاظم منذ اجتياح "إسرائيل" للجنوب اللبناني عام ١٩٧٨ تحت زريعة الرد على عملية الأتوبيس الفدائية التي قام بها الفلسطينيون في تل أبيب(٥٨). وبالرغم من انسحاب "إسرائيل" من الجنوب نتيجة للضغط الذي لا مجال للتفصيل به إلا أنها اندفعت نحو دعم عميلها الرائد سعد حداد الذي انشق عن الجيش اللبناني لتوطيد موقعه ونفوذه في الجنوب تمهيداً للتنسيق والتعاون معه على نطاق واسع بهدف الضغط على الشعب اللبناني عامة والفلسطيني ومقاومته خاصة.

وفي الوقت الذي كان يجري التحضير فيه لاجتماع مقرر لمجلس الجامعة العربية في القاهرة في نهاية آذار عام ١٩٧٨ تلقت مصر اتصالاً بأن وزير الدفاع "الإسرائيلي" عزرا وايزمن سيقوم بزيارة مصر في أقرب وقت. والواقع أن توقيت هذه الزيارة لم تأت في هذه الظروف من فراغ، إنما كان هدف "إسرائيل" من ورائها القضاء على أية بارقة أمل في عودة مصر للصف العربي. وبالفعل قام وايزمن بزيارة القاهرة وأجرى لقاء مع السادات في جو سري ودون إطلاع من جانب وزارة الخارجية المصرية أو مشاركة منها، في الوقت الذي كانت فيه الوزارة وإلى جانبها الجامعة العربية تسعيان لرأب الصدع في الصف العربي والعمل على اتخاذ موقف من العدوان على لبنان وتخفيف الضغط "الإسرائيلي" على المقاومة الفلسطينية في جنوب لبنان. وكما أشار وزير الخارجية المصري محمد إبراهيم كامل في مذكراته أن السادات كان يستحسن كل خطوة تقوم بها "إسرائيل" في لبنان معتبراً ذلك نوع من العقاب تستحقه منظمة التحرير بسبب وقوفها ضد نهجه وتحريضها الشعب الفلسطيني على الوقوف بحزم داخل فلسطين ضد خطواته التي سار عليها في التسوية(٥٩).

وما أن مضى شهر على تبادل وثائق المعاهدة بين مصر و"إسرائيل" حتى بدأت في أواخر أيار ١٩٧٩ مفاوضات ما سمّي " بالحكم الذاتي " بين الجانب المصري و"الإسرائيلي" وذلك بغياب الفلسطينيين المعنيين بالقضية الفلسطينية. وكان السادات على ما يبدو يأمل ضمنياًمن هذه المفاوضات تحقيق خطوة ما حول القضية الفلسطينية تمكنه كسب بعض الفلسطينيين من خارج منظمة التحرير الفلسطينية، هذا جانب، من جانب آخر تثبت أن صلحه مع "الإسرائيليين" لم يكن على حساب الفلسطينيين وحقوقهم في تقرير المصير.

ولكن منذ الجلسة الأولى لافتتاح هذه المفاوضات أكد رئيس الوفد "الإسرائيلي" ما كان قد وضحه منذ البداية وهو " أن الحكم الذاتي لن يكون بوسعه تشكيل سيادة. وإذا كان هدفنا السلام ورخاء السكان، وهذا هدف مشترك لنا، فعلينا أن نرفض سلفاً وحسب واقع تحديد المشكلة أية فكرة لدولة فلسطينية. إن "إسرائيل" لن توافق أبداً، كما ترفض تماماً فكرة أو إعلان أو تأسيس "دولة فلسطينية"(٦٠).

أما بعد التوقيع على معاهدة السلام المصرية "الإسرائيلية"، وقف بيغن أمام الكنيست "الإسرائيلي" في أيار١٩٧٩ يوضح في بيان رسمي ماذا يريد من لبنان، إنه يريد معاهدة على غرار كامب ديفيد والواقع أنه لم يكن قصده لبنان بحد ذاته بقدر ما كان يهدف إلى الضغط على المقاومة الفلسطينية لإخراجها من لبنان وتشتيتها والقضاء على منظمة التحرير الفلسطينية والضغط أيضاً على سورية لإخراج قواتها من هناك. وفي اليوم التالي للتصريح وكأن القوى الانعزالية في لبنان كانت على موعد مع هذه الدعوة فرحبت بها واعتبرتها إيجابية ودعت إلى تبنيها من قبل الحكومة اللبنانية. وفي حزيران من نفس العام جدد بيغن دعوته تلك في (كريات شمونة) شمال الأراضي المحتلة بحضور العميل سعد حداد مؤكداً على إخراج القوات السورية من لبنان وتوزيع الفلسطينيين خارجه ودخول لبنان في معاهدة مع "إسرائيل" فضلاً عن زعمه بحماية الأقليات في لبنان. وليس من الغريب أن يترافق ذلك مع قيام الأخوان المسلمين

في سورية بارتكاب مجزرة بحلب راح ضحيتها العشرات من الشهداء من القوات السورية، مما يؤكد حقيقة المخطط الأمريكي الصهيوني الذي يقف إلى جانب الفتن الطائفية في سورية ولبنان، وذلك بهدف إسقاط المواقع القومية والوطنية الصامدة والممانعة لفرض الهيمنة الصهيونية الأمريكية على المنطقة(٦١).

في الوقت نفسه إن نوايا "إسرائيل" وأهدافها في جر مصر إلى جانبها لمواجهة الأطراف العربية الرافضة لنهج كامب ديفيد لم تعد خفية، بعدما تعرضت الصحف اللبنانية إلى إعلان الإسكندرية في تموز ١٩٧٩ بعد لقاء بيغن والسادات الذي عكس بطريقة ما توافق مصري "إسرائيلي" في مواجهة التطورات المستقبلية على الساحة اللبنانية. وحسب تفسير مدير مكتب بيغن (الياهو بن آليسار) أن الإعلان يدعو لوحدة لبنان وسيادته وهذا ما معناه أن مصر و"إسرائيل" التقيا حول هدف واحد هو تصفية المقاومة الفلسطينية وإخراج القوات السورية من لبنان. ويضيف آليسار: رغم أن الإعلان لا يتحدث إلا عن وحدة الأراضي اللبنانية وسيادة لبنان، إلا أنه ليس على السوريين إلا أن يأخذوا هذا بعين الاعتبار عند ترتيب مخططاتهم (٦٢).

مع ذلك فقد اضطر السادات في ذكرى عيد الثورة عام١٩٨٠ أن يعترف أن المفاوضات تواجه صعوبات كثيرة وأن الهوة بين الوفد المصري و"الإسرائيلي" عميقة، وبخصوص ذلك تبادل السادات وبيغن رسائل استعرض كل واحد منهما موقفه من طبيعة الحكم الذاتي(٦٣).

وهكذا بالرغم من المفاوضات التي استمرت نحو سنة كاملة، جرى خلالها إحدى عشر جولة بين الجانبين المصري و"الإسرائيلي"، إلا أنها وصلت إلى طريق مسدود لأن الموقف "الإسرائيلي" لم يقر أو يعترف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، وبالتالي ثبت عدم صحة دعوى السادات وزعمه على أنه قادر على التفاوض نيابة عن

الفلسطينيين وباسمهم، وهذا ما أغضبهم وأغضب العرب من ورائهم، حيث لم يستطع تحقيق شيئ في هذا المجال (٦٤).

على أي حال إن فشل مفاوضات الحكم الذاتي وتوقفها لم يكن فقط بسبب الموقف "الإسرائيلي" وإنما يرجع لعاملين:

الأول: التفاف الشعب الفلسطيني حول منظمة التحرير الفلسطينية وعدم قناعته بما قدمه السادات للسلام.

الثاني: التضامن العربي حول حقوق الشعب الفلسطيني بتقرير المصير وحقه في إقامة دولته، وهكذا أصبح من الواضح لدى الرأي العام العربي والدولي أن التفاوض من أجل الحكم الذاتي لم تكن لدى السادات سوى وسيلة قام بها لتغطية تطبيع العلاقات مع "إسرائيل" وترسيخ قواعد الصلح المنفرد، فقد عقد مباشرة بعد التوقيع على المعاهدة مجموعة من الاتفاقات في مختلف المجالات بينه وبين "إسرائيل" كاتفاق النفط والتجارة والسياحة، وغيرها وأجرى نحو أحد عشر اجتماعاً على مستوى القمة مع الجانب "الإسرائيلي" مما يعد مؤشراً على رغبة السادات بالتطبيع والقيام بخطوات في مجال الصلح حتى لو أن "إسرائيل" لم تكمل انسحابها من سيناء(٦٥).

وبعد اغتيال السادات في نهاية١٩٨١ استؤنفت مفاوضات الحكم الذاتي، إلا أن الهوة العميقة بين الطرفين المصري و"الإسرائيلي" لم تسمح بالتقدم وبقيت تراوح مكانها، وأمام إعلان "إسرائيل" ضم القدس وجعلها عاصمة موحدة للدولة، وضم الجولان والاستمرار ببناء المستوطنات في الأراضي العربية المحتلة، اضطر المفاوض المصري إلى وقف التفاوض حول الحكم الذاتي. في الوقت نفسه راحت "إسرائيل" تصعد من عدوانها على الشعب الفلسطيني والمقاومة سواء في الضفة الغربية أو قطاع غزة أو جنوب لبنان. ويعد الغزو "الإسرائيلي" للبنان في حزيران عام١٩٨٢ من أهم وأخطر تداعيات معاهدة السلام المصرية "الإسرائيلية" على المنطقة لأن "إسرائيل"

اعتبرت لبنان أضعف حلقة في الطرف العربي المواجه "لإسـرائيل" أولا، وثانيـاً لأن الجبهة اللبنانية هي المنفذ الوحيد الذي بقي للمقاومة الفلسطينية بعـد أحـداث أيلـول الدامية في الأردن عام١٩٧٠.

٤- العدوان "الإسرائيلي" على لبنان أحد أبرز تداعيات معاهدة الصلح المصرية "الإسرائيلية":

بعد إتمام انسحاب "إسرائيل" من سيناء في نيسان١٩٨٢، وفشل مفاوضات الحكم الذاتي، قد بات واضحاً أن الخطوات التي اتخذت للتسوية في "الشرق الأوسط" أعدت بحيث تتفادى المشكلة الفلسطينية. وأخذ يدرك كل من الفلسطينيين واللبنانيين المؤيدين لهم بأنهم مرتبطون ببعضهم بعضاً على الأقل في المستقبل المنظور الذي لا يبدو فيه تسوية عادلة قريبة المنال. ونتيجة لتضخم الوجود الفلسطيني على الساحة اللبنانية، واتخاذ منظمة التحرير الفلسطينية لنفسها وضعاً يتسم بالقوة العسكرية النسبية، ومع التراجع في التأييد الشعبي للفلسطينيين وبخاصة بين المسيحيين الموارنة، انقسم اللبنانيون فيما بينهم فمنهم من رأى بالفلسطينيين أعداء يجب التخلص منهم، وفريق آخر رأى فيهم الحلفاء، والقسم الأخير أراد استغلالهم في المعارك الداخلية التي لم تنته بعد في لبنان. بالإضافة إلى ارتفاع الصوت في الإعلام الغربي عامة والصهيوني خاصة عن تعاظم الإرهاب الفلسطيني ضد "إسرائيل"(٦٦).

وفي ظل هذه الخلفية على الساحة اللبنانية قررت "إسرائيل" تطبيق مخططها بغزو لبنان، ووضع المقاومة الفلسطينية ين فكي كماشة: القوات اللبنانية والكتائب من جهة، و"إسرائيل" من جهة أخرى، سواء لتصفيتها أو إخراجها من لبنان. وهكذا لم يكن مفاجئاً أن تتذرع "إسرائيل" بمحاولة اغتيال السفير "الإسرائيلي" في لندن رغم إعلان منظمة التحرير عدم مسؤوليتها عن الحادث، وتأكيد ذلك من جانب الحكومة البريطانية والشرطة الدولية(٦٧). وليس مصادفة أن تختار حزيران موعداً لاجتياحها لبنان،

ذكرى عدوانها على البلدان العربية في حزيران عام١٩٦٧. ولم تقف "إسرائيل" بحملتها العسكرية عند الجنوب، بل استمرت حتى وصلت قواتها إلى بيروت، وبالتنسيق مع القوى الانعزالية ارتكبت أبشع المجازر بحق الفلسطينيين في مخيمي صبرا وشاتيلا. وعلى الرغم من صمود القوات السورية في وجه العدوان، ومحاولاتها الدؤوبة في دعم المقاومة الفلسطينية واللبنانية طيلة الاجتياح الذي استمر نحو ثلاثة أشهر تقريبا، وتأكيداً لدعمها لإثبات صحة مقولة الحرب الشعبية طويلة الأمد، إلا أن "إسرائيل" قد استطاعت تحقيق بعض الأهداف التي كانت لها انعكاسات خطيرة على الجانب العربي عموماً والمقاومة الفلسطينية خصوصاً ومن أهم هذه الأهداف:

أ – نجاح "إسرائيل" بتوجيه ضربة قاسية للمقاومة الفلسطينية على أرض لبنان وإزالة وجودها تقريباً، وإبعاد قيادة منظمة التحرير الفلسطينية إلى تونس، الأمر الذي أدى لانقسام الحركة الوطنية الفلسطينية وبخاصة " فتح " العمود الفقري للمنظمة، والأخطر من ذلك توتير العلاقات بعد الخروج من بيروت مع الطرف الوحيد والمقاوم لنهج كامب ديفيد (سورية)، وبروز استعدادات حقيقة للتعاطي مع الحلول الأمريكية، الأمر الذي ترجم فيما بعد بزيارة عرفات للقاهرة مما يعني التقرب من توجهات كامب ديفيد وخرقاً لمقررات بغداد وقرارات الدورة(١٦) للمجلس الوطني الفلسطيني التي نددت باتفاقات الصلح المصرية "الإسرائيلية"(٦٨).

ب– كشف الاجتياح "الإسرائيلي" للبنان عن أزمة حقيقية في حركة التحرر الوطني العربية، ولم يعد اهتمام العرب كثيراً بمواجهة الخطر "الإسرائيلي" في الوقت الذي توجهت فيه الأنظار العربية جميعها إلى البوابة الشرقية للوطن العربي بسبب الحرب التي افتعلها النظام العراقي مع الثورة الإسلامية في إيران، وأصبح الحظر الفارسي على الأمة العربية بمنظور كثير من الأنظمة العربية هو الخطر المتقدم على الخطر الصهيوني.

إلى جانب ذلك سعت "إسرائيل" في إطار أهدافها المرسومة من هذا العدوان، إلى عقد اتفاق مع لبنان شبيه باتفاق كامب ديفيد، فجرت مفاوضات تحت الاحتلال وعبر الوسيط الأمريكي استمرت عدة شهور إلى أن أثمرت اتفاق /١٧/ أيار١٩٨٣، الذي اشتمل على تكليفات "إسرائيلية" للحكومة اللبنانية دلّت على استجابة لبنان الرسمي للشروط العسكرية الأمنية "الإسرائيلية" وذلك بإلغاء اتفاقية الهدنة لعام١٩٤٩ بين لبنان و"إسرائيل" وإبطال مفعول اتفاقية الدفاع العربي المشترك(٦٩) فضلاً عن إلغاء اتفاقية القاهرة لعام١٩٦٩ المتضمنة تواجد المقاومة على أرض لبنان. معنى ذلك أن لبنان بموجب اتفاق أيار جرد من جميع التزاماته العسكرية في إطار جامعة الدول العربية وجميع اتفاقياته الأخرى مع البلدان العربية، وأنيط به رسمياً توفير الأمن "الإسرائيلي" بعد إخراجه نهائياً من ساحة المواجهة مع "إسرائيل". ونظراً لسوء الأوضاع العربية وتردي أحوال العرب، لم يحصل رد فعل عربي على هذا الاتفاق كما كان الحال بالنسبة لاتفاقات كامب ديفيد، سوى رد الفعل السوري الرافض رفضاً قاطعاً لهذا الاتفاق، فقد جاء على لسان الرئيس الراحل حافظ الأسد "بأن هذه الاتفاقية لن تنفذ ولن يسمح لها أن تنفذ". بينما تمثل الموقف المصري بمباركة وتأييد هذا الاتفاق، حيث أرسل رئيس جمهورية مصر العربية برقية إلى الرئيس الأمريكي فيها ثناء على الموقف الأمريكي في مساعدة شعوب المنطقة على السلام. أما موقف بقية الدول العربية فهناك الموقف الحيادي ظاهرياً، والمؤيد ضمنياً وقد مثلته السعودية من خلال بيانها في احترام حرية وإرادة الشعب اللبناني(٧٠). غير أن الطرف الأهم صاحب الكلمة الفصل في موضوع الاتفاق كان بالتأكيد هو الشعب اللبناني نفسه بأحزابه ورموزه وشخصياته الوطنية التي عبرت عن هذا الموقف بالصمود أمام الاحتلال وتصعيد عمليات المقاومة. وهكذا وبفضل الموقف السوري الداعم لصمود المقاومة اللبنانية التي تمسكت بالمطالب الوطنية الرافضة لسيطرة القوى الانعزالية الموالية "لإسرائيل" على الحكم ولكل مس بالسيادة الوطنية اللبنانية، أعلن مجلس الوزراء

اللبناني في آذار ١٩٨٤، إلغاء الاتفاق، واعتباره باطلاً، وكأنه لم يكن وإلغاء كل ما يمكن قد ترتب عليه من آثار.

وفيما يتعلق بتداعيات هذه العملية العسكرية في لبنان على الداخل "الإسرائيلي" فعلى الرغم من أن هذه العملية بادئ ذي بدء قد لقيت تأييداً في الأوساط "الإسرائيلية" المختلفة، إلا أن تجاوزها الجنوب ودخول القوات "الإسرائيلية" بيروت وارتكابها المجازر بحق اللبنانيين والفلسطينيين، دفعت الرأي العام "الإسرائيلي" إلى الحيرة والتساؤل، وبخاصة مع ارتفاع الخسائر المادية والبشرية يوماً بعد يوم إلى أن بلغت كلفة الاجتياح أكثر من خمسة مليارات من الدولارات الأمريكية ونحو/٦٠٠/ قتيل(٧١). كل ذلك دفع بالعديد من "الإسرائيليين" لإبداء التحفظات الشديدة على خطأ استخدام الوسائل العسكرية بإفراط لتحقيق الأهداف السياسية، والشك في سلامة التفكير الاستراتيجي الكامن وراء هذه الحملة العسكرية ولأول مرة في تاريخ حروب "إسرائيل"، يثور الجدل حول أخلاقية الحرب(٧٢). إلى جانب ذلك ارتفعت وتيرة القلق على سلوك وتصرفات القادة "الإسرائيليين" حتى غدت مسألة الخروج من لبنان، نتيجة لضغط المقاومة اللبنانية، وارتفاع الخسائر بين الجنود "الإسرائيليين" من أولويات السياسة "الإسرائيلية".

مما سبق نستنتج أنه إذا كانت كامب ديفيد قد أزكت بصورة غير مباشرة الروح العسكرية لدى القادة "الإسرائيليين" وشجعت على غزو لبنان، إلا أن نتائج هذه الحرب قد أدت إلى إنقاص احتمالات قيام "إسرائيل" بمغامرة عسكرية أخرى في المستقبل القريب، وإن الأمل الذي عقدته "إسرائيل" على قواتها العسكرية ومساندة القوى الانعزالية لها قد تلاشى بصمود الشعب اللبناني وإصراره على إسقاط اتفاق١٧ أيار.

في الوقت نفسه ازداد نشاط الحركات المعادية للحرب في "إسرائيل" ونذكر على سبيل المثال لا الحصر: اللجنة المعارضة للحرب في لبنان، لجنة التضامن مع جماعة

بيرزيت، حركة الحقوق المدنية، الأمهات المعاديات للصمت، حركة السلام الآن وغيرها. بالإضافة إلى ذلك، فإن غزو لبنان، وانغماس القوات "الإسرائيلية" في الحرب لفترة من الزمن، لم يكن في مصلحة المجتمع "الإسرائيلي"، فالاستقطاب الذي كان حول كتلة "الليكود" وقواعد التعايش التي كانت سائدة بين الأحزاب قد انتهت بغزو لبنان بسبب الانشقاقات والانقسامات التي حصلت داخل الأحزاب الرئيسية، فظهرت أحزاب صغيرة أكثر تطرفاً تجاه العرب، وظهرت تيارات معتدلة داخل الأحزاب الرئيسية، هذا بالإضافة إلى بروز شروخ في واجهة الوحدة الاجتماعية في "إسرائيل" تمثلت بانقسامات ترجع للهوية بين اليهود الشرقيين والغربيين (السفارديم والاشكيناز)، وازدياد حدة الصراع بين التوجه الديني والعلماني في "إسرائيل"، فضلاً عن الفوارق الاجتماعية والطبقية(٧٣).

على أي حال إن غزو لبنان بالمحصلة النهائية لم يكن في مصلحة "إسرائيل" والولايات المتحدة خاصة والغرب عامة،صحيح أنها تمكنت من تحقيق بعض الأهداف المتعلقة بالمقاومة الفلسطينية،ولكنها بالنسبة للبنان فشلت في تحقيق الحلم الذي راودها منذ فترة بعيدة وهو إبعاده عن محيطه العربي وعزله عن الصراع العربي "الإسرائيلي"، وتقسيمه إلى كانتونات طائفية تخدم الاستراتيجية "الإسرائيلية" في المنطقة، وذلك نتيجة لتلاحم ووحدة الأحزاب السياسة الوطنية وقوى المقاومة على قاعدة التصدي "لإسرائيل" ومواجهتها لصيانة الاستقلال والسيادة.

وهكذا شهدت المنطقة على مدى عقدين من الزمن وأكثر بعد إبرام اتفاقات كامب ديفيد ليس تراجعاً في البحث عن استحقاقات السلام العادل والشامل، بل تشدداً في الموقف "الإسرائيلي" من هذه الاستحقاقات، الأمر الذي ترجمته "إسرائيل" في سياساتها العدوانية على العرب والشعب الفلسطيني، وذلك من خلال الاستمرار في إقامة المستوطنات في الأراضي المحتلة وبناء الجدار العازل ليقطع أوصال الضفة الغربية ومصادرة الأراضي وتغيير معالم القدس الشرقية، فضلاً عن رفضها لجميع مبادرات

السلام. وبالتالي تلاشى الشعور الذي كان سائداً على الصعيدين الدولي والإقليمي بعد حرب١٩٧٣ بضرورة البحث العاجل عن تسوية للصراع العربي "الإسرائيلي".

خاتمة واستنتاجات:

١ــ لم تبلغ "إسرائيل" بعد إبرامها معاهدة السلام مع مصر عام١٩٧٩ ما كانت تسعى إليه بدأب منذ قيامها عام١٩٤٨ ألا وهو الصلح مع العرب والاعتراف بوجودها وحسب، بل وصلت إلى أبعد من ذلك بكثير بفضل هذه المعاهدة، حيث تحققت لها مكاسب استراتيجية هامة على الصعيدين السياسي والأمني لم تكن تحلم بها من قبل.

٢ــ إن إخراج مصر من دائرة الصراع العربي "الإسرائيلي" بنتيجة المعاهدة، جعل "إسرائيل" تشعر بأنها أكثر أمناً وطمأنينة على مستقبلها ودورها في المنطقة، وهذا ما دفعها لتكون أكثر عدوانية، وما اجتياحها العسكري للبنان عام١٩٨٢ إلا ترجمة لهذا الواقع الجديد في معادلة الصراع.

٣ــ كان على مصر أن تدرك من خلال قيامها بعد التوقيع على المعاهدة بمفاوضات "الحكم الذاتي" نيابة عن الفلسطينيين، إن إسرائيل تراوغ وتماطل بالإقرار بحقوق الشعب الفلسطيني والانسحاب من جميع الأراضي العربية المحتلة. لذلك كان من المفروض أن تستخدم مسألة العلاقات والتطبيع ورقة ضغط على "إسرائيل" والتهديد بالعودة للعرب والتضامن العربي الذي يشكل بالتأكيد الضمان الأكثر نجاعة حيال الموقف "الإسرائيلي" المتشبث بأوهام "إسرائيل" الكبرى.

٤ــ بالرغم من احترام مصر للمعاهدة والتزامها بنصوصها ومحافظتها على السلام مع "إسرائيل" خلال ثلاثين عاماً ونيف وانعكاس ذلك سلباً على سياستها العربية ودورها الإقليمي والدولي، إضافة إلى التوجه العام لغالبية البلدان العربية نحو الاعتراف "بإسرائيل" والتفاوض المباشر وغير المباشر معها في أعقاب مؤتمر

مدريد لعام ١٩٩١، إلا أن "إسرائيل" ما تزال مستمرة في ممارساتها العدوانية تجاه العرب عامة والفلسطينيين خاصة، وما عدوانها على لبنان ومقاومته عام ٢٠٠٦ وعلى غزة عام ٢٠٠٨ ــ ٢٠٠٩ والاستمرار في حصارها والعمل على تهويد القدس وبناء المستعمرات في الأراضي العربية المحتلة، ليس إلا تأكيداً على أنها غير جادة بإنهاء حالة الحرب مع العرب وغير معنية بالسلام وإعادة الحقوق العربية إلى أصحابها.

والأنكى من ذلك ما يطالب به نتنياهو رئيس الوزراء الحالي، باعتراف العرب بيهودية "إسرائيل"، الأمر الذي لا يقبله المنطق والعدل ويرفضه الفكر المعاصر رفضاً مطلقاً. فيهودية الدولة تعني التنازل عن أحد الثوابت الفلسطينية وهو حق عودة اللاجئين الذين تم تهجيرهم قسراً من ديارهم عام ١٩٤٨، فضلاً عن ذلك، إن هناك أكثر من مليون ونصف عربي فلسطيني يعيشون داخل الكيان الصهيوني ويشكلون نحو ثلث مواطني الدولة الصهيونية.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا لماذا يطلب نتنياهو هذا التنازل من العرب وفي هذا الوقت بالذات ؟

ألا تكفي التنازلات السابقة ! ألا تكفي المكاسب الاستراتيجية التي حققتها "إسرائيل" على مختلف الصعد بموجب معاهدتي السلام مع مصر والأردن! ألا يكفي الصلح والتطبيع مع بعض الدول العربية الأخرى!

إن رغبة نتنياهو تكمن وراءها إيجاد الحجج التي تسمح له بكسب مزيد من الوقت للتخفيف من الضغوط الأمريكية، وخاصة أن (ميتشل) مبعوث الرئيس الأمريكي أوباما "للشرق الأوسط"، أوضح لنتنياهو ووزير خارجيته ليبرمان ضرورة التوصل إلى حل للنزاع من خلال رؤية دولتين لشعبين، وهو بالطبع الحل الذي يرفضه نتنياهو، لأنه مقتنع فقط بما يسمه "السلام الاقتصادي" الذي يقوم على أساس فكرة قيام "إسرائيل" بمساعدة السلطة الفلسطينية ورفع مستوى معيشة مواطنيها وزيادة إمكاناتها وبخاصة

الأمنية من خلال إقامة كانتونات غير متصلة في الضفة الغربية وتحقيق ما أمكن من قمع لأي تحرك فلسطيني مقاوم في المستقبل من جانب حماس أو غيرها من فصائل المقاومة في الأراضي المحتلة.

وهكذا على الرغم من دخول عملية السلام بعد كامب ديفيد ومؤتمر مدريد عدة مراحل بسبب المتغيرات الإقليمية والدولية واعتماد مبدأ الأرض مقابل السلام المدعوم دولياً. إلا أن عملية السلام لم تخرج من النفق المظلم وبقيت ضمن إطار كامب ديفيد غير الواضح في مجال الانسحاب من الأراضي المحتلة وحقوق الشعب الفلسطيني.

وختاماً في هذا السياق نؤكد أنه من الحكمة المفاضلة بين تجربتين أو نهجين في التعامل مع الصراع العربي "الإسرائيلي": الأولى تجربة التفاوض التي انتهجتها مصر أكبر دولة عربية على خط المواجهة مع الكيان الصهيوني، هذا النهج كما بينا مقدماً على طريقة كامب ديفيد لم يزد الصراع العربي "الإسرائيلي" تعقيداً وتشابكاً وحسب، بل جعل التسوية العادلة والشاملة بين العرب و"إسرائيل" بعيدة المنال.

وفي المقابل نهج التفاوض الذي هو شأن الحكام، نجد نهج تجربة المقاومة الوطنية التي انتهجها لبنان أصغر بلد عربي والحلقة الأضعف في سلسلة الصراع العربي "الإسرائيلي"، حيث أنه بالرغم من معاناته لأهوال العدوان "الإسرائيلي" المدمر والمستمر طوال عقود، إلا أنه ومن خلال الإرادة الصلبة لشعبه المقاوم وتصميمه على دحر العدوان، أثبت أن الحق يؤخذ ولا يعطى وليس تحرير الجنوب عام ٢٠٠٠ إلا تأكيداً على أفضلية هذا النهج وتلك التجربة.

وهكذا فالمقاومة اللبنانية والفلسطينية برهنت وستبرهن أنها شأن الشعوب وحقها المشروع الذي كفله القانون الدولي وجميع الشرائع ولا بديل عنها وهي بالتأكيد ليست غاية بحد ذاتها بل هي الوسيلة الأنجع أمام الشعب المعتدى عليه لإنهاء استعباده وظلامته وتحرير أرضه واسترجاع حقوقه المغتصبة كاملة.

الوثائق الكاملة لمعاهدة كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل(٧٤)

١- الملحق الأول

إطار عمل للسلام في الشرق الأوسط

اجتمع الرئيس محمد أنور السادات رئيس جمهورية مصر العربية ومناحيم بيغن رئيس وزراء إسرائيل مع جيمي كارتر رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في كامب ديفيد من ٥-١٧ أيلول-سبتمبر١٩٧٨م واتفقوا على الإطار التالي للسلام في الشرق الأوسط وهم يدعون أطراف النزاع العربي الإسرائيلي إلى الانضمام إليه.

إن البحث عن السلام في الشرق الأوسط يجب إن يسترشد بالاتي:

إن القاعدة المتفق عليها للتسوية السلمية للنزاع بين إسرائيل وجيرانها هو قرار مجلس الأمن الرقم ٢٤٢ بكل أجزائه.

بعد أربعة حروب خلال ثلاثين عاماً وعلى رغم الجهود الإنسانية المكثفة، لم يستمتع الشرق الأوسط مهد الحضارة ومهبط الأديان العظيمة الثلاث، بعد بنعم السلام. إن شعوب الشرق الأوسط تتشوق إلى السلام حتى يمكن تحويل موارد المنطقة البشرية والطبيعية الشاسعة لمتابعة أهداف السلام وحتى تصبح هذه المنطقة نموذجا للتعايش والتعاون بين الأمم.

إن المبادرة التاريخية للرئيس السادات بزيارته للقدس والاستقبال الذي لقيه من برلمان إسرائيل وحكومتها وشعبها وزيارة رئيس الوزراء بيغن للإسماعيلية ردا على زيارة الرئيس السادات ومقترحات السلام التي تقدم بها الزعيمان كلاهما وما لقيته هذه المهمات من استقبال حار من شعبي البلدين، كل ذلك خلق الفرصة للسلام لم يسبق لها مثيل وهي فرصة لا يجب إضاعتها إذا كان يراد إنقاذ هذا الجيل والأجيال المقبلة من مآسي الحرب.

وان مواد ميثاق الأمم المتحدة والقواعد الأخرى المقبولة للقانون الدولي والشرعية توفر الآن مستويات مقبولة لسير العلاقات بين جميع الدول.

وان تحقيق علاقة سلام وفقا لروح المادة ٢ من ميثاق الأمم المتحدة وإجراء مفاوضات في المستقبل بين إسرائيل وأي دولة مجاورة مستعدة للتفاوض في شان السلام والأمن معها هي أمور ضرورية لتنفيذ جميع البنود والمبادئ في قراراي مجلس الأمن رقم ٢٤٢و٣٣٨.

إن السلام يتطلب احترام السيادة والوحدة الإقليمية والاستقلال السياسي لكل دولة في المنطقة وحقها في العيش في سلام داخل حدود أمنة ومعترف بها غير متعرضة لتهديدات أو أعمال عنف، وان التقدم تجاه هذا الهدف من الممكن أن يسرع بالتحرك نحو عصر جديد من التصالح في الشرق الأوسط يتسم بالتعاون على تنمية التطور الاقتصادي وفي الحفاظ على الاستقرار وتأكيد الأمن.

وان السلام يتعزز بعلاقة السلام وبالتعاون بين الدول التي تتمتع بعلاقة طبيعية وإضافة إلى ذلك في ظل معاهدات السلام يمكن للأطراف على أساس التبادل الموافقة على ترتيبات امن خاصة من مناطق منزوعة السلاح إلى مناطق ذات تسليح محدود ومحطات إنذار مبكر ووجود قوات دولية وقوات اتصال وإجراءات تتفق عليها للمراقبة والترتيبات الأخرى التي تتفق على أنها ذات فائدة.

الإطار

إن الإطراف إذ تضع هذه العوامل في الاعتبار مصممة على التوصل إلى تسوية عادلة وشاملة ومعمرة

لصراع الشرق الأوسط عن طريق عقد معاهدات سلام تقوم على قراري مجلس الأمن رقم ٢٤٢و٣٣٨ بكل فقراتهما، وهدفها من ذلك هو تحقيق السلام وعلاقات

حسن الجوار، وهي تدرك إن السلام لكي يصبح معمراً يجب أن يشمل جميع هؤلاء الذين تأثروا بالصراع أعمق تأثير، لذا فإنها تتفق على إن هذا الإطار مناسب في رأيها ليشكل أساسا للسلام لا بين مصر وإسرائيل فحسب بل كذلك بين إسرائيل وكل من جيرانها الآخرين ممن يبدون استعدادا للتفاوض على السلام مع إسرائيل على هذا الأساس.

إن الأطراف إذ تضع هذا الهدف في الاعتبار قد اتفقت على المضي قدما على النحو الأتي:

أ- الضفة الغربية وغزة:

* أولاً: ينبغي أن تشترك مصر وإسرائيل والأردن وممثلو الشعب الفلسطيني في المفاوضات الخاصة بحل المشكلة الفلسطينية بكل جوانبها ولتحقيق هذا الهدف فإن المفاوضات المتعلقة بالضفة الغربية وغزة ينبغي إن تتم على ثلاث مراحل:

أ – تتفق مصر وإسرائيل على أنه من أجل ضمان نقل منظم وسلمي للسلطة مع أخذ الاهتمامات بالأمن من جانب كل الأطراف في الاعتبار، يجب أن تكون هناك ترتيبات انتقالية بالنسبة إلى الضفة الغربية وغزة لفترة لا تتجاوز خمس سنوات، ولتوفير حكم ذاتي كامل لسكان الضفة الغربية وغزة، فإن الحكومة الإسرائيلية العسكرية وإدارتها المدنية ستنسحبان منهما بمجرد أن يتم انتخاب سلطة حكم ذاتي من قبل السكان في هذه المنطقة عن طريق الانتخاب الحر لتحل محل الحكومة العسكرية الحالية ولمناقشة تفاصيل الترتيبات الانتقالية فإن حكومة الأردن ستكون مدعوة إلى الانضمام إلى المحادثات على أساس هذا الإطار، ويجب أن تعطي هذه الترتيبات الجديدة الاعتبار اللازم لكل من مبدأ حكم الذات لسكان هذا الأراضي ولاهتمامات الأمن الشرعية لكل من الأطراف التي يشملها النزاع.

ب ـــ أن تتفق مصر وإسرائيل والأردن على وسائل إقامة سلطة الحكم الذاتي المنتخبة في الضفة الغربية وقطاع غزة وقد تضم وفداً يضم مصر والأردن ووفداً من الفلسطينيين من الضفة الغربية وقطاع غزة أو فلسطينيين آخرين وفقا لما يتفق عليه.

وسيتفاوض الأطراف في شان اتفاق يحدد مسؤوليات سلطة الحكم الذاتي التي ستمارس في الضفة الغربية وغزة وسيتم انسحاب للقوات المسلحة الإسرائيلية وستكون هناك إعادة توزيع للقوات الإسرائيلية التي ستبقى في مواقع امن معينة وسيتضمن الاتفاق أيضاً ترتيبات لتأكيد الأمن الداخلي والخارجي والنظام العام، وسيتم تشكيل قوة بوليس محلية قوية قد تضم مواطنين أردنيين، إضافة إلى ذلك ستشترك القوات الإسرائيلية والأردنية في دوريات مشتركة في تقديم الأفراد لتشكيل مراكز مراقبة لضمان أمن الحدود.

ج- وستبدأ الفترة الانتقالية ذات السنوات الخمس عندما تقوم سلطة حكم ذاتي (مجلس إداري) في الضفة الغربية وفي غزة في أسرع وقت ممكن من دون أن تتأخر عن السنة الثالثة بعد بداية الفترة الانتقالية. وستجري المفاوضات لتحديد الوضع النهائي للضفة الغربية وغزة وعلاقتها مع جيرانها ولإبرام معاهدة سلام بين إسرائيل والأردن بحلول نهاية الفترة الانتقالية، وستدور هذه المفاوضات بين مصر وإسرائيل والأردن والممثلين المنتخبين لسكان الضفة الغربية وغزة وسيجري انعقاد لجنتين منفصلتين لكنهما مترابطان، إحدى هاتين اللجنتين تتكون من ممثلي الأطراف الأربعة التي ستتفاوض وتوافق على الوضع النهائي للضفة الغربية وغزة وعلاقاتها مع جيرانها، وتتكون اللجنة الثانية من ممثلي إسرائيل وممثلي الأردن التي سيشترك معها ممثلو السكان في الضفة الغربية وغزة للتفاوض في شان معاهدة السلام بين إسرائيل والأردن واضعة في تقديرها الاتفاق الذي تم التوصل إليه في شان الضفة الغربية وغزة وسترتكز المفاوضات على أساس جميع النصوص والمبادئ لقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢.وستقرر هذه المفاوضات ضمن أشياء أخرى موضع الحدود وطبيعة ترتيبات الأمن. ويجب أن يعترف الحل الناتج

عن المفاوضات بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ومتطلباته العادلة. وبهذا الأسلوب سيشارك الفلسطينيون في تقرير مستقبلهم من خلال:

١ ــ أن يتم الاتفاق في المفاوضات بين مصر وإسرائيل والأردن وممثلي السكان في الضفة الغربية وغزة على الوضع النهائي للضفة الغربية وغزة والمسائل البارزة الأخرى بحلول نهاية الفترة الانتقالية.

٢ ــ أن يعرضوا اتفاقهم للتصويت من جانب الممثلين المنتخبين لسكان الضفة الغربية وغزة.

٣ــ إتاحة الفرصة للممثلين المنتخبين من السكان في الضفة الغربية وغزة لتحديد الكيفية التي سيحكمون بها أنفسهم تمشيا مع نصوص الاتفاق.

٤ ــ المشاركة كما ذكر أعلاه في عمل اللجنة التي تتفاوض في شأن معاهدة السلام بين إسرائيل والأردن.

* ثانياً: سيتم اتخاذ كل الإجراءات والتدابير الضرورية لضمان أمن إسرائيل وجيرانها خلال الفترة الانتقالية وما بعدها، وللمساعدة على توفير مثل هذا الأمن ستقوم سلطة الحكم الذاتي بتشكيل قوة قوية من الشرطة المحلية وتشكل هذه القوة من سكان الضفة الغربية وغزة وستكون قوة الشرطة على اتصال مستمر بالضباط الإسرائيليين والأردنيين والمصريين المعنيين للبحث في الأمور المتعلقة بالأمن الداخلي.

* ثالثاً: خلال الفترة الانتقالية يشكل ممثلو مصر وإسرائيل والأردن وسلطة الحكم الذاتي لجنة تعقد جلساتها باستمرار وتقرر باتفاق الأطراف صلاحيات السماح بعودة الأفراد الذين طردوا من الضفة الغربية وغزة في عام ١٩٦٧م مع اتخاذ الإجراءات الضرورية لمنع الاضطراب وأوجه التمزق ويجوز أيضا لهذه اللجنة أن تعالج الأمور الأخرى ذات الاهتمام المشترك.

* رابعاً: ستعمل مصر وإسرائيل بعضهما مع البعض ومع الأطراف الأخرى المهتمة لوضع إجراءات متفق عليها للتنفيذ العاجل والعادل والدائم لحل مشكلة اللاجئين.

ب- مصر وإسرائيل:

١- تتعهد كلاً من مصر وإسرائيل بعدم اللجوء إلى التهديد بالقوة أو استخدامها لتسوية النزاعات وإن أي نزاعات ستتم تسويتها بالطرق السلمية وفقا لما نصت عليه المادة ٣٣ من ميثاق الأمم المتحدة.

٢- توافق الأطراف من أجل تحقيق السلام في ما بينها على التفاوض بإخلاص بهدف توقيع معاهدة سلام بينهما خلال ثلاثة شهور من توقيع هذا الإطار فيما تتم دعوة الأطراف الأخرى في النزاع إلى التقدم في الوقت نفسه إلى التفاوض وإبرام معاهدة سلام مماثلة بغرض تحقيق سلام شامل في المنطقة.

وإن إطار إبرام معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل سيحكم مفاوضات السلام بينهما وستتفق الأطراف على الشكليات والجدول الزمني وتنفيذ التزامات في ظل المعاهدة.

ج ـ المبادئ المرتبطة:

١- تعلن مصر وإسرائيل إن المبادئ والنصوص المذكورة أدناه ينبغي أن تطبق على معاهدات السلام بين إسرائيل وكل من جيرانها مصر وسورية والأردن ولبنان.

٢- على الموقعين أن يقيموا فيما بينهم علاقات طبيعية كتلك القائمة بين الدول التي هي في حال سلام كل منها مع الأخرى.

وعند هذا الحد ينبغي أن يتعهدوا بالالتزام بنصوص ميثاق الأمم المتحدة ويجب أن تشمل الخطوات التي تتخذ في هذا الشأن على:

أ- اعتراف كامل.

ب- إلغاء المقاطعات الاقتصادية.

ج- ضمان أن يتمتع المواطنون في ظل السلطة القضائية بحماية الإجراءات القانونية في اللجوء إلى القضاء.

٣- يجب على الموقعين استكشاف إمكانيات التطور الاقتصادي في إطار اتفاقات السلام النهائية بهدف المساهمة في صنع جو السلام والتعاون والصداقة التي تعتبر هدفاً مشتركاً لهم.

٤- يجب إقامة لجان للدعاوى القضائية في الحسم المتبادل لجميع الدعاوى القضائية المالية.

٥- يجري دعوة الولايات المتحدة إلى الاشتراك في المحادثات في شأن مواضيع متعلقة بشكليات تنفيذ الاتفاقات وإعداد جدول زمني لتنفيذ تعهدات الأطراف.

٦- سيطلب من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة المصادقة على معاهدات السلام وضمان عدم انتهاك نصوصها، وسيطلب من الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن توقيع معاهدات السلام وضمان احترام نصوصها كما سيطلب إليهم مطابقة سياساتهم وتصرفاتهم مع التعهدات التي يحتويها هذا الإطار.

عن جمهورية مصر العربية

أنور السادات

عن حكومة إسرائيل

مناحيم بيغن

الشاهد/ جيمي كارتر رئيس الولايات المتحدة الامريكية

الملحق الثاني

إطار عمل من أجل عقد معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل

توافق إسرائيل ومصر من أجل تحقيق السلام بينهما على التفاوض بحسن نية بهدف توقيع معاهدة سلام بينهما في غضون ثلاثة شهور من توقيع هذا الإطار. وقد تم الاتفاق على أن تتم المفاوضات تحت علم الأمم المتحدة في موقع أو مواقع يتفق عليها الجانبان.

تطبق كل مبادئ قرار الأمم المتحدة الرقم٢٤٢ في هذا الحل للنزاع بين مصر وإسرائيل.

ما لم يتفق الطرفان على غير ذلك يتم تنفيذ معاهدة سلام في فترة تتراوح بين سنتين أو ثلاث سنوات من توقيع معاهدة السلام.

وقد وافق الطرفان على المسائل الآتية:

أ- الممارسة التامة للسيادة المصرية حتى الحدود المعترف بها دوليا بين مصر وفلسطين تحت الانتداب.

ب- انسحاب القوات المسلحة الإسرائيلية من سيناء.

ج- استخدام المطارات التي يتركها الإسرائيليون قرب العريش ورفح ورأس النقب وشرم الشيخ للأغراض المدنية فقط بما فيها الاستخدام التجاري من قبل كل الدول.

د- حق المرور الحر للسفن الإسرائيلية في خليج السويس على أساس معاهدة القسطنطينية للعام ١٨٨٨م والتي تنطبق على جميع الدول. وتعتبر مضائق تيران وخليج العقبة ممرات مائية دولية على أن تفتح أمام كل الدول للملاحة والطيران من دون إعاقة أو تعطيل.

هـ - إنشاء طريق بين سيناء والأردن بالقرب من ايلات مع كفالة حرية المرور وسلامته من جانب مصر والأردن.

و- تمركز القوات العسكرية كما هو وارد أدناه.

تمركز القوات العسكرية كما يأتي:

أ- ألا تتمركز أكثر من فرقة واحدة (ميكانيكية أو مشاه) من القوات المسلحة المصرية داخل منطقة تبعد قرابة خمسين كيلو متر شرق خليج السويس وقناة السويس.

ب- تتمركز قوات الأمم المتحدة والشرطة المدنية المسلحة بالأسلحة الخفيفة لأداء المهمات العادية للشرطة داخل المنطقة التي تقع غرب الحدود الدولية وخليج العقبة في مساحة يراوح عرضها بين ٤٠ -٢٠ كيلو متر.

ج- أن توجد في المنطقة في حدود ٣كيلو مترات شرق الحدود الدولية قوات إسرائيلية عسكرية محدودة لا تتعدى أربع كتائب مشاة ومراقبون من الأمم المتحدة.

د- تلحق وحدات دوريات حدود لا تتعدى ثلاث كتائب بالبوليس المدني في المحافظة على النظام في المنطقة التي لم تذكر آنفاً.

يكون التخطيط الدقيق للحدود السالفة الذكر وفقاً لما يتقرر خلال مفاوضات السلام.

يجوز أن تقام محطات الإنذار المبكر لضمان الامتثال لبنود الاتفاق.

سيتم تمركز قوات الأمم المتحدة

أ- في جزء من منطقة في سيناء الواقعة على بعد ٢٠ كلم من البحر المتوسط وعلى خط مواز للحدود الدولية.

ب- في منطقة شرم الشيخ لتامين حرية المرور في مضائق تيران.

ولا يتم إبعاد هذه القوات ما لم يوافق مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة على مثل هذا الإبعاد بإجماع أصوات الأعضاء الخمسة الدائمين.

وبعد توقيع اتفاق سلام وبعد إتمام الانسحاب المؤقت تقام علاقات طبيعية بين مصر وإسرائيل تتضمن:

(الاعتراف الكامل بما في ذلك قيام علاقات دبلوماسية واقتصادية وثقافية وإنهاء المقاطعات الاقتصادية والحواجز أمام حرية حركة السلع والأشخاص والحماية المتبادلة للمواطنين وفقاً للقانون.)

الانسحاب المؤقت: خلال فترة ٣-٩ أشهر تعقب توقيع معاهدة السلام، تنسحب جميع القوات الإسرائيلية شرق الخط الممتد من نقطة إلى الشرق من العريش وحتى رأس

- محمد، وسيتم الاتفاق على تحديد هذا الخط تماماً.

عن حكومة مصر العربية

أنور السادات

عن حكومة إسرائيل

مناحيم بيغن

الشاهد/ جيمي كارتر رئيس الولايات المتحدة الأمريكية

الملحق الثالث

معاهدة السلام بين جمهورية مصر العربية ودولة إسرائيل.

إن حكومة جمهورية مصر العربية وحكومة دولة إسرائيل..

الديباجة: اقتناعاً منهما بالضرورة الماسة لإقامة سلام عادل وشامل ودائم في الشرق الأوسط وفقاً لقراري مجلس الأمن ٢٤٢-٣٣٨.

إذ تؤكدان من جديد التزامهما(بإطار السلام في الشرق الأوسط المتفق عليه في كامب ديفيد) المؤرخ في ١٧ سبتمبر (أيلول) ١٩٧٨..

وإذ تلاحظان أن الإطار المشار إليه إنما قصد به أن يكون أساساً للسلام، ليس بين مصر وإسرائيل فحسب، بل أيضاً بين إسرائيل وأي من جيرانها العرب كل فيما يخصه ممن يكون على استعداد للتفاوض من أجل السلام معها على هذا الأساس.

ورغبةً منهما في إنهاء حالة الحرب بينهما وإقامة سلام تستطيع فيه كل دولة في المنطقة أن تعيش في أمن.

واقتناعاً منهما بأن عقد معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل يعتبر خطوة هامة في طريق السلام الشامل في المنطقة والتوصل إلى تسوية للنزاع العربي الإسرائيلي بكافة نواحيه..

وإذ تدعوان الأطراف العربية الأخرى في النزاع إلى الاشتراك في عملية السلام مع إسرائيل على أساس مبادئ إطار السلام المشار إليه آنفا واسترشاداً بها.

وإذ ترغبان أيضاً في إنماء العلاقات الودية والتعاون بينهما وفقاً لميثاق الأمم المتحدة ومبادئ القانون الدولي التي تحكم العلاقات الدولية في وقت السلم..

قد اتفقتا على الأحكام التالية بمقتضى ممارستهما الحرة لسيادتهما من أجل تنفيذ الإطار الخاص بعقد معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل.

المادة الأولى:

تنتهي حالة الحرب بين الطرفين ويقام السلام بينهما عند تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة.

١ــ تسحب إسرائيل كافة قواتها المسلحة والمدنيين من سيناء إلى ما وراء الحدود الدولية بين مصر وفلسطين تحت الانتداب، كما هو وارد بالبروتوكول الملحق بهذه المعاهدة (الملحق الأول) وتستأنف مصر ممارسات سيادتها الكاملة على سيناء.

٢ــ عند إتمام الانسحاب المرحلي المنصوص عليه في الملحق الأول، يقيم الطرفان علاقات طبيعية وودية بينهما طبقاً للمادة الثالثة (فقرة ٣).

المادة الثانية:

إن الحدود الدائمة بين مصر وإسرائيل هي الحدود الدولية المعترف بها بين مصر وفلسطين تحت الانتداب كما هو واضح بالخريطة في الملحق الثاني وذلك دون المساس بما يتعلق بوضع قطاع غزة.

ويقر الطرفان بأن هذه الحدود مصونة لا تمس ويتعهد كل منهما باحترام سلامة أراضي الطرف الآخر بما في ذلك مياهه الإقليمية ومجاله الجوي.

المادة الثالثة:

١ـ يطبق الطرفان فيما بينهما أحكام ميثاق الأمم المتحدة ومبادئ القانون الدولي التي تحكم العلاقات بين الدول في وقت السلم وبصفة خاصة:

أـ يقر الطرفان ويحترم كل منهما سيادة الآخر وسلامة أراضيه واستقلاله السياسي.

ب ـ يقر الطرفان ويحترم كل منهما حق الآخر في أن يعيش في سلام داخل حدوده الآمنة والمعترف بها.

ج ـ يتعهد الطرفان بالامتناع عن التهديد باستخدام القوة أو استخدام أحدهما ضد الآخر على نحو مباشر أو غير مباشر وبحل كافة المنازعات التي تنشأ بينهما بالوسائل السلمية.

٢ـ يتعهد كل طرف بأن يكفل عدم صدور فعل من أفعال الحرب أو الأفعال العدوانية أو أفعال العنف أو التهديد بها من داخل أراضيه أو بواسطة قوات خاضعة لسيطرته أو مرابطة على أراضيه ضد السكان أو المواطنين أو الممتلكات الخاصة بالطرف الآخر. كما يتعهد كل طرف بالامتناع عن التنظيم أو التحريض أو الإثارة أو المساعدة أو الاشتراك في فعل من أفعال الحرب أو الأفعال العدوانية أو النشاط الهدام أو أفعال العنف الموجهة ضد الطرف الآخر في أي مكان. كما يتعهد بأن يكفل تقديم مرتكبي مثل هذه الأفعال للمحاكمة.

٣ـ يتفق الطرفان على أن العلاقات الطبيعية التي ستقام بينهما ستتضمن الاعتراف الكامل والعلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والثقافية وإنهاء المقاطعة الاقتصادية والحواجز ذات الطابع التمييزي المفروضة ضد حرية انتقال الأفراد والسلع. كما يتعهد كل طرف بأن يكفل تمتع مواطني الطرف الآخر الخاضعين لاختصاصه القضائي بكافة

الضمانات القانونية ويوضح البروتوكول الملحق بهذه المعاهدة (الملحق الثالث) الطريقة التي يتعهد الطرفان بمقتضاها بالتوصل إلى إقامة هذه العلاقات وذلك بالتوازي مع تنفيذ الأحكام الأخرى لهذه المعاهدة.

المادة الرابعة:

١ــ بغية توفير الحد الأقصى للأمن لكلا الطرفين وذلك على أساس التبادل تقام ترتيبات أمن متفق عليها بما في ذلك مناطق محدودة التسليح في الأراضي المصرية والإسرائيلية وقوات أمم متحدة ومراقبين من الأمم المتحدة وهذه الترتيبات موضحة تفصيلاً من حيث الطبيعة والتوقيت في الملحق الأول وكذلك أية ترتيبات أمن أخرى قد يتفق عليها الطرفان.

٢ــ يتفق الطرفان على تمركز أفراد الأمم المتحدة في المناطق الموضحة بالملحق الأول ويتفق الطرفان على ألا يطالبا سحب هؤلاء الأفراد وعلى أن سحب هؤلاء الأفراد لن يتم إلا بموافقة مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة بما في ذلك التصويت الإيجابي للأعضاء الخمسة الدائمين بالمجلس وذلك ما لم يتفق الطرفان خلاف ذلك.

٣ــ تنشأ لجنة مشتركة لتسهيل تنفيذ هذه المعاهدة وفقاً لما هو منصوص عليها في الملحق الأول.

٤ــ يتم بناء على طلب أحد الطرفين إعادة النظر في ترتيبات الأمن المنصوص عليها في الفقرتين ١ ــ ٢ من المادة وتعديلها باتفاق الطرفين.

المادة الخامسة:

١ــ تتمتع السفن الإسرائيلية والشحنات المتجهة من إسرائيل وإليها بحق المرور الحر في قناة السويس ومداخلها في كل من خليج السويس والبحر الأبيض المتوسط وفقاً لأحكام اتفاقية القسطنطينية لعام ١٨٨٨م المنطبقة على جميع الدول، كما يعامل رعايا إسرائيل وسفنها وشحناتها وكذلك الأشخاص والسفن والشحنات المتجهة من إسرائيل وإليها معاملة لا تتسم بالتمييز في كافة الشؤون المتعلقة باستخدام القناة.

٢ـ يعتبر الطرفان أن مضيق تيران وخليج العقبة من الممرات المائية الدولية المفتوحة لكافة الدول دون عائق أو إيقاف لحرية الملاحة أو العبور الجوي. كما يحترم الطرفان حق كل منهما في الملاحة والعبور الجوي من وإلى أراضيه عبر مضيق تيران وخليج العقبة.

المادة السادسة:

١ـ لا تمس هذه المعاهدة ولا يجوز تفسيرها على أي نحو يمس بحقوق والتزامات الطرفين وفقاً لميثاق الأمم المتحدة.

٢ـ يتعهد الطرفان بأن ينفذا بحسن نية التزاماتهما الناشئة عن هذه المعاهدة بصرف النظر عن أي فعل أو امتناع عن فعل من جانب طرف آخر وبشكل مستقل عن أية وثيقة خارج المعاهدة.

٣ـ كما يتعهدان بأن يتخذا كافة التدابير اللازمة لكي تطبق في علاقاتهما أحكام الاتفاقيات المتعددة الأطراف التي يكونان من أطرافهما بما في ذلك تقديم الإخطار المناسب للأمين العام للأمم المتحدة وجهات الإيداع الأخرى لمثل هذه الاتفاقيات.

٤ـ يتعهد الطرفان بعدم الدخول في أي التزام يتعارض مع هذه المعاهدة.

٥ـ مع مراعاة المادة ١٠٣ من ميثاق الأمم المتحدة يقر الطرفان بأنه في حالة وجود تناقض بين التزامات الأطراف بموجب هذه المعاهدة وأي من التزاماتهما الأخرى، فإن الالتزامات الناشئة عن هذه المعاهدة تكون ملزمة ونافذة.

المادة السابعة:

١ـ تحل الخلافات بشأن تطبيق أو تفسير هذه المعاهدة عن طريق المفاوضة.

٢ـ إذا لم يتيسر حل هذه الخلافات عن طريق المفاوضة فتحل بالتوفيق أو تحال إلى التحكيم.

المادة الثامنة:

يتفق الطرفان على إنشاء لجنة مطالبات للتسوية المتبادلة لكافة المطالبات المالية.

المادة التاسعة:

١ــ تصبح هذه المعاهدة نافذة المفعول عند تبادل وثائق التصديق عليها.

٢ــ تحل هذه المعاهدة محل الاتفاق المعقود بين مصر وإسرائيل في سبتمبر (أيلول) ١٩٧٥ م..

٣- تعد كافة البروتوكولات والملاحق والخرائط الملحق بهذه المعاهدة جزءاً لا يتجزأ منها.

٤ــ يتم إخطار الأمين العام للأمم المتحدة بهذه المعاهدة لتسجيلها وفقاً لأحكام المادة ١٠٢ من ميثاق الأمم المتحدة.

حررت في واشنطن دي ــ سي ــ ٢٦ مارس (آذار) ١٩٧٩م، ٢٧ ربيع الأول ١٣٩٩ هــ من ثلاث نسخ باللغات الإنكليزية والعربية والعبرية وتعتبر جميعها متساوية الحجية، وفي حالة الخلاف حول التفسير فيكون النص الإنكليزي هو الذي يعتد به.

عن حكومة مصر العربية أنور السادات

عن حكومة إسرائيل مناحيم بيغن

الشاهد/ جيمي كارتر رئيس الولايات المتحدة الأمريكية.

مصادر البحث ومراجعه

(١) – وليام ب. كوانت.مــحرر كتاب، **كامب ديفيد بعد عشر سنوات**، مؤسسة الأهرام القاهرة١٩٨٩ص١١.

(٢) – المصدر نفسه، ص ٢٦.

(٣) – عماد جاد "**العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة**" (شؤون عربية، العدد ١٣٧، ٢٠٠٩، ص٥٩.

(٤) – كوانت، مصدر سابق، ص٧.

(٥) – صلاح العقاد. **تطور النزاع العربي الإسرائيلي** (٩٥٦– ١٩٦٨)، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٥، ص٣٦ وما بعدها.

(٦) – محمود رياض، **البحث عن السلام في الشرق الأوسط**، المذكرات١٩٤٨– ١٩٩٨،ج١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص١٨٨ وما بعدها.

(٧) – رباب يحيى عبد المحسن، **كامب ديفيد خروج مصر إلى التيه**، مكتبة مدبولي القاهرة ٢٠٠٥ ص١٨، محمود عزمي: "**مواجهة التغيير في ميزان القوى والنتائج الإستراتيجية العسكرية**". المستقبل العربي،العدد، ١٨، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، عام ١٩٨٠، ص٨٨ وما بعدها.

(٨) – كوانت، مصدر سابق، ص١١.

(٩) – أنور عبد الملك: "**احتجاب مصر وإطلالة على المستقبل**". (المستقبل العربي، العدد ١٨ ١٩٨٠ ، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، ص١٦ وما بعدها).

(١٠) – المصدر نفسه، ص١٦ وما بعدها.

(١١) – محمد حسنين هيكل،أكتوبر ٧٣ السلاح والسياسة، القاهرة ١٩٩٣، ص٥٨٢.

(١٢) –محمود عزمي: "**السمات العامة للصراع المسلح العربي الإسرائيلي**"، (المستقبل العربي، العدد ٤، بيروت ١٩٧٨ مركز دراسات الوحدة العربية ص٤٤.

(١٣)- عبد العزيز نوار وصلاح العقاد، **دبلوماسية السلام في الشرق الأوسط**، جامعة عين شمس، القاهرة ١٩٧٨ ص٣.

(١٤) - هيكل، مصدر سابق، ص٥٨١.

(١٥) - رشيد الخالدي: "**منظمة التحرير الفلسطينية**"، مصدر كامب ديفيد بعد عشر سنوات، مصدر سابق، ص٣٧٤ وما بعدها.

(١٦) - جعفر عبد السلام – **معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية**، دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٩٨٠، ص ١٦٣.

خيرية قاسمية، **الصراع العربي الإسرائيلي في خرائط**، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٧٩، ص ١٨٦- ١٧٨.

(١٧) -رباب يحيى عبد المحسن، مصدر سابق، ص ١٧، وخيرية قاسمية، مصدر سابق، ص١٨٢-١٨٣.

(١٨) - يحيى عبد المحسن،المصدر نفسه، ص٣١.

(١٩)- محمد إبراهيم كامل، **مذكرات السلام الضائع في اتفاقيات كامب ديفيد**، دمشق، بلا تاريخ، ص١٨٨-١٨٩، وكلايتون سويشر، **حقيقة كامب ديفيد**، ترجمة رضوان زيادة وآخرون، الدار العربية للعلوم، بيروت ٢٠٠٦، ص ٣٨١ وما بعدها.

(٢٠)- إسماعيل فهمي، **التفاوض من أجل السلام في الشرق الأوسط**، دار الشروق، في القاهرة ٢٠٠٦، ص ٣٨١ وما بعدها.

(٢١) - عبد السلام، مصدر سابق، ص١٧٩-١٨٠.

(٢٢)-عبد الستار طويلة، **من السادات إلى عرفات في اصطبل داود**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، ص٢٢٩ - ٢٣٠.

(٢٣) - عبد المنعم سعيد: "**عشر سنوات بعد كامب ديفيد**"،كامب ديفيد بعد عشر سنوات، مصدر سابق، ص١٠٧.

(٢٤) – المصدر نفسه، ص ١٠٧.

(٢٥) – المصدر نفسه، ص ١٠٧ وما بعدها.

(٢٦) – عبد المحسن، مصدر سابق، ص٣٨، ومحمد إبراهيم كامل، مصدر سابق ص١٠٩.

(٢٧) – عبد المحسن، مصدر سابق ص٣٩ وما بعدها.

(٢٨) – وليم ب. كوانت، مصدر سابق، ص١١.

(٢٩) – للتوسع راجع: محمود سويد، **من كامب ديفيد إلى المعاهدة**، خليفة القرار الإسرائيلي، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ١٩٧٩ ص٦٨–٨٩.

(٣٠) – عبد السلام، مصدر سابق، ص٢٦٤.

(٣١) – المصدر نفسه، ص٢٦٥.

(٣٢) – المصدر نفسه، ص ٢٦٨ وما بعدها.

(٣٣) – المصدر نفسه، ص ٢٧٠ وما بعدها.

(٣٤) – المصدر نفسه، ص ٢٧٢– ٢٧٤ .

(٣٥) – المصدر نفسه، ص٢٧٤– ٢٧٥.

(٣٦) – المصدر نفسه، ص٢٨٣– ٢٨٧.

(٣٧) – المصدر نفسه، ص ٢٧٧ وما بعدها.

(٣٨) – المصدر نفسه، ص ٢٩٩ وما بعدها.

(٣٩) – أنعام رعد، **ملاحق كامب ديفيد الأمريكية والأوروبية**، دار المسيرة، بيروت ١٩٨٢، ص١٢٩.

(٤٠) – عبد السلام، مصدر سابق، ص٣١١– ٣١٧.

(٤١) – المصدر نفسه، ص ٣١٧ وما بعدها.

(٤٢) – عبد المحسن، مصدر سابق، ص٥٧.

(٤٣) – المصدر نفسه، ص٥٨.

(٤٤) - عدنان البكري: "**معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية وحقوق العرب في خليج العقبة**" (المستقبل العربي، العدد ٨٣ كانون الثاني ١٩٨٦، ص٧٨).

(٤٥) - ا المصدر نفسه، ص٨٩-٩٠.

(٤٦) - المصدر نفسه، ص٩١- ٩٢.

(٤٧) - المصدر نفسه، ص٩٣.

(٤٨) - عبد المحسن، مصدر سابق، ص٧١-٧٢.

(٤٩) - أحمد وافي، **اتفاقات كامب ديفيد في ضوء القانون الدولي**،المؤسسة الجزائرية للطباعة ١٩٩٠، ص٣١٩-٣٢١

(٥٠) - عزمي، مصدر سابق، ص١٠٨.

(٥١) - المصدر نفسه، ص١٠٨-١٠٩.

(٥٢) - المصدر نفسه، ص١١١-١١٣.

(٥٣) - وافي، مصدر سابق، ص٣٣٢-٣٣٣.

(٥٤) - المصدر نفسه، ص٣٣٤ وما بعدها.

(٥٥) - أنعام رعد، مصدر سابق، ص١٧٩.

(٥٦) - المرجع نفسه، ص ١٧٦ وما بعدها.

(٥٧) - أنور عبد الملك، مصدر سابق، ص٦ وما بعدها.

(٥٨) - رشيد الخالدي، **منظمة التحرير الفلسطينية**، مصدر سابق، ص٣٥٨.

(٥٩) - محمد إبراهيم كامل، مصدر سابق، ص٢٥٥.

(٦٠) - وافي، مصدر سابق ٣٦٤.

(٦١) - رعد، مصدر سابق، ص١٨٧.

(٦٢) - المصدر نفسه، ص١٨٨.

(٦٣) - المصدر نفسه، ص ٣٦٥ وما بعدها.

(٦٤) - كوانت، مصدر سابق ص١١.

(٦٥) – عبد العزيز نوار وصلاح عقاد، مصدر سابق، ص١١٢ وما بعدها.

(٦٦) – رشيد الخالدي، مصدر سابق، ص٣٨٤ وما بعدها.

(٦٧) – وافي، مصدر سابق ٣٩٥.

(٦٨) – المصدر نفسه، ص ٣٩٨.

(٦٩) – المصدر نفسه، ص ٤١٥-٤١٦.

(٧٠) – المصدر نفسه، ص ٤١٦.

(٧١) -حسين شريف، **الحرب والسلام**(١٩٧٠-١٩٨١)الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦، ص٣٦٨.

(٧٢) – المصدر نفسه، ص٣٦٩.

(٧٣) – المصدر نفسه، ص ٣٢٦ وما بعدها.

(٧٤) ـ المجلة المصرية للقانون الدولي، عدد ٣٥، لعام ١٩٧٩، ص٢٧٣ وما بعدها.

الهوامش

*- اضطررت لاستخدام كلمة "إسرائيل" في متن البحث ونظراً لتحفظي على استخدامها وعدم قناعتي بشرعية الكيان الصهيوني لذا قمت بكتابة "إسرائيل" وكل ما يشتق عنها من صفة وغيرها ضمن قوسين.

**- نظراً لاستخدام مصطلح "الشرق الأوسط" في جميع القرارات الدولية واقترانه بقضية الصراع العربي الصهيوني وبسبب الاستخدام الواسع لهذا المصطلح في الكتابات العربية والأجنبية كان لا بد من استخدامه في البحث ووضعه ضمن قوسين.

***- المرور البرئ: هو عبور المياه الإقليمية لإحدى الدول الساحلية شريطة موافقتها بقصد المرور أو الدخول إلى المياه الإقليمية للدولة المعنية أو الخروج منها أو بهدف الرسو المؤقت أو الإصلاح أو التزود بالوقود على أن لا يمس هذا العبور بأمن الدولة وسيادتها أو الاعتداء على أراضيها ومواطنيها ومصالحها.

الحملة الأيوبية الأولى على اليمن
(بقيادة شمس الدولة فخر الدين تورانشاه)
٥٦٩هـ/١١٧٤م

الدكتورة فايزة الكلاس
قسم التاريخ
جامعة دمشق

تمهيد:

هنالك العديد من الدراسات التي تناولت الأوضاع السياسية والاجتماعية لليمن، في مختلف العصور الإسلامية، وتتباين وجهات النظر كثيراً بين المؤرخين لأسباب عديدة تتعلق بالمناهج، والانتماء الفكري، والسياسي، والوطني، والقومي، ومن هذه الدراسات: الحملة الأيوبية الأولى "أسبابها ونتائجها" وسأحاول أن ألقي بعض الضوء على هذا الموضوع محاولة تقديم دراسة تحليلية لمجمل وجهات النظر حول دوافع الأيوبيين للاستيلاء على اليمن، وما تمخض عنها من نتائج.

وضع اليمن السياسي قبل الحملة:

يعدّ اليمن من الأقطار المهمة في وطننا العربي، بل من المناطق الاستراتيجية في العالم بسبب ما تمتع به من موقع جغرافي هام منذ أقدم العصور فهو يهيمن على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، وباب المندب، وخليج عدن، ويطل على البحر العربي، والمحيط الهندي، ويلاصق أفريقية من جهة الصومال. واليمن عند الإخباريين أرض واسعة يحدها من الغرب البحر الأحمر ومن الشرق الخليج العربي ومن الجنوب البحر العربي وتصل حدودها الشمالية لتغطي منطقة تهامة[١]، وبدخول اليمن في الإسلام أصبحت جزءاً من الأمة الإسلامية وولاية تابعة للدولة الجديدة في المدينة وشغلت دوراً فعالاً في توسيع الدول الإسلامية الجديدة، واستمرت تؤدي دورها المنوط بها كولاية تابعة لعاصمة الخلافة سواء في المدينة أو دمشق أو بغداد. وما إن بدأ الضعف يدب في الدولة العباسية حتى ظهرت النزاعات السياسية في اليمن، وأصبحت بلاد اليمن قبل التوسع الأيوبي فيها مجزأة ومفككة سياسياً، فظهرت فيها دويلات سياسية متعددة، مختلفة فيما بينها مذهبياً ومتعادية سياسياً ومتحاربة عسكرياً وكانت تلك الدويلات موزعة على النحو التالي:

بنو زريع، وكانوا إسماعيلية فاطميون يحكمون: عدت، ولحج، وأبين، وبعض مناطق تعز، وحكم سلاطين جنب، مدينة ذمار، ومخالفيها بينما حكم بنو حاتم وهم إسماعيلية أيضاً حصن أشيخ، في آنس، وصنعاء وما حولها[٢]، ووصل سلطانهم إلى بلاد الظاهر في البون، من حاشد، شمال صنعاء. أما بنو مهدي، فقد حكموا تهامة من حرض، حتى تعز، وذي جبلة، في مخلاف جعفر، وبعض مناطق تعز، كذلك حكم الشريف قاسم بن غانم بن وهاس المخلاف السليماني، وحكم الإمام الزيدي أحمد بن سليمان صعدة، والجوف وما حولها، وكانت أكثر العلاقات توتراً وعداءً في المنطقة بين بني مهدي، وهذه الدويلات بسبب محاولات التوسع على حساب دولة بني زريع في الجنوب ودولة الشريف قاسم في الشمال، وبالمقابل حاول كل من بني زريع، وبني

حاتم، وبني جنب، تكوين تحالف قبلي ضد ابن مهدي، فنجحوا في هزيمته وإيقافه عن التوسع في مناطقهم الأخرى(٣)، بينما تأرجحت علاقة الإمام الزيدي أحمد بن إسماعيل بسلاطين بني حاتم. فتارة سادها العداء والحرب، وتارة أخرى سادتها المصالحات(٤)، هكذا كان وضع اليمن السياسي قبل الحملة الأيوبية وفي ما يلي سأتحدث عن الدوافع التي أدت إلى مد النفوذ الأيوبي إلى هذا الإقليم المهم ومدى صحة هذه الدوافع.

- أسباب الحملة الأيوبية على اليمن:

تعددت آراء المؤرخين في أسباب الاستيلاء الأيوبي على اليمن، وما يهمنا هو إعطاء فكرة مختصرة عن هذه الأسباب لكي نلقي الضوء على أهداف الأيوبيين من الاستيلاء.

الرأي الأول: الخلاف الواقع بين نور الدين وصلاح الدين. بدأ الاهتمام ببلاد اليمن بعد أن استتب الوضع السياسي لصلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر وأصبح الرجل الأول فيها بعد أن تم اختياره كوزير عقب وفاة عمه أسد الدين شيركوه، ووفاة الخليفة العاضد. إن هذه التطورات قد أثارت مخاوف نور الدين محمود بن زنكي الذي كان يعدّ صلاح الدين تابعاً له، وكان يخشى أن يستقل صلاح الدين بمصر ويفك ارتباطه معه وبلغت العلاقة بين الرجلين حد التوتر، خاصة بعد انسحاب صلاح الدين من محاصرة حمص الكرك، التحدي المشروع العسكري الذي أراد نور الدين تعاون صلاح الدين لهذا الانسحاب، إلا أن للوجود الصليبي رغم التسويفات التي قدمها صلاح الدين لهذا الانسحاب، إلا أن نور الدين لم يكن مقتنعاً لذلك خاف صلاح الدين من ردة فعل نور الدين بأن يقوم بإخراجه من مصر، الأمر الذي دفعه إلى إيجاد إقليم بديل عن مصر يلجأ إليه فيما لو تمكن نور الدين من إخراجه(٥).

الرأي الثاني: خوف صلاح الدين من إخوته لكثرتهم، وخاصة من أخيه الأكبر تورانشاه، أن يأخذ منه السلطة في مصر كونه كثير النفقات، ولم يكن إقطاعه في

مصر يفي بمتطلباته، لذلك سعى أن يبعث به إلى اليمن ليكون له مملكة في منطقة أخرى بعيدة عنه[٦].

الرأي الثالث: أراد صلاح الدين السيطرة على اليمن، بسبب ظهور ابن مهدي فيها وسفكه لدماء أهلها ونهب أموالهم، وتغلبه على مناطقهم وخروجه عن طاعة الخلافة العباسية، فضلاً عن خوف صلاح الدين من أن يستولي ابن مهدي على الأماكن المقدسة في مكة المكرمة، والمدينة المنورة، لأنه أشاع أن ملكه سينشر على الأرض كلها[٧].

الرأي الرابع: أراد صلاح الدين بسيطرته على اليمن تأمين القوافل التجارية، القادمة من الهند والصين إلى مصر عبر اليمن. لأن النشاط التجاري عبر اليمن كان قد نشط منذ العهد الفاطمي بمصر، وبدأ يقل نشاطه في العهد الأيوبي فأثر ذلك على دخل مصر المالي[٨].

الرأي الخامس: حرض عمارة اليمني صديقه فخر الدين تورانشاه على الذهاب إلى اليمن، وأخبره أن فيها خبرات كثيرة وملك كبير، سواء أكان ذلك التحريض حقيقة من عمارة أن تكون اليمن تابعة للأيوبيين، أم أنه يهدف من وراء ذلك إلى إخراج عدد من الجيش الأيوبي عن مصر ليسهل له بعد ذلك ولأتباعه التآمر على صلاح الدين والقضاء عليه وإعادة الدولة الفاطمية إلى مصر بمساعدة الشيعة والصليبيين[٩].

الرأي السادس: سعى صلاح الدين بإرساله حملة إلى اليمن للقضاء على مختلف المذاهب التي لا تتوافق ورؤية الخلافة العباسية مثل مذهب الإسماعيلية (الفاطمية) ومذهب الخوارج، والزيدية[١٠].

الرأي السابع: أرسل صلاح الدين حملته إلى اليمن نتيجة طلب مسبق من الشريف قاسم بن غانم صاحب المخلاف السليماني وأهل تهامة النجدة من الخلافة العباسية،

وصلاح الدين، لنجدتهم بالقدوم إلى اليمن للسيطرة عليها من ابن مهدي، الـذي أقـدم على قتل وهاسّ بن غانم، وعدد من أهل حرض سنة (٥٦١هـ/١١٦٦م)، وخاصة أن الشريف قاسم وأهل تهامة كانوا من أهل السنة وموالين للخلافة العباسية، وابن مهدي خارجاً عن طاعتها[١١].

في الواقع أن هذه الآراء عبارة عن وجهات نظر المؤرخين في سبب اتجـاه صـلاح الدين الأيوبي لفتح اليمن وليس شرطاً أن تكون هذه الآراء هي التي دفعـت صـلاح الدين لفتح اليمن وإذا ما تناولنا مناقشة وتحليـل الأسـباب المختلفـة التـي ذكرهـا المؤرخون نرى ما يلي:

- مناقشة وتحليل الأسباب التي أوردها المؤرخون:

١. مسألة الخلاف بين نور الدين وصلاح الدين:

إن عدم إكمال صلاح الدين عملية حصاره لحصن الكرك وانسحابه بقواتـه معتـذراً بوجود قلاقل داخل مصر، جعل نور الدين غير مقتنعٍ بهذه المبررات واعتبر انسحابه تنصلاً عن مشروع التعاون المشترك سيما وأن صلاح الدين قد كرر انسحابه عنـدما أعاد نور الدين الكرة في محاصرة الإفرنج بالتعاون مع قوات صلاح الدين، وفي هذه المرة برر صلاح الدين تصرفه باعتلال صحة أبيه ووجوب رجوعه إلى مـصر[١٢]، وحقيقة الأمر أن كلا الرجلين لهما فهمٌ خاصٌ في مقاومة الوجود الصليبي إضافة إلـى اختلاف طباع الرجلين ونظرتهما حول سيادة المنطقة[١٣]. وعلى أية حال، فـإن نـور الدين كان يعتبر بلاد الشام الساحة الرئيسة للعمليات الحربية العسكرية ضد الإفـرنج وما بلاد مصر سوى مصدر لرفد هذه العمليات مادياً وبشرياً. وعليه يجب أن تكـون مصر خارج متناول الصليبيين.لكي تؤدي هذا الدور[١٤]، بينما يرى صلاح الـدين أن مصر يمكن اعتبارها قاعدة رئيسة لمواجهة الصراع الصليبي وبالأخص مملكة بيـت المقدس، ونتيجة لذلك فإن مفهوم إدارة الصراع قد اختلف بين هذين الـرجلين وعلـى

هذا الأساس فإن مصر تخرج من دائرة النفوذ الزنكي[١٥]. وقد كان نور الدين يأمل أن تصله الأموال الكافية لتغطية عمليات التصدي للإفرنج من بلاد مصر، إلا أن ما وصله هو متواضع أمام النفقات التي صرفت على الحملات العسكرية لتجهيز جيش الشام لمساندة مصر. وتبعاً لذلك أرسل نور الدين من يحصي له إيرادات مصر وهذا بحد ذاته يوضح عدم ثقة نور الدين بموقف صلاح الدين[١٦]. ولصلاح الدين أسبابه في عدم إرهاق خزانة مصر في تغطية مشروع العمليات العسكرية التي اقترحها نور الدين لأنه أدرى بأوضاع مصر الاقتصادية يضاف إلى ذلك الدور المعادي الذي قام به القواد في جيش الشام المرسل لمصر والذين تضررت مصالحهم الشخصية بتولي صلاح الدين الوزارة دونهم[١٧]، وخلاصة القول إن صلاح الدين يرى أن الخطر الصليبي لا يشمل بلاد الشام فحسب وإنما يشمل بلاد مصر وعليه يجب بناء قوة عسكرية رادعة وقوية وهذا ما بدأ صلاح الدين في تحقيقه فعلاً. وهنا حط احتمال عزم نور الدين على إخراج صلاح الدين من مصر بالقوة وضمها إلى دائرة النفوذ الزنكي، وبناء على هذه التطورات عقد صلاح الدين اجتماعاً يحضره أبيه نجم الدين حول التصرف الذي يجب أن يشكله إذا ما قرر نور الدين إخراجهم بالقوة فاتفقوا بأن يكتب صلاح الدين إلى نور الدين مؤكداً له إخلاصه وطاعته له وإن شاء تغييره فهو مستعد لذلك وأن لا يكترث بالمجيء إلى مصر[١٨]، وهذا كان قد هدّأ من روع نور الدين قليلاً، وصرفه ولو وقتياً ومما تجدر الإشارة إليه أنه لا يعول كثيراً على الروايات التي ذكرها مؤرخون معادون لكلا الرجلين فالمعروف أن ابن الأثير متحامل على صلاح الدين لأنه يميل إلى الأسرة الزنكية التي عاش في كنفها في الموصل[١٩]، وإن المؤرخ ابن أبي طي يكره نور الدين، الذي أخرج أباه من قلعة حلب ونفاه[٢٠]. والحق أن صلاح الدين لم يقطع صلاته مع نور الدين، وظل يأخذ بآرائه خاصة بجعل الخطبة لبني العباس في مصر وتجهيز الحملة على بلاد اليمن، والتعاون بينهما في التصدي لغزو الإفرنج على دمياط. وآخر دليل على حرص نور الدين على مكانة

صلاح الدين في مصر ما قاله نور الدين لتورانشاه أخ صلاح الدين الأكبر عندما أرسله إلى مصر من الشام وحذره من مغبة اختلافه مع صلاح الدين[٢١]، وأخيراً قد يكون هناك اختلافات في وجهات النظر ولكنها لم تؤثر حول نظرة الرجلين الجوهرية، والهدف المهم هو إخراج الإفرنج من الشرق وتحريره من وجودهم. هذا ويعد قرار ضم بلاد اليمن إلى إمكانيات مصر وبلاد الشام في التصدي لمطامع الصليبيين في المشرق العربي بالإضافة إلى جعل هذا القطر تابعاً لسلطة الخلافة العباسية، وفيما يتعلق بمسألة محاولة الأيوبيين إيجاد وطن جديد لهم في حال تمكن نور الدين من إخراجهم من مصر فإن ذلك غير صحيح ذلك أن صلاح الدين قد اقترح أمر الحملة العسكرية على اليمن على نور الدين فوافق الأخير طالما أن هدفها يصب في مصلحة المسلمين ولو كانت الحملة تهدف إلى إيجاد وطن لبني أيوب لرفض نور الدين[٢٢]، بل لكان من المؤكد أن يستعيد صلاح الدين قواته من اليمن فيما لو كان يبحث عن وطن جديد بعد زوال الأسباب الداعية لإرسالها، أي بعد وفاة نور الدين، وذلك بعد قيام الحملة بوقت قصير. لا بل واصل إرسال المزيد من الإمدادات إلى اليمن، ضماناً لاستمرار تبعيتها للدولة الأم التي أصبح مركزها مصر أما فيما يتعلق بمسألة كثرة إخوة صلاح الدين وقوة بأسهم وخوفه من منافستهم له[٢٣]، فهذا غير صحيح، فالظروف التي كانت تعيشها الأمة الإسلامية سواء كانت خارجية أو داخلية متمثلة بالهجمات الصليبية وحالة التفكك والتمزق الداخلي جعلته بأمس الحاجة إليهم، أما من ناحية أن تورانشاه كان كثير الإنفاق وإن إقطاعه بمصر لا يكفيه[٢٤]، فهو سبب غير مقبول لتجهيز حملة تكلفت بمبالغ طائلة من أجل تحقيق مكاسب شخصية، هذا إلى جانب أن صلاح الدين كان في مقدوره أن يزيد مخصصات أخيه إذا كان هدفه تحقيق أغراض ومكاسب شخصية باعتباره حاكم مصر آنذاك وكل موارد مصر تحت سيطرته.

أما فيما يختص بأمر ابن مهدي في اليمن فليس سبباً كافياً بتلك الحملة لأن الهدف كان ليس القضاء على ابن مهدي في زبيد فقط، وإنما القضاء أيضاً على النفوذ الشيعي في عدن وصنعاء أيضاً. وفيما يتعلق بالأماكن المقدسة وخوف صلاح الدين عليها فهو ليس من قبل ابن مهدي، وإنما ذلك مرتبطاً بوضع الحبشة المسيحية وخوفه من أن يحصل أي اتصال أو تعاون صليبي معها يشكل تهديداً على الأماكن المقدسة(٢٥). أما فيما يتعلق بتأمين القوافل التجارية عبر الحبر الأحمر، فقد كان البحر الأحمر تحت سيطرة الخلافة الفاطمية، وكان من دوافع الخلافة الفاطمية في السيطرة على اليمن تجارة الكارم (تجار التوابل)، مع الشرق الأقصى، لذلك لما استلم صلاح الدين السلطة بقي الإداريون الفاطميون أنفسهم، وبالتالي السياسة الأيوبية هي نفسها السياسة الفاطمية (المصرية) التجارية متعلقة بالدرجة الأولى بميناء الإسكندرية، السيطرة على البحر الأحمر وملاحة البحر الأحمر تقود إلى موانئ الهند، ومن ثم إلى بحر العرب أو المحيط الهندي، والمصريون كان عندهم سفن مصنعة للإبحار في البحر المتوسط، وعندهم سفن مصنعة خصيصاً للإبحار في المحيط الهندي والفارق بين سفن المتوسط وسفن المحيط الهندي ليس فقط الأشكال وعدد الأشرعة والمجذفين والصواري، بل في فن التصنيع فسفن البحر المتوسط كانت أخشابها تضم إلى بعضها بعضاً بواسطة المسامير، بينما كانت سفن المحيط الهندي تنسج أو تضم الأخشاب إلى بعضها البعض نسجاً بواسطة الربط بالأمراس والحبال، وكانت سفن المحيط الهندي هي سفن تجار الكارم أو التوابل كانت تحمل من الشرق الأقصى التوابل والحرير والعطور وغير ذلك(٢٦). هكذا استفاد صلاح الدين فائدة كبيرة من هذه القوة البحرية بتأمين القوافل التجارية القادمة من الشرق الأقصى إلى مصر عبر اليمن (تجارة الكارم). أي ورث الأيوبيون عن الفاطميين سياستهم الخارجية تجاه بلاد اليمن والحجاز واهتموا بفرض نفوذهم على هذه البلاد خاصة حين امتد الخطر الصليبي إلى البحر الأحمر نفسه بقصد تهديد المقدسات الإسلامية، والتحكم في تجارة البحر الأحمر، ذلك أن البحر الأحمر

يمثل الطريق البحري الرئيس الذي يربط التجارة الشرقية بالغرب الأوروبي عبر مصر وكيف تتناوب مع الخليج العربي الريادة في هذا المجال، وفقاً للظروف السياسية، التي كانت تمر بها منطقة الشرق الأدنى عبر حقب التاريخ وكيف تبوأ مكان الصدارة منذ أن قامت الدولة الفاطمية في مصر بعد أن مرت الخلافة العباسية بظروف صعبة في عصريها الثاني والثالث، وبعد أن سيطرت قوى الصليبيين على المناطق الجنوبية من الأردن وفلسطين، وقطعت الطريق بذلك على مسالك التجارة وعلى درب الحج عبر سيناء، على هذا النحو استعاد البحر الأحمر مكانته القديمة وأهميته منفذاً رئيساً هاماً للتجارة الشرقية، مما دفع السلطات الفاطمية إلى العمل على تأمين الملاحة فيه، غير أن الدولة الفاطمية لم تلبث أن تعرضت في أواخر أيامها لبعض الصعاب الاقتصادية بسبب اضطراب الأحوال في مصر(٢٧)، مما ترتب على قيام أزمة نقدية في مصر نتجت عن المقاطعة الأوروبية لتجارة المرور عبر الأراضي المصرية. ونضوب موارد التبر من مناجم الذهب بالعلاقي، ولكن صلاح الدين نجح في بداية توليه للسلطة في التغلب على تلك الأزمة عن طريق تنظيم موارد بلاده، وإصلاح النقد بفضل عنايته بتجارة البحر الأحمر، التي زادت أهميتها في هذا العصر(٢٨)، وهكذا شهد البحر الأحمر في العصر الأيوبي نشاطاً تجارياً واسع النطاق فاق ما سبقه من عهود وازداد نشاط تجار الكارمية في نقل السلع الشرقية من عدن إلى عيذاب، التي أصبحت منذ العدوان الصليبي عليها موضع اهتمام سلاطين بني أيوب، فزادت أهميتها كقاعدة بحرية تجارية، ومحطة رئيسة لتجار الهند واليمن والحبشة، وعدوة هامة لعبور الحجاج إلى الأراضي المقدسة، وأصبحت قوص مركز نشاطهم في الصعيد(٢٩). ونتيجة لازدهار تجارة الكارم في العصر الأيوبي، ازداد ثراء العاملين بهذه التجارة، وذلك لما قام به سلاطين الأيوبيين من جهود من أجل حماية ورعاية التجارة، التي كانت تمثل حجر الزاوية في اقتصاد مصر في ذلك الوقت، وكذلك كانت لهذه الجماعة مكانتها وشهرتها في عصر الأيوبيين بدليل أن المقريزي

حين حدثنا عن وصوله من عدن إلى مصر في ربيع الأول سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م. ذكرهم دون أن يعرفنا بهم بدليل ما كان لهم من شهرة وعلمه أنهم ليسوا في حاجة إلى التعريف[٣٠]. وقد تجلت عظمة هذه الطائفة التجارية عندما استجابوا للاتصال التجاري الهائل بين الشرق والغرب، عند مطلع القرن الخامس الهجري، فأصبحوا كبار التجار المشتغلين بتجارة الشرق العلمية، وأصبح التاجر الكارمي، هو تاجر التوابل وسلع الشرق الغالية الثمن أساساً، تلك السلع التي أصبحت أهم تجارة لمصر مع الغرب في العصر الأيوبي[٣١]، ويرجع الفضل في ازدياد أهمية هؤلاء التجار إلى نجاح الأيوبيين في إقرار النفوذ المصري في البحر الأحمر، وفي تنظيم شؤون التجارة في اليمن وفي غيرها من بلدان البحر وموانيه، الأمر الذي أدى إلى تمتع التجار بأمان على أنفسهم وأموالهم في تلك المناطق الإسلامية وإتاحة فرص لكسب لهم[٣٢].

هذا وقد انفرد تجار الكارم المسلمون، بعد خروج اليهود من تجارة الكارم، بالعمل في هذا النوع من التجارة، ونقلوا مركز مشاطهم من عدن إلى القاهرة في العصر الأيوبي، نتيجة لما حدث من تطورات في التجارة العالمية بعد أن انتقل مركز هذه التجارة من موانئ المحيط الهندي إلى موانئ البحر المتوسط وكان من الطبيعي أن ينقل تجار الكارم المسلمون، مركز نشاطه إلى القاهرة والإسكندرية ليكونوا على مقربة من المركز التجاري الجديد، ومن شدة اهتمام سلاطين الأيوبيين بطائفة الكارم لما تدره من تجارتهم من مورد على اقتصاد مصر، قدموا لهم التسهيلات اللازمة حتى أنهم خصصوا لخدمتهم موظفاً حكومياً كبيراً يهتم بهم ويسهل لهم أمورهم وهو مستوفي البهار والكارم. وتحدث القلقشندي عن اختصاص الموظف الذي يشغل هذه الوظيفة بقوله: "إن موضوعها التحدث على واصل التجار الكارمية من أصناف البهار وأنواع المتجر"، وهي وظيفة جليلة تارة إلى الوزارة وتجعل تبعاً لها، وتارة تضاف إلى الخاص وتجعل تبعاً لها، وتارة تنفرد عنهما بحسب ما يراه السلطان[٣٣]. وكان على مستوفي البهار والكارم مسؤولية أن يلاحظ ويجرد كل الوارد على أيدي تجارة

الكارم من عدن ثم جدة إلى مصر والداخل في فنادقهم والمباع للتجار الأوربيين[٣٤]، ولضمان سلامة هؤلاء التجار وتجارتهم قام الأيوبيون بتعقب خطر المتجرمة في مياه البحر الأحمر، فرصدوا سفناً من أسطولهم لهذه الغاية، كذلك وفرت الدولة الأيوبية لتجار الكارم الأمن في الطرق البرية بين موانئ مصر على البحر الأحمر وبين النيل وواديه. وهناك من يقول: إن الخدمات التي كانت تؤديها الدولة الأيوبية لتجار الكارم، كانت مقابل أموال ومساعدات كان الكارم يقدمونها للدولة في أوقات أزمتها المالية والاقتصادية، ويستند أولئك في ذلك على ما أشار إليه المقريزي من تحصيل صلاح الدين لزكاة أربع سنين من تجار سفن الكارم دفعة واحدة في سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م، والحقيقة أن هذا افتراض لا وجود له، ذلك لأن صلاح الدين لم يحصل من تجار الكارم سوى الزكاة ولم يحصلها بهذه الطريقة منهم سوى مرة واحدة، وذلك لحاجته إلى المال في ذلك الوقت لمجاهدة الصليبيين الذين هاجموا عيذاب والبحر الأحمر في العام نفسه، ولم يذكر المقريزي ولا غيره من المؤرخين أن صلاح الدين عاود الطلب من تجار الكارم. بل إننا نجده على العكس من ذلك يسقط عن تجار الكارم ما كان يجبى عليهم بعيذاب من زكاة أموالهم بضع سنوات تشجيعاً للقدوم إلى مصر[٣٦]، لإنعاش اقتصادها، كذلك نجد أن هذا الافتراض لا يتعايش مع السياسة المالية التي اتبعها صلاح الدين، والتي كان يسير عليها بمقتضى الشريعة الإسلامية[٣٦]، وخاصة بالنسبة للمكوس فكان لا يحصل من التجار المسلمين سوى زكاة أموالهم[٣٧]، ومن غير المسلمين كان لا يحصل سوى العشر[٣٨].

هذا واختلفت طبيعة التاجر الكارمي في العصر الأيوبي عنها في العصر الفاطمي، فقد كانت كميات السلع التي ينقلها تجار الكارم في العصر الفاطمي محدودة، أما بعد هذا العصر فقد أصبح التاجر الكارمي صاحب القوافل الهائلة التي كان يحميها بجند وخيالة تعمل لحسابه، وحقق هؤلاء التجار من وراء عملهم في تجارة الشرق أرباحاً هائلة، وثروات طائلة، فقد بلغت ثروة بعضهم مليون دينار، وبلغت ثورات البعض الآخر

أضعاف ذلك، وتعذر إحصاء ثروة بعضهم[٣٩]، وبذلك أدرك صلاح الدين أهمية البحر الأحمر بالنسبة للتجارة الشرقية (تجارة الكارم) وسعى على تنشيط هذه الحركة التجارية وإنعاشها بشتى السبل والوسائل سواء بتخفيف أعباء المكوس المفروضة على التاجر، وعلى حجاج مصر، والمغرب أو تأمين الطرق التي كان يستخدمها هؤلاء بحراً وبراً أيضاً، حرص صلاح الدين من خلال سيطرته على البحر الأحمر على حماية الحجاز من أي تهديد صليبي ولاسيما العملية التي قام بها أرناط فيما بعد ضد سواحل الحجاز. من جهة أخرى كان الفاطميون هم سادة الحرمين الشريفين والآن أصبح صلاح الدين أول من حمل لقب خادم الحرمين الشريفين، وهذا دعم نفوذه أيضاً في عدم الوفاق مع الخليفة الناصر[٤٠].

أما ما ذكر عن قيام عمارة اليمني بإغراء تورانشاه بالاستيلاء على اليمن، فكان الهدف منه التآمر لإعادة الدولة الفاطمية إلى مصر بمساعدة الشيعة، والصليبيين، ذلك أن عمارة اليمني اشترك في التخطيط مع بقايا الفاطميين للقضاء على الأيوبيين[٤١]، عن طريق الاتصال بأموري ملك بيت المقدس، ووليم الثاني ملك صقلية، وسنان راشد الدين (شيخ الجبل وأحد زعماء الإسماعيلية)، واتفقوا على أن تقوم قواتهم بغزو مصر وقت أن يكون صلاح الدين بعيداً عنها[٤٢]، في الشام وتورانشاه في جزء من الجيش الأيوبي في اليمن، ومن ثم يتولى المتآمرون في الداخل القيام بثورة في القاهرة وقت الغزو الخارجي[٤٣]، حتى لا تستطيع القوات الأيوبية التصدي في وقت واحد للعدوان الخارجي، أو لمقاومة الثورة في الداخل[٤٤]. وبذلك يمكن إعادة سيادة الدولة الفاطمية من جديد، وبعد خروج تورانشاه بحملته إلى اليمن اكتشفت المؤامرة وتخلص صلاح الدين من مدبريها وعلى رأسهم عمارة اليمني، الذي صلب في الثاني عشر من رمضان سنة ٥٦٩هـ/ ١٦ أبريل سنة ١١٧٤م-[٤٥]. ذلك قبل وفاة نور الدين بشهر واحد[٤٦]. أما بالنسبة لقرار صلاح الدين بتوجيه الحملة إلى اليمن من أجل القضاء على المذاهب المختلفة فيها والمخالفة للخلافة العباسية[٤٧]، فهذا صحيح. ذلك عندما

يتم القضاء على التعددية المذهبية يكون لذلك قد أبعد المنطقة عن النزاعات الداخلية والحروب الطائفية الناجمة عن هذا الأمر وانطلاقاً من ذلك يستطيع تحقيق إعادة توحيد الدولة العربية الإسلامية في ظل الحكم المركزي المتمثل في الخلافة العباسية في بغداد.

أما ما أوردته بعض المصادر من أن الحملة كانت نجدة للشريف قاسم بن غانم صاحب المخلاف السليماني ضد ابن مهدي، فإن تحليل هذا القول يوضح أن مهاجمة ابن مهدي للمخلاف السليماني وقتل الشريف وهاس، كان سنة ٥٦١هـ/ ١١٦٦م، وكان يجب على أشراف المخلاف باعتبارهم علويين أن يطلبوا مساعدة الخليفة الفاطمي بمصر وليس الخليفة العباسي في بغداد.

أما فيما يتعلق بأمر طلب المساعدة من صلاح الدين فهذا غير منطقي لأنه من المعروف أن صلاح الدين لم يكن قد جاء إلى مصر حتى ذلك التاريخ، وأن تقلده للوزارة في مصر كان سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م، أي بعد سنوات من مقتل الشريف وهاس، وبذلك يتضح أن الحملة لم تكن استجابة لدعوة الشريف السليماني(٤٨).

مما تقدم ومن خلال دراسة مجريات الأحداث في العالم الإسلامي آنذاك نرى أن أهم الأسباب الرئيسة في اتجاه صلاح الدين الأيوبي لفتح اليمن الآتي:

١- السبب الأول: فكرة الدولة الإسلامية الواحدة:

فمنذ تكوين الدولة الإسلامية سيطر الفكر الإسلامي السياسي والديني على فكرة الدولة الواحدة على جميع المناطق التي تدين بالإسلام، والعمل على المحافظة عليها. وليس الأمر كذلك فحسب، بل السعي إلى نشر الدين الإسلامي خارج نطاق حدودهم بالتوسع للسيطرة على البلدان المجاورة. لذلك كان ضرورياً لكل دولة إسلامية العمل على تحقيق ذلك الهدف بما أتيح لها من قوة، بالإضافة إلى أن هذه الوحدة لم يكن هدفها الاقتصار على القضاء على الدويلات السياسية ذات المذاهب الواحدة. بل القضاء على

جميع المذاهب الإسلامية، التي ظهرت آنذاك في العالم الإسلامي من شيعة، وخوارج، وتوحيدهم في دولة سياسية واحدة، ومذهب ديني واحد، هو مذهب أهل السنة، أو مذهب الخلافة العباسية، وهو المذهب الذي يدين به نور الدين وصلاح الدين، لأن التعدد المذهبي والسياسي جلب للمسلمين حروباً مهلكة، أدت إلى إضعافهم واختلافهم، وافتراقهم، فانقسم العالم الإسلامي بين هذه المذاهب المتعددة إلى عدة دويلات متحاربة فحتم ذلك على نور الدين وصلاح الدين محاولة توحيد وإيجاد قواسم مشتركة بين الجميع.

٢- فكرة توحيد الجبهة الإسلامية:

ظهرت هذه الفكرة حينما بدأ الصليبيون يعملون على تكوين جبهة صليبية واحدة ضد المسلمين، جمعت كل أوروبا واتجهوا لغزو العالم الإسلامي، فشكل ذلك خطراً على المسلمين، الذين كانوا قد افترقوا وانقسموا إلى عدة دويلات مختلفة سياسياً ومذهبياً، لذلك كان لا بد من مجابهة هذه الجبهة الصليبية بجبهة إسلامية موحدة، والعمل على تدعيمها وتقويتها وتأمين حدودها، كما كان عليه من أجل تحقيق السيادة العباسية أن يقضي على خلافة الفاطميين بمصر ويتخلص من النفوذ الشيعي أينما وجد، لذلك وما إن تولى صلاح الدين منصب الوزارة للعاضد في مصر[٤٩]، سعى للقضاء على الخلافة الفاطمية، وذلك عن طريق كسب رضى الشعب المصري وبدء تشكيل جيش جديد لكي يقوم بدرء الخطر الإفرنجي[٥٠]، ونجح في توظيف الموارد الاقتصادية لمصر بغية خدمة الاستقرار الداخلي للبلاد والأمن الخارجي، وقد أثبتت هذه السياسة نجاحها منذ وقت مبكر في التصدي للغزو الصليبي على دمياط[٥١]. إن صلاح الدين كان يعي دور مصر وطاقاتها من أجل الوقوف أمام الخطر الصليبي الذي نجح في زرع وجود له في المشرق. وبغية تحقيق وحدة الجبهة العربية الإسلامية لا بد من إزالة الخلافة الفاطمية في مصر لأنها تشكل عقبة أمام هذا المشروع المهم في المستقبل[٥٢]، من وجهة نظر صلاح الدين. ومن المعروف أن الصراع على السلطة

يغطى دائماً بغطاء ديني لإعطائه الصفة الشرعية، برأي أصحابه، وعلى العموم استطاع صلاح الدين إعادة مصر إلى حظيرة الدولة العربية الإسلامية وعاصمتها بغداد، وذلك من خلال إعلان الخطبة للخليفة العباسي صاحب الحكم المركزي للخلافة الإسلامية في بغداد على الرغم من أن الخلافة العباسية لم يكن لها أي دور قيادي أو فعلي في تلك الآونة، ولا تحمل سوى السيادة الاسمية، ولكن الهدف الأساسي جعل مصر تحت سيادة وسلطة واحدة لمجابهة العدو والاستفادة من طاقاتها.

وهكذا كانت تلك العوامل وحدها هي التي حركت سياسة صلاح الدين وحكمت تصرفاته فكانت حملة النوبة سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م. من أجل مطاردة بقايا الجيش الفاطمي من السودانيين الذين لجؤوا إلى جنوب مصر وعملوا على إثارة الشغب وأخذوا يتحينون الفرص للقضاء على دولة صلاح الدين لذلك استهدفت هذه الحملة، وهي بقيادة تورانشاه تعقبهم بغية القضاء عليهم، وتطهير جنوب مصر منهم، وتأمين حدود البلاد من جهتهم وقد حققت الحملة العسكرية هدفها بالاستيلاء على بلاد النوبة ولاسيما قلعتها أبريم، وكانت بلاد النوبة أول البلدان التي فكر الأيوبيون بها، لاتصالها جغرافياً ببلاد مصر، وبعد الحملة اتضح للأيوبيين أن النوبة لا تمتلك تلك الإمكانات الاقتصادية التي سعوا إليها، لذلك فكروا في الاتجاه إلى اليمن(٥٣).

أما حملة المغرب سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م. فقد ذكرت المصادر أنها كانت من أجل تحقيق ما يشاع من ثروة المغرب وأن يقيم تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين دولة فيها(٥٤). ولكن الأحداث تشير إلى أن تلك الحملة كانت من أجل تحقيق سيادة السلطة العباسية ومساعدة بني غانية الموالين للعباسيين ضد أعدائهم من الموحدين(٥٥)، ويؤكد ذلك أن ابن خلدون يعلل اتصال قراقوش بابن غانيه، بأن صلاح الدين أمر بذلك حسب طلب الخليفة العباسي، إذ إن ابن غانيه كان يدعو للخليفة العباسي(٥٦)، وهذا التعاون بين قراقوش والميورقيين، يشير إلى أن الأيوبيين كانوا يمهدون للتدخل ولكن ظروفهم لم تكن مناسبة وبالمقابل الموحدون يعلمون ذلك منهم، ولهذا لما طلب صلاح

الدين المساعدة من الخليفة يعقوب المنصور ضد الصليبيين رفض الأخير طلبه، ذلك أن تحرير بيت المقدس من الصليبيين كان له ردة فعل قوية في غرب أوروبا فعدت حملة صليبية جديدة من الحملة الصليبية الثالثة، التي امتد تاريخها ثلاث سنوات (٥٨٥-٥٨٨هـ/١١٨٩-١١٩٢م)، وبلغ صلاح الدين استعداداتها، لذلك قام بترتيبات عسكرية ودفاعية، كما يوفد الرسل إلى مختلف الجهات من ضمنها إلى خليفة المغرب يعقوب المنصور لإعانته بالأساطيل لتحول بين أساطيل الصليبيين وبين إمداد الفرنجة بالشام، ولاسيما أن خطة الحملة كانت تعتمد على الارتحال إلى جزيرة صقلية، ومنها يتم قصد الأراضي المقدسة، وعلم صلاح الدين بهذه الخطط لذلك قام بإرسال سفارة إلى الموحدين كي يغلقوا مضيق مسينا الممر الوحيد الذي كان عليهم عبوره أثناء توجههم إلى فلسطين ليمنع وصول الحملات[٥٧]، ولكن رسول صلاح الدين أخفق إذ كان للخلاف في العقيدة بين الطرفين أثره ما دام الأيوبيين يدعون للخليفة العباسي ولا يعترفون بالموحدين كخلفاء للإمام المعصوم* ولاسيما أن الموحدين كانوا يرون أنفسهم أحق بالخلافة من غيرهم لأنهم أكثر المسلمين إيماناً وأصحهم مذهباً وأعدوا الخليفة أي أمير المؤمنين مرتبة دينية قبل أن تكون مرتبة عسكرية[٥٨]، خاصة وأن المنصور الموحدي أبدى في بعض المجالات طموحه لتحقيق رسالة المهدي في محاربة المنكر والبدع في طول ديار الإسلام وعرضها. إذ يذكر المراكشي أن المنصور صرح للموحدين عن نيته بالرحلة إلى المشرق وجعل يذكر البلاد المصرية، وما فيها من المناكر والبدع، ويقول: إنا إنشاء الله مطهروها ولم يزل هذا عزمه إلى أن مات سنة ٥٩٥هـ/١١٩٩م[٥٩]. وبذلك كانت دولة الموحدين بالمغرب تشكل خطراً على مصر والخلافة العباسية ولهذا كان لا بد من تأمين حدود مصر الغربية التي سبق للفاطميين أن هددوا مصر منها، واستطاع جوهر الصقلي أن يدخل مصر عن طريقها ويقيم فيها الدولة الفاطمية التي قضى عليها صلاح الدين. وفي الحقيقة أن صلاح الدين ظهر في ظروف غير عادية فموقفه في مصر لم يكن مستقراً بسبب التهديد الصليبي له في

الشام، مما شغل تفكيره طوال الوقت، ذلك أن مصر تعد خط الدفاع الأول لحماية بلاد الشام والحصن، الذي ينطلق منه للسيطرة على بلاد المغرب، فلو وجد الهدوء والاستقرار لحاول بسط نفوذه على منطقة النزاع الموحدي الصقلي[٦٠]، أما حملة تورانشاه سنة ٥١٩هـ/١١٧٤م، فقد كانت من أجل تحقيق سيادة المذهب السني بالقضاء على دولة ابن مهدي الخارجي في زبيد والتخلص من بقايا النفوذ الشيعي في عدن وصنعاء، والتي أصبحت اليمن مركزاً له، وخاصة بعد القضاء على الخلافة الفاطمية في مصر، ذلك أصبح الفتح الأيوبي ضرورة فرضتها وحدة الجبهة العربية الإسلامية من أجل الوقوف أمام الخطر الصليبي، كما حقق الاستيلاء على اليمن السيطرة على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، وذلك لضمان حرية التجارة القادمة لبلاد العرب ومصر. إن البحر الأحمر يمثل الشريان الاقتصادي، الذي يربط بلاد مصر مع بلاد الهند وساحل أفريقيا الشرقي، ويضاف إلى ذلك أن صلاح الدين كان يريد السيطرة والتحكم على نوايا الإفرنج العدوانية ضد الأماكن المقدسة وقد نجح في السيطرة على المنفذ الشمالي للبحر الأحمر، وبذلك تم تأمين مرور التجارة بالإضافة إلى حماية الأماكن المقدسة في مكة المكرمة، والمدينة المنورة بالإضافة إلى منع أي اتصال بالحبشة المسيحية، وتسلل الفكرة الصليبية في البحر الأحمر جنوباً إلى الأحباش، مما يؤدي إلى زيادة تأزم الوضع وبالتالي زيادة متاعب صلاح الدين[٦١].

- حملة تورانشاه:

ومهما يكن من أمر فقد استأذن صلاح الدين مولاه نور الدين بحملة اليمن بقيادة أخوه الأكبر شمس الدولة تورانشاه بفخر الدين، وجهزه بحملة عسكرية كبيرة فيها العديد من الأمراء والقادة وجمع من العساكر بلغ عددهم ثلاثة آلاف فارس وراجل، فضلاً عن أنه جهز بالكثير من الأموال التي يحتاجها لهذه الحملة وهي مالية قوص لمدة سنة[٦٢]، وبعد أن تم تجهيز الحملة بكافة المستلزمات العسكرية من أزواد وعدة خرجت من مصر نحو اليمن في رجب سنة ٥٦٩هـ/ فبراير ١١٧٤م. حيث تم

شحنها عن طريق البحر في حين أن الجيش الأيوبي سار عن طريق البر قاصداً مكة المكرمة لأداء مناسك العمرة، ومن الملاحظ أن شحن الحملة قد تم عبر عيذاب وليس عبر السويس أو العقبة من أجل تأمينها من التعرض للصليبيين، الذين كانوا يسيطرون على فلسطين[٦٣]. هذا وبعد أداء مناسك العمرة خرجت الحملة في رمضان من السنة نفسها نحو اليمن عبر طريق الحجيج، وعند وصولها إلى (حرض) من أرض اليمن أسرع حاكم المخلاف السليماني الأمير قاسم بن غانم بن يحيى السليماني معلناً الطاعة والولاء بسبب هجوم ابن مهدي على بلاده سنة ٥٦١هـ/١١٦٦م، وطلب أن يكون أول دخوله اليمن نجدة لبني سليمان ضد ابن مهدي فاستجاب تورانشاه له، باعتباره حاكماً لإحدى دويلات اليمن، كما اصطحبه معه كونه من القوى اليمنية التي ستسهل له معرفة مسالك الطريق وكيفية التعامل مع القوى اليمنية الأخرى[٦٤].

- السيطرة على زبيد والقضاء على دولة بني مهدي:

غادر شمس الدولة تورانشاه مدينة حرض في أواخر شهر رمضان من سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م، بصحبة الشريف قاسم بن غانم إلى زبيد، فوصلت قواتهما إليها في السابع من شهر شوال[٦٥]، ولما علم عبد النبي بن مهدي بوصول الجيش الأيوبي نحوه أسرع في الخروج لقتالهم خارج أسوار زبيد معتمداً أسلوب المباغتة في القتال مستغلاً تعب الحملة من جراء سيرها في الطريق، ولما دارت رحى الحرب بين الطرفين أخذ ابن مهدي يحمّس جنوده ويحثهم على القتال[٦٦]. ولكن قوات ابن مهدي لم تستطع الصمود أمام الجيش الأيوبي فانسحبت نحو زبيد للتحصن وراء أسوارها، ولكن الجيش الأيوبي تعقب الفلول المنسحبة واستولى على المدينة عنوة في اليوم التاسع من شوال وتم أسر ابن مهدي وأسرته، كما استبيحت المدينة وتم الاستيلاء على كل ما في الخزائن من الأموال وأقام تورانشاه في زبيد لضبط أمورها وإراحة جنده حتى شهر ذي القعدة[٦٧]، وهكذا تمكن تورانشاه من السيطرة على زبيد والقضاء على حكامها، وانتهت بذلك دولة بني مهدي من تهامة. ومن الملاحظ أن هناك العديد من الأسباب

التي أدت إلى انتصار الأيوبيين. منها أن قوات المهدي ضعفت منذ بداية ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م، بسبب تكتل قوات اليمن القبلية من بني زريع، وبني جنب، وبني حاتم ضدها، بالإضافة إلى عدم معرفة ابن مهدي لقدرة الجيش الأيوبي القتالية، ومن جهة أخرى أن الجيش الأيوبي كان أكثر عدداً من جيش المهدي الموجود في زبيد، بالإضافة إلى تدريبه العسكري العالي، كذلك استخدام الأيوبيين للسلالم، لاقتحام مدينة زبيد من جميع جهاتها، وفكرة استخدام السلالم لم تكن مستخدمة لدى اليمنيين بسبب حاجتهم إليها لكثرة جبالهم المحصنة طبيعياً(٦٨). إضافة إلى ذلك فإن الجيش الأيوبي كانت لديه المقدرة القتالية العالية في المناطق المفتوحة أكثر من المناطق الجبلية، وزبيد من المناطق المفتوحة، لذلك كله حقق الأيوبيون النصر على ابن مهدي. ولقد اختلف المصادر حول مصير عبد النبي بن علي بن مهدي، فقيل: إنه قتل في عام ٥٧٠هـ/ ١١٧٥م(٦٩). ومن المرجح أنه لم يقتل في حينها، ذلك أن بعض الروايات تشير إلى أنه جيء به أسيراً إلى عدن عند استيلاء تورانشاه عليها فيما بعد وأنه قد تم التحفظ عليه بعد ذلك في زبيد حتى وقع خلاف بشأنه فيها، فلما علم تورانشاه بذلك وهو بذي جبلة أرسل إلى نائبه في زبيد يأمره بقتل عبد النبي وأخويه، فنفذ النائب أمره في السابع من رجب سنة ٥٧٠هـ/ فبراير ١١٧٥م(٧٠)، من جهة أخرى عمل تورانشاه على إصلاح أحوال المدينة، وأعاد الخطبة فيها للخليفة العباسي وخطب له بعد الخليفة في جميع ما فتحه بعد ذلك من البلاد، ثم غادر تورانشاه في أوائل ذي القعدة سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م(٧١). لاستكمال السيطرة على بقية البلاد والحصون التابعة لبني مهدي، فسار نحو تعز فسيطر عليها دون مقاومة، وذلك بسبب لجوء حامياتها للتحصن في الجبال المجاورة لها ولخوفهم من الجيش الأيوبي، بعد ذلك توجه تورانشاه للسيطرة على جبل صبر، وجبل ذخر (جبل حبشي)، ولكنه لم يتمكن من السيطرة عليهما بسبب مناعة حصونها وظهور المقاومة من قبل حاميات ابن مهدي،

ومن أجل استغلال الوقت انسحب تورانشاه بجيشه وتوجه نحو الجند فسيطر عليها دون قتال[٧٢].

- الاستيلاء على عدن: وسقوط دولة بني زريع:

قبل أن يكمل تورانشاه الاستيلاء على باقي ابن مهدي توجه نحو عدن، للقضاء على دولة بني زريع، وما إن اقترب بجيشه من عدن حتى خرج جيشها بقيادة ياسر ابن بلال المحمدي نائب أبناء بني زريع، ولكنه هزم فانسحب بقواته إلى عدن للتحصن بها، فأسرع تورانشاه بإرسال فرقة من الجيش سبقته للسيطرة على المدينة، فأصبحوا محاصرين بين فكي كماشة، مما أربك جيش بني زريع وأوقعهم في الانهزام في شهر ذي القعدة سنة ٥٩٦هـ/ يونيو ١١٧٤م، وخلال دخول القوات الأيوبية تعرضت المدينة للنهب من قبلهم ولكن تورانشاه عمل على منعهم وقال: (ما جئنا لنخرب البلاد، وإنما جئنا لنملكها ونعمرها وننتفع بدخلها فلن ينهب أحد منها شيئاً)[٧٣]. وإذا كان الأيوبيون قد أباحوا نهب زبيد في بداية أمرهم ذلك لأنهم كانوا حديثي العهد باليمن، ومن أجل إثبات قوة وبأس جيشهم لإخافة باقي المناطق اليمنية حتى تسارع بالاستسلام إضافةً إلى أنهم كانوا بحاجة للأموال في بداية وصولهم إلى اليمن لتساعدهم على استمرار الفتح جون الانتظار في وصول الإمدادات المادية من مصر ويخالف الموقف في زبيد عنه في عدن ذلك أن نهب البلاد من شأنه أن يسيء إلى سمعة الأيوبيين، بالإضافة إلى تفكك الجند وتسابقهم للسلب والنهب وتنازعهم على الغنائم سيساعد على تجمع القوى المعادية لهم وييسر لتلك القوى مهمة الإجهاز على الحملة، لذلك منع تورانشاه جنده من نهب عدن، ومهما يكن فقد استقامت الأمور بعدن لتورانشاه بعد أن قضى على دولة بني زريع، وأقام فيها إلى النصف من شهر ذي الحجة (آب)، ثم توجه نحو مخلاف جعفر فسيطر على ذي جبلة، وتسلم حصن التعكر فيها سلماً دون قتال، وكان تابعاً لابن مهدي، في الثالث والعشرين من ذي الحجة سنة ٥٦٩هـ/ يوليو ١١٧٤م[٧٤]. ويرجع السبب في سيطرة الأيوبيين على ذي جبلة بدون قتال إلى ميل

أهلها إلى السلم ومخالفتهم لمذهب ابن مهدي، وضعف قواتهم فضلاً عن انتهاء دولة بني مهدي التابعين لها.

- الاستيلاء على صنعاء وسقوط دولة بني حاتم:

لم يمضِ وقت طويل حتى فتح تورانشاه الكثير من المعاقل والحصون ولم يبقَ له لاستكمال الفتح سوى حصن الدملوة[٧٥]، والبلاد العليا، ولهذا عمل على الاستيلاء على تلك البلاد فتوجه إلى ذروان شرق ذمار من بلاد قبائل جنب، وكان حاكمها عبد الله ابن يحيى الجنبي، فوصل إليها في أول محرم من سنة ٥٧٠هـ/ أغسطس ١١٧٤م[٧٦]. ودارت معركةو بين الطرفين رأى فيها عبد الله الجنبي أن لا قدرة له على المقاومة فصالح تورانشاه، بعد ذلك استولى تورانشاه على حصن المصنعة الواقع قرب ذمار من صاحبها محمد بن زيد بن عمر الجنبي دون قتال. ثم توجه إلى مدينة ذمار، ولكن قبائل جنب اعترضت طريقه في موضع يسمى (الرخمة) شرق ذمار، فنشبت بينهما معركة كبيرة في التاسع من محرم سنة ٥٧٠هـ/ أغسطس ١١٧٤م. قتل فيها خمسة وستون رجلاً من جند تورانشاه وعددٌ من رجال القبائل، بعدها واصل تورانشاه سيره إلى ذمار، فاستولى عليها، وأقام فيها عدة أيام، ثم غادرها قاصداً صنعاء، ولكن قبائل جنب اعترضت طريقه مرة ثانية، ودارت بين الفريقين معركة شديدة الضراوة دفعت تورانشاه إلى أن يحث جنوده على القتال، وقال لهم: (أين أنتم من ديار مصر؟ قاتلوا عن أنفسكم وإلا أكلتكم العرب). فقاتلوا قتالاً شديداً، انتهى بهزيمة قبائل جنب، حيث قتل ٧٠٠ من رجالهم، ولم يكتفِ تورانشاه بذلك، بل طاردهم حتى ألجأهم إلى حصن هرن شرق ذمار، ثم تركوه وذهبوا إلى صنعاء[٧٧]، ومن الملاحظ أن قبائل جنب استخدموا في حربهم أسلوب المباغتة والهجمات، التي يكثر فيها الكر والفر من أجل تكبيد الأيوبيين الخسائر الفادحة، حتى لا يستقروا في بلادهم. نتيجة لذلك لم يحاول تورانشاه العمل على ضم ذمار لسلطته، فقد خرج منها

دون أن يترك بها جيشاً للسيطرة عليها. وبالنسبة لحرب قبائل جنب للأيوبيين، فـذلك يرجع إلى محاولة التمسك بنظامها القبلي بالاحتفاظ بسلطتها على مناطقها.

- السير نحو صنعاء:

بعد ذلك، واصل تورانشاه سيره نحو صنعاء، فوصل إلى منطقة (الجيوب) قرب مدينة صنعاء، من شرقها الجنوبي في السابع عشر من محرم سـنة ٥٧٠هــ/ أغـسطس ١١٧٤م. معسكراً بها بمدة ثلاثة أيام. وبالمقابل ما إن سمع سلطان صنعاء ومخالفيهـا علي بن حاتم بقدوم الأيوبيين نحوه حتى أدرك أنه غير قادر على محـاربتهم، فنقـل خزائنه وسلاحه من صنعاء إلى حصن براشن[٧٨]، وذلك بعد أن أمر سور صنعاء[٧٩]، ويبدو أنه قصد من تخريب السور أن تكون القوات الأيوبية في صنعاء مكشوفة وبدون حاجز يحميها للإغارة عليها إذا ما سمحت الظروف[٨٠]، وحتى لا يـتمكن الأيوبيـون من الاستقرار بها. وعلى الرغم من خوف أهل صنعاء فإن جماعـة مـن مـشايخهم خرجوا إلى تورانشاه بطلب الأمان منه، فلما وصلوا إليه أمر بإحضار جماعـة مـن رؤوسائهم لمحادثتهم في أمور الدين للتعرف على مذهبهم الديني، وهل هم من أهـل المذاهب المعتدلة في الإسلام؟ أم من الغلاة لاسيما أن حكامهم بنو حاتم كانوا من أتباع الصليحيين الإسماعيلية، وبعد أن منح شمس الدولة تورانشاه الأمـان لأهـل صـنعاء دخلها وأقام بها عدة أيام، ثم تركها بسبب عدم توفر الميرة وسار نحو تهامة[٨١]، حيث أخذ طريق نقيل السود من بلاد بني شهاب وسنحان إلى الجنوب من صنعاء عائداً إلى تهامة فتعرضت مؤخرة جيشه لمهاجمة بعض القبائل عند عبوره تلك المنطقـة، ثـم تعرضت مؤخرة الحملة مرة أخرى لسطو قبائل بلاد برع[٨٢]، عند مروره عبر بلادهم ولكنه واصل سيره إلى زبيد ولم يعرْ الأمر التفاتاً، وذلك من أجل اسـتغلال الوقـت لاستكمال الفتح[٨٣].

- مواصلة التوسع واستكماله:

لم يبقَ تورانشاه في زبيد كثيراً بعد عودته إليها من صنعاء، بل غادرها في جمادى الأولى سنة ٥٧٠هـ/ ديسمبر ١١٧٤م. إلى مدينة الجند، حيث جاءه والي حصن صبر وكان تابعاً لعبد النبي بن مهدي وسلمه مفاتيح حصنه بعد ذلك توجه الأيوبيون نحو الحصون الواقعة غرب مدينة تعز، وكانت تابعة لبني مهدي أيضاً، فسيطروا على حصني بادية وشرياق، أما حصن عزان ذخر (جبل حبشة)، الذي كان متولياً عليه علي بن الحجاج صهر عبد النبي بن مهدي فقد طلب مصالحة الأيوبيين حين حاصروه على أن يسلم لهم الحصن وما بحوزته من أموال لابن مهدي والتي كانت تقدر بعشرة آلاف دينار، ذهب مقابل أن يخلوا سبيله ومن معه فقبل تورانشاه بذلك، وتسلم الحصن منه، بعد ذلك توجه تورانشاه فاستولى على حصن المعفر للسيطرة على الحصون، التي كانت تابعة لبني زريع فاستولى على حصن يمين بالقوة، كما فتح حصني منيف والسمدان، بذلك لم يستطع الزريعيون الاحتفاظ بحصونهم بسبب انتهاء دولتهم في عدن وعدم مقدرتهم مساعدة بعضهم البعض لذلك سرعان ما سقطت حصونهم بيد لأيوبيين. بعدها تابع نورانشاه سيره إلى حصن الدملوة فلما استعصى عليه توجه إلى مدينة ذي جبلة، وأقام فيها فترة، ثم اضطر للعودة إلى زبيد لوقوع اضطرابات فيها بسبب ابن مهدي، فوصل إليها في الثالث عشر من شعبان سنة ٥٧٠هـ/ مارس ١١٧٥م(٨٤). وما إن تمكن تورانشاه من السيطرة على اليمن الأسفل وتهامة وقضائه على دولة بني مهدي، ودولة بني زريع حتى لقب بالملك المعظم وخطب له في هذه المناطق، كما خطب للخليفة العباسي، وذلك رمزاً على خضوعهم لنفوذ الأيوبيين ثم العباسيين(٨٥).

ومن الجدير بالذكر أن تورانشاه حاول خلال توسعه في اليمن البحث عن مركز استراتيجي لإقامته وجيشه، ليخدم أغراضهم، ويكون رمزاً لدولتهم في اليمن، فاختار تعز لتكون عاصمة لهم، واتجه للإقامة بها سنة ٥٧٠هـ/١١٧٥م، والسبب في اختيارها ميل أهلها إلى السلم فهم لم يقاتلوا الأيوبيين لانتمائهم لمذهب أهل السنة الذي

يعتنقه الأيوبيون، بالإضافة إلى تمكن الأيوبيين الإشراف والسيطرة منها على اليمن كله، وغير ذلك تكلفة تورانشاه الأطباء أن يختاروا له مكاناً صحيح الهواء ليتخذ فيه سكناً فوقع اختيارهم على مكان تعز، فاختط به المدينة ونزل بها[٨٦].

مما تقدم يلاحظ بأن تورانشاه تمكن من فتح المدائن والحصون واستولى على معظم بلاد اليمن، ويقال إنه فتح وحده ثمانين حصناً ومدينة وأن نواب القلاع أرسلوا مفاتيحها إليه طوعاً وبدون قتال[٨٧]، ويذكر أبو شامة أنّ تورانشاه فتح حضرموت أيضاً[٨٨].

- أسباب انتصار تورانشاه وعودته إلى الشام:

من الأسباب التي ساعدت على توسيع تورانشاه في اليمن وتحقيق الانتصارات فيه، حالة التدهور والانقسام الداخلي والصراع بين الدويلات الموجودة فيه بسبب الاختلاف المذهبي والصراع السياسي، وكما مر من قبل بنو مهدي شيعة وأصحاب المخلاف السليماني سنة، وحكام عدن وصنعاء إسماعيلية، فضلاً عن دخول بني مهدي في صراع مع تلك الدويلات، كذلك تعاون أهل السنة اليمنيين مع الأيوبيين ضد بني مهدي وبني زريع مثل تعاون أصحاب المخلاف السليماني والتسهيلات التي قدموها للجيش الأيوبي، هذا وبعد أن تمكن تورانشاه من السيطرة على الكثير من مناطق اليمن استقر بها سنة كاملة[٨٩] من شعبان سنة ٥٧٠هـ/ مارس ١١٧٥م، دون أن يتجه إلى حرب أي من القوى اليمنية بها، وذلك بسبب تركه لكثير من جنده حاميات في كل من زبيد وتعز وعدن وذي جبلة، أما بالنسبة لإقامته باليمن منذ قدومه من مصر، فقد استغرق مدة سنتين من رجب ٥٦٩هـ/ أبريل ١١٧٤م. حتى رجب سنة ٥٧١هـ/ يناير ١١٧٦م[٩٠]. بعد ذلك قرر العودة إلى الشام، حيث سار إليها في رجب سنة ٥٧١هـ/ يناير ١١٧٦م، فوصلها وأقام متوالياً على دمشق مدة سنتين، ثم انتقل إلى مصر فتولى الإسكندرية حتى وفاته في بداية سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م[٩١].

- نتائج الحملة:

من أهم النتائج التي حققها شمس الدولة تورانشاه في فتحه لليمن هي:

١- توحيد اليمن والقضاء على مظهر التجزئة من خلال القضاء على الدولة المتعددة فيها.

٢- ضم معظم اليمن الأسفل وتهامة إلى سلطان الأيوبيين والخلافة العباسية وسيادة المذهب السني في تلك المناطق من خلال القضاء على دولة بني مهدي وبقايا النفوذ الفاطمي بها.

٣- أصبحت اليمن جزءاً من الدولة العربية الإسلامية الموحدة.

٤- تأمين الطريق التجاري البحري الواصل من اليمن إلى مصر عن طريق السيطرة على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر وبذلك تأمين حدود الدولة الأيوبية في الجنوب.

٥- منع أي مبادرة صليبية للاتصال بالحبشة المسيحية أو قيام أي تحالف إفرنجي حبشي وذلك منعاً للأخطار التي قد تهدد الأماكن المقدسة، ذلك أن التفكير في حشد أساطيل صليبية في البحر الأحمر عن طريق قلعة أيلة كان يراود الصليبيين بقصد الإغارة على مكة والمدينة وإن قيام البرنس أرناط بحملته في البحر الأحمر بعد ذلك عام ٥٧٧هـ/ ١١٨١م. بقصد الإغارة على الأماكن المقدسة الإسلامية لهو أكبر دليل على ذلك(٩٢).

٦- إن إقدام صلاح الدين على انتزاع قلعة آيلة من الصليبيين في سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م، وبسط نفوذه على الحجاز واليمن مكنه من تحويل البحر الأحمر إلى بحيرة إسلامية وإحكام السيطرة المصرية عليه مما أدى إلى إقرار السيطرة التجارة الإسلامية في البحر الأحمر في أيدي الكارمية.

خاتمة:

لقد أثبتت منطلقات صلاح الدين الأيوبي وخلفائه في اليمن عن نظرة تشمل الصالح العام ضد الخطر الذي كان يستهدف الدولة العربية الإسلامية ككل وليس كجزء واحد فقط. وعلى هذا الأساس تمكنت السياسة الأيوبية من توظيف قدرات مصر وضمها لقدرات بلاد الشام، مضافاً إليها قدرات بلاد اليمن لتطويق الخطر الصليبي، ثم محاربة كياناته التي زرعها في المشرق العربي.

لقد تمكن الأيوبيون من وضع بلاد اليمن في إطارها العربي الإسلامي المشرق بحماية الممرات البحرية العربية من مخططات الإفرنج العدوانية وحماية الأراضي المقدسة وتأمين التجارة بما يعود بالخير على الأمة الإسلامية.

الهوامش

(١) الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، المجلد الخامس، ص ٤٤٧-٤٤٨. الموسوعة العربية، رئيس التحرير، نجيب فرنجية، وضعها ألبرت الريحاني وفريق من الأساتذة، ط١، ١٩٥٥م، بيروت، ص ٨٤٢.

(٢) الحسين، يحيى بن الحسين: **غاية الأماني في أخبار القطر اليماني**، تحقيق عبد الفتاح عاشور، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٨م، ج١، ص ٣١٦، الكبسي، محمد بن إسماعيل الكبسي: **اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية**، مطبعة دار السعادة، مصر، ١٩٨٣م، ص ٥٢. زيارة، محمد زيارة: **أئمة اليمن**، تعز، مطبعة الناصر ١٩٥٢م، ج١، ص ١٠٧-١٠٨. المطاع، أحمد المطاع: **تاريخ اليمن الإسلامي**، تحقيق الحبشي، بيروت، دار التنوير، ط١، ١٩٨٦م، ص ٣٥١.

(٣) الخزرجي، علي بن الحسين الخزرجي: **العسجد المسبوك في من ولي اليمن من ملوك**، مخطوط دار الفكر، دمشق صورة ثانية سنة ١٩٨١م، ص ١٣٩-١٤٠. ابن ميمون رسالة اليمن، ص ٤٠-٤١. ابن الديبع، عبد الرحمن بن الديبع: **قرة العيون في أخبار اليمن الميميون**، تحقيق محمد الأكوع، المطبعة السلفية، القاهرة، ص ٣٦٨، ٣٧٢.

(٤) الخزرجي: **العسجد**، ص ٧٥-٨١، ابن الديبع، **قرة العيون**، ص ٣٠١، ٢٩٤، ٢٩١.

(٥) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦م، ج١١، ص ٣٨٧. الشيال، جمال الدين الشيال: **تاريخ مصر الإسلامية**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧م، ج٢، ص ٣٧.

(٦) أبو شامة، شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل: **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين**، القاهرة، ١٢٨٧م، ج١، ص ٢١٦. ابن شداد، القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع: **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، المعروف بسيرة صلاح الدين، تحقيق د. جمال الدين الشيال ١٩٦٤م، ص ٤٦. عبد العال، محمد عبد العال أحمد: **الأيوبيون في اليمن**، القاهرة، ١٩٨٠م، ص ٧١.

(٧) ابن شداد: **سيرة صلاح الدين**، ص ٤٦، ابن الربيع: **قرة العيون**، ص ٢٧٤.

(٨) الشيال: **تاريخ مصر الإسلامية**، ج٢، ص ٣٧.

(٩) أبو شامة: **الروضتين**، ج١، ص ٢١٦. ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم: **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، نشر جمال الدين الشيال، ١٩٥٣م – ١٩٦٠م، ج١، ص ٢٣٨. ابن الأثير: **الكامل**، ج١١، ص ١٩٦، ٣٩٨-٣٩٩. عبد العال: **الأيوبيين**، ص ٧١.

(١٠) عبد العال: **الأيوبيين**، ص ٨٠. بروكلمان، كارل بروكلمان: **تاريخ الشعوب الإسلامية**، نقله إلى العربية. د. نبيه فارس والأستاذ منير البعلبكي، بيروت ١٩٥٣م، ج١، ص ٢٨٨.

(١١) الخزرجي: **العسجد**، ص ١٤٧، ابن الدبيع، **قرة العيون**، ص ٣٧٦. عبد العال: **الأيوبيين**، ص ٧٢. ابن ميمون: **رسالة اليمن**، ص ٤٠.

(١٢) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، القاهرة، بلا تاريخ، ج٦، ص ٦٧.

(١٣) Nikta Elisseef, L'orient muslman au moyen age, Paris, 1977, P. 267

(١٤) هاملتون كب: **صلاح الدين الأيوبي**، دراسات ف التاريخ الإسلامي، حررها يوسف أبيش، بيروت، ١٩٧٣، ص ١٢١.

(١٥) N. Elisseef, op, cit. P. 267

(١٦) ابن قاضي شبهه: **الكواكب الدرية في السيرة النبوية**، تحقيق محمود زايد، بيروت، ١٩٧١، ص ٢٢١.

(١٧) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص ٢٣. القاضي شبهه: **الكواكب الدرية**، ص ٢١٤.

(١٨) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص ٢٢١- ٢١٤.

(١٩) أبو شامة: **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، تحقيق محمد حلمي، القاهرة، ١٩٥٦م، ج٢، ص ٥١٨.

(٢٠) القاضي شبهه: **الكواكب الدرية**، ص ١٨٢.

(٢١) ابن تغري بردي: المصدر السابق، ص ٢١

(٢٢) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص ٢١. عبد العال: **الأيوبيين**، ص ٧٣-٧٤.

(٢٣) ابن شداد: **سيرة صلاح الدين**، ص ٤٦.

(٢٤) ابن الأثير: **الكامل**، ج١١، ص ٣٩٨، ١٩٦-٣٩٩. أبو شامة: **الروضتين**، ج١، ص ٢١٦. ابن واصل: **مفرج الكروب**، ج١، ص ٢٣٨.

(٢٥) أبو شامة: **الروضتين**، ج١، ص ٣٦-٣٧. ابن واصل: **مفرج الكروب**، ج٢، ص ١٢٦-١٣١.

(٢٦) ابن جبير: **رحلة ابن جبير**، نشرها رايت ، ط٢، نقحها ك،ي. دي. خويه ليدن، ١٩٠٧م، ص ٧٠-٧١. حوراني، جورج حوراني: **العرب والملاحة في المحيط الهندي**. ترجمة يعقوب بكر، القاهرة، ١٩٥٨م، ص ١٤١ – ٢٥٩. عثمان، شوقي عبد القوي عثمان: **تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية**، ٤١-٩٠٤هـ/٦٦١-١٤٩٨م، عالم المعرفة_ الكويت، ١٩٩٠م، ص ٢٦٩-٢٧٠.

(٢٧) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ج١، ص ٢٣٨. المقريزي: **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، نشر جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٤٨م، ج٢، ص ٢٦٨. القوصي، عطية القوصي: **تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية**، القاهرة، ١٩٧٦م، ص ٢٦٨. السيد عبد العزيز سالم: **البحر فالأحمر في التاريخ الإسلامي**، الإسكندرية، ١٩٩٣م، ص ٨٣.

(٢٨) القوصي: **تجارة البحر الأحمر**، ص ١٤٤. سالم: **البحر الأحمر**، ص ٨٤.

(٢٩) أبو شامة: **الروضتين**، ج٢، ص ١٩١. دراج، السيد دراج: **عيذاب**، مجلة نهضة إفريقية، العدد التاسع، السنة الأولى يوليو ١٩٥٨م، ص ٥٣. سالم: **البحر الأحمر**، ص ٨٦. المقريزي: **اتعاظ الحنفا**، ج٢، ص ٢٧٥.

(٣٠) WIET: Les marchands depices sous les sultans mamlooks, le caire. 1955, p 86.

(٣١) Fischel; the spice trade in mamlooks, Egypt, jessho, L, 1958, p 161-162 القوصي: تجارة مصر، ص ١٧١.

(٣٢) Ashtor the karimi marchants, cjras, London, 1956, p 51. صبحي لبيب: **التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى**، مستخرج من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية_ المجلد الرابع، العدد الثاني، مايو ١٩٥٢م، ص ١٢.

(٣٣) القلقشندي: **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، طبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩١٥م، ص ٣٢.

Cahen: lachronique des ayyoubides. Dal makin B. Alamid, (BEO, T. XV, 1955-1958, Damas, 1958.

Fischel, w: the spice trade in mamluk Egypt P128, P. 167

القوصي: **تجارة مصر** ، ص ١٧٥-١٧٦.

(٣٤) صبحي لبيب: **التجارة الكارمية**، ص ١١-١٢.

(٣٥) ابن جبير: **رحلة ابن جبير**، ص ٦٩-٧٠.

(٣٦) ابن جبير، المصدر نفسه، ص ٥٥.

(٣٧) القلقشندي: **صبح الأعشى**، ج٣، ص ٤٥٧.

(٣٨) القلقشندي: المصدر نفسه، ص ٣٥٩.

(٣٩) FICHET: OP CIT. P. 168

(٤٠) ابن جبير: **رحلة ابن جبير**، ص ٧٠-٧١. القلقشندي: **صبح الأعشى**، ج٤، ص ٢٧١.

(٤١) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ج١، ص ٢٤٣. ابن الأثير: **الكامل**، ج١١، ص ١٩٦، ٣٩٨-٣٩٩.

Lane- poole: ahistsri of Egypt in the middle ages- London, 1936 , pp. 197-193. عبد العال: **الأيوبيون**، ص ٧١.

(٤٢) أبو شامة: **كتاب الروضتين**، ج١، ص ٢٢١. سعداوي، نظير حسان سعداوي: **التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين**، القاهرة، ١٩٥٧م، ص ٤٢.

(٤٣) زيادة، محمد مصطفى زيادة: **حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة**، القاهرة، ١٩٦٤م، ص ٢٨.

(٤٤) ابن كثير، عماد الدين أبي الفدا إسماعيل بن عمر: **البداية والنهاية**، القاهرة، ١٩٥٨م، ج١٢، ص٢٧٥.

(٤٥) Derenboung; Omara du Yemen, servie et son œuvre, vol. 2 Parid 1897-1902, p. 584. عبد العال: **الأيوبيون**، ص ٧٥.

(٤٦) سعداوي: **التاريخ الحربي**، ص ٦٤. عبد العال: **الأيوبيون**، ص ٧٥.

(٤٧) بروكلمان: **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ج١، ص٢٨٨.

(٤٨) الخزرجي: **العسجد**، ص ١٤٧. ابن الديبع: **قرة العيون**، ص ٣٧٦.. عبد العال: **الأيوبيون**، ص ٧٢.

(٤٩) أبو شامة: **كتاب الروضتين**، ج٢، ص ٣٩٣-٤٠٢-٤٠٥.

(٥٠) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص ١٨.

(٥١) القاضي شبهة: **الكواكب الدرية**، ص ١٨١٤.

(٥٢) ابن تغري بدري: المصدر السابق، ج١١، ص ٣٧٢.

(٥٣) ابن الأثير: **الكامل**، ج١١، ص ٣٨٧. أبو شامة: **كتاب الروضتين**، ج١، ص٢٠٨.

(٥٤) سعداوي: **التاريخ الحربي**، ص ٤١.

(٥٥) عبد الحميد، سعد زغلول عبد الحميد: **العلاقة بين صلاح الدين وأبي يوسف يعقوب**، بحث في مجلة الآداب، الإسكندرية، المجلد ٦-٧، سنة ١٩٥٢-١٩٥٣، ص ٩٣-٩٥.

(٥٦) التيجاني: **رحلة التيجاني**، تحقيق عبد الوهاب، تونس، المطبعة الرسمية، ١٩٥٨م، ص ١١١-١١٢.

(٥٧) و شامة: **كتاب الروضتين**، ج٢، ص ١٧٤-١٣٦. زكار، سهيل زكار: **الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية**، تأليف وتحقيق وترجمة، سهيل زكار، دمشق، ١٤١٦- ١٩٩٥م، ج١٩، ص ٢٣٥-٣٠٧-٣٥٩.

(٥٨) حسن إبراهيم حسن: **تاريخ الإسلام السياسي**، بيروت، ١٩٦٧م، ج٤، ص ٣١٦-٣١٧.

(٥٩) المراكشي، عبد الواحد المراكشي: **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، ضبطه وصححه محمد سعيد العريان، ومحمد العربي، القاهرة، ١٨٩٤٩م، ص ٢٨٤.

* المقصود هنا تومرت وليس الإمام الذي ينتظره الشيعة كما هو معروف.

(٦٠) زكار: **الموسوعة الشامية**، ج١٩، ص ٤.

(٦١) الخيمي، الحسن بن أحمد: **سيرة الحبشة**، نشر الدكتور مراد كامل، القاهرة، ١٩٥٨م، ص ٦٦. بروكلمان: **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ج٢، ص ٢٢٨. الشيال: **تاريخ مصر الإسلامية**، ج٢، ص ٣٧.

(٦٢) أبو شامة: **كتاب الروضتين**، ج١، ص ٥٤٤. القاضي شبهة: **الكواكب الدرية**، ص ٢٢٢. ابن الأثير: **الكامل**، ج١١، ص ٣٩٦. الخزرجي: **العسجد**، ص ١٤٦. الهمذاني، الأمير بدر الدين محمد بن حاتم الهمذاني: **كتاب السمط الغالي في أخبار الملوك من الغز باليمن**، حققه ركس سمث كمبرج ، بريطانيا، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ص ١٥.

(٦٣) بامخرمة، عبد الله الخطيب، **ثغر عدن**، بيروت، دار الجيل، عمان، دار عمار، ط٢، ص ١٩٨٧م، ص ٦٩، الخزرجي: **العسجد**، ص ١٤٦، أبو شامة: **الروضتين**، ج١، ص ٥٥٤. القاضي شبهة: **الكواكب الدرية**، ص ٢٢٢.

(٦٤) الهمذاني: **السمط الغالي**، ص ١٦. عبد العال: **الأيوبيون**، ص ٨٣.

(٦٥) الحمزي، عماد الدين إدريس: **تاريخ اليمن من كتاب كنز الأخبار في معرفة السير والأخبار**، تحقيق عبد المحسن: **مداعج**، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، ١٩٩٢، ص ٩١ الهمذاني: **السمط الغالي**، ص ١٦. الخزرجي: **العسجد**، ص ١٤٨. ابن الدبيع: **قرة العيون**، ص ٢٧٦.

(٦٦) ابن الأثير: **الكامل**، ج١١، ص ٣٦٩، ابن واصل: **مفرج الكروب**، ج١، ص ٢٤١.

(٦٧) الخزرجي: **العسجد**، ص ١٤٧-١٤٨. ابن الأثير: **الكامل**، ج١١، ص ٣٦٧. الهمذاني: **السمط الغالي**، ص ١٦-١٧.

(٦٨) ابن الأثير: **الكامل**، ج١١، ص ٣٩٧. الخزرجي: **العسجد**، ص ١٤٧-١٤٨، بامخرجة: **ثغر عدن**، ص ٦٩.

(٦٩) ابن الدبيع: **قرة العيون**، ص ٣٧٦.

(٧٠) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ج١، ص ٢٤٢-٢٤٣. عبد العال: **الأيوبيون**، ص ٨٥-٨٦.

(٧١) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ج١، ص ٢٤٢. ابن الأثير: **الكامل**، ج١١، ص ١٧٨. المقريزي: **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، نشر جمال الدين الشيال، القاهرة، ج١، ص ٥٣.

(٧٢) الخزرجي: **العسجد**، ص ١٤٨. ابن الديبع: **قرة العيون**، ص ٣٧٦. عبد العال: **الأيوبيون**، ص ٨٧. الهمداني: **السمط الغالي**، ص ١٧.

(٧٣) الخزرجي: **العسجد**، ص ١٥٠. الهمداني، حسين الهمداني وحسن سليمان محمود: **الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن**، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٥م، ص ٢٤٢.

(٧٤) الخزرجي: **العسجد**، ص ١٥٠. عبد العال: **الأيوبيون**، ص ٨٩-٩٠.

(٧٥) الدملوة: حصن على جبل الصاو إلى الجنوب من تعز.

(٧٦) الخزرجي: **العسجد**، ص ١٥٠، ١٨٠. عبد العال: **الأيوبيون**، ص ٨٩-٩٠.

(٧٧) الخزرجي: **العسجد**، ص ١٥٠-١٥١. الهمداني: **السمط الغالي**، ص ١٧-١٨. ابن الديبع: **قرة العيون**، ص ٣٧٨. عبد العال: **الأيوبيون**، ص ٩١.

(٧٨) حصن براشن: حصن على جبل نقم- مطل على صنعاء ويقع إلى الشرق منها. عبد العال: **الأيوبيون**، ص ٩١.

(٧٩) الخزرجي: **العسجد**، ص ١٥٠-١٥١. الهمداني: **السمط الغالي**، ص ١٧-١٨. ابن الديبع: **قرة العيون**، ص ٣٧٨. عبد العال: **الأيوبيون**، ص ٩١.

(٨٠) عبد العال: **الأيوبيون**، ص ٩١.

(٨١) الخزرجي: **العسجد**، ص ١٥١. ابن الديبع: **قرة العيون**، ص ٣٧٩. أبو شامة: **الروضتين**، ج١، ص ٥٥٤.

(٨٢) برع: جبل بالقرب من وادي السهام في نواحي زبيد، الحموي، ياقوت: **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ج٢، ص ١٢٨.

(٨٣) ابن الديبع: **قرة العيون**، ص ٣٧٩. الهمداني: **السمط الغالي**، ص ١٩. الخزرجي: **العسجد**، ص ١٥١. عبد العال: **الأيوبيون**، ص ٩٣.

(٨٤) الخزرجي: **العسجد**، ص ١٥١-١٥٢. الهمداني: **السمط الغالي**، ص ١٩ - ٢٠. عبد العال: **الأيوبيون**، ص ٩٤.

(٨٥) المقريزي: **السلوك**، ج١، ص ٥٣.

(٨٦) ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون، العبر**، ج٥، ص ٦٤٧.

(٨٧) سعداوي: **التاريخ الحربي**، ص ٤٤. عبد العال: **الأيوبيون**، ص ٩٤-٩٥.

(٨٨) أبو شامة: **الروضتين**، ج١، ص ٢٦٠. عبد العال: **الأيوبيون**، ص ٩٥.

(٨٩) الخزرجي: **العسجد**، ص ١٥٢. عبد العال: **الأيوبيون**، ص ٣٧.

(٩٠) المصدر السابق، ص ١٥٢. المرجع السابق، ص ٩٧.

(٩١) الخزرجي: **العسجد**، ص ١٥٠. ابن الديبع: **قرة العيون**، ص ٣٨١. الهمداني: **السمط الغالي**، ص ٢٣.

(٩٢) أبو شامة: **الروضتين**، ج٢، ص ٣٦-٣٧. ابن واصل: **مفرج الكروب**، ج٢، ص ١٢٦-١٣١.